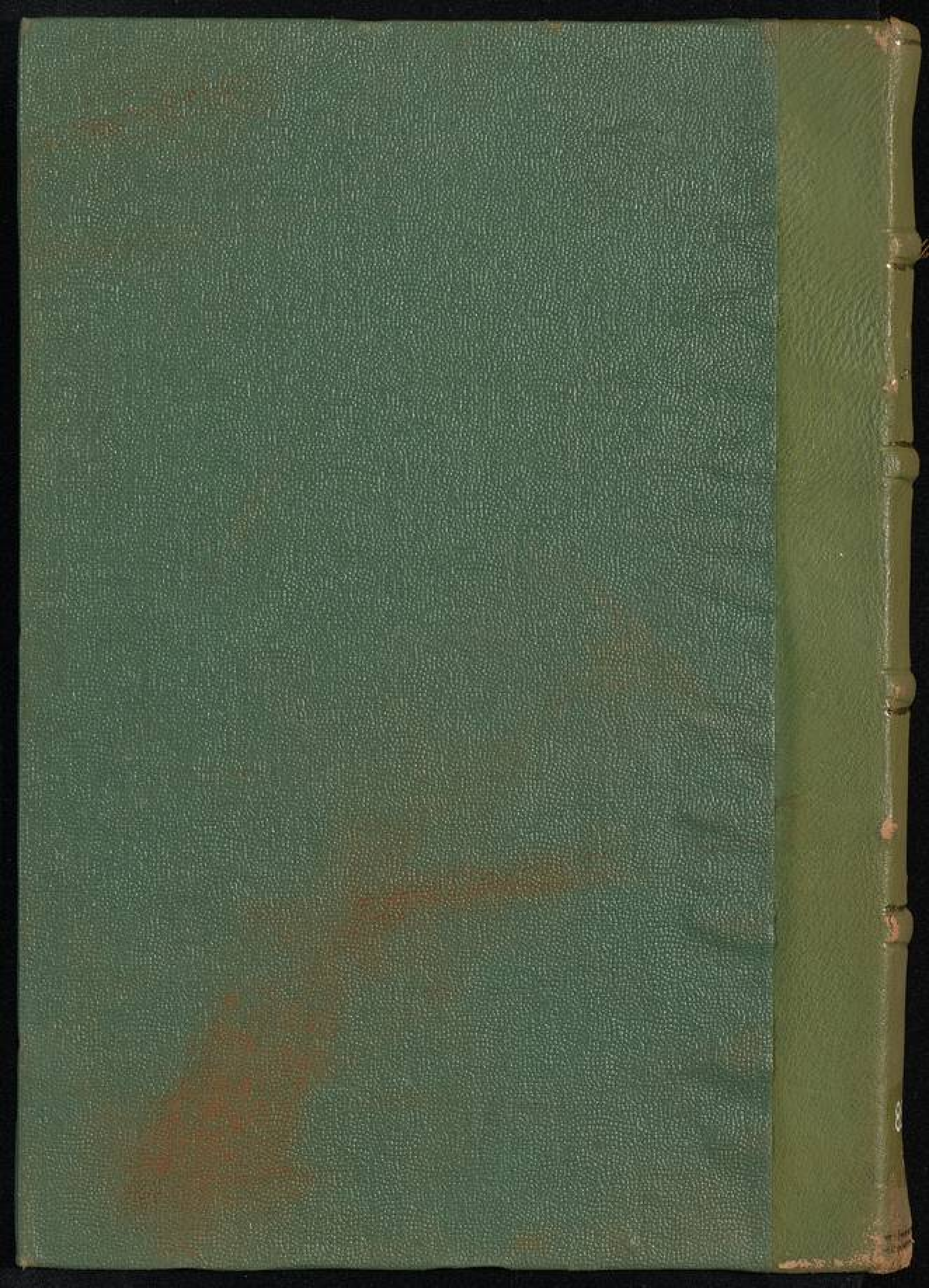
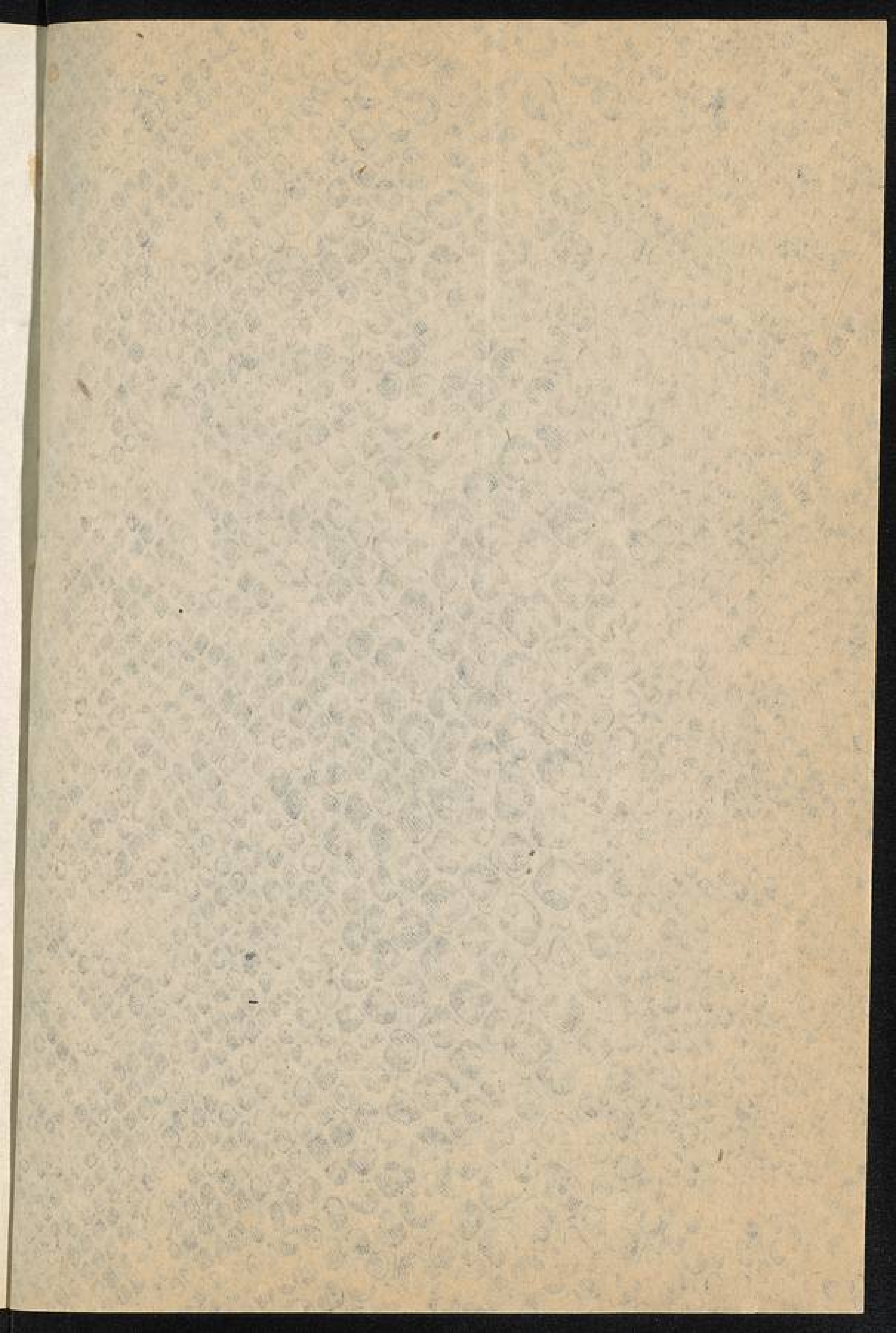








نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين

(٣٥٨ - ٥٦٧ هـ و ٩٦٨ - ١١٧١ م)

تأليف

دكتور

عطية مصطفى مشرفة

LL.B., B.A.و M.A.و D.Litt

ليسانس حقوق وبكالوريوس وماجستير ودكتوراه آداب

مدير مكتبة جامعة فؤاد الأول المساعد

الطبعة الأولى

١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م

الناشر

دار الفكر العربي

مطبعة الاعتماد بمصر

اهداء الكتاب

إلى روح والدى العزيز ، طيب الله ثراه ، وأسكنه فسيح جناته .

إليك وقد غرست فىّ الرغبة الصادقة فى حياة تقوم على إنكار الذات والمحبة والتعاون والجد والاستقامة ، كتاباً أرجو أن يجد القارىء فيه فائدة ومتعة وثمرة ، وأن يجد فيه حفيدك ولدى « عادل » مايحببه فى البحث والاطلاع ، ويجعله يتعشق العلم ويلتذ بما يلاقيه من نصب أو عناء فيه ، ففى كل منزل من منازل أولادك تحوم روحك الطاهرة ، لنقفو أثرك فى الطموح ونترسم خطاك فى التوقل إلى مرقاة العلى ، فلا تجزع على تراثك فهو فى ذمة ضمائرنا ، نافذ إلى غايات قلوبنا ، يفعل فيها ما تفعل الشمس فى الحبة التى يطمرها الثرى .

وكل مطمعنا أن يخفق فوق رؤوسنا اللواء الذى رفعته أنت طاهراً فوق رأسك ، وأن يقال لنا فى قبورنا ما نقوله لك فى قبرك ، فنحمل مشعل نور العرفان ، ونمنح صادق العزيمة ورفيع الأخلاق ، بما يهيئنا للقيام بأجل الخدمات لصالح الوطن العزيز .

وأرجو أن يثيب الله صديق حضرة الأستاذ محمود على قراعة على معاونته لى فى قراءة هذا الكتاب قبل تقديمه للطبع ، وأن يدخلنا جميعا جنات النعيم ، ويوفقنا لكل خير وسعادة فى الدنيا والآخرة ، وأن يجعلنا من الذين أنعم الله عليهم بطلب العلم من المهد إلى اللحد .

عطية مصطفى مشرفة

جدول ببيت الامام علىّ كرم الله وجهه

على (+ ٤٠ هـ و ٦٦١ م)

- محمد بن الحنفية (+ ٨١ هـ و ٧٠٠ م)
- الحسين (+ ٦١ هـ و ٦٨٠ م)
  - على زين العابدين (+ ٩٤ هـ و ٧١٢ م)
    - زيد (+ ١٢٥ هـ و ٧٤٣ م)
      - اسحق
      - يحيى
    - محمد الباقر (+ ١١٣ هـ و ٧٣١ م)
      - جعفر الصادق (+ ١٤٨ هـ و ٧٦٥ م)
        - الأئمة الاثنا عشرية:
          - موسى الكاظم (+ ١٨٣ هـ و ٧٩٩ م)
          - على الرضا (+ ٢٠٢ هـ و ٨١٧ م)
          - محمد الجواد (+ ٢٢٠ هـ و ٨٣٥ م)
          - على الهادى (+ ٢٥٤ هـ و ٨٦٨ م)
          - حسن العسكرى (+ ٢٦٠ هـ و ٨٧٣ م)
          - محمد المهدى (اختفى حوالى سنة ٢٦٠ هـ و ٨٧٣ م)
        - اسماعيل
          - الأئمة الاسماعيلية المستترة:
            - محمد (المكتوم)
            - احمد
            - الحسين
          - محمد القائم (+ ٣٢٢ هـ و ٩٣٤ م)
          - الخلفاء الفاطميون
- الحسن (+ ٥٠ هـ و ٦٧٠ م)
  - الحسن
    - عبد الله
      - محمد النفس الزكية (+ ١٤٥ هـ و ٧٦٢ م)
      - ابراهيم

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الخلافة الفاطمية

(٢٩٧ - ٥٦٧هـ = ٩٠٩ - ١١٧١م)

الخلفاء الفاطميون :

(١) المهدى : عبيد الله أبو محمد (٢٩٧-٣٢٢هـ و ٩٠٩ - ٩٣٤ م)

(٢) القائم بأمر الله : محمد أبو القاسم (٣٢٢-٣٣٤هـ و ٩٣٤ - ٩٤٥ م)

(٣) المنصور بنصر الله : اسماعيل أبو طاهر (٣٣٤-٣٤١هـ و ٩٤٥ - ٩٥٢ م)

(٤) المعز لدين الله : معد أبو تميم (٣٤١-٣٦٥هـ و ٩٥٢ - ٩٧٥ م)

(٥) العزيز بالله : نزار أبو منصور (٣٦٥-٣٨٦هـ و ٩٧٥ - ٩٩٦ م)

(٦) الحاكم بأمر الله : المنصور أبو على (٣٨٦-٤١١هـ و ٩٩٦ - ١٠٢٠م)

(٧) الظاهر لإعزاز دين الله : على أبو الحسن (٤١١-٤٢٧هـ و ١٠٢٠-١٠٣٥م)

(٨) المستنصر بالله : معد أبو تميم (٤٢٧-٤٨٧هـ و ١٠٣٥-١٠٩٤م)

(٩) المستعلى بالله : أحمد أبو القاسم (٤٨٧-٤٩٥هـ و ١٠٩٤-١١٠١م)

(١٠) الآمر بأحكام الله : المنصور أبو على (٤٩٥-٥٢٤هـ و ١١٠١-١١٣٠م)

(١١) الحافظ لدين الله . عبد المجيد أبو الميمون (٥٢٤-٥٤٤هـ و ١١٣٠-١١٤٩م)

(١٢) الظافر بأمر الله : اسماعيل أبو المنصور (٥٤٤-٥٤٩هـ و ١١٤٩-١١٥٤م)

(١٣) الفائز بنصر الله : عيسى أبو القاسم (٥٤٩-٥٥٥هـ و ١١٥٤-١١٦٠م)

(١٤) العاضد لدين الله : عبد الله أبو محمد (٥٥٥-٥٦٧هـ و ١١٦٠-١١٧١م)

جدول طائفتى الامامية الاثنا عشرية والاسماعيلية أو السبعية (١)

على + ٤١هـ = فاطمة

الحسين + ٦١هـ — الحسن + ٥٠هـ

على زين العابدين + ٦٤هـ

محمد الباقر + ١١٣هـ

جعفر الصادق + ١٤٨هـ

موسى الكاظم + ١٨٣هـ	اسماعيل
أبو الحسن على الرضا + ٢٠٢هـ	محمد المكتوم
أبو جعفر محمد الجواد (محمد التقى) + ٢٢٠هـ	جعفر المصدق
على الهادى (على النقى) + ٢٥٤هـ	محمد الحبيب
أبو محمد الحسن العسكرى + ٢٦٠هـ	عبيد الله المهدى وخلافته ببلاد المغرب سنة ٢٩٧هـ

محمد المهدى المنتظر (محمد الحجة) اختفى ٢٦٠هـ

---

(١) ابن النعمان « شرح الأخبار فى فضائل الأئمة الأبرار » ج ١٤ ورقة ٤٦ — ٤٧ و٥٥ وانظر

Muir, The Caliphate, p. 557 & O'Leary, A Short History of the Fatimid Khalifate p. 11.

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما وهبنى من قوة ، ورزقنى من عزيمة ، كانتا عمادى وعدتى فى قطع هذا الشوط الجديد ، أما بعد : فمن تباشير النهضة المباركة ، ومظاهر الحركة العلمية فى بلادنا العزيزة ، أن تمر بحياة الجامعى لحظات ، يشعر فيها بالقدرة على الانتاج ، فتتجدد عنده عزيمة القيام بالبحوث المستمرة ، يتسع فيها أفق معرفته ، وتنمو ملكتا النقد والتحليل عنده ، يتعمق فى التاريخ وسبر أغواره ، إن كان مؤرخاً ، فيجمع الحقائق ، ويمحصها ويشرحها ويرتبها ، ثم يستنتج الأفكار العامة منها ، ويتعشق القانون والتشريع ، إن كان حقوقيا ، فيتتبع التطور التاريخى لهما ، ويجتهد أن يتعرف تأثير العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيهما ، وهو فى الحالتين يدرس مخطوطات تفسح له مجال البحث والدرس والتحصيل ، ويستوعب معظم مؤلفات المؤرخين والقانونيين لتعينه على تفهم الموضوع ، ولتظهر شخصيته ، ويرتفع مستوى تفكيره ، وهو أهم ما ترمى إليه الدراسة الجامعية ، من إيجاد رأى سديد ، أو بحث مفيد أو نقد جديد ، فالجامعة ليست داراً لتوزيع العلم وإجازاته ، وإنما هى مصابيح تكشف بنورها الطريق للبحث العلمى الصحيح ! وما قيل فى التاريخ ورواده ، والقانون وطلابه ، يقال عن باقى العلوم .

ولقد كانت نواة هذا الكتاب ما أعددته منذ سنوات ، حين كنت أعد بحثاً لنيل درجة الماجستير فى الآداب، وقد تأخرت فى إخراجه عن الموعد الذى كنت قدرته ، لأنى إذ بدأت فى كتابة فصوله الأولى ، استوقفنى البحث فى هذا العصر الذى فتح فيه الفاطميون — تلك الأسرة الشيعية ، التى لها عقيدتها

وفلسفتها ونظمها فى الحياة — مصر وأسسوا الحضارة الفاطمية ، والذى يعتبر من أهم عصور التاريخ المصرى ، فشرح الله صدرى لبحث الحالة السياسية والادارية والحربية والمالية والقضائية لهذا العصر ، ورفع الستار عن الحقائق التاريخية المبعثرة هنا وهناك فى بطون بعض الكتب العربية والافرنجية ، والتى يندر أن تتناولها أيدى الكتاب بالبحث والتحليل

أما خلو المؤلفات القانونية فى بلادنا من البحث التاريخى لبيان منشأ القوانين المعمول بها ، فقد اضطرنا للعناية بتطور التشريع والقضاء ، فالتشريع ماهو إلا وسيلة من وسائل العلاج الاجتماعى تتغير تبعاً لحالة المجتمع وتتمشى مع تطوره .

ولما كانت أحكام الشريعة الاسلامية للجميع ، مسلمين وغير مسلمين ، وكانت غنية بنظمها ومتانة قواعدها ، كفيلة بضبط علاقات الأفراد وسلوك بعضهم مع بعض ، فهى على ذلك واجبة التطبيق ، فى دار الاسلام على جميع المقيمين فيها ، اضطررنا إلى أن نبحث العوامل التى أدت بطريق مباشر ، إلى تضييق دائرة التشريع الاسلامى ، بحيث يسمح للذميين أن يرجعوا فى حقوقهم ومواريثهم إلى أهل دينهم ، ويتبعوا أحكام شرائعهم ، إلا إذا رغبوا فى أن يفصل بينهم أحد المسلمين ، وبعبارة أخرى ، كيف وجدت بجانب الشريعة الاسلامية ، وهى القانون العام ، عدة جهات قضائية منظمة ، لكل منها قوانين معينة ، تعمل بموجبها مستقلا بعضها عن بعض ، فجاهدت نفسى وألزمتها على قدر وسعى أن أقف موقف القاضى العادل ، فى أقوال من يقول إن أحكام الشريعة الاسلامية إقليمية ، ومن يقول إنها شخصية . أستمع لحجج الفريقين ، فاذا رجح لى رأى على آخر أيدته منزهاً عن كل مؤثر وهوى ، بعد عرض الآراء عرضاً يوافق ذوق العصر والبحث الصادق .

ولما كانت قيمة التاريخ فى وثائقه ، شددت الرحال فى هذا الصيف إلى انجلترا ، ومازلت فى بحث وتنقيب فى خزائن بعض تلك البلاد حتى تجمع لدى

من الوثائق الثمينة عدد وافر ، وبذلك اكتملت لدى سلسلة الوثائق ، وسطعت أنوارها على حوادث تلك الحقبه . وأكثرت من الحواشى التى تشرح كثيراً من النقط الغامضة ، أو الكلمات الغريبة ، ولم أتهيب أن ترتفع هذه الحواشى حتى تشغل من الصحيفة نصفها أو جلها ، وذكرت المراجع فى أسفل الصفحات عقب كل بحث ، استكمالا للمنهج العلمى الصحيح ، حتى يرجع الباحث إليها إذا أراد التعمق فى موضوع من الموضوعات . كما عنيت بذكر المراجع مجتمعة ، وترتيبها حسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين ، وتاريخ وفاة مؤلفيها ، على ماهو مألوف فى المؤلفات العلميـة ، لتتبين للقارىء أهمية الكتاب بالنسبة للعصر الذى نتكلم عنه ، وذيلت الرسـالة ببعض الوثائق والسجلات الفاطمية .

وإنى أرجو ألا تكون عثراتى فى هذه الرسالة فوق ماقدرت ، وأسأل الله أن يوفقنا جميعاً لما فيـه خير البلاد ، فى ظل مليـكنا المفدى فاروق الأول ، ملاذ الجامعة الأعلى ، وقائد الفكر وناصر العلم ؟

عطيه مصطفى مشرفه

بحث فى مصادر الكتاب

اعتمدت فى هذا الكتاب على ثلاثة أنواع من المصادر :

(ا) المصادر العربية المخطوطة (ب) المصادر العربية المطبوعة (ح) المصادر الأفرنجية . وتمتاز المراجع التى اعتمدت عليها بأن بعضها قد ألفه رجال عاصروا الفاطميين فهى بذلك ذات أهمية تاريخية ، لأنها ولا شك تحتوى على أدق المعلومات وأصحها ، تغذى الباحث بصورة جلية بما كان عليه العصر وتمده بالوقائع الصحيحة فى العصر الذى عاشوا فيه . ومن هؤلاء المؤلفين «أبو حنيفة النعمان بن أبى عبدالله محمد بن منصور بن أحمد بن حيون» الاسماعيلى المغربى الذى صحب المعز لدين الله عند رحيله لمصر ، فقد اعتمدت على كتابه «دعائم الاسلام فى الحلال والحرام»[١] فى بحث موضوع النظام المالى ، وكيفية جباية الخراج والجزية والزكاة وغيرها من موارد الدولة ، كما أمدنى هذا الكتاب وكذا مؤلفه «تربية المؤمنين»[٢] بمعلومات قيمة عن العقائد الفاطمية . كذلك اعتمدت على كتابه «شرح الأخبار»[٣] فى بحث النظام القضائى ، وبعض أقضيتهم بمذهبهم .

ومن المراجع الهامة التى اعتمدت عليها أيضاً لهذا المؤلف «كتاب الهمة فى آداب الأئمة[٤]» ، وهو يحث على طاعة الأئمة وتعظيمهم ، ويتضمن الشىء الكثير من معتقداتهم ، وبه بعض المسائل الاقتصادية كمصرف الزكاة وغيره من موارد بيت المال . كما استعنت بكتابه «المجالس والمسايرات[٥]» ، ومؤلفه «أساس التأويل الباطن[٦]» ، ومصنفه «افتتاح الدعوة»[٧] فى تفهم تاريخ الاسماعيلية

---

(١) مصور بدار الكتب الملكية برقم ب ١٩٦٦٥ وهو فى سبعة أجزاء
(٢) مخطوط بمدرسة الدراسات الشرقية بلندن برقم ٢٥٧٣٦
(٣) مصور بدار الكتب الملكية برقم ح ٧٠٦٢
(٤) مخطوط استعرته من صديقى الدكتور محمد كامل حسين المدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد
(٥) مصور بمكتبة جامعة فؤاد الأول برقم ٢٦٠٦٠
(٦) مخطوط بمدرسة الدراسات الشرقية بلندن برقم ٢٥٧٣٤
(٧) مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول برقم ٢٤٠٨٨

ومذهبهم لأنها تعتبر بحق من المصادر الأصلية للعصر الذى نؤرخ له ولا غنى للباحث عن الرجوع إليها فى بحث النظم الفاطمية

ولابن زولاق الذى ولد بفسطاط مصر سنة ٣٠٦ هـ (٩١٨ م) آثار تنير للباحث طريقه ، منها « سيرة المعز لدين الله » و « سيرة الإخشيد » و « تتمة أمراء مصر » وهو ذيل[١] لكتاب الكندى عن ولاة مصر منذ وفاة الأخشيد سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥م) ، إلى أن وصل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر وأسس الخلافة الفاطمية بها سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢)[٢] .

وكل ما وصل الينا من كتاب « سيرة المعز لدين الله » ، لاتزيد عن عدة شذرات مبعثرة هنا وهناك فى بطون مانقله المقريزى فى « خططه » ، وفى كتابه « اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا » .

أما كتابه « فضائل مصر وأخبارها وخواصها[٣] » فقد أمدنى بالكثير من المعلومات التى لايستغنى عنها المشتغلون بتاريخ نظم الحكم فى مصر الاسلامية بوجه عام .

أما الأمير المختار عز الملك المسبحى المصرى المولد (٣٦٦ — ٤٢٠ هـ و ٩٧٧ — ١٠٢٩ م) ، فقد كان من أقطاب الأمراء وعلماء الدولة الفاطمية . نال عطف الخليفة الحاكم بأمر الله ، فقلده بعض ولايات الصعيد ، وتدرج فى مناصب الدولة حتى وصل إلى الوزارة ، وكتب عدة مؤلفات فى التاريخ ، منها تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » تكلم فيه عن تاريخ مصر وولاتها وأمرائها وأئمتها وعجائبها وأبنيتها ونيلها ومجتمعاتها وإقليمها حتى أوائل القرن الخامس الهجرى ، وقد قال ابن خلكان[٤] عن مجهود المسبحى التاريخى إنه

---

(١) وجد هذا الذيل فى مخطوط كتاب الولاة والقضاء بالمتحف البريطانى طبعة لجنة ذكرى جب . انظر الأستاذ محمد عبد الله عنان « مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية » ص ٣٥

(٢) ابن سعيد « المغرب فى حلى المغرب » ص ٥

(٣) مخطوط بدار الكتب الملكية برقم ٣٥٩١ تاريخ .

(٤) ابن خلكان « وفيات الأعيان » ج١ ص ٦٥٣ وراجع ترجمة المسبحى فى السيوطى « حسن المحاضرة » ج١ ص ٢٣٨ وبحثاً للاستاذ عنان فى الرسالة عدد ١١٥ وانظر الأستاذ عنان « مصر الاسلامية » ص ٣٦ و « الأزهر » لنفس المؤلف ص ٩٠ .

كان عظيما ، بحيث « بلغ ثلاثة عشر ألف ورقة » وإن مصنفاته فى التاريخ وغيره بلغت ثلاثين ، مثل كتاب « درك البغية فى وصف الأديان والعبادات » ، وهو يقع فى ٣٥٠٠ ورقة ، وكتاب « الأمثلة للدول المقبلة فى النجوم والحساب » وهو يقع فى ٥٠٠ ورقة[1] .

هذا ولم يصلنا بجهود المسبحى إلا عن طريق المقريزى ، وأبى المحاسن ، وغيرهما من المؤرخين المتأخرين ، الذين اقتطفوا شذرات ، تلقى كثيراً من الضوء على تاريخ مصر وأحوالها أيام الدولة الفاطمية .

والقضاعى وهو القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة الشافعى المذهب ، الذى ولد فى مصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، والذى توفى بها أيضاً سنة ٤٥٤هـ (١٠٦٢م) ، كتب كتاب « عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف »[2] وقال عنه إنه موجز فى ذكر الأنبياء وتاريخ الخلفاء وولايات الملوك والخلفاء إلى سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣٠م) ، ولعله مختصر لمؤلف أكبر لم يصل إلينا .

كذلك كتب القضاعى كتاباً فى خطط مصر ، نقل المقريزى اسمه كاملا فقال : إنه كتاب « المختار فى ذكر الخطط والآثار »[3] وصل إلينا منه بعض شذرات عن طريق بعض المؤلفين ، ولا سيما القلقشندى والمقريزى ، فكل منهما يقتبس منه الشىء الكثير فى كتابه . ويذكر السيوطى فيما كتبه من فتح مصر ، إنه نقل رواية الفتح من كتاب « الخطط » المكتوب بخط مؤلفه القضاعى[4] .

وعلى هذا يكون مؤلف القضاعى قد فقد فى عصر متأخر ، بعد أن انتفع به . ولقد كان القضاعى من فحول الفقه والحديث والتاريخ ، وتولى القضاء وغيره

---

(١) أحمد بك أمين « ظهر الاسلام » ص ٢٠٢

(٢) مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة برقم ١٧٧٩ تاريخ

(٣) المقريزى « الخطط » ج ١ ص ٥ والسيوطى « حسن المحاضرة » ج ١ ص ٢٣٨

(٤) السيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ٧٠

من مهام الدولة ، فى أيام الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، وقد أرسله هذا الخليفة فى سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) سفيراً ، ليحاول عقد صلح بين تيودورا Teudora أمبراطورة القسطنطينية وبين مصر[١] .

وكما انتفع المقريزى وغيره ، من أعلام التفكير والأدب بجهود القضاعى ، كذلك انتفع القضاعى نفسه بجهود الكندى المتوفى سنة ٣٥٠هـ (٩٦١م) وابن زولاق المتوفى سنة ٣٨٧هـ (٩٩٧م) وغيرهما ، وأهم ما وصل إلينا من آثار الكندى ، كتابه « ولاة مصر » أو « أمراء مصر » ، ويتناول الكلام على تاريخ الولاة الذين تعاقبوا على مصر منذ الفتح الاسلامى حتى وفاة محمد الاخشيد سنة ٣٣٤هـ (٩٤٥م) ، وكتابه « تسمية قضاة مصر » أو « قضاة مصر » ويتناول الكلام على تاريخ القضاة الذين ولوا قضاء مصر منذ الفتح الاسلامى إلى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وقف فيه الكندى فى روايته إلى حيث وقف « ابن عبد الحكم »[٢] ، أى عند ولاية القاضى « بكار بن قتيبة » قضاء مصر فى سنة ٢٤٦هـ (٨٦٠م) ، ويعتبر كتابه « الولاة والقضاة » من أمتع الكتب وأنفسها[٣] ، لأنه يلقى ضوءاً على حالة مصر الاجتماعية والأدبية والسياسية .

كما يعتبر كتابه « فضائل مصر »[٤] من أحسن الكتب ، ولا غنى للباحث

---

(١) ابن ميسر : « أخبار مصر » فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) والمقريزى « الخطط » جـ ١ ص ٣٣٥ .

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧٠ م) صاحب « فتوح مصر » وهو أول مؤرخ للخطط وتبعه نفر من المؤرخين كالكندى وابن زولاق والقضاعى وغيرهم .

(٣) قام على تحقيقه ونشره المستشرق روفن جست Rhuvon Guest وقد أخذ ذيله معظمه من كتاب « رفع الأصر عن قضاة مصر » لابن حجر العسقلانى .

(٤) مخطوط بدار الكتب الملكية برقم ٧٥٣ تاريخ وأكبر الظن أن هذا الكتاب ليس للكندى صاحب « الولاة والقضاة » بل لابنه عمر . راجع مخطوطات دار الكتب بالقاهرة ٤٢٢ و ٧٥٣ تاريخ .

فى التاريخ الإسلامى عنه ، ففيه تكلم عن أمور شتى كخراج مصر فى العصر الاسلامى وكوجوب حسن معامله القبط .

فهؤلاء المؤرخون كابن زولاق والمسبحى والقضاعى ، قد زادوا فى ثروة الكتاب ، بصفة غير مباشرة ، عن طريق مؤلفين أتوا بعدهم ، اقتبسنا منهم الشىء الكثير ، لأنهم بدورهم نقلوا كثيراً مما كتبوه عن طريق هؤلاء الذين عاشوا فى العصر الفاطمى ، وكتبوا عن مشاهدة وخبرة [١] .

وهناك مرجع آخر مخطوط اعتمدت عليه فى بحث أساليب الدعوة الفاطمية ، وكيفية نشرها هو كتاب « رسائل الحاكم بأمر الله [٢] » ، التى كتبها كثير من الدعاة فى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧م) ، تحت إشراف الخليفة الحاكم بأمر الله .

أما المخطوط « سجلات وتوقيعات وكتب للمستنصر بالله » [٣] ، فقد استطعت أن أستخلص منه ، ما أعاننى فى الكلام عن معتقداتهم وألقابهم .

وإنه ليؤسفنا أن نقول إننا لم نعثر على « الرسالة الوزيرية » ، التى حدثنا عنها كثيرون ، مثل ابن منجب الصيرفى وابن خلكان والمقريزى [٤] ، فقالوا إن يعقوب بن كلس ألفها فى الفقه الشيعى على مذهب الاسماعلية ، مما سمعه من « المعز لدين الله » وابنه « العزيز بالله » ، وإنه كان يفتى الناس بما فيها ، ويجلس لقراءتها وتدريسها بنفسه ، يومى الثلاثاء والجمعة . إذ من المحقق أن كثيراً من المخطوطات التى ألفت ودرست فى هذا العهد ، وسلمت من الشدة العظمى ، قد اندثرت بانتهاء الدولة الفاطمية ، خصوصاً وأن الدولة الأيوبية التى خلفتها حرصت على محو رسومها وآثارها .

أما « مرآة الزمان » [٥] لابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٧م) فقد

---

(١) المقريزى « الخطط » ج ١ ص ٣٤٢ — ٣٨٨ و ٤٠٤ وما بعدها

(٢) المخطوط بدار الكتب الملكية برقم ٢٠ علم كلام الشيعة

(٣) المخطوط بمدرسة الدراسات الشرقية بلندن برقم ٢٧١٥٥

(٤) ابن منجب « الأشارة الى من نال الوزارة » ص ٢٣ وابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ٢ ص ٤٤١ والمقريزى « الخطط » ج ٤ ص ١٥٧

(٥) مصور بدار الكتب الملكية رقم ٥٥١ تاريخ

اطلعت عليه فأفادنى فى كثير من المسائل . ومن المخطوطات التى تناولت الكلام على النظام القضائى ، كتاب « رفع الأصر عن قضاة مصر »[١] . لابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٣هـ (١٤٤٩م) وقد أمدنى بمعلومات مستفيضة عن معالجة موضوع القضاء . كذلك أمدنى كتاب « تاريخ الإسلام »[٢] للذهبى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) ، بمعلومات هامة عن الفاطميين فى مصر من الوجهات القضائية والاجتماعية والسياسية ، ولا سيما الجزء الثالث منه . ويعتبر كتاب « نهاية الأرب فى فنون الأدب »[٣] للنويرى المتوفى سنة ٧٣٢هـ (١٣٣٢ م) دائرة معارف هامة للعصر الفاطمى ، ولا سيما الجزء الـ٢٦ منه ، فقد أعطانا فكرة واضحة عن المهدى وابتداء دولته ، كما ذكرلنا الأمان الذى أعطاه جوهر للمصريين عند فتحه للبلاد المصرية ، وبالجملة صور لنا هذا العصر الفاطمى أحسن تصوير من جميع وجوهه .

أما « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة »[٤] للدوادار المتوفى سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٥ م) ، فقد أعاننى فى كتابى عن كشف الشىء الكثير ، ففيه بين الحوادث التاريخية التى عاصرت الفتح ، واقترنت به ، وبه يذكر الشىء الكثير عن العقائد والقضاء الاسماعيلى ، وبه نص الأمان الذى أعطاه جوهر للمصريين. أما كتاب « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة »[٥] ، الذى ألفه عبد الرحمن الشيزرى المتوفى سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣م)، فقد استفدت منه كثيراً .

ومن الكتب الخطية التى ألفت خصيصاً فى الحسبة أيضاً ، كتاب « معالم القربة فى أحكام الحسبة »[٦] ، لمحمد بن أحمد القرشى المعروف بابن الاخوة وهو مصرى شافعى المذهب ، توفى فى سنة ٧٢٩ هـ (١٣٢٩م) .

---

(١) مخطوط بدار الكتب برقم ٢١١٥ و ١٠٥ تاريخ

(٢) مخطوط بدار الكتب الملكية برقمى ٤٢ و ٣٩٦ تاريخ

(٣) مخطوط فوتوغرافى بدار الكتب الملكية برقم ٥٤٩ معارف عامة

(٤) مخطوط فوتوغرافى بمكتبة جامعة فؤاد الأول تحت رقمى ٢٤٠٢٦ و ٢٤٠٢٧

(٥) مخطوط فوتوغرافى بمكتبة جامعة فؤاد الأول تحت رقم ٢٤٠٥٤

(٦) مخطوط بدار الكتب الملكية برقم ٦٧٩٠ ى

فمن هذين الكتابين المخطوطين ، تكلمت عن شروط الحسبة ولزومها ومستحباتها وكيفية تنفيذ المحتسب للعقوبة بنفسه ، ومعاملته لأهل الذمة ، وغير ذلك من الأشياء المتعلقة بالحسبة . أما المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١م) ، فقد كان من أحفاد الفاطميين ، المتتبع لتاريخهم وأنسابهم ؛ وكل مايتعلق بأحوالهم وهو زعيم مؤرخي مصر الاسلامية ، وعميد المدرسة التاريخية ، التى ازدهرت وأينعت بمصر خلال القرن التاسع الهجرى ، تلك المدرسة التى يعتبر المقريزى بحق أكبر شيوخها ، والتى اهتمت أشد الاهتمام بتاريخ مصر ، فيها تخرج العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ (١٤٥١ م) وهو مؤلف كتاب « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان »[١] وأبو المحاسن المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٩٦م) صاحب كتاب « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة »[٢] . والسخاوى المتوفى سنة ٩٠٢ هـ (١٤٩٧ م) ، مؤلف « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع »[٣] وكتاب « التبر المسبوك فى ذيل السلوك »[٤] ، وابن اياس المتوفى سنة ٩٣٠هـ (١٥٢٣ م ، صاحب كتاب « تاريخ مصر » ، المعروف باسم « بدائع الزهور » فهى مدرسة أنتجت تراثاً إسلامياً خالداً هاماً ؛ لمن يريد الاطلاع على التاريخ الاسلامى لمصر الاسلامية . ونرى لزاماً علينا ، أن نأتى هنا بلمحة قصيرة ، عن المقريزى ومجهوده التاريخى ، فقد كتب كتباً قيمة اعتمدنا فى بحثنا هذا عليها ولا غرو فالمقريزى يعتبر بحق شيخ شيوخ مؤرخي مصر الاسلامية ، لايدانيه أحد من المؤرخين فى مصر ، منذ العصور الوسطى حتى اليوم ، فى التاريخ المصرى .

فلقد ولد المقريزى بالقاهرة المعزية سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) ، وتوفى

---

(١) مخطوط بدار الكتب الملكية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ

(٢) مخطوط فوتوغرافى بدار الكتب الملكية تحت رقم ١٣٤٣ تاريخ وهو على أهميته يكلف الباحث صبراً وجهداً كبيرين لرداءة خطه وصغره وتآكل بعض ألفاظه ، لذا تحولنا عنه عدة مرات إلى النسخة المطبوعة منه .

(٣) مخطوط فوتوغرافى

(٤) مطبوع طبعة بولاق

بها سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) ، أى أنه عاش بمصر فى عصر يمتد من أواخر القرن الثامن الهجرى ، إلى أواسط القرن التاسع ، ودرس الفقه وعلوم الدين وغيرها من العلوم ، التى كانت تدرس إذ ذاك بالأزهر . وولع منذ حداثة سنه بالتاريخ وجمعه ، لاسيما تاريخ مصر ، وكتب عدة مؤلفات تعتبر عمدة تاريخ مصر الاسلامية ، وتقلد بعض الوظائف كالوعظ والخطابة والتدريس والحسبة فى القاهرة ، وشغل عدة وظائف قضائية فى القاهرة ودمشق ، وكان موضع عطف الملك الظاهر برقوق ، وولده الملك الناصر من بعده .

ومن أنفس الآثار التى خلفها لنا عميد المؤرخين المقريزى ، والتى اعتمدنا عليها كثيراً فى الرسالة ، كتابه المسمى « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، وهو مجهود عظيم ، صرف الأيام والليالى الطوال فى جمع مادته ، مدة طويلة من الأعوام حتى أتمه . وكان الغرض من تأليفه ، كما ذكر المؤلف فى مقدمته ، إنما هو جمع ما تفرق من أخبار أرض مصر وأحوال سكانها ، وأكبر الظن ، أنه ابتدأ فيه بين سنتى ٨٢٠ و ٨٢٥ هـ ، وانتهى منه قبل وفاته بنحو عامين أى سنة ٨٤٣ هـ (١٤٣٩ م) [1]

ويمتاز المقريزى عن غيره أيضا بدقة البحث ، وغزارة المادة ، وسلامة العبارة ، ووضوح الأسلوب . فخططه هذه تعتبر معرضاً بديعاً وفريداً ، حيث عرض فيها المجتمع القاهرى بأثوابه الزاهية ، والقاتمة ، وصوّره بدون تحيز أحسن تصوير ، وقد أمدنى هذا الأثر الخالد النفيس بكثير من المعلومات القيمة فى بحث نظم الحكم عند الفاطميين ، ومواريثهم ، وكل ما يتعلق بالنظام المالى والادارى والقضائى . ففيه رسوم البلاط ، ودواوين مصر ، واختصاصات الموظفين ، ومواكب الخلفاء ، ومآدبهم ، وأعيادهم ، ومواسمهم ورتب الأمراء ، ووصف الدعوة وترتيبها ، ومساجد مصر ، ومدارسها ،

---

(١) المقريزى « الخطط » ج ١ ص ١٨٨ وج ٢ ص ٣٣١ و ٤٦٣

وسجونها ، وتكاياها ، وقصورها ، وقناطرها ، إلى غير ذلك ، مما يعطى الباحث صورة حقيقية . لما كان عليه المجتمع المصرى فى ذلك العهد

ويحدثنا المقريزى ، أنه استق خططه من ثلاثة مصادر هى : النقل من الكتب ، والرواية عمن عاشرهم من العلماء ، والمشاهدة لما عاينه ورآه . ويزيد فى نفاسة خططه ، أنه استقاها عند النقل ، من مؤرخين عاشوا فى العصر الفاطمى ، فكتبوا عن خبرة ، ومعرفة أكيدة ، ومشاهدة لما رأوه فى أيامهم ، مثل ابن زولاق ، والمسبحى ، والقضاعى ، وغيرهم .

وللمقريزى مؤلفات أخرى ، أعانتنى فى بحثى هذا ، مثل كتاب « اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا » ، وهو من أهم المصادر وأمتعها ، فيه يجد القارىء تاريخ الدولة الفاطمية منذ نشأتها فى المغرب ، إلى وفاة المعز لدين الله الفاطمى ، وإن كان لم يصل إلينا منه ، إلا بعض الكتاب الأصلى ، الذى أرخ فيه جميع العصر الفاطمى ، وهو بخط المقريزى نفسه ، أما الجزء الأكبر منه فقد عبثت به يد الدهر [1] .

أما كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » [2] فنجد تشابهاً ظاهراً بينه وبين مقدمة ابن خلدون ، إذ كتب كل منهما فى صميم النواحى الاقتصادية والاجتماعية ، إلا أننا نلاحظ أن ابن خلدون فى مقدمته قد شمل العالم الاسلامى بوجه عام ، أما المقريزى الذى عاش بعد ابن خلدون مدة طويلة ، فقد تحدث فى كتابه عن مصر الاسلامية فقط .

ولقد اكتسب المقريزى أثناء توليته وظيفة الحسبة بالقاهرة سنة ٨٠١ـ ٨٠٢ هـ (١٣٩٨ — ١٣٩٩ م) ، خبرة سهلت له معالجة موضوعات الكتاب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، كذلك ضم إلى هذا الأثر فى فصل منه ،

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن « الفاطميون فى مصر » ص ١٩

(٢) نشره الأستاذان زيادة والشيال وتوجد نسخة مخطوطة منه بدار الكتب الملكية ضمن مجموعة رسائل لعدة مؤلفين تحت رقم ٧٧ مجاميع وهى رديئة الخط وغير مذكور تاريخ كتابتها

رسالة من رسالات المقريزى الصغيرة ، التى كان أعدها لتكون كتابا مستقلا وهى « شذور العقود فى ذكر النقود » .

وللمقريزى مؤلفات أخرى ، مثل « كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك » . وقد استفدت من المعلومات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المذكورة به ، وبحواشيه التى كتبها الدكتور محمد مصطفى زيادة ، عند تصحيحه ونشره .

ولعل المقريزى ، هو المثل البارز ، فى تناول المجاعات التى نزلت بمصر وإظهار الحالة الاقتصادية والاجتماعية فيها ، وأكبر الظن أنه اقتفى فى ذلك أثر أستاذه ابن خلدون .

أما « البيان المغرب فى أخبار المغرب » لابن عذارى المراكشى ، فهو أوفى مؤرخ عربى كتب عن التاريخ السياسى للمغرب والأندلس ، حوالى ختام القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) يعرض فيه حوادث كل عام ، فاذا انتهى من أحد هذه الأعوام ، انتقل إلى أحداث العام التالى وقد أمدنى هذا الكتاب ، بكثير من المعلومات ، وكان كتاب « الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى » لمؤلفه السلاوى ، من المراجع الهامة ، التى أنارت لى الطريق عن علاقه الدولة الفاطمية بغيرها كالأندلس مثلا ، مما أعاننى على تصوير بعض الحقائق التاريخية ، تصويراً واضحاً .

ومن أهم المصادر وأمتعها ، فى بحث تاريخ المذاهب الدينية والاسماعيلية بصفة خاصة ، كتاب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » لابن حزم ، المتوفى سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤م) وكتاب « الملل والنحل » للشهرستانى ، المتوفى سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣م) [١] .

وهناك أيضاً كتاب آخر ، له أهمية فى دراسة الحياة الادارية ، وهو

---

(١) راجع ترجمة ابن حزم فى ابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ١ ص ٤٢٨-٤٣١ وياقوت « ارشاد الأديب » ج ٥ ص ٨٦-٩٧ والمقرى « نفح الطيب » (بولاق ١٨٦٢م) ج ١ ص ٣٦٤-٣٦٨ ولمعرفة تاريخ الشهرستانى انظر ابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ١ ص ٦١٠-٦١١ والنسخة التى اطلعنا عليها من هذا الكتاب مطبوعة بهامش « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » لابن حزم

كتاب الماوردى[١] المتوفى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) المسمى « بالأحكام السلطانية » وهو أول ما كتب بالعربية ، عن النظم الادارية فى الاسلام ، ومن أهم المصادر فى إدارة الشئون العامة أيام الفاطميين .

كذلك اعتمدت فى هـذا البحث ، على كتاب « المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب » وهو من أجزاء الـكتاب المعروف « بالمسالك والممالك » تأليف أبى عبيد الله بن عبد العزيز البكرى ، المتوفى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤م) .

ورأيت الاستعانة بكتب الجغرافيين العرب ، والرحالة وفى مقدمة هذه الـكتب « المسالك والممالك » لمؤلفه الرحالة العربى والجغرافى الشهير ، ابن حوقل (أبو القاسم محمد) الذى ترك بغداد فى رمضان عام ٣٣١ هـ (مايو سنة ٩٤٣م) بقصد دراسة البلاد والشعوب ، وبقصد الـكسب عن طريق التجارة ، فجاب العالم الاسلامى من المشرق والمغرب . لقد كان ابن حوقل ، أحد جواسيس الفاطميين ، فكان يظهر لهم مثلا أن الأندلسيين لا علم لهم بالحرب ، وأساليب القتال وأن من السهل التغلب عليهم ، وفى الوقت نفسه يطنب فى ذكر ثروة الأندلس وخيراتها ، ليحثهم على سرعة تملكها[٢] .

كذلك استفدت أيضا من كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبه العربى الجغرافى ، وقد استفدت كثيراً ، من كتاب « تاريخ الذيل »[٣] الذى صنفه يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكى . فمنه نعلم كيف استطاع الخليفة العزيز بالله عند ما أحرق تجار الروم المارون بمصر أسطوله سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦م) ، أن يقبض على الجناة ويحبسهم ، ويقتلهم ، وبذلك خضع للقضاء المصرى الأقليمى الأجانب المارون بالدولة[٤] .

---

(١) سمى الماوردى لأنه كان يبيع ماء الورد . أبو الفدا « المختصر فى أخبار البشر » (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ) جـ ٢ ص ١٨٨ وياقوت « ارشاد الأريب الى معرفة الأديب » جـ ٥ ص ٤٠٧ - ٤٠٩ وابن خلكان « وفيات الأعيان » جـ ١ ص ٤١٠ — ٤١١ وللماوردى أيضا كتاب « الحاوى الـكبير فى الفقه » القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٢٧٤

(٢) ابن حوقل المسالك والممالك ص ٧٤

(٣) طبعة Rosen Basilius

(٤) الأنطاكى « تاريخ الذيل » ص ٣٣ - ٣٤

ومن المؤرخين الذين عنوا باستقصاء تاريخ الفاطميين ، ابن منجب الصيرفى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧م) ، فقد كتب كتاباً ممتعا ، هو كتاب « الاشارة إلى من نال الوزارة » وقد اعتمدت على كتابه هذا فى كثير من المسائل خصوصاً وأن المؤلف عاش فى عصر الخليفة الآمر بأمر الله ، وتقلد ديوان الرسائل سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١م) وبقى فيه إلى سنة ٥٣٦ هـ (١١٤١م)[1]

ومن أمهات الكتب التى رجعت اليها كتاب « الروضتين فى أخبار الدولتين » لعبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم ، الملقب بأبى شامة ، الشافعى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧م) وهو يجمع بين التاريخ السياسى لانتهاء الدولة الفاطمية وبعض عقائد الشيعة ونسبهم ، ومنها أيضاً كتاب « أخبار مصر » لابن ميسر[2] المتوفى سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨م) والذى اعتمد على ابن زولاق والمسبحى وغيرهما من أعلام المؤرخين الذين كتبوا فى تاريخ الفاطميين ، وهو « عارف بالمصريين »[3] ولا نجد فى كتابه سب الفاطميين ، الذى نجده عند غيره من المؤرخين السنيين ، الذين لبوا رغبة الأيوبيين والمماليك ، فى التشهير بالفواطم والقسوة فى نقدهم[4] .

وقد أمدنى ابن ميسر بمعلومات كثيرة ، فى نظم القضاء والتاريخ السياسى للدولة الفاطمية ، واستفدت كثيرا من كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان[5] المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨١م) ، إذ رجعت إليه فى أكثر من باب فى كتابى ، لأنه مؤلف لاغنى للباحث فى التاريخ الاسلامى عنه .

---

(١) لمعرفة تاريخ ابن منجب يرجع إلى كتاب « إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب » لياقوت

(٢) هو محمد بن على بن يوسف بن جلب راغب

(٣) الكندى ص ٥٦٥

(٤) الدكتور زكى محمد حسن « كنوز الفاطميين » ص ١٧

(٥) يقول السيوطى فى كتابه « حسن المحاضرة » حـ ١ ص ٢٣٨ إنه ولد سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣م) وسكن مصر مدة وناب فى القضاء بها مع أنه شافعى ثم ولى قضاء الشام عشر سنين ثم عزل فأقام بمصر سبع سنين ثم رد إلى قضاء الشام .

كذلك أفادنى كثيرا كتاب « المغرب فى حلى المغرب » ، لابن سعيد المتوفى سنة ٦٧٣ ﻫ (١٢٧٥ م) ، والمنقول جزء كبير منه عن كتاب سيرة الأخشيد ، المسمى « العيون الدعج فى حلى دولة بنى طغج » لابن زولاق [1]

وأمدنى كتاب « الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية » لابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى ، الذى ولد سنة ٦٦٠ ﻫ (١٢٦١ م) وأتم كتابه سنة ٧٠١ ﻫ (١٣٠١ م) ، بكثير من المعلومات ، عن الخلفاء الفاطميين وكيفية تدوين الدواوين ، وإرسال البريد ، وقد استعنت بابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ ﻫ (١٤٠٥م) ، فى «مقدمته» ، وكتابه «العبر وديوان المبتدا والخبر» بالكثير من المعلومات فى الشيعة ، ومذاهبهم ، والقضاء ، والنظر فى المظالم ، وصاحب الشرطة ، والحسبة ، والسكة ، وديوان الرسائل ، والكتابة ، وقيادة الأساطيل ، وشارات الملك ، وغيرها . كما زودنى كتاب « البداية والنهاية فى التاريخ » لأبى الفدا المتوفى سنة ٧٣٢ ﻫ (١٣٣١ م) ، بالكثير من آراء الشيعة المذهبية .

وأمدنى القلقشندى ، المتوفى سنة ٨٢١ (١٤١٨ م) ، فى كتابه « صبح الأعشى فى صناعة الانشا » ، بمادة غزيرة لايستهان بها ، ولا سيما فى الجزء الثالث منه ، ويزيد فى قيمة هذا الأثر ، أن مؤلفه أخذ معلوماته عن مؤلفين عاشوا فى العصر الفاطمى ، وأنه مصرى الدار ، فهو مولود فى بلدة قلقشندة ، من أعمال مديرية القليوبية ، وقد التحق بديوان الانشا فى سنة ٧٩١ ﻫ ، و(١٣٨٨م) وأخذ فى وضع مؤلفه السالف الذكر ، وما أقبلت سنة ٨١٤ ﻫ (١٤١١ م) إلا وقد أتمه ، فى أربعة عشر جزءاً ، وهو من أهم المصادر وأمتعها فى بحث النظم الإدارية ، والمالية ، فى مصر . ففيه يذكر أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية ، والخليفة ومواكبه ، وقصوره ، وترتيب جلوس أصحاب الرتب ،

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن « الفاطميون فى مصر » ص ٥

فى الدولة، كما يمدنا بعبارة سهلة واضحة، بالشىء الكثير عن الشيعة، والاسماعيلية بصفة خاصة. ولقد أمدنى، كتاب «حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة» للسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) بفيض، فى تقسيم مصر الإدارى، ومن كان بمصر من السنيين من القضاة، والفقهاء، وأشياء كثيرة إدارية ومالية، تنير الطريق للباحث، فى العصر الفاطمى. ومن الكتب التى اعتمدت عليها أيضا، كتاب «بدائع الزهور» لابن إياس، المتوفى سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٣م)، وهو كثير النقل عن كتاب السيوطى «حسن المحاضرة»، وإن كان غير دقيق فى إثبات الحقائق مثله، وقد أمدنا بمادة لا يستهان بها فى تاريخ الفاطميين وعقائدهم، وحالتهم الاجتماعية، والسياسية، والقضائية، والحربية، والإدارية.

كذلك أمدنى، المرحوم على باشا مبارك. الذى ولد بالدقهلية سنة ١٢٣٩ هـ (١٨٢٣ م) وتوفى بالقاهرة فى سنة ١٣١١ هـ (١٨٩٣ م) فى الجزء الأول من مؤلفه «الخطط التوفيقية» بمعلومات مستفيضة عن العصر الفاطمى، ونلاحظ أنه كان كثير النقل عن ابن ميسر والمقريزى والسيوطى وغيرهم من المؤرخين، فهو قد ألقى دلوه فى الدلاء، ناقلا ثمار جهودهم، وهو يمتاز بدقة البحث، وسهولة التعبير، وغزارة المادة، ولا غرو فهو يعتبر بحق أحد أقطاب النهضة العلمية والأدبية، فى وقته، ولقد تدرج فى مناصب الدولة، حتى وصل إلى منصب الوزارة [١].

ومن المصادر الأفرنجية التى اعتمدت عليها، كتاب

The Jews in Egypt and in Palestine under the Fatimid Caliphs by Mann (J.)

فقد أمدنى هذا الكتاب، بالكثير من المعلومات، عن سياسة الفاطميين للنصارى واليهود، والقوانين التى كانت تصدر بشأنهم، والمناصب العالية التى أسندت اليهم، وكل ما يتعلق بأهل الذمة فى ذلك العصر، وبصفة خاصة كيف كان يحسن الخليفة الفاطمى معاملة أهل الذمة.

---

(١) ترجمة حياة على باشا مبارك فى خططه جـ ٩ ص ٣٧ - ٦١

أما كتاب Ismaili tradition concerning the Rise of the Fatimids by Ivanow فقد استطعت أن أستفيد منه كل الفائدة، وخاصة فى خطوات الفاطميين لنشر دعوتهم، والعقائد الفاطمية بصفة عامة، والاسماعيلية بصفة خاصة. كذلك كان لمؤلفات المستشرقين وأبحاثهم، فضل كبير فى هذا الكتاب، فقد أمدنى كتاب The caliphate by Prof. Arnold، وكتاب Renaissance des Islams par prof. Metz (A). وغيرهما، بمعلومات جليلة، عند بحثى لنظام الخلافة والنظام الإدارى. ولم تفتنى الإستفادة من كتب الرحلات، واستخراج الحقائق التاريخية فيها فقد أمدنى كتاب Sefer Nameh par Nasiri Khosru المتوفى سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨م)، بمعلومات كثيرة، عن مظاهر الأبهة والجلال للخليفة الفاطمى فى صلاة الجمعة، والأعياد، والولائم، وعن ثروة مصر أيامهم، ويسر الخلفاء، وما كانوا يحوزونه من النفائس، وغير ذلك من المعلومات التى عثرنا عليها، فى رحلة رجل عاش بمصر فى عصرهم[١] فكان مرجعه بذلك ذا أهمية تاريخية، لدراسة هذا العصر.

وقد أفادنى فى كتابى، ما كتب عن الخواتم والسكة والأقمشة والتحف الخشبية، أيام الدولة الفاطمية، إذ فيها يظهر جليا للقارىء، حرص الخليفة المعز لدين الله مثلا على مظاهر الإمامة، ورغبته فى أن يكون إماماً دينياً أكثر منه ملكا سياسياً، فقد نقش على خاتمه، «لتوحيد الاله الصمد، دعا الإمام معد، لتوحيد الإله العظيم، دعا الإمام أبو تميم».

كما نقش على الدنانير فى السكة عند ضربها، على أحد الوجهين، «لا إله إلا الله، محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»، وعلى الوجه الآخر، «الامام معد لتوحيد الإله الصمد، المعز لدين الله أمير المؤمنين، ضرب بمصر فى سنة ٣٥٨ هـ»[٢] كما نقش على

---

(١) زار خسرو مصر فى السابع من صفر سنة ٤٣٩ هـ (٧ أغسطس سنه ١٠٤٧م) وأقام بها الى يوم الثلاثاء ١٤ ذى الحجة سنة ٤٤١ هـ (١٠٤٩م).

(٢) النويرى «نهاية الأرب فى فنون الأدب» المخطوط الفوتوغرافى ورقة ٤١

قطع النسيج ، وعلى التحف الخشبية لهذا العصر الفاطمى ، مايدل على التمسك برسوم الإمامة ، وأصول الدين [1] .

وكانت الوثائق الهامة ، كأمان جوهر ، أو السجل بتوليه قاضى القضاة ، أو بإقامة داعى الدعاة ، التى عثرت عليها فى ثنايا الكتب المخطوطة ذات فائدة محققة للبحث .

ولم أهمل المراجع الحديثة العلمية ، التى بنيت على أسس كثيرة من المؤلفين الذين عاشوا فى العصر الذى نؤرخ له ، فى « الفاطميون فى مصر » للدكتور حسن ابراهيم حسن ، له أهمية فيما أوردناه من الاستشهادات الواردة فى كتابنا ، لتوضيح كثير من النقط الغامضة ، وكذلك كتاب «كنوز الفاطميين» للدكتور زكى محمد حسن ، وكتاب « مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن » للمرحوم الأمير عمر طوسون ، وغير ذلك من المراجع الجديدة العلمية ، التى أوردناها فى ثبت المصادر .

كذلك استفدت كثيراً من أبحاث العلماء ، المنشورة فى المجلات العلمية ، كدائرة المعارف الاسلامية ، ومجلة القانون والاقتصاد ، وغيرهما .

وهناك مصادر أخرى متنوعة ، عربية وإفرنجية ، لم يكن لها ماللكتب السالفة الذكر ، من أثر فى بحثنا ، أمدتنا فى ثناياها بمعلومات طريفة ، وقد ذكرناها ، فى ثبت المصادر .

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن « كنوز الفاطميين » ص ١٣٢ و ١٣٣ و ٢٢٢ نقلا عن الأستاذ فيت وغيره .

مجمل تاريخ الدولة الفاطمية

قبل أن نسرد للقارىء مجمل تاريخ الدولة الفاطمية ، يجدر بنا أن نلقى قبساً من النور على أصل الفاطميين ومبادئهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية فنقول : الاسماعيلية هم جمعية سرية ، يرأسها زعيم يعرف بالإمام ، أو « صاحب الزمان » له سلطة مطلقة على حياة وأموال أعضائها . ولم يكن واقفاً على أغراضها وطرقها إلا زعماؤها الأقلون ، وقادة أفكارها المقربون ، وهم الذين وقفوا على أسرارها بعد أن قطعوا مراتب أو مراحل التسكريس المطلوبة منهم ، وأقسموا أيمانا مغلظة ألا يذكروا أسرار مذهبهم لغيرهم ، وألا يبوحوا لأحد بأسرار جمعيتهم . وكانوا لا يبيحون القسم إلا لمن ارتقى إلى الرتبة الرابعة[1] أما سائر أعضاء الجمعية السرية الاسماعيلية ، وهم الأكثرية ، فلم يكونوا يعرفون عن أمر هذه الجمعية إلا الشىء اليسير ، يطلعهم عليه دعاة الجمعية حسب قدرتهم العقلية ، وبعد أن يبرهنوا لهم على أنهم موضع ثقتهم ، وأنه لا خوف منهم ولا خطر ، وعند ذلك يكون هؤلاء الأعضاء آلة صماء فى أيدى الدعاة الذين يؤثرون عليهم تأثيراً من شأنه أن يربطهم ربطاً متيناً برئيسهم الأعظم ، كما يربط بعضهم ببعض بحبل من المودة متين .

ولقد اعتقد هؤلاء السذج من الأعضاء ، بإخلاص زعمائهم ، وصدق إيمانهم ، وأنهم وحدهم على الصراط المستقيم ، فأطاعوهم طاعة عمياء ، وكانوا بذلك مصدر الرعب فى قلوب أعدائهم وكان الداعى يثير الشك فى نفس المدعو وفى عقائده الأصلية ، ومبادئه السياسية والأدبية والاجتماعية ، حتى يحمله على الدخول فى سلك الجمعية السرية ، صاحبة العلم الصحيح وكنز المعارف

---

(١) النويرى « نهاية الأرب » ج ٢٣ ص ٦٥ — ٦٦ وبندلى جوزى « تاريخ الحركات الاجتماعية » تعريب الأستاذ سكاكينى ص ٨٩ — ١٠١٧ وقد ذكرنا نص القسم الذى كان يوجهه الداعى لمن وقف على أسرار الدعوة فى الوثائق بآخر الكتاب .

الحقيقية على زعمهم . يبدأ الداعى مع المدعو بأحاديث فى موضوعات عامة إذا كان مبتدئاً ، ليتبين له مبلغ نفسيته وعقليته ، فإذا آنس منه دخولا فى المذهب بعد مضى سنين ، أطلعه بالتدريج على تعاليم جمعيته وغاياتها الاجتماعية والأدبية حتى يبلغ المدعو الرتبة التاسعة ويلقن الدعوات التسع[1] ، وقليل من كان يبلغها . أما الدعاة أنفسهم فلم يكونوا يبلغون إلا الدرجة الخامسة ، وهى الدرجة التى كان يقف الداعى فيها على بعض أسرار الجمعية ، بعد أن يكون قد حلف الأيمان .

وكان أعضاء الجمعية الاسماعيلية ممن لم يبلغوا الدرجة الرابعة يعرفون فقط مبادئها الدينية والأدبية ، دون تعاليمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى لم يكن يكشف لهم عنها إلا فى الدرجة الرابعة ، وبعد تأدية القسم المعلوم .

وعلى ذلك رتبت الدعوى طبقاً لمستوى الأذهان ، فأعطى الكافة مبادئها وأصولها العامة ، وأعطى من عداهم من الخاصة والمستنيرين أسرارها ومراتبها العليا ، وشرحت واجبات الداعى وطرق تلقين الدعوة بالآتى « خذ (لداعى الدعاة) العهد على كل مستجيب راغب . . . . ممن يظهر لك إخلاصه ويقينه ويصح عندك عفافه ودينه ، وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه . . . . ولا تكره أحداً على متابعتك والدخول فى بيعتك . . . . ولا تلق الوديعة الا لحفاظ الودائع . . . . وصُنْ أسرار الحكم إلا عن أهلها ، ولا تبذلها إلا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين مايعجزون عن تحمله . . . . »[2] .

ولعل هذا التستر ، وكثرة الإشارة الى سرية الدعوة ، ماجعل الناس يظنون بالاسماعيلية الظنون ، وينسبون اليها مالا يتفق فى النادر مع الحقيقة ، فحسبهم البعض زنادقة وحسبهم البعض الآخر كفاراً .

---

(١) وردت الدعوات التسع مفصلة فى المقريزى « الخطط » (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ٢٢٧ — ٢٣٣

(٢) من سجل فاطمى باقامة داعى الدعاة وبيان مهمته واختصاصه وما يجب عليه اتباعه لنشر الدعوة . القلقشندى « صبح الأعشى » ج ١٠ ص ٤٣٤ وما بعدها .

فهم « ملحدون » ، « لا يؤمنون بشيء » ، يشككون الناس فى الكتب المنزلة « فى القرآن والتوراة والزبور والانجيل » ، ينكرون الرسل والشرائع ، ويقولون بأن البعث مهزلة ، وأن كل من اتبع الشرائع المنزلة وأحكامها على ظواهرها فليس إلا « كافراً وحماراً » ، « أباحيون يستحلون المحرمات ويرتكبون أكبر الجرائم » ، « يبيحون لأتباعهم نكاح البنات والأخوات وشرب الخمر وجميع الملذات »[١] وغيرها من التهم الخسيسة .

وهذا يدل على أن الاسماعيلية كانت تكره التفسير الظاهرى ، وتحاول تأويل آيات الشرائع وأحكامها تأويلا باطنياً مبنياً على العقل فقط . فيرون أن للقرآن باطناً غير ظاهره وأن هذا الباطن إذا قورن بالظاهر كان بمثابة الجوهر إذا قورن بالعرض ، أو اللب بالقشور . ففاتيح القرآن فى يد الأئمة لأنهم المستودع الحقيقى للتأويل . وبذلك تأثروا بالفلسفة الإغريقية ،وقلدوا الأفلاطونية فى أنها كانت تعنى بجواهر الأشياء لابظواهرها ، ومن هنا كانت الفلسفةألصق بالتشيع منها بالتسنن ، ولعلهم لجأوا إلى استخدام التأويل كوسيلة لجذب المستجيبين ولإحاطة أنفسهم بهالة من التقديس .

ولنضرب للقارىء أمثلة من تأويلات الاسماعيلية فى القرآن : يقول الله تعالى فى كتابه العزيز « وظلّلنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى »[٢] أى سترناكم بالسحاب الرقيق من حر الشمس وأنزلنا عليكم نوعا يشبه العسل وطيوراً تشبه السمان غذاء لبنى إسرائيل . أما الاسماعيلية فيقولون إن الغمام هو الامام الذى أقامه موسى لإرشاد بنى إسرائيل ، أما المن والسلوى ، فهما علم نزل من السماء لداع من الدعاة [٣] .

ويقول الإسماعيلية عن إبليس وآدم المذكورين فى القرآن إنهما أبو بكر

---

(١) البغدادى « الفرق بين الفرق » ص ٢٧٠ و ٢٨٠ و ٢٨١ و ٢٩٠ .

(٢) الآية ٥٧ من سورة البقرة رقم ٢ .

(٣) الغزالى « فضائح الباطنية » ص ١٣

وعلى" إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلى والطاعة له فأبى واستكبر[١] .

ويقولون عن « الشجرة الملعونة فى القرآن » ، إن الشجرة هاهنا هى بنو أمية »[٢] .

وقد أسس دعاة الاسماعيلية عدة خلايا ، تعمل لنشر مذهبهم فى أغلب الجهات والبلاد . ولعل أكثر الجمعيات السرية كاليسيوعيين والماسونيين وغيرهما ، قد ظهرت تحت تأثير نظام الاسماعيلية ، وأكبر الظن أن كثيراً من الجماعات الدينية والاجتماعية كاخوان الصفا التى تاسست سنة ٣٢٤ هـ بالبصرة أى فى حوالى النصف الثانى من العقد العاشر الميلادى ، قد خرجت من أحضانهم[٣] .

وأن كثيراً من فلاسفة الإسلام كالفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م) وابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٢ م) ، وابن الهيثم المتوفى سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م ، والغزالى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وغيرهم[٤] قد تأثروا بهم ولا غرو فقد كان للفاطميين رأى فى أن للدين ظاهراً وباطناً ، ومعنى صريحاً ومعنى مؤولا[٥] ، مما يجعل الفكر يسبح فى الفلسفة ، فيأخذ فى التوفيق بينهما وبين الدين ، لذلك ارتبطت مبادئهم السياسية والاجتماعية بآرائهم الفلسفية والأدبية ارتباطاً متيناً .

فأما من الوجهة السياسية ، فمطالبهم ترمى إلى نزع السلطة من أيدى بنى العباس ، ونقلها إلى خلفاء الإمام على وأبنائه من فاطمة الزهراء ، وقد تحول هذا الاعتقاد تحت تأثير عوامل وأفكار غريبة عن الاسلام ، إلى إيمان قوى

---

(١) الغزالى فضائح الباطنية ص ١٣

(٢) ابن النعمان «المجالس والمسايرات» حـ ١ ص ١٣٠ .

(٣) احمد أمين بك «ظهر الاسلام» ص ١٩٠ وانظر O' Leary, A Short history ... p. 139

(٤) انظر O'Leary, A short history p. 140

(٥) ابن النعمان « أساس التأويل الباطن » المخطوط بمدرسة الدراسات الشرقية بلندن برقم ٢٥٧٣٤ ورقة ٤

فى قرب ظهور رجل مهدى من نسل فاطمة ، يتغلب على دولة بنى العباس ، ويسترد منهم الملك ليسلمه إلى أصحابه ، ويؤيد الدين ، وينشر لواء العدل ، ويستولى على الممالك الاسلامية فيجمعها .

ففكرة الرجعة التى أدخلها ابن سبأ[١] فى الإسلام ، كان لها شأن عند الاسماعيلية فاعتقدوا أن إمامهم محمد ابن اسماعيل سيرجع كالامام المهدى، وهذه هى العقيدة التى نشرها أبو عبد الله الشيعى بين البربر ، ونظرية المهدية التى نعتقد بخرافتها لأنها غير معقولة ، هى النظرية التى قالت الاسماعيلية إنها تستند إلى حديث نبوى يقول « لو لم يبق إلا يوم واحد لبعث الله رجلا من أهل بيتى يملؤها عدلا كما ملئت جوراً »[٢] .

وأذاعوا بأنه عليه السلام قال « من كذب بالمهدى فقد كفر » ، وهو حديث ظاهر الوضع ، ومن هنا قالوا إن الأمام المنتظر هو العلوى الذى بالقيروان ، وأنه لاطاعة بعد ذلك لخلفاء بنى العباس على الناس ، لأن الحكم رجع إليهم بإمام معصوم حلت به صفات الله سبحانه وتعالى وتقمصت جسمه ، وأخذوا يعلقون عليه آمالا كباراً ، ليشفى الأرض من أمراضها الاجتماعية، ويعم العدل بين الناس .

وغلوا فى اعتقاد سلطة الامام الروحية ، حتى أنهم ذهبوا إلى أن الإله — تعالى عن ذلك علواً كبيراً — قد تجسم فى شخص الامام على وأولاده من بعده ، وكانت دعوتهم تتخذ الدين وسيلة لنجاح أغراضهم السياسية، حتى بسطوا نفوذهم على شمال إفريقية وصقلية ومصر والشام وآسيا الصغرى وعلى سواحل البحر الأحمر ، كما اعترف بسلطانهم أيضاً أئمة اليمن ، وأمراء الموصل ، وبلاد

---

(١) يسمى أيضا ابن السوداء ، وهو من أهل صنعاء كان يهوديا فأسلم فى ٣٠ هـ (٦٤٩ م) أيام خلافة عثمان .

(٢) أخرجه ابن النعمان فى « شرح الأخبار » فى المغنى دون المبنى ح ١٤ ورقة ٧٠ و ٧٤ ولم يرو هذا الحديث لا البخارى ولا مسلم وقد أخرجه احمد وأبو داود « الجامع الصغير » (طبعة الحلبى) ح ٢ ص ١١٢ . وكم خرج الأمة الاسلامية من دعاة زعم كل منهم أنه المهدى المنتظر كالسفيانى المنتظر والقحطانى المنتظر وكان آخرهم مهدى السودان .

ماوراء النهر ، ومكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، بل وبغداد نفسها حاضرة العباسيين ، عندما نجح البساسيرى وقتاً ما فى تحويل الخطبة من الخليفة العباس القائم ، (٤٢٢ – ٤٦٧ هـ و ١٠٣١ – ١٠٧٥ م) إلى الخليفة المستنصر الفاطمى فى حاضرة العباسيين ، وتغيير الأذان بعبارة « حى على خير العمل » ونرى أن القول بالتناسخ[١] ، والحلول[٢] ، والرجعة[٣] ، لا يناط التشيع بها وجوداً وعدماً ، وليس انكارها خروجاً منه ، ولا الاعتراف بها دخولا فيه ، فكتب الشيعة تتبرأ مثلا من عبد الله بن سبأ ، وتلعنه وتجاهر بأنه قد يكون حديث

---

(١) التناسخ هو حلول أرواح الانسان فى الحيوان ، أى التقمص ، وهى فكرة أخذت عن براهمة الهند ومجوس المزدكية وفلاسفة اليونان وغيرهم ، فقد نادى فيثاغورس اليونانى ومن بعده أفلاطون بها ، وممن بثوها فى الاسماعيلية راشد بن سنان ، مقدم الدعوة الاسماعيلية بالشام ، إذ ادعى أن روح الحسن الثانى حلت فى حمامة وأن روح فهد (أحد الثوار) انتسخت وحلت فى ثعبان ، ويعتقد الدروز والنصيرية أن روح الأشرار تعود فى أجسام الكلاب والخنازير وغيرها دائرة المعارف الاسلامية المجلد الخامس (١٩٤١ — ١٩٤٢) ص ٨٦ وتاريخ لبنان المخطوطة ورقة ٦٠ — ٦١ وانظر Hitti, The Origins of Druzes People p. 44

(٢) الحلول هو حلول الاله فى أجساد البشر (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) وهى فكرة أخذت أيضا عن الفرس والهنود وغيرهم ، فقد كان الفرس يقدسون ملوكهم وقدس الفاطميون أئمتهم وكبار دعاتهم ولاتزال آثار ذلك التقديس باقية إلى اليوم بين جماعة من بقايا النزارية ببلاد الهند وغيرها يسمى أتباعهم بالخواجات ومعنى الخوجة المستجيب الشريف أو العابد ، وعلى رأسهم أغاخان حيث يؤمنون بتقديسه وبذلك يسمون الأغاخانية نسبة إليه.

(٣) قال ابن سبأ أول من وضع عقائد المذهب الشيعى الغالية فى الاسلام « انى لاعجب ممن يقول برجعة عيسى ولا يقول برجعة محمد والله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز « ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » كما قال أيضا برجعة على فقال « لو اتيتمونا بدماغه سبعين مرة ما صدقنا موته ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً » وقالت الرافضة أو الروافض بالرجعة فقالوا لاتقدم الساعة حتى يخرج المهدى فيملؤها عدلا كما ملئت جوراً ، ويحيى الموتى فيرجعون الى الدنيا ويصبح الناس أمة واحدة . وكما اعتقد الكيسانية أصحاب كيسان مولى الامام على بأن محمد بن الحنفية حى لم يمت وهم على انتظاره ويزعمون أنه المهدى المنتظر كذلك اعتقد الدرزية اتباع أبى محمد الدرزى أن الخليفة الحاكم بأمر الله حى وأنه سيرجع ويعود . الآية ٨٥ من سورة القصص رقم ٢٨ والبغدادى « كتاب الفرق بين الفرق » ص ١٥ — ١٧ والشهرستانى « الملل » جـ ١ ص ١٩٦ والقلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٤٣٠ وجـ ١٣ ص ١٤٨ وأنظر Muir, The Caliphate P564

خرافة ، وضعها القصاصون ، وأرباب السمر والمجون ، وأن نسبته إلى الشيعة ، وإلصاق الشيعة به ظلم فاحش ، وخطأ واضح ، لأنه هدم قواعد الإسلام بمعاول الالحاد والزندقة [١] .

والشيعة وهم أصحاب آراء اجتماعية كثيرة ، لم يغفلوا المرأة وشأنها فى المجتمع ، على ضعفها وسرعة استسلامها [٢] أو لم يقل الخليفة المعز لدين الله فيما قاله لعدد من شيوخ كتامة ، وهو بالمنصورية ، « الزموا الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا إلى التكثير منهن ، والرغبة فيهن ، فيتنغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم . . . فحسب الرجل الواحد الواحدة » [٣] أو لم يمنعوها من النظر من الطاقات والأبواب والسطوح ، ومن دخول الحمامات العامة ، ومن عمل الأخفاف لها حتى لا تخرج ، وأمروا من يبيع لها ، أن يكون معه شبه المغرفة بساعد طويل ، ليمده إليها وهى من وراء الباب ، وفيه ماتشتريه ، فاذا رضيت ، وضعت الثمن فى المغرفة ، وأخذت مافيها لئلا يراها البائع [٤] . أو لم يضيقوا السبيل عليها ويتهموها بكل موبقة ، حتى اتهم الحاكم بأمر الله شقيقته « ست الملك » ، بأنها تدخل الرجال عليها ، وتمكنهم من نفسها [٥] . أو لم يعاقبوها أشد العقاب وأقساه ، فحدثنا

---

(١) ابن منجب ص ٦٣ والعلامة محمد الحسين آل كاشف الغطاء كتاب « أصل الشيعة وأصولها » ص ٤٤ و ٤٨ و ٥٠ .

(٢) قال عليه الصلاة والسلام « أوصيكم بالضعيفين نسائكم وما ملكت أيمانكم » . أبو الفدا « البداية والنهاية فى التاريخ » ص ٣٢٧ .

(٣) المقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٦١

(٤) بلغت هذه الشدة أقصاها زمن الحاكم بأمر الله . ابن الأثير « الكامل » ج ٩ ص ١١٨ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٤ ص ١٧٧ والسيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ١٣ و ١٥١ والنويرى نهاية الأرب ج ٢٦ ورقة ٥٧ . وانظر

Lane—Poole, A history of Egypt in the middle ages p. 126, The story of Cairo p. 140 & O'leary, A short history p. 173 O'leary A short history.

(٥) أبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٤ ص ١٨٤ والسيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ٣٣ والنويرى ج ٢٦ ورقة ٥٨ والعينى ج ١٩ القسم الرابع ورقة ٦٨٣

ابن إياس [١] أن الخليفة الحاكم بأمر الله سمع يوماً ضجيجاً للنساء بحمام الذهب ، فأمر أن يسد عليهن باب الحمام بالحجر ، واستمرت النساء به حتى متن جميعاً .

ولعلهم حجبوا المرأة ، لأن العاطفة عندها قوية قد تلغى حكم العقل أحياناً ، وأن المرأة فى زمانهم كانت قد فسدت ، واستهترت بعفتها وكرامتها ، وخرجت عن الحد ، فأسرفت فى اللهو ، وانحطت إلى أسفل درك ، واشتد بها المجون والغواية ، فقد حدثنا الذهبى فى مخطوطه [٢] عن فساد المرأة أيام الدولة الفاطمية فقال :

« مر قاضى القضاة مالك بن سعيد الفاروقى فنادته امرأة ، وأقسمت عليه بالحاكم وآبائه ، أن يقف لها ، فوقف ، فبكت بكاء شديداً ، وقالت لى أخ يموت فبالله إلا ما حملتنى إليه لأشاهده قبل الموت ، فرق لها وأرسلها مع رجلين ، فأتت باباً فدخلته ، وكانت الدار لرجل يهواها وتهواه ، فأتى زوجها فسأل الجيران فأخبروه بالحال ، فذهب إلى القاضى وصاح قائلا : « أنا زوج المرأة ومالها أخ وما أفارقك حتى ترد إلىّ زوجتى » فعظم ذلك على قاضى القضاة ، وخاف سطوة الحاكم ، فأخبر أمير المؤمنين بعد أن طلب العفو منه ، فأمر الحاكم الرجل أن يركب مع الرجلين ، فوجدوا المرأة والرجل فى إزار واحد نائمين على سكر فحملا إلى الحاكم ، وباستجوابهما حملت الرجل التبعة ، وأنه حسن ذلك لها ، وباستجواب الرجل قال إنها هجمت علىّ ، وزعمت أنها خلو من بعل ، وإنى إن لم أتزوجها سعت بى إليك لتقتلنى » فأمر الخليفة الحاكم بأمر الله بالمرأة فأحرقت ، وضرب الرجل ألف سوط ، وهو بهذا ، لم يتبع نص الشريعة الغراء فى عقوبة الزانى والزانية ، عند الحكم عليهما .

لذا نرى أن من أهم المطالب الاجتماعية عند الاسماعيلية ، الاقتصار فى

---

(١) « بدائع الزهور » ح ١ ص ٥٢ ويروى عن الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله أنه جمع عدداً من الجوارى يعد بالآلاف وبنى الأبواب عليهن حتى متن جميعاً ثم أضرم النار فيهن السيوطى « حسن المحاضرة » ح ٢ ص ١٥٣ وأنظر O'leary p. 173

(٥) « تاريخ الاسلام » المخطوط ح ٣ ورقة ٢٧٦ .

التزوج على الواحدة، والابتعاد بها عن الريب والظنون، لذا منعوها من كشف وجهها فى الطريق العام وإن سارت وراء جنازة قريبها فلا تصيح [١] ومن آراء الفاطميين الاجتماعية، النهى عن البدعة، ولا غرو فقد كان الامام على كرم الله وجهه يقول «وما أحدثت بدعة، إلا ترك بها سنة، فاتقوا البدع» فنهوا عن النواح والعويل [٢] لأن النياحة على الموتى من أفعال الجاهليه، وقد نهى المنصور مثلا ابنه المعز لدين الله أن ينوح عليه عند موته [٣].

ونهوا عن شرب النبيذ والفقاع [٤] (وهو نوع من البيرة كان يعتبر مسكرا) وعن سماع الغناء، وعن تنظيم الملاهى.

ولسنا محتاجين إلى أقل تفكير لنقول إنهم أخطأوا فهم ماقاله الامام على فى ذلك، وإلا لما منع بعضهم الملوخية من أن تباع فى أسواق مصر، ومن أن يأكل الناس القرع أو الترمس أو الجرجير أو المتوكلية أو الدلينس [٥].

---

(١) روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لما مات ابنه ابراهيم أمر عليا كرم الله وجهه فغسله ثم أمره فأنزله فى قبره فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتئذ بكى فبكى من حوله حتى علت أصوات الرجال على النساء فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك أشد النهى وقال «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب وإنا بك لمصابون وإنا عليك لمحزونون يا ابراهيم» فقيل له يا رسول الله تبكى وأنت تنهانا عن البكاء فقال: «لم أنهكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن النوح والعويل». وعن جعفر بن محمد أنه قال: لما احتضر رسول الله صلى الله عليه وسلم غشى عليه فبكت فاطمة فأفاق وهى تقول مالنا بعدك يارسول الله ...». ابن النعمان «تربية المؤمنين» ورقة ٢٧٥ وابن النعمان «دعائم الاسلام» ورقة ١٤٨ و ١٤٩

(٢) المقريزى «الخطط» ج ٢ ص ٢٨٦ وابن اياس «بدائع الزهور» ج ١ ص ٥٢ وأنظر Sefer Nemeh p, 44 & Lone-Poole, A history of Egypt in the M. A. p. 126

(٣) النويرى «نهاية الأرب» ج ٢٦ ورقة ٣٧ لذلك نستبعد استمرار النواح على الظاهر لاعزاز دين الله بعد موته مدة شهر. النويرى «نهاية الأرب» ج ٢٦ ورقة ٦١

(٤) ابن عذارى المراكشى «البيان المغرب فى أخبار المغرب» ص ٢٣١ والنويرى ورقة ٥٣ وانظر O'Leary p. 133 & 136

(٥) نوع من السمك الصغير لاقشر له

وغيرها من أنواع الأطعمة والبقول لأسباب مذهبية(١)

كذلك خالفوا الإمام على فى تحـذيره من التنجيم ، فرصدوا النجوم . واستقرءوا ماوراءها ، وقربوا المنجمين منهم ، وعملوا بمشورتهم ، كمافعل بعض خلفاء الدولة العباسية(٢) فنجد مثلا أن المعزلدين الله أقر المنجمين ، بمناسبة تسمية عاصمة ملكه الجديدة(٣) ، وعمل بمشورتهم ، ورصدالنجوم ، وادعى علم الغيب ، حتى أن بعض المصادر التاريخية (٤) تحدثنا ، أن منجمه أشار عليه بأن يتوارى عن الناس مدة معينة ، فنزل إلى سرداب اتخذه لإقامته ، وتوارى فيه سنة عن الناس مدعيا أنه رفع إلى السماء بعدأن أحضر الأمراء وأوصاهم بولده العزيز بالله ، وعهد إليه بالخلافة مدة غيبته ، وأمرهم بأن يطيعوا ولى عهده . فكان المغاربة

---

(١) منع الحاكم بأمر الله الملوخية وقتل آكلها لأن أبا بكر أومعاوية كان يحبها ، والجرجير والقرع لأن عائشة بنت أبى بكر كانت تميل اليهما ، والمتوكلية لنسبتها للمتوكل الخليفة العباسى كما حرم الفقاع وبيعه لأنه كان مسكراً ، وحرم ذبح الأبقار السليمة إلا فى أيام العيد الأضحى للاكثار من النسل وحرم أكل الترمس لأنه كان معفناً يضر بالصحة . النويرى «نهاية الارب» حـ ٢٦ ورقة ٥٣ والمقريزى (الخطط) حـ ٢ ص ١٦٨ وابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٥٤ والسيوطى «حسن المحاضرة» حـ٢ ص١٥٢ وابن اياس «بدائع الزهور» حـ١ ص٥٢ وأنظر O'Leary, A short history. p. 142

(٢) أول خليفة عباسى قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم هو أبوجعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ و ٧٥٤ — ٧٧٥ م) كما كان الأمين العباسى (١٩٣ — ١٩٨ هـ و ٨٠٩ — ٨١٣م) ينظر فى أحكام النجوم ويعمل بموجبها المقريزى «السلوك» حـ١ ص ١٥ — ١٦ .

(٣) كانت القاهرة تسمى المنصورية نسبة إلى المنصور والد الخليفة المعز لدين الله حتى قدوم المعز لمصر فسماها القاهرة لأن أساسها حفر على طلوع كوكب القاهر وسواء أسميت لهذا أم لأنها ستقهر الدنيا ، فالذى يهمنا فى ذلك أنه يدل على أن الخليفة المعز لدين الله كان مغرماً بعلم النجوم . المقريزى «اتعاظ الحنفا» ص٧٣ — ٧٤ والسيوطى «حسن المحاضرة» حـ ١ ص ١٠ وانظر O'Leary, a short History p 102.

(٤) أبو شامه « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين » حـ ١ ص ٢٠٢ وأبو الفدا « كتاب المختصر فى أخبار البشر » حـ ٢ ص ١١٥ وأبو المحاسن «النجوم الزاهرة» حـ ٤ ص ٧١ والعينى « عقد الجمان » القسم الثانى من حـ ١٩ ورقه ٢٩٨ — ٢٩٩ ، والسيوطى « حسن المحاضرة » حـ ٢ ص١٢ و ١٣ وابن اياس « بدائع الزهور » حـ١ ص٤٧ .

إذا رأوا غماما سائراً ترجل الفارس منهم إلى الأرض وقال : « السلام عليك يا أمير المؤمنين » ، واستمروا على ذلك حتى ظهر المعز لدين الله من السرداب وجلس على سرير ملكه [١] ، فدخلوا عليه ، ودعوا له ، وهم يحسبون أنه كان فى السماء ، وأتى اليهم بعد أن رفعه الله إليه ، وأكبر الظن أن الخليفة المعز لدين الله احتجب عن الناس أياما ، ليملأ قلوبهم بهيبته ، وأنه عندما أخبرهم بأشياء صدرت منهم ، إنما كان ذلك بلا شك ، لا لأنه كان كما زعموا فى الغمام بنفسه أو روحه ، بل لأنه كان يرسل الجواسيس ، لينقلوا اليه أخبار رعيته .

ولا شك فى أن الجهل المتفشى إذ ذاك بين الناس ، هو الذى جعل المعز وأمثاله من خلفاء الدولة الفاطمية ، يدعون علم الغيب ، مع أن الله يقول فى كتابه العزيز ، « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله [٢] » ، ويقول تعالى لنبيه « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » [٣] كذلك تظاهر الحاكم بأمر الله بذكر الأشياء قبل وقوعها ، لأنه أكثر من الاستطلاع على رعيته ، وكان ينظر فى النجوم [٤] ومن لم يدع الغيب وقع تحت نفوذ المنجمين كالحافظ الذى عين الأحزم بن أبى زكريا النصرانى لأن فيه الصفات التى عينها فيه منجمه [٥] لتدبير مملكته حتى يزيد النيل ويكثر الزرع وتتضاعف الأسماك والأغنام وتنمو التجارة إلى غير ذلك [٦]

ولقد بلغ الحمق ببعض الخلفاء الفاطميين إلى أن يتأله ، فادعى مثلا الخليفة

---

(١) النويرى « نهاية الأرب » حـ ٢٦ ورقة ٤٦

(٢) الآية ٦٥ من سورة النمل رقم ٢٧

(٣) الآية ١٨٨ من سورة الأعراف رقم ٧

(٤) النويرى حـ ٢٦ ورقة ٥٨ . ولا يزال دروز لبنان يعتقدون زيغا منهم أن الحاكم إله ظهر فى مظهر إنسان .

(٥) كان عند الحافظ سبعة من المنجمين منهم أبو موسى النصرانى . ابن ميسر « تاريخ مصر » حـ ٢ س ٨٩ .

(٦) المقريزى « الخطط » حـ ٢ س ٢٥٠ .

الحاكم بأمر الله الألوهية ، وخاطبه جهال رعيته فقالوا « ياواحد ياأحد يامحي يامميت[١] » ، واعتقدوا أن الروح الالهية حلت فيه ، كذلك اعتقد بعض الجهال أن بيدهم الموت والحياة ، فسجدوا لهم ، وقبلوا الأرض بين أيديهم ، وقاموا على أقدامهم صفوفاً تعظيماً لهم كلما ذكروا ، مما أثار سخط رعاياهم السنيين فاضطروا الى وضع أوراق على صورة قصص ، يشتمونهم فيها ، ويتهكمون عليهم بها ، فكتبوا على المنبر بطاقة فيها :

بالظلم والجور قد رضينا　　　وليس بالكفر والحماقة
إن كنت أوتيت علم غيب　　　بيّن لنا كاتب البطاقة

ومن الغريب ، أن هذه البطاقة كتبت عدة مرات بحروفها ، لعدة خلفاء فاطميين ، غير أنها اختلفت فى المبنى ، دون المعنى ، عندما كتبها نفر بالقيروان للخليفة المهدى[٢] فقالوا :

الجور قد رضيناه　　　لا الكفر والحماقة
يا مدعى الغيوب　　　من كاتب البطاقة ؟

وكتبت بحروفها الأولى للخليفة المعز لدين الله نفسه[٣] ، كما كتبت لإبنه العزيز بالله[٤] ، كما كتبت للخليفة الحاكم بأمر الله وغيرهم[٥] ورضى المهدى مثلا ، أن يسمع من الشاعر محمد البديل ، أبياتاً فيها كفر وحماقة ، كقوله مادحاً إياه .

---

(١) الذهبي « تاريخ الاسلام » حـ ٣ ص ٢٨٩ « وتاريخ لبنان » المخطوط ورقة ٣٢ و ٣٣ وابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٥٨ والسيوطى « حسن المحاضرة » حـ ٢ ص ١٣ و ١٤ وابن اياس « بدائع الزهور » حـ ١ ص ٥٦ . وانظر O'Leary p. 181

(٢) ابن عذارى المراكشى « البيان المغرب فى أخبار المغرب » ص ١٥٩ .

(٣) ابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » المخطوط ورقة ٤٧ .

(٤) ابن خلكان « وفيات الأعيان » حـ ٣ ص ٥٤ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » حـ ٤ ص ١١٦

(٥) القلقشندى « صبح الأعشى » حـ ١٣ ص ٢٤١ — ٢٤٢ وكتاب « ذخيرة الأعلام » المخطوط ورقة ١١٢ والسيوطى « حسن المحاضرة » حـ ٢ ص ١٣ وابن إياس « بدائع الزهور » حـ ١ ص ٥٦

حل برقاده المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها أحمد المصطفى حل بها الكبش والذبيح
حل بها الله ذو المعالى وكل شيء سواه ريح [١]

كما رضى الخليفة المعز لدين الله مثلا ، أن يسمع من محمد بن هانىء [٢] شاعره ، أبياتا فيها غلو إلى الكفر والإلحاد مثل قوله :

ماشئت لاماشاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبى محمد وكأنما أنصارك الأنصار [٣]

وروى ابن إياس [٤] أن الخليفة المعز والحاكم عبدا الكواكب ، بقوله «إن الحاكم كان يعبد الكواكب كما كان جده المعز» ونحن نستبعد ذلك ونرى أن اللفظ محرف ويجب تغييره بـ «يرصد» لأن بعض الفاطميين شغفوا بالفلك والنجامة لأنها تدعو للتقوى والخوف من الله ، وقد أثر عن المنصور والد المعز لدين الله أنه قال «والله ماطلبنا هذا العلم إلا لما يدل عليه من توحيد الله جل ذكره وتأثير حكمته فى منفعلاته [٥]» .

ولعل هذا أيضاً ماجعل رعاياهم السنيين يسخطون حتى على نسبهم، فتهكموا ببطاقة على المنبر فيها

إنا سمعنا نسباً منكراً يتلى على المنبر فى الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقا فاذكر أباً بعد الأب الرابع

---

(١) العينى «عقد الجمان» القسم الثانى من حـ ١٩ ورقة ٢٧٢ وابن عذارى المراكشى «البيان المغرب» ص ١٥٩ .

(٢) عند المغاربة كالمتنبي عند المشارقة وكما قدم المتنبي لمصر سنة ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) ليستظل بحماية الأخشيد كذلك قدم ابن هانىء مع المعز عند رحيله لمصر وكانا متعاصرين . قضى ابن هانىء أيام صباه بالأندلس ثم رحل الى المغرب موطن أبيه ومدح الخليفة المعز لدين الله وقتل فى رقه فى رجب سنة ٣٦٢ هـ (ابريل سنة ٩٧٣ م) ابن الأثير «الكامل» حـ ٨ ص ٢٢٢ — ٢٢٣

(٣) ديوان ابن هانىء ص ٩٦ وابن الأثير «الكامل» حـ ٨ ص ٢٢٣ وأبو الفدا «كتاب المختصر فى أخبار البشر» حـ ٢ ص ١١٢ والدوادار «زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة» حـ ٥ ورقة ١١٨ والمقريزى «اتعاظ الحنفا» ص ٦٢ والسيوطى «حسن المحاضرة» حـ ٢ ص ١٢ .

(٤) «بدائع الزهور» حـ ١ ص ٥٣

(٥) ابن النعمان «المجالس والمسايرات» حـ ١ ص ١٦٥ .

وإن ترد تحقيق ماقلته فانسب لنا نفسك كالطائع
أوفدع الأنساب مستورة وادخل بنا فى النسب الواسع
فان أنساب بنى هاشم يقصر عنها طمع الطامع

ومن الغريب أن هذه الرقعة قال بعض المؤرخين[١] إنها كتبت للمعز لدين الله ، وقال البعض الآخر[٢] بل كتبت لابنه العزيز بالله ، ووضعت على المنبر . والظاهر أن كتب السب والتهكم بالخلفاء كانت منتشرة إذ ذاك ، فقد كتب الخليفة العزيز بالله ، إلى صاحب الأندلس الأموى ، كتاباً يسبه فيه ويهجوه، فكتب إليه الخليفة الأموى ، أما بعد : قد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبناك[٣] ، مما يدل على التوتر لاختلاف النزعة الدينية .

ومن مطالبهم الاقتصادية ، المساواة بين الذكر والأنثى[٤] ، والاسماعيلية، واخوانهم القرامطة ، هم اشتراكيو الإسلام ، لأنهم حاولوا أن يقيموا بين الناس نوعا من المساواة الفعلية، ففرضوا من الضرائب الفطرة[٥]، وهذه الضريبة شبيهة بضريبة الرءوس ، والنجوى[٦] والهجرة[٧] ، والبلغة[٨]، والألفة[٩] ، والزكاة، والخمس[١٠]، مما قلل التفاوت فى الثروات . ومن كان فيهم فقيرا أسعفوه ،

---

(١) النويرى «نهاية الأرب» ج ٢٦ ورقة ٤٣ وابن طاهر «أخبار الدول المنقطعة» ورقة ٤٧
(٢) ابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ٣ ص ٥٤ ، وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٤ ص ١١٦ ، وانظر Oleary,a short History p. 116 .
(٣) أبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٤ ص ١١٤ .
(٤) ومن الغريب أن الدروز وهم فرع من فروع الشجرة الاسماعيلية لايقولون بمساواة المرأة للرجل انظر Ency-Musulm Vol 30 p. 817 .
(٥) درهم عن كل من ولد من الرجال والنساء
(٦) ٣ ٢/٣ درهم
(٧) دينار عمن أدرك من النساء والرجال .
(٨) اختيارية يدفعها القادرون ومقدارها ٧ دنانير عن كل فرد لتضمن له الجنة .
(٩) فيها تجمع الأموال فى موضع واحد ويكونون فيه أسوة واحدة لايفضل أحد منهم فيه صاحبه .
(١٠) يخرج الرجل خمس ما يملك أو ما يكسب ، والمرأة خمس غزلها .

فكسوا عاريهم واطعموا جائعهم ، وبهذا جذبوا إليهم أغلب من عضهم الفقر بنابه وأنفقت الحكومة على رعاياها الفقراء ووزعت عليهم الأقوات والملابس وغير ذلك ، كذلك احتكروا بعض مصادر الثروة الفردية ، لأنها أصل الشرور الاجتماعية ، واستولوا على بعض وسائل الإنتاج ، لتوزيعها بعد ذلك على الأفراد توزيعا يتفق ومصلحة المجموع ، كالمناجم [١] ، والأحراج [٢] ، والمراكب ، واحتكروا الحوانيت ، والمخازن ، والأفران ، والحمامات ، والطواحين [٣] ، وغيرها .

وكان من رأيهم ابطال ملكية الأراضى ، وتوزيعها على المحتاجين إليها مجانا ، فنجد مثلا المعز لدين الله بمجرد حضوره لمصر يستولى على أملاك الدولة الاخشيدية ، ويضمها إلى أراضى الدولة ثم يقطعها هو ، ومن أتى بعده ، من الخلفاء الفاطميين ، نفراً من خواصهم

وإذا سخط خليفة فاطمى على أحد من الأغنياء ، نزع ملكيته لتكون ملكا للدولة ، وبذلك نشأ الديوان المفرد . كذلك سمعنا أيامهم ، على لسان الحاكم بأمر الله ، عبارة « المال مال الله والخلق عيال الله » كما سمعنا عبارات أخرى اشتراكية فى عصرهم ، مثل « لا مال إلا لله » ، وان « لا فرق بين غنى وفقير » [٤] . وقاوموا فى الإسلام العصبية القومية ، ودافعوا عن فكرة الأخاء الحقيقية ، لا بين المسلمين وحدهم ، بل بينهم وبين جميع الناس على اختلاف قومياتهم ، وطبقاتهم ، وأديانهم [٥] .

شعرت الاسماعيلية ، بقوتها المعنوية ، والروحية ، فاعتقدت أنها قادرة على أن تجعل من أعضائها المختلفى النزعات والغايات كتلة واحدة ، تدين

---

(١) كمناجم الشب والنطرون وغيرهما .

(٢) شجر السنط ومنه القرظ

(٣) ويطحن فيها الناس القمح والشعير دون أجر ، وعلى الدولة نفقاتها وأجور عمالها

(٤) قيلتا على لسان حمدان بن قرمط

(٥) لذلك كان الاسماعيليون والشعوبية (الذين يفضلون العجم على العرب) على طرفى نقيض ، فبينما الشعوبية حزب العصبية القومية نجد الاسماعيلية حزب اللاقومية أى ال Internationalism

بمذهبهم ، وتكون آلة صماء ، فى أيدى «صاحب الزمان» ، وأعوانه ، وبذلك نشروا دعوتهم فى جميع الأمم الخاضعة للدولة العباسية ، لا يفرقون بين دين وآخر ، لأن غرضهم الأسمى هو ادخال عقلاء الناس فى جمعيتهم . ومهدت الحركة الاسماعيلية السبيل لنشر الأفكار الحرة فى العالم الإسلامى ، وجرأت بعض الناس على المجاهرة بها ، فنشر أبو العلاء المعرى ، وابن هانىء ، وغيرهما أفكارهما ولو خالفت الدين ، ودعت إلى الكفر [١] كذلك نادى بعض الشيعة بالاباحة بأجلى معانيها .

أما مجمل تاريخ الدولة الفاطمية السياسى فقد نشأت الدولة الفاطمية من اسرة شيعية ، قامت بشمال إفريقية ، حين أقبل دعاة الاسماعيلية على نشر عقيدتهم [٢] . وقد ساعد على ازدياد دعوتهم ، بتلك الأنحاء النائية عن السلطة المركزية ببغداد ، جهل البربر من سكانها ، وكراهيتهم لولاتهم [٣] ، الذين أثقلوا كاهلهم بالضرائب ، فارتفع نجم العبيديين بها وزادت دعوتهم انتشاراً ، وأمرهم ظهوراً ، بعد أن حرث أرض المغرب البور ، الحلوانى وأبو سفيان [٤] منذ سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) وأعداها لأبى عبدالله الشيعى ، وأخيه أبى العباس [٥] ، لبذر الحب واستمالة قلوب أهل المغرب إلى آل البيت ، فلما

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ﺟ ٣ ص ٤٩٧ وبندلى جوزى « تاريخ الحركات الاجتماعية » ترجمة الأستاذ سكاكينى ص ١٠٧ — ١١٦ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ١٠٤ — ١٠٥ والنويرى « نهاية الأرب » ﺟ ٢٣ ص ٤٠٥ .

(٢) أول من أسس سلطاناً من العلويين فى شمال أفريقية سنة ١٦٩ هـ (٨٧٥ م) هم الأدارسة .

(٣) فلم يكونوا يدينون لهم بطاعة وساعدهم على ذلك أن الأسرة الحاكمة للبلاد كانت ضعيفة .

(٤) أوفدهما إلى المغرب جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب (٨٣ — ١٤٨ هـ) أما أم جعفر فهى أم فروه بنت القاسم بن أبى بكر الصديق النويرى « نهاية الأرب » ﺟ ٢٦ ورقة ٢٤ وابن خلدون « العبر » ﺟ ٤ ص ٣١ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٢١ .

(٥) أرسلهما إلى المغرب محمد المعروف بأبى الشلعلع والشيعى هو عبد الله الحسين بن احمد ابن محمد بن زكريا مؤسس سلطان الفاطميين بأفريقية ، ولد بصنعاء اليمن وقيل بل بالكوفة =

دخل صاحب البذر الحقيق ، وهو عبيد الله المهدى ، أول خلفاء الفاطميين وجد جهود دعاة الشيعة قد أثمرت، لأن العقول قد مهدت، لقبول مهدى يظهر للناس كأنه الامام المنتظر ، وسليل آل على من ولد محمد بن اسماعيل بن جعفر

= وكان محتسباً باحدى مدن العراق ، تعرف الى حجاج البربر بمكة واصطحبوه الى بلادهم ولما عظم شأنه أرسل إليه الأمير ابراهيم بن احمد صاحب أفريقية رسولا هو ابن المعتصم برسالة اشتدت ألفاظها أحيانا ولانت أحيانا أخرى حتى يقلع عن دعوته ، فرد عليه رده الممتلىء حماسة وايمانا فيقول لنفس الرسول « قد قلت فاسمع ، وبلغت فابلغ ، ما أنا ممن يروع بالايعاد ولا ممن يهوله الابراق والارعاد ، فأما تخويفك إياى برجال مملكتك وأنصار دولتك ، أبناء حطام الدنيا الذين يقتادون لكل سايق ويجيبون كل داع وناعق فانى من أنصار الدين وحماة المؤمنين الذين لا تردعهم كثرة أنصار الباطل » ولما استقرت الأمور للشيعى برقاده والقيروان استخلف أخاه أبا العباس محمد بن احمد بن محمد (وكان أسن منه) على أفريقية وذهب هو الى رقاده فى رمضان سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) لأنه علم أن عبيد الله المهدى وكان قد أرسل إليه يطلبه ليحضر إليه لنجاحه قد فر من سلمية (بليده بالشام من أعمال حمص بقرب مدينة حماه) هرباً من الخليفة العباسى المعتضد ثم المكتفى الى المغرب ونزل فى زى التجار بسجلماسة فقبض عليه « اليسع بن مدرار » واليها عندما علم بحقيقة أمره وأنه الرجل الذى يدعو إليه الشيعى ، وحبسه هو وابنه القائم وتمكن هو وأصحابه من اخراجهما فى ذى الحجة سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) وقال للناس « هذا هو مولاكم » وهو يبكى من شدة الفرح وبعث الخيل فى طلب اليسع فأدرك وضرب بالسياط وقتل بعد أن هرب فى ظلام الليل ثم باشر المهدى الأمور بنفسه وكف أيدى الشيعى وأخيه ثم تسرب الشك الى نفسه منهما فقتلهما بمدينة رقاده سنة ٢٩٨ هـ (٩١١ م) حيث استدعى المهدى « عروبة بن يوسف » وأخاه « حباسه » وأمرهما بقتل الشيعى وأخيه أبى العباس « وحمل الأول على الشيعى فقال له لا تفعل فقال الذى أمرتنا بطاعته أمر بقتلك ثم أجهز عليهما » وبذلك قتلهما المهدى كما قتل أبو جعفر المنصور « أبا مسلم الخراسانى » الذى قامت على أكتافه الدولة العباسية . ابن النعمان « كتاب افتتاح الدعوة » جـ ٣ ورقة ٢٣ — ٢٥ وجـ ٤ ورقة ٢٦ — ٤٥ وابن عذارى المراكشى « البيان المغرب فى أخبار المغرب » ص ١٥١ و ١٦٣ — ١٦٤ وابن خلكان « وفيات الأعيان » جـ ٢ ص ٤٨٨ والنويرى « نهاية الأرب » جـ ٢٦ ورقة ٢٤ و٢٦ و٣١ و٣٣ و٣٤ و٣٧ وأبو الفدا « المختصر فى أخبار البشر » جـ ٢ ص ٦٥ - ٦٦ وجـ ٣ ص ٥١ وابن ظاهر (أخبار الدول المنقطعة) ورقة ٤٠ — ٤٢ وابن خلدون « العبر » جـ ٤ ص ٣٦ — ٣٧ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ١٣ — ١٤ و٣١ و٣٤ و٣٨ — ٤١ و٤٤ و٤٥ « والخطط » جـ ٢ ص ٢٦٢ و٢٢٧ — ٢٣٣ وجـ ٣ ص ١٥ — ١٨ والعينى « عقد الجمان » القسم الثانى من جـ ١٩ ورقة ٢٩٧ . وانظر

Ameer Ali, A short history of saracens pp. 591—594,
O' Leary, a short history . . . p. 57 — 72 ,muir, The Caliphate p. 563, Ivanow, Ismaili, pp. 33 — 34, 40 - 44, The Ency. Britanica Vol. 9 p. 115.

الصادق ، فأقام خلافة علوية فى «رقاده»[١] ، ثم «القيروان»[٢] ، ثم «المهدية» ، ورفع بيده منار الاسماعيلية ، فأصاب كل فج خاضع لهم بالمغرب حظاً من دعوتهم الشيعية ، وشعاعاً من عقيدتهم ، ولم يلبث أن قضى على حكم الأغالبة فى تونس سنة ٢٩٦ ﻫ (٩٠٩ م)[٣] ، وبسط سلطان الشيعة على بلاد المغرب ، فأزال ملك بنى مدرار من سجلماسة[٤] ، وملك بنى رستم من تاهرت إليه ، واتخذ مدينة المهدية[٥] مقراً لحكمه سنة ٣٠٨ ﻫ (٩٢٠ م) . ولقد شعر المهدى منذ البداية بأن دولته بالمغرب لم تكن قوية الدعائم ، ففكر فى امتلاك مصر ، فأرسل الحملات البرية والبحرية إليها لفتحها مع ابنه ولى عهده « أبى القاسم » ، فكانت تصيبها بوادر النجاح أحياناً ، فتستولى على الاسكندرية والفيوم[٦] ، وبعض النجاح أحياناً أخرى ، فتدخل الجيزة والفيوم وبعض أراضى الصعيد[٧] ، وتكاد تشرف على عاصمة مصر ، كما تصل سفنه إلى

---

(١) رقاده مدينة على بعد أربعة أميال من القيروان كانت داراً لبنى الأغلب الى أن هرب منها زيادة الله من «أبى عبد الله الشيعى» وقد سكنها عبيد الله المهدى سنة ٢٩٧ ﻫ . (٩٠٩ م) الى أن انتقل منها الى المهدية سنة ٣٠٨ ﻫ (٩٢٠) البكرى « كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب » ص ٢٧ .

(٢) القيروان تقع على بعد أربعة أميال من رقادة وهى أكبر مدائن بلاد المغرب . البكرى « كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب » ص ٢٢ — ٢٧

(٣) أسس ابراهيم بن الأغلب ملك بنى الأغلب بتونس من سنة ١٨٤ ﻫ (٨٠٠ م) .

(٤) سجلماسة مدينة تبعد عن القيروان ٤٦ فرسخا بنيت سنة ١٤٠ ﻫ (٧٥٧) واتخذها بنو مدرار حاضرة لملكهم . البكرى « كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب » ص ١٤٨ — ١٤٩ . واليعقوبى « كتاب البلدان » ص ٣٥٩

(٥) المهدية تنسب الى المهدى الذى بناها سنة ٣٠٠ ﻫ (٩١٢ م) وحصنها سنة ٣٠٣ ﻫ (٩١٥) م وبينها وبين القيروان ٦٠ ميلا . البكرى « كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب » ص ٢٩ وابن عذارى المراكشى « البيان المغرب » ص ٢١٥ وأبو الفدا « المختصر » ﺣ ٢ ص ٦٧ — ٦٩ وابن ظاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٤٢ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٤٢ .

(٦) كما فى حملة سنة ٣٠١ ﻫ . و ٩١٣ م . ابن ظاهر « اخبار الدول المنقطعة » ورقة ٤٣ أبو الفدا « المختصر فى أخبار البشر » ﺣ ٢ ص ٦٧ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٤١ .

(٧) كما فى حملة سنة ٣٠٨ ﻫ و ٩١٩ م النويرى « نهاية الأرب » ﺣ ٢٦ ورقة ١٥ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٤٣ و « الخطط » ﺣ ٢ ص ١٦٣ .

رشيد[١] فيردها الخليفة العباسي المقتدر وخادمه «مونس» ، الذي لقب بالمظفر لغلبه عساكر المغرب غير مرة ، وردها إلى مكانها ، لأن مصر كانت من القوة بحيث تستطيع أن ترد تلك الحملات[٢] ، ثم شغلت دولة العبيديين الفتن والثورات التي قام بها الخوارج ، وبخاصة تلك الثورة التي قام بها أبو يزيد مخلد بن كيداد في بلاد المغرب .

ولقد تطلع المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين لغزو مصر ، بعد أن استقر ملكهم بشمال افريقية ، بعد أن شيدوا دولتهم على أنقاض ملك الأغالبة واستتب لهم الأمر فيها ، ودانت لهم بالطاعة ، ولا غرو فقد كانوا يرسلون دعاتهم إلى مصر يبثون دعوتهم في الخفاء[٣] فعلموا حقيقة الحال فيها ، وأنها أصبحت فريسة سهلة لكل فاتح .

ولقد رأى المعز لدين الله الفرصة سانحة لتحقيق مشروع آبائه في فتح مصر ، لتكون جوهرة في تاج الدولة الفاطمية ، تزيد في اتساع هضاب المغرب المجدبة ، وأيقن مما وقف عليه من رسله ودعاته ، أنه لن يلقى في فتحها معارضة تذكر ، أو مجهوداً يبذل ، فالدولة العباسية قد اضمحل سلطانها ، فاستقل الأمويون بالأندلس[٤] والأخشيديون بمصر[٥] والفواطم في المغرب ، كما قامت دول أخرى صغيرة ، تغلب كل رئيس لها على ناحية وانفرد بها[٦] واستقلت كلها

(١) أبو الفدا «كتاب المختصر في أخبار البشر» ج ٢ ص ٦٨ — ٦٩ والمقريزي «اتعاظ الحنفا» ص ٤٣ .

(٢) فشلت تلك الغزوات حربيا ولكنها نجحت نجاحا كبيرا في بث الدعوة للبيت العلوي لأنهم كانوا يدمجون في صفوفهم دعاة يعلمون المصريين عقائد مذهبهم . انظر

Lane-Poole, A history of Egypt in the Middle Ages pp, 80 — 99,
Muir, The Caliphate, its Rise, Decline & Fall from Original Sources p. 563.
& O'Leary, A short History of the Fatimid Khalifate p. 78

(٣) المقريزي «اتعاظ الحنفا» ص ٦٦ والأستاذ عنان «الحاكم» ص ٢٧ .

(٤) (١٣٨ — ٨٩٧ هـ و (٧٥٦ — ١٤٩٢ م) على يد عبد الرحمن الأول المتوفى سنة ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) .

(٥) (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ و ٩٣٥ — ٩٦٩ م) ومؤسسها محمد بن طغج الاخشيد

(٦) قام بنو بويه وحكموا فارس وكان السامانيون فيما وراء النهر وبنو حمدان في أعلى =

سياسيا وإداريا ، وإن بقيت مع ذلك مستظلة بلواء الخلافة الديني ، تعترف له بالسيادة الدينية ، وتقوم له بالدعاء في المساجد ، وتتحفه بهداياها من وقت لآخر ، وتتلقى منه خلعه وعهوده .

علم المعز لدين الله بأن الخليفة العباسي لم يكن له من الخلافة إلا اسمها ، يستعين به الحكام الأقوياء ليمنحهم تفويضا بالحكم ، لأن ذلك مايجعل سلطانهم شرعيا ، وأن دلائل التدهور قد ظهرت بانقسام دولته ، وغدت بغداد وقد تنكرت لها الأيام بضعف الخلافة فيها ، تنافسها الفسطاط بمصر ، فأحب أن تكون عاصمة مصر ، فخر الإسلام وأكبر مدنه ، مكان دعوته ، وموطن شيعته ، وأن تستمر في أيامه تنافس دار السلام وقرطبة ، ووجد أن ساعة الفتح قد دنت ، لأن الخليفة العباسي مشغول عنه بالفتن التي سادت بغداد ، وبدفع البيزنطيين عن بلاده خصوصا وأن القيروان وكذا المهدية أصبحتا لاتصلح أيهما حاضره ينافس بها الدولة العباسية ، وأن الخليفة العباسي « المطيع لله » ، يجوز مرحلة اضطراب وضعف ، يعجز فيها عن إرسال الجيوش إليه .

وكان المعز لدين الله ، قد مهد للفتح بإنشاء الطرق والمنازل ، على رأس كل مرحلة ، وبحفر الآبار على طول الطريق ، [1] من المنصورية [2] عاصمة

= الجزيرة والشام ، فكونوا الدولة الحمدانية في حلب والموصل (٣١٧ — ٣٩٤ هـ و ٩٢٩ — ١٠٠٣ م) كما قام القرامطة وغيرهم وبذلك لم يبق للخليفة العباسي إلا بغداد وأعمالها ، ويشبه المسعودى فى كتابه « مروج الذهب » فعل أصحاب الأطراف (أو ملوك الطوائف) وتغلب كل واحد منهم على الصقع الذى هو فيه بفعل ملوك الطوائف بعد موت الاسكندر ، إلا أننا نرى أن هذه الأقاليم وإن انفصلت عن الخلافة العباسية إلا أنها كانت تؤلف مملكة واحدة فناصرو خسرو مثلا عندما طوف ببعض البلاد الاسلامية فى القرن ١١ ٥ هـ و ١١ م لم يلق مضايقة فيها . المسعودى « مروج الذهب » (الطبعة الأوروبية) جـ ١ ص ٧٣ ومابعدها ومتز « الحضارة الاسلامية » ص ٢

(١) النويرى « نهاية الأرب » جـ ٢٦ ورقم ٣٨ وابن خلدون « العبر » جـ ٤ ص ٤٨ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٦١ وانظر O'Leary, A short history p. 98

(٢) بناها والد المعز لدين الله سنة ٣٣٧ هـ و ٩٤٨ م والبكرى « كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب » ص ٢٥

ملكه إلى الإسكندرية . وعمل على تخزين المؤن والذخائر، فتأكد من طلائعه وعيونه ، أن مصر وإن تنمرت لآبائه ، قد غدت فريسة هينة له ، ولم لا ؟

ألم يسمع باضمحلال أخلاق القوم ، وأن مصر تعانى مصائب الوباء والغلاء حتى فقدت من أبنائها زهاء ٦٠٠ ألف رجل ، وبلغ الخبز كل رطل بدرهمين والحنطة كل ويبة بدينار وسدس مصرى [١] ، ألم يقل له دعاته : « إذا زال الحجر الأسود (ويعنون به موت كافور الاخشيدى) [٢] ملك مولانا المعز لدين الله الأرض كلها » [٣] .

ألم يبلغه أن الشعب المصرى متبرم من حكامه ، ومعظمهم من الفرس ، أو الترك المستعربين [٤] ، وأن الجند كثيرو التمرد ، وإثارة الثورات لاستخلاص أرزاقهم من الزعماء الظالمين الجشعين ، حتى أنه لم يبق بمصر من تجتمع القلوب عليه ، ولاح ذبول الدولة الأخشيدية ، فقد وجدت فى القصر رقعة موجهة إلى الاخشيديين فيها ، « وليتم فظلمتم ، وحكمتم فجرتم ... وانعكفتم على اللذات ... فاعملوا ماشئتم ، فانا صابرون ، وجوروا ما استطعتم ، فانا عليكم بالله مستجيرون » [٥] هذا إلى أن جماعة من وجوه المصريين كتبوا للمعز لدين الله طالبين منه إنفاذ عساكره ليسلموا له البلاد ، واستجار به جند المصريين أنفسهم ، عندما قلت

---

(١) ابن الأثير « الكامل » جـ ٢ ص ٢١٢ ابن خلكان « وفيات الأعيان » جـ ٢ ص ٥٤٨ والعينى « عقد الجمان » القسم الثانى من جـ ١٩ ورقة ٢٩٩ والسيوطى « حسن المحاضرة » جـ ٢ ص ١١ وانظر . Lane Poole, A history of Egypt in the Middle Ages p, 101

(٢) لترجمة حياة كافور الاخشيدى انظر ابن خلكان « وفيات الأعيان » جـ ١ ص ١٨٥ — ١٨٦ و ١٨٨ والنويرى « نهاية الأرب » جـ ٢٦ ورقة ١٩ والمقريزى « الخطط » جـ ٣ ص ٤١ — ٤٢ والعينى « عقد الجمان » القسم الثانى من جـ ١٩ ورقة ٢١٥ ودائرة المعارف الاسلامية المجلد الأول ص ٥١٢ — ٥١٤ توفى كافور سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨م) .

(٣) المقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٦٦ والعينى « عقد الجمان » القسم الثانى من جـ ١٩ ص ٢٦٦ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » جـ ٤ ص ٧٢ .

(٤) الطولونيون والاخشيديون هم أتراك أما الفاطميون فهم عرب

(٥) العينى « عقد الجمان » القسم الثانى من جـ ١٩ ورقة ٢٢١

الأموال ليسلموا إليه مصر [١] مما جعله يقول وهو بالمنصورية لعدد من شيوخ كتامه ، : « وإنى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطى » [٢] .

فشجعه ذلك وقوى رغبته فى زيادة رقعة أملاكه ، بفتح مصر الخصبة الغنية كثيرة الموارد ، ومد سلطانه على الشام والحرمين ، الخاضعة لسلطان الاخشيديين [٣] .

ولقد ثبت عزيمته أن مصر مكان صالح لنشر دعوة الشيعيين وسلطانهم فى ثلاث من حواضر الإسلام الكبرى ، المدينة ، والفسطاط ، ودمشق ، وأنها بما حباها الله من موقع جغرافى ، وبعد عن مركز الخلافة العباسية ، تتوسط العالم الإسلامى ، حتى أصبحت عظيمة الأهمية من الوجهتين السياسية والحربية ، فحشد المعز كل ما استطاع من جند وذخيرة ومال [٤] عند وفاة كافور ، وعهد بهذه الحملة إلى جوهر الصقلى غلامه الرومى ، أعظم قواده ، بعد أن علم بما آلت إليه الخلافة العباسية من ضعف ووهن واضطراب وغلاء ووباء ، وبعد أن وثق من أن الأمة المصرية أصبحت لاتخشى الفتح بل تشجعه

---

(١) وابن خلكان « وفيات الأعيان » جـ١ ص ٢١٠ — ٢١١ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » جـ ٤ ص ٢٠ وابن اياس « بدائع الزهور » جـ ١ ص ٤٤ وانظر
Ameer Ali Syed, A short history of Saracens p. 599

(٢) المقريزى « الخطط » جـ١ ص ١٦٤ « واتعاظ الحنفا » ص ٦١ وانظر
Lane-Pool, A history of Egypt in The Middle Ages p. 100

(٣) عند ما عقد الخليفة العباسى « المتقى » للاخشيد ولديه من بعده ، أعطاهم مصر والشام والحرمين . النويرى « نهاية الأرب » جـ ٢٦ ورقه ١٧ والمقريزى « الخطط » جـ ٣ ص ٤٢

(٤) بلغت هذه الأموال ٢٤ مليون دينار وكان الجيش يزيد على ١٠٠ ألف مقاتل من شجعان كتامة (من قبائل البربر) ابن خلكان جـ ١ ص ١٤٨ والمقريزى « الخطط » جـ ٢ ص ١٦٤ و ٢٠٥ « واتعاظ الحنفا » ص ٦٢ والعينى « عقد الجمان » القسم الثانى من جـ ١٩ ورقة ٢٦٧ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » جـ٤ ص ٧٣ والسيوطى « حسن المحاضرة » جـ ٢ ص ١١ وابن اياس « بدائع الزهور » جـ ١ ص ٤٤ وانظر
Lane-Pool, A story of Cairo p. 117 & O'Leary, A short history of the Fatimid p. 101

حتى أن الأنباء لم تكد تذاع بوصول جوهر وعساكره ، حتى آثر معظم الزعماء المهادنة ، وطلب الأمان والصلح ، وطلبوا إلى وزيرهم « جعفر بن الفرات » أن يتولى تلك المهمة عنهم ، كما طلبوا من الشريف العلوى « أبى جعفر مسلم بن عبد الله الحسينى » أن يكون سفيرهم لدى قائد الحملة ، فسار على رأس جماعة من وجوه المصريين ، فيهم القاضى أبو الطاهر ، للقائه وقابلوه على مقربة من الأسكندرية ، فى قرية تعرف « باتروجه » فى رجب سنة ٣٥٨ هـ ، فاغتبط جوهر بمقدمهم ، وأجاب ملتمسهم ، وكتب لهم أماناً يعتبر وثيقة هامة [١] .

ولكن فلول الاخشيديين والكافورية ومن والاهم من الجند لم يقبلوا الأمان وآثروا الدفاع ، وساروا إلى الجيزة لقتال جوهر ، فانهزموا بعد مقاومة يسيرة ، وفر أصحاب كافور ، وتم فتح مصر بدخول جوهر الفسطاط فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٢٠ يونيه سنة ٩٦٨ م) بعد العصر ، وبذلك خرجت مصر من يد الاخشيديين .

وجدد جوهر للمصريين الأمان [٢] وبذلك أصبحت مصر درة نفيسة فى

---

(١) وعد المصريين فيه باسقاط الرسوم الجائرة ونشر العدل بين السكان وفيه دستور نايتهم السياسية والتمدح بحمايتهم للمصريين كما فيه سياستهم المذهبية وما ينطوى اتخاذه نحو المصريين أصحاب الأغلبية السنية من وعد بأن يجيزهم فى موارثهم على كتاب الله وسنة رسوله وباقامتهم على مذهبهم لأن الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة كما فيه وعد بأن يجرى الآذان والصلاة وصيام رمضان وفطره والزكاة والحج وغيرها على ما امر الله ورسوله فيتركوا كما كانوا فى أداء الفرائض وفيه وعد بالاهتمام بمرافق البلاد كترميم المساجد وفرشها بالفرش وايقادها وأن يصرف لمؤذنيها وغيرهم أرزاقهم من بيت المال ومنع غش العملة وحسن معاملة أهل الذمة إلى غير ذلك . الدوادار « زبدة الفكرة » جـ ٥ ورقة ١٠٤ — ١٠٥ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٦٦ — ٧٠ وانظر The Ency, of Islam Vol 11 p. 89

(٢) لما ألح المصريون على الشريف « أبى جعفر مسلم » بمكاتبة جوهر لإعادة الأمان نزل على رأيهم وكتب إليه يهنئه بالفتح ويسأله اعادة الأمان فأعاده على حالته الأولى وتلقاه المصريون وجوههم وأشرافهم وعلماؤهم وتجارهم وقضاتهم ومعهم الشريف أبو جعفر والوزير جعفر بن الفرات ، ولما التقوا بجوهر نادى مناد أن ينزل كل الناس إلا الشريف والوزير فنزلوا وسلموا على جوهر واحداً واحداً ، ثم اصطحب الشريف عن يمينه والوزير عن يساره ابن خلكان « وفيات الأعيان » جـ ١ ص ٢١١ — ٢١٢ والدوادار « زبدة الفكرة » ورقة ١٠٦ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٧٢ — ٧٣ . وانظر O'Leary, A short history . . . p. 102

قيصريتهم الإسلامية . وأعظم قطر فى أمبراطوريتهم الشاسعة [١] وبشر المعز بفتح مصر ، فوصلته البشارة فى نصف رمضان سنة ٣٥٨ ، وأنشد شاعره ابن هانى قصيدة بليغة [٢] .

أتى جوهر فاتحاً لخليفة له الأمر والسلطان ، هو المعز لدين الله ، لا والياً مبعوثاً ، كما كان الأمر بمصر أيام الأسرتين الطولونية والأخشيدية ، فلا عجب أن وجدنا المعز يستقل استقلالا تاما بملكه الجديد عن الدولة العباسية ، وأن يفرض على البلاد مذهب الشيعة ، وكان هو وآباؤه قد مهدوا بدعاتهم لنشر عقيدتهم فى البلاد .

وفى يوم الاثنين ٢١ شوال سنة ٣٦١ ه (٥ أغسطس سنة ٩٧٢ م) ، خرج المعز لدين الله [٣] الفاطمى بأهله وحاشيته وجنوده وخزائنه ، وفيها الأموال الكثيرة [٤] ، على الجمال ، وأفراد أسرته الذين ماتوا بافريقية (المهدى والقائم والمنصور) فى توابيت من خشب ليدفنهم بمصر بالقرافة الكبرى بترب الزعفران وموقعها الآن بخان الخليلى ، من مدينة المنصورية قاصداً الديار المصرية ، بعد أن مهدها له جوهر ووطد سلطانها ، وبنى له بها دور الأمارة ، واستخلف على إفريقية يوسف ابن زيرى الصنهاجى ، الذى استخلفه فى سبع بقين من ذى القعدة سنة ٣٦١ ه ، وأمر الناس بالسمع

---

(١) ابن الأثير «الكامل» ج ٨ ص ٩٤ وابن خلكان ج ١ ص ٢١٠ — ٢١١ والنويرى «نهاية الأرب» ج ٢٦ ورقة ٢١ .

(٢) استهلها بقوله يقول بنو العباس هل فتحت مصر
فقل لبنى العباس قد قضى الأمر

المقريزى «اتعاظ الحنفا» ص ٦٢ وأبو المحاسن «النجوم الزاهرة» ج ٤ ص ٣٠ والسيوطى «حسن المحاضرة» ج ٢ ص ١٢

(٣) بعد أن كتب له جوهر يستدعيه ويخبره بانتظام الحال بمصر والشام والحجاز وإقامة الدعوة له فيها .

(٤) ١٥٠٠ جمل مسوقة ذهبا عينا ابن اياس «بدائع الزهور» ج ١ ص ٤٥ والنويرى «نهاية الأرب» ج ٢٦ ورقة ٤٣ .

أما جوهر فقد دخل وبين يديه ١٢٠٠ وقيل ١٥٠٠ صندوق من المال العينى «عقد الجمان» القسم الثانى من ج ١٩ ورقة ٣٢١ — ٣٢٢ والنويرى «نهاية الأرب» ج ٢٦ ورقة ٤٠

والطاعة له[١] ولكى يوجد فى سبيله عراقيل فيما لو طمحت نفسه إلى الاستقلال بالحكم، فصل عن ولايته طرابلس الغرب وجعل عليها «عبد الله بن يخلف الكتامى»، وجعل على صقليه[٢] «أبا القاسم على بن الحسن بن على بن الحسين»، وجعل على جباية أموال افريقيه «زياده الله بن القريم»، وعلى الخراج «عبد الجبار الخراسانى»، «وحسين بن خلف»، ووصل المعز لدين الله الأسكندرية ممتطيا جواداً فى ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢ ﻫ (٢٩ مايو سنة ٩٧٣ م) فتلقاه قاضى مصر أبوالطاهر الذّهلى، والأعيان، ودخل القاهرة فى ٥ رمضان سنة ٣٦٢ ﻫ (١٣ يونيه سنة ٩٧٣ م)، وترجل له جوهر عند لقائه وقبل الأرض بين يديه، كذلك اجتمع بالمعز الوزير «أبوالفضل جعفر بن الفرات» وعندما دخل المعز لدين الله قصره خر ساجداً لله تعالى، وصلى ركعتين

---

(١) استمر أبو الفتوح يوسف بن زيرى الصنهاجى وأشباله ملوك صنهاجه يخطبون الخليفة المعز لدين الله وأبنائه بافريقيه ويذكرون أسماءهم على المنابر وعلى الدنانير والدراهم ويستعملون راياتهم وبنودهم وشعارهم إلى أن جاء المعز بن باديس الصنهاجى (٤٠٦ — ٤٥٤ ﻫ و ١٠١٦ — ١٠٦٢ م) فى سنة ٤٣٥ ﻫ (١٠٤٣ م) أو سنة ٤٤٠ ﻫ (١٠٤٦م) على رواية أخرى قطع المعز الصنهاجى الخطبة عن الخليفة الفاطمى المستنصر وخطب للخليفة «القائم بأمر الله» العباسى الذى قلده افريقية وأرسل اليه الخلع وأمر المعز الصنهاجى رعاياه بترك المذهب الشيعى الذى لم يقبله أهل المغرب إلا على مضض وأمر بلعن الخلفاء الفاطميين على منابره وأحرق أعلامهم وأزال اسماء بنى عبيد من السكة حتى إذا أتت سنة ٤٤٣ ﻫ كان لباس القيروان السواد والدعاء لبنى العباس وبذلك زالت دولتهم عن عموم بلاد المغرب زوالا تاما وانقطعت علاقتهم بتلك البلاد. ابن الأثير «الكامل» ﺣ ٨ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ و ﺣ ٩ ص ١١٠ و ١٩٤ — ١٩٥ وابن ميسر «تاريخ مصر» ﺣ ٢ ص ٥ وابن خلكان «وفيات الأعيان» ﺣ ٢ ص ٥٥٠ والنويرى «نهاية الأرب» ﺣ ٢٦ ورقة ٦٥ وابو الفدا «المختصر» ﺣ ٢ ص ١٤٩ وابن خلدون «العبر» ﺣ ٤ ص ٦٢ والمقريزى «الخطط» ﺣ ٢ ص ١٦٥ «واتعاظ الحنفا» ص ٦٤ وأبوالمحاسن «النجوم الزاهرة» ﺣ ٥ ص ٢ وابن عذارى المراكشى «البيان المغرب» ص ٢٨٨ وابن منجب الصيرفى «الاشارة» ص ٤١

(٢) كانت جزيرة صقلية جزءاً من املاك بنى الأغلب، امراء افريقية، ففاز عليهم عبيدالله المهدى جد الأسرة الفاطمية المصرية وضمها إلى أملاكه واستعمل عليها سنة ٢٩٧ ﻫ الحسن بن أحمد ابن أبى خنزير. وقد دالت دولة الاسلام عن صقلية منذ سنة ٤٨٤ ﻫ (١٠٩١ م) ودخلت فى حوزة الفرنج وهى الآن من أملاك إيطاليا. ابن منجب «الاشارة إلى من نال الوزارة» ص ٢٩ والاستاذ المرحوم الأيوبى «الفاطميون» ﺣ ٢ ص ٥٣

وصلى بصلاته كل من دخل ، وبذلك أصبحت البلاد المصرية دار خلافة ، بعد أن كانت دار امارة [١] ووجدت ثلاث خلافات ، الأولى خلافته التى نشأت فى شمال افريقية وانتقلت للديار المصرية ، والثانية خلافة أموية بقرطبة بالأندلس ، والثالثة خلافة سنية بالمشرق هى الخلافة العباسية .

ولم يطل عهد الخليفة المعز لدين الله بمصر أكثر من نحو عامين ونصف قضاها فى الدفاع عن الدعوة الشيعية وتوطيدها ، وكان خطر القرامطة يهدد ملكه الجديد من وقت لآخر ، فقد غزوا ملكه الجديد فى أوائل سنة ٣٦١ ﻫ ، وفى أواخر سنة ٣٦٣ ﻫ ، ومات الخليفة المعز وخطرهم لا يزال يهدد الشام ومصر .

فلما تولى ابنه العزيز بالله [٢] بعد وفاة أبيه ، اتسعت رقعة البلاد فى زمانه حتى فاقت دولة والده ، وانتشرت السكينة فى عهده ، وكان مثل أبيه شديد التسامح مع المسيحيين ، فجدد لهم كنيسة « أبى سيفين » خارج الفسطاط ، ومن تسامحه فى الدين أن كان أكبر وزرائه « يعقوب بن كلس » و « عيسى ابن نسطورس » ، وأولها اسرائيلى أسلم ، والآخر مسيحى ، وبفضلهما امتلأت خزينته . وكان محباً لمظاهر الأبهة ، ميالا للترف ، فاقتنى التحف النفيسة ، وقد قيل « إن خيوله كانت تكسى الزرد المطعم بالذهب ، وتغطى بأقمشة مرصعة بالجواهر ، ومعطرة بالعنبر » وكان كل شىء فى قصره فخما من حاشية ، وموائد ودواب ، وهو أول من سار فى موكب حافل إلى الجامع فى كل يوم جمعة من رمضان للصلاة بالناس ، وأول من استخدم من الفاطميين

---

(١) ابن الأثير « الكامل » ج٨ ص ٢٢٣ وابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ٢ ص ٥٤٨ والنويرى « نهاية الأرب » ج ٢٦ ورقة ٤٣ وابو الفدا « المختصر » ج ٢ص ١١٢ والمقريزى « الخطط » ج ٢ص ١٦٧ « واتعاظ الحنفا » ص ٦٥ و٨٨ — ٨٩ والعينى « عقد الجمان » القسم الثانى من ج ١٩ ورقة ٢٥٦ و ٢٥٧ و ٢٦٥ و ٢٦٦ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٤ ص ٦٦ و ٧٢ والسيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص١٦ وابن اياس « بدائع الزهور » ج ١ ص ٤٥ ــ ٤٦ وابن عذارى المراكشى « البيان المغرب » ص ٢٣٧

وانظر The Ency. of Islam Vol 11 p. 89 تحت عنوان Fatimids

(٢) انظر O'Leary, A short history of the Fatimid Khalifate p. 116

جند الترك المماليك فى جيش مصر ، وقد برهن على مقدرته فى الادارة ، فنظمها ، ومنع الرشوة ، وبذل الكثير من المال على إقامة المبانى ، وحفر الترع ، وإنشاء الجسور (الكبارى) ، ومرافىء السفن ، وغيرها . أما مملكته فيكفى فى وصفها أنها كانت تمتد من المحيط الأتلنتى الى شرق الحجاز ، ومن اليمين الى أعالى الفرات ، وخطب له على منابر الجوامع ، من بلاد العرب إلى المحيط الأطلسى .

وبعد ما توفى بويع لابنه « الحاكم بأمر الله » بالخلافة ، وله من العمر احدى عشرة سنة تقريبا ، وكانت أمه مسيحية ، ولصغر سنه قام بالوصاية عليه مربيه وأستاذه برجوان الخصى الصقلبى[1] وكان أبو محمد الحسن ابن عمار الكتامى [2] المغربى قائداً لجيشه ، بيده كل السلطة . نشأ هذا الخليفة مطلق الأمر فى آرائه وتصوراته ، وكان شاذاً فى طباعه ، إذا عاقب أفرط وسفك الدماء ، وإذا أثاب أو أحب بذل ما لم يبذله خليفة ، وكانت أعماله متناقضة ، يفعل اليوم ماينقضه غدا ، ومن أحسن أعماله أنه شيد دار الحكمة وأنه أنشأ مرصداً فى سفح المقطم ، ولما قتل هذا الخليفة خلفه ابنه الظاهر ، وكان صغير السن لايتجاوز السادسة عشرة من عمره . فلم يكن بالرجل الذى يقدر على انتشال البلاد مما أصابها من جراء أعمال والده ، فقامت عمته ست الملك بالوصاية عليه فى الفترة الأولى من حكمه ، وأظهرت كفاءة ممتازة فى إدارة شؤون البلاد أربع سنوات ، وبذلت العطاء للجند ، وظلت تشرف على أعمال الدولة إلى أن توفيت سنة ٤١٥ هـ ، (١٠٢٤م) وفى زمنه انخفض النيل فاشتد الضيق ، وحصلت مجاعة كبيرة فى البلاد ، وكاد المصاب يكون أليما لولا ارتفاع النيل بعد ذلك بسنتين ، وفى عهده قامت فتن فى بلاد الشام ، استنفد إخمادها أموالا طائلة .

---

(١) قتل برجوان الأبيض وقيل الأسود بأبى الفضل ريدان الصقلبى صاحب المظلة بايعاز الامام الحاكم سنة ٣٨٠ هـ (٩٨٠ م) ابن منجب « الاشارة » ص ٢٧

(٢) قتل فى سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠م) : ابن منجب ص ٢٩

ثم خلفه ابنه المستنصر بالله وعمره سبع سنين ، فأقام فى الخلافة ستين سنة وكان حكمه فى هذه المدة الطويلة عهد تدهور سريع فى دولة العبيديين ، إذ لم تتمتع بالرخاء والطمأنينة إلا فترة قصيرة من الزمن ، بعدها حلت بالمملكة المصائب ، وتزعزع مركز الخلافة ، فنى مدته خرجت ولايات شمال افريقية من يد الفاطميين ، وعادت سنية ، كما خرجت الولايات السورية ، فأخذها الأتراك السلجوقيون سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) ، ومع ذلك خطب له ببغداد نحو أربعين خطبة ، بعد أن هرب خليفتها العباسى ، ورفع العلم الفاطمى على بغداد وواسط والكوفة وسائر المدن الشرقية الكبرى ، وأقام البساسيرى الدعوة فيها للخليفة المستنصر ، وسيرت ثياب الخليفة العباسى القائم بأمر الله وعمامته إلى مصر سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) ، وخطب ببغداد نفسها للخليفة الفاطمى ، فسر سروراً عظيماً وزينت لذلك الحادث القاهرة والقصور ومدينة مصر والجزيرة ، وأنشدت « طبالة » المستنصر شعراً جميلا بهذه المناسبة ، وهى تضرب بالطبل ، وأبى صاحب الأهواز أن يخطب للمستنصر ، واستنجد بطغرلبك سلطان التركمان فأنجده ، ولم ينجد المستنصر البساسيرى ، وبذلك عادت الخطبة فى بغداد إلى بنى العباس بعد انقطاعها عنهم سنة كاملة ، فكان ذلك أقصى ما بلغ إليه ظل الخلافة الفاطمية فى الشرق . وفى مكة رفعوا الغطاء الأسود عن الكعبة ، ووضعوا مكانه الغطاء الأبيض شعار الفاطميين ، وعليه اسم الخليفة المستنصر ولقبه [1] .

ثم أخذت الدولة الفاطمية بمصر فى الاضمحلال ، ففقدت صقلية أيام المستنصر ، ثم تحولت السلطة بعده إلى الوزراء الذين كان فى قدرتهم تعيين من يرغبون فى تعيينه من الخلفاء ، لأنهم كانوا فى الحقيقة هم الحكام فى البلاد المصرية وتلقبوا بألقاب الملوك ، واشتد التنافس على المناصب .

وفى أيام الخليفة المستعلى بالله ، انقطعت دعوتهم من أكثر مدن الشام

---

(١) المرحوم الأستاذ الأيوبى « الفاطميون » حـ ١ ص ٧١ نقلا عن المقريزى « الخطط »

والبلاد السورية ، وفى أيام الخليفة الظافر بأمر الله ، استعاد الصليبيون عسقلان فى فلسطين ، ونهب ملك صقلية النرمندى تنيس ، ولما هدد الفرنج البلاد ، أيام الخليفة العاضد لدين الله ، طلب من الملك العادل نور الدين محمود صاحب دمشق ، أن يرسل إليه نجدة ويدركهم قبل أن يتملك الفرنج مصر ، فتمكنت جيوش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه ، وابن أخيه صلاح الدين الأيوبى ، من الانتصار . وولى العاضد بعد أسد الدين شيركوه الوزارة إلى « صلاح الدين يوسف أيوب بن شاذى » ولقبه بالملك الناصر ، وبقى الخليفة العاضد صورة معه ، وأرسل نور الدين لصلاح الدين أهله وعشيرته ، فأقطعهم بمصر الاقطاعات وانتهز فرصة مرض الخليفة العاضد[1] لينصاع لأمر نور الدين محمود ابن زنكى ودعا للخليفة المستضيء العباسى فى محرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م) ، وقطع الخطبة عن اسم « العاضد لدين الله » ، وكتب بذلك أيضا إلى سائر أعمال مصر ، وبذلك خطب للعباسيين على منابر اليمن والشام والحجاز والمغرب ، ولم يكتف صلاح الدين بقطع الخطبة العاضدية ، وإقامة الخطبة المستضيئية ، بل أزال شعار الدولة الفاطمية ، وأحل محله السواد شعار العباسيين ، وأبطل من الآذان « حى على خير العمل » وعزل الشيعة من القضاة ، ونصر أهل السنة ، وأنشأ مدارس للشافعية[2] وفضلهم ، لأنه كان شافعياً ، ولم يجد صلاح الدين فى كل مافعله أى مشقة أو مقاومة ، وبعد أن كان يوم عاشوراء يوم حزن وعزاء على الحسين بن علىّ ، لأنه قتل فيه ، اتخذته الدولة الأيوبية ، يوم سرور ، يوسعون فيه على عيالهم ، ويكثرون فيه الحلوى ، ويكتحلون ليرغموا بذلك أنوف الشيعة

---

(١) العاضد فى اللغة القاطع ومنه الحديث « لايعضد شجرها » فبالعاضد قطعت دولة بنى عبيد . السيوطى «حسن المحاضرة» ح ٢ ص ١٧

(٢) هدم مثلا صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠م) السجن المسمى دار المعونة وبناه مدرسة للشافعية وكذا بنى دار الغزل مدرسة للشافعية أيضاً . مختار باشا « كتاب التوقيعات الألهامية » ص ٢٨٣ نقلا عن المقريزى «الخطط»

ومات « العاضد » دون أن يعلمه أهله بهذه التطورات ، ليلة عاشوراء فى يوم الاثنين ١٠ محرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، وعمره حوالى ٢١ سنة ، ومدة خلافته بمصر حوالى ١٢ ½ عاماً ، فمشى صلاح الدين فى جنازته ، وتولى غسله وتكفينه ، وجلس فى عزائه ، ثم استولى على ما فى قصره من الأموال والذخائر والتحف والجواهر والعبيد وغيرها ، بعد أن تولى الخلافة منهم ١١ خليفة بمصر .

ومنحه الخليفة العباسى تفويضا بحكم الديار المصرية ، ووصلت إليه الخلع من بغداد ، وبذلك عادت الخلافة العباسية إلى الخليفة المستضىء ، أعادها صلاح الدين الكردى بعد انقطاعها مائتين وخمسة عشرة سنة ، وأسس الدولة الأيوبية بمصر[1]

---

(١) أبوشامة كتاب « الروضتين » حـ ١ ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ وابن الأثير « الكامل » حـ ١١ ص ١٤٨ — ١٥٠ وابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٨٩ — ٩١ وأبو الفدا « المختصر » حـ ١ ص ٤٧ — ٤٨ وحـ ٢ ص ٢٦٣ وحـ ٣ ص ٤٥ — ٥١ والذهبي « تاريخ الاسلام » حـ ٣ ورقة ٤٢٩ — ٤٣٠ والمقريزى « الخطط » حـ ٢ ص ١٧٥ و ٣٨٥ والسلوك حـ ١ ص ٣١ و ٤٢ — ٤٤ و ٤٦ والعينى « عقد الجمان » القسم الثانى من حـ ١٩ ورقة ٢٣٢ والمجلد الثانى حـ ١٨ ورقة ٣٩١ — ٣٩٢ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » حـ ٥ ص ٣٣٥ و ٣٣٩ — ٣٤٠ و ٣٥٥ و ٣٥٦ والسيوطى « حسن المحاضرة » حـ ٢ ص ٩٣ وابن اياس « بدائع الزهور » حـ ١ ص ٦٨ وابن طباطبا « الفخرى » ص ١٩٤ — ١٩٥ والامام الشرقاوى « تحفة الناظرين » ورقة ٣٢ — ٣٣ وانظر

Ameer Ali, A Short History of the Saracens p. 611 Lane - Poole, Saladin & the fall of the Kingdom of jerusalem pp 80 — 81, 98, 100, 108 — 109

الباب الأول

السلطة التشريعية

١ – الخلافة

(١) مميزات الخلافة الفاطمية

بالرغم من أن المسلمين لم يفرقوا بين السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية ، بل جمعتها الدولة الفاطمية فى يد كل خليفة من خلفائها ، وبالرغم من أن الخليفة الفاطمى لم يتنبه إلى أن العداله تضار من تجمعها كلها فى يده ، لأن لكل قسم منها كفايات خاصة ، إلا أننا فضلنا أن نقسم أبواب هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام تبعاً لهذه النظرية[١] .

فالخلافة[٢] نظام من أنظمة الحكم خاص بالمسلمين ، وهو نظام قوامه

---

(١) مبدأ الفصل بين السلطات لم تعرفه أوربا المسيحية إلا فى أحدث العصور ، عندما كتب العالم الفرنسى منتسكيه Montesquieu (١٦٨٩ — ١٧٥٥ م) كتابه المسمى «روح الشرائع» « De L,Esprit des Lois » فى القرن الثامن عشر الميلادى ، فقد كان يرى هذا القانونى الاجتماعى أن اجتماع السلطتين التشريعية والتنفيذية فى يد واحدة يؤدى إلى ضياع الحرية ، لاحتمال أن يصدر المشرع قوانين ظالمة ثم ينفذها بنفسه ، كذلك كان يرى أن لاضمان للحرية إذا لم تكن السلطة القضائية منعزلة عن السلطتين التشريعية والتنفيذية ، لأنه إذا كان القاضى هو الذى يقوم بالتشريع فلا ضمان للعدالة ، وكذلك إذا كان القاضى الذى يصدر الحكم هو الذى يتولى تنفيذه . لذلك كان منتسكيه هو أول من أسس نظرية الفصل بين السلطات فقسم أعمال الحكومة إلى سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية . ونرى أن هذه النظرية كانت من عمل أرسطو ، وأن مونتسكيه غيرها بعض الشىء .

ارسطوطاليس « السياسة » (دار الكتب ١٩٤٧ م) ترجمة الفيلسوف الكبير معالى احمد لطفى السيد باشا ص ٣٤٥ . والدكتور وايت ابراهيم بك ومصطفى الصادق باشا «مبادىء القانون الدستورى المصرى المقارن» (القاهرة ١٣٤٣ هـ) ص ٧٠

(٢) الخلافة مصدر خلف ، يقال خلفه خلافة كان خليفته وبقى بعده ، والجمع خلائف وخلفاء .

الدين ، فللخليفة على المؤمنين الولاية العامة والطاعة التامة ، لأنه نائب عن الرسول فى تنفيذ الشرائع والسير بمقتضى أصول الدين والمحافظة عليه والعمل على نشره ، يلقى خطبة الجمعة ، ويؤم الناس فى الصلاة ، ويعاقب المارقين من الدين ، فهو على هذا الأساس حاكم المسلمين الروحى والزمنى ، نيط به الأشراف على شئون الدولة وادارة دفة سياستها . وتعتبر الشيعة[1] الخلافة ركناً من أركان الدين ، وأن تعيين الامام من أسرة النبي عليه الصلاة والسلام واجب بلا رجوع إلى الأمة ، فهم لذلك قد حصروا الخلافة فى أسرة معينة

---

(١) الشيعة هم الذين يعتقدون فى امامة الامام على بن أبى طالب وذريته من فاطمة من بعده واحداً بعد واحد ، وهم الذين كان يطلق عليهم منذ الصدر الأول للاسلام اسم العلويين أو أهل البيت ، يعتقدون أنهم وحدهم أهل للخلافة ، مستندين على بعض الأحاديث فيقولون مثلا إن النبى عليه السلام قال « على منى وأنا من على ، يؤدى دينى ويقضى » وإنه ولى كل مؤمن ومؤمنة بعده وإنه عليه السلام فى غزوة تبوك قال له على : أخرج معك فقال له النبى لا ، وكان يخرج معه فى جميع الغزوات فبكى على — ونحن نستبعد بكاءه — فقال له النبى عليه السلام « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنك لست بنبى ، لاينبغى أن أذهب إلا وأنت خليفتى » وبذلك استخلفه على أهل المدينة فى هذه الغزوة وإنه عليه السلام قال « من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار » . إلى غير ذلك من الأحاديث ، ولذلك قام الشيعة بمقاومة الدولة الأموية مااستطاعوا إلى هذه المقاومة سبيلا ، وهذا الاعتقاد يقابله اعتقاد آخر من العباسيين بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمه العباس « إنها (أى الخلافة) تكون فى ولدك وأن النبى عليه السلام أذن فى أذن عبد الله بن العباس ، وتفل فى فيه — ونحن نستبعد ذلك أيضاً — وقال « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » ولذلك لما نشأت الحركة التى تدعو لنسل العباس عم النبى عليه السلام بالخلافة اتخذ دعاتها الحيلة ، فدعوا لمبايعة الرضا من آل البيت ، مبررين عدم ذكر الاسم خوفا على حياة الشخص من بنى أمية ، حتى إذا مانجحت دعوتهم قام أبو مسلم الخراسانى وأماط اللثام عن « عبد الله السفاح بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس » وأعلنه خليفة للمسلمين فلم يرق هذا فى أعين العلويين ، فقاموا فى وجه العباسيين ولكنهم كانوا أضعف من أن يتغلبوا عليهم ، وتأكدوا أنهم لن يتحقق غرضهم ماداموا قريبين من بغداد مركز الخلافة العباسية ، ففر عبيد الله المهدى إلى إفريقية حيث أسس الدولة الفاطمية عندما أخذ البيعة من رؤساء كتامة التى أينعت فيهم تعاليم دعاة الشيعة فلقبوه « المهدى أمير المؤمنين » فتحولت الخلافة بذلك إلى بيت الامام على ابن النعمان « شرح الأخبار » ورقة ٨ و « افتتاح الدعوة » ورقة ١ و « دعائم الاسلام » ورقة ١٢ و ١٣ وابو الفدا « البداية » ص ٣٣٤ وابن طباطبا « الفخرى » ص ١٦٨ .

وفى بيت معين هو بيت الامام على، وأصبحت عقيدتهم أن الحسن هو الخليفة بعد أبيه وأن الخلافة إرث فى بيت الامام على إلى يوم الدين، والاسماعيلية يقولون إن أول أئمتهم هو الامام على المتوفى سنة ٤١ هـ (٦٦١ م) ثم ابنه الحسن المتوفى سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) ثم الحسين المتوفى سنة ٦١ هـ (٦٨٠ م) ثم على زين العابدين المتوفى سنة ٩٤ هـ (٧١٢ م) ثم أبو جعفر محمد الباقر المتوفى سنة ١١٣ هـ (٧٣١ م) ثم أبو عبد الله جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥ م) ثم اسماعيل. وإن بعد اسماعيل أتت أئمة مستورة لأن الامام يجوز له أن يستتر إذا لم تكن له شوكة وقوة يظهر بها على أعدائه، على أنه يرسل دعاته نيابة عنه، وظل هؤلاء الأئمة يتداولون الامامة واحداً عن واحد فى ستر وخفاء، فكان أول الأئمة المستورين عندهم هو «محمد بن اسماعيل» أو «محمد المكتوم»، ثم ابنه جعفر المصدّق ثم ابنه محمد الحبيب ثم ابنه عبيد الله المهدى الذى أقام خلافته سنة ٢٩٧هـ (٩٠٩م) ببلاد المغرب وتناقلها الابن عن الأب فى أغلب أسرتهم.

ولقد أسبغ المعز لدين الله عند قدومه لمصر على الامامة لوناً من القدسية، فنجده ينوه بأقواله وأمثاله وكتبه بمقدرة امامته الروحية الخارقة، وكونها امامة الدنيا والدين معاً.[1] فأصبح ينحنى أمامه هو وغيره ممن أتى بعده من الخلفاء الفاطميين الداخل عليهم والخارج من حضرتهم،[2] ويقبل الناس الأرض بين أيديهم، وتلثم الرعية أيديهم وأرجلهم[3]، وإذا قرب منهم أحد قبّل أرديتهم، وهو شرف لا يناله إلا البارز من رجالات الدولة.

ويحدثنا ابن النعمان فى مخطوطه[4] عن الآداب الواجبة على الناس فى

(١) انظر رسالة المعز لدين الله للحسن الأعصم زعيم القرامطة فى المقريزى «اتعاظ الحنفا» ص ١٣٣ — ١٤٣

(٢) نرى أن الانحناء إلى الأرض مخلوق من صنيع الروم الذين أخذوه عن الفرس.

(٣) وقد يقبل يد الخليفة ويمرغ عليها وجهه. ابن النعمان «المجالس والمسايرات» المجلد الثانى ح ٢ ص ٣٧٥ و٤٥٦ والقلقشندى «صبح الأعشى» ح ٣ ص ٤٩٩

(٤) «كتاب الهمة فى آداب الأئمة» ورقة ٦٠ (ا) و (ب) و ٦١ (ا)

السلام على الأئمة، والكلام بين أيديهم، فيقول: «تعظيم الأئمة صلوات الله عليهم من تعظيم الله عز وجل، إنه إنما يراد من تعظيمهم طاعتـه ويبتغى فيه مرضاته لا شريك له، وقد رأينا أوصياءهم وولاة عهودهم يقبلون الأرض فى سلامهم عليهم بين أيديهم اجلالا لهم وعلماً بمقدرتهم، ومعرفة بما أوجب الله لهم، ولو سجد ساجد لولى من أولياء الله اعظاما لله لم يكن ذلك بمنكر[1] فقد ذكر الله عن أبوى يوسف واخوته أنهم خروا سجداً، فلم يعب ذلك من فعلهم، وعاب الذين يسجدون للشمس من دون الله وقال لا تسجدوا إلا لله، فانما نهى عز وجل عن السجود لأحد من دونه يتخذه إلهاً معبوداً، فأما السجود تعظيما له فلم ينه عنه»، ثم يقول «فينبغى لمن واجـه الامام أن يبدأ بالسلام عليه، ثم يقبل الأرض بين يديه ويعتقد ذلك تعظيما له وتقربا إلى الله، ويقول فى السلام عليه قبل انحطاطه لتقبيل الأرض، السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، ويكون ذلك بحيث يراه الامام، وإن كان المسلم بحيث يسمع رد الامام عليه السلام، لم ينحط إلى الأرض لتقبيلها إلا بعد فراغ رد الامام عليه بالسلام، ثم إذا قبل الأرض.. قام، فان حضر لأمر يريد الكلام فيه مما يجب وينبغى لمثله ان يتكلم به، وكان ممن ينبغى لمثله الكلام بين يدى الأئمة تكلم، وإلا استأذن فى الكلام، فان أذن له الامام.. تكلم، وإن لم يأذن له.. انصرف». ثم يشرح الرسوم التى يجب على الناس أن يفعلوها فى حضرة الإمام فيقول «فاذا قام القائم بين يدى الامام.. فليقم قائما معتدلا كقيامه فى الصلاة[2]، وليرم ببصره إلى الأرض اجلالا وهيبة له، ناظراً إلى الامام من تحت طرفه ويخفض جناحه، إلى أن يقول «ولا يعبث بيديه ولكن يرسلها ارسالا، أو يضع يمينه على شماله تحت صدره، ويلزم الصمت إلى أن يسأله الامام، إلى أن يقول «وفى حال من يرفع الأمور إليه ممن جعل ذلك له فيتكلم فيه وفيما ينبغى له الكلام فيه ما استمع الامام منه، فان أعرض عنه أو قطع

---

(١) كذا!! (٢) كذا!!

كلامه لأمر عرض له أو لغير أمر فلينصت المتكلم حتى يأذن له الإمام فى الكلام بلفظ أو بإيماء أو باستفهام فحينئذ يعود إلى ما كان فيه ، وإلا سكت على ما قطع الكلام عليه ، ولا يرجع من غير اذن له فيه ، ويستمر فى ارشاد المتكلم فى حضرة الخليفة فيقول ، وليكن كلامه إذا خاطب الامام كلام متخافت بلفظه بقدر مايسمعه الامام ، ولا يرفع صوته عنده ، فقد نهى الله عز وجل عن رفع الأصوات فوق صوت نبيه ، ، فكأن هذا الواجب للأئمة من ذريته فى كل عصر وزمان ، لأنهم أهله ، إلى أن يقول ، فإذا خاطبه الأمام أصغى إلى لفظه وكذلك إن كان حديث الامام لجماعة من بحضرته ، فينبغى لكل واحد منهم الانصات والاصغاء إليه ، وكذلك اذا خاطب أحدهم خطاب علانية غير سر ، فينبغى لمن سمع خطابه الاصغاء إليه وطلب الفائدة منه ، فان كل لفظة يلفظ بها الامام حكمة لمن يتدبرها ووفق لفهمها ومعرفتها ، .

، ولا يرى من سمع كلام الامام أن لفظة من ألفاظه تخرج مخرج هزل أو تقع موقع عبث ، أو تجرى بغير فائدة ، وإن ظهر ذلك للسامع منه فينبغى أن لا ينزله بهذه المنازل ، وأن يعلم أن الله سبحانه قد برأهم صلوات الله عليهم من ذلك ، وأن فهمه هو الذى قصر عن إدراك معرفة الفائدة من لفظه ،

، فان جرى فى المجلس من الكلام ما تبسم أو يفتر ضاحكا عنده الامام فانه لا ينبغى لأحد من جلسائه ، والقائمين بين يديه أن يضحكوا لذلك ، ولكن ينبغى لهم أن يطرقوا بأبصارهم مبتسمين ويظهروا الوقار والسكينة ويعظموا مجلس الامام من الضحك فيه ، فليس ذلك فيه إلا له عليه السلام ، ثم يحدثنا عن الآداب التى يجب أن يتصف بها الناس القريبون من الامام عندما يريد أن يحدث أحداً منهم حديثا لا يريد أن يعلمه غيره فيقول ، وإن خاطب أحداً منهم أو من غيرهم سراً ، فينبغى لمن قرب منه أن يباعد عنه ، ولجميعهم ألا يصغوا إليه ولا يلتفتوا نحوه حتى يقضى نجواه ، ولا ينبغى لهم أن يتناجوا فى مجلسه ، ولا أن يتحدثوا بينهم حديثا دونه ، وينبغى أن يكون جميع ما يجرى فى مجلسه منه ومن جلسائه سراً لديهم وأمانة عندهم ، . ثم يتكلم عن رسوم صحبة الامام فيقول ، ينبغى لمن ساير الأئمة فى سفر أو

حضر ، أن يلزم الموضع الذى فيه رتبته ، فان كان فيمن رتب أن يسير بين يدى الامام .. سار كذلك ولزم ما أمر به ، وجعل همته وشغله التحفظ لمكان الامام من غير أن يكثر التلفت إليه ، يتفقد ذلك باختلاس من نظرة يرى فيها الامام خلفه فيعرف أين هو منه ، ومكانه من القدر الذى رتب له. فان بعد عن ذلك ، وقف حتى ينتهى الامام إلى الوضع الذى يرى أن ما بينه وبينه هو القدر الذى رتب له » [١]

ولقد أحيط شخص الخليفة الفاطمى بالرهبة والقداسة ، وتيقن الشعب أن لخليفتهم قدرة خارقة للعادة ، لأن الله اصطفاه من شجرة النبوة الباسقة ليحكم بين الناس بروح من عنده ، فعليهم السمع والطاعة له لأن حكمه هو الحق والعدل الملهم به له من الله سبحانه وتعالى . فللامام عند الفاطميين صلة روحية بالله من جنس التى للأنبياء والرسل [٢]

وهو ليس ككل الناس قد يجور وقد يعدل وإن جار استطاعت الرعية عزله ، وإنما هو امام يتلقى علمه من الله عن طريق الوحى «ويعده الله اعداداً خاصا من حين أن يكون نطفة ، ويحفظه برعايته السامية ، ويعصمه من الذنوب ، ويورثه علم الأنبياء والمرسلين ، ويطلعه على كل ما كان وما سيكون » [٣] .

فهو من طينة تخالف طينة سائر الناس ، لا يسأل عما يفعل ، وفى يده كل السلطات وما عمله خير وما نهى عنه فهو شر ، وليس لأحد أن يعترض عليه أو يثور فى وجهه ، والعدل ما يفعله لأن حكمه يرتكز على حكم دينى معصوم ، لا يجوز عليه خطأ ولا نسيان ، فأمره أمر من الله وفعله بأمر الله ، ومعرفة الله تكون بالائتمام به والبراءة إلى الله عز وجل من عدوه [٤] لأن الأئمة هم ولاة

---

(١) ابن النعمان « كتاب الهمة فى آداب الأئمة » المخطوط ورقة ٦٥ (ب) ، ٦٦ ، ٦٧ (أ).

(٢) محمد بن يعقوب الكلينى « كتاب أصول الكافى » ص ٨٢

(٣) محمد بك أمين « ضحى الإسلام » ح ٣ ص ٢٢٠ .

(٤) الكلينى « كتاب أصول الكافى » ص ٨٢

الله وخزنة علمه ونوره ، فقد قال جعفر الصادق « نحن خزان علم الله ونحن تراجمة وحى الله ، نحن الحجة البالغة على من دون السماء ، ومن فوق الأرض »[١] والأئمة نور الله الذى قال فيه تعالى « فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا »[٢] وهم موضع سر الله فيقول جعفر الصادق « إن لله عز وجل علمين : علم لا يعلمه إلاهو وعلم علمه ملائكته ورسله ، فما علمه ملائكته ورسله فنحن نعلمه »[٣] و « الأئمة إذا شاءوا أن يعلموا شيئا أعلمهم الله إياه وهم يعلمون علم ما كان وما يكون وإنه لا يخفى عليهم شىء »[٤] .

والله تعالى لم يعلم نبيه علما إلا أمره أن يعلمه عليا أمير المؤمنين ، وأنه كان شريكه فى العلم ثم انتهى هذا العلم إلى الأئمة[٥] ، و « الأئمة لم يفعلوا شيئا ولا يفعلونه إلا بعهد من الله عز وجل وأمر منه لا يتجاوزونه »[٦] .

والامام الفاطمى وحده هو الذى يعلم بواطن الأشياء ، والعقل لا يدرك الباطن دون إرشاده ، لأن الله اصطفاه بعلم التأويل كما اصطفى الرسول عليه السلام بالتنزيل[٧]

وإن من يولد إماما لا يمكنه أن يقترف الجريمة ، ومن ثم كان شرب الخمر غير محرم عليه ، وليس مجبراً أن يصوم أو أن يصلى أو أن يحج ، لأن هذه التكاليف خاصة بالرعية وحدهم[٨] .

فالخلافة صاحبها معصوم لا يصح الطعن فيه ولو رأوه يشرب الخمر ، ويجب أن يكف الناس ألسنتهم عنه ، وعليهم أن يتبركوا به لأنه فوق أن يسأل عن عمله ، إن رأوه « قبلوا الأرض بين يديه ، ومرغوا خدودهم عليها ،

---

(١) الكلينى « كتاب أصول الكافى » ص ٩١
(٢) الآية ٧ من سورة التغابن رقم ٦٤
(٣) الكلينى « كتاب أصول الكافى » ص ١٢٣
(٤) « « ص ١٢٦
(٥) « « ص ١٢٧
(٦) « « ص ١٣٥
(٧) ابن النعمان « تربية المؤمنين » ورقة ١٣ (٨) كذا !!

وأكثروا من حمد الله وشكره ، إذ بلّغهم إليه وأراهم وجهه . »[1] « وأدناهم وقربهم منه »[2] . إذا وقع قبل توقيعه ووضع على الصدر[3] « لعنته من أشد عذاب الله لا تخطىء فيمن قصدته ولا ينجو منها من أصابته »[4]

« وكما أن الله سبحانه وتعالى يختار من يشاء من عباده للنبـــوة والرسالة ويؤيده بالمعجزة ... فكذلك يختار للامامة من يشاء ويأمر نبيّه بالنص عليه وأن ينصبه إماما للناس من بعده للقيام بالوظائف التى كان على النبي أن يقوم بها ، سوى أن الامام لا يوحى إليه كالنبي وإنما يتلقى الأحكام منه مع تسديد إلهى ، فالنبي مبلغ عن الله والامامة متسلسلة . . كل سابق ينص على اللاحق ويشترطون أن يكون معصوما كالنبي من الخطأ والخطيئة وإلا زالت الثقة به . . . وأن يكون أفضل أهل زمانه فى كل فضيلة وأعلمهم بكل علم »[5] و « أن كل إمام يؤدى إلى الامام الذى بعده الـكتب والعلم والسلاح »[6] .

والفاطميون يرون أن طاعة أولياء الله طاعة لله ، ومعصيتهم معصية لله ، ومن خانهم فقد خان الله ، ومن وفىّ لهم فقد وفى لله ، ومن أدى أمانتهم فقد أدى أمانة الله ، لأن الله تعالى يقول فى كتابه العزيز « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله »[7] ويقول فى موضع آخر « من يطع الرسول فقد أطاع الله »[8] وفى موضع ثالث « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »[9] .

---

(١) ابن النعمان « المجالس والمسايرات » المجلد الثانى حـ ٢٣ ص ٤٧٥
(٢) « « « « ص ٤٨٤
(٣) « « « « حـ ٢٨ ص ٦٢٨
(٤) « « « « حـ ١٩ ص ٣٦٧
(٥) محمد الحسين آل كاشف الغطاء « كتاب أصل الشيعة وأصولها » ص ٧٣ و ٧٤
(٦) الـكلينى « كتاب أصول الـكافى » ص ١٣٣
(٧) ابن النعمان « كتاب الهمة » ورقة ٦٥ (ب) ، ٦٦ (أ) ، ٦٧ (أ)
(٨) الآية ٨٠ من سورة النساء رقم ٤
(٩) الآية ٥٩ من سورة النساء رقم ٤

ومع أن المقصود بالامام فى الحديث النبوى الشريف الآتى الرئيس إطلاقا ، وليس إمام الشيعة ، إلا أنهم يرونه لامامهم حيث يقول النبي عليه الصلاة والسلام «من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن أطاع الامام فقد أطاعني، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن عصى الامام فقد عصانى»[١] .

لذلك يقول جعفر الصادق «نحن أبواب الله وأسبابه لعباده ، من تقرب منا قرب ، ومن استشفع بنا شفع ، ومن استرحم بنا رحم ، ومن أعرض عنا ضل»[٢] .

ويقول المعز لدين الله «العاقل هو المطيع لله ، العامل بأمره ، المنتهى بنهيه الآخذ عنه وعن أوليائه»[٣] .

ويقول أيضا «من اتبع أمر الله وأمر رسوله وأخذ عن أوليائه فقد اعتصم بحبل الله واستمسك بالعروة الوثقى وفاز بالسهم الأوفى»[٤] .

ويروون عن النبي عليه السلام أنه قال «تعلموا من عالم أهل بيتى (أى الامام) وممن تعلم من أهل بيتى، تنجوا من النار»[٥] وأنه قال «منزلة أهل بيتى فيكم كسفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق»[٦] وقوله «أصحابى (أى الأئمة من ذريته على قولهم) كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[٧] .

ويرون عن الحسين بن على أنه قال «من أحبنا بقلبه وجاهد معنا بلسانه ويده فهو معنا فى الرفيق الأعلى ، ومن أحبنا بقلبه وذب عنا بلسانه وضعف أن يجاهد معنا بيده ، فهو معنا فى الجنة دون ذلك منزلة ، ومن أحبنا بقلبه وضعف أن يجاهد معنا بلسانه ويده ، فهو معنا فى الجنة دون ذلك ، وليس دون ذلك شيء»[٨] .

---

(١) ابو يوسف «الخراج» ص ١٠ وابن النعمان كتاب «دعائم الاسلام» ورقة ١٥، ١٧، ٣٦
(٢) ابن النعمان «كتاب الهمة» ورقة ١٦ (أ)
(٣) ابن النعمان «المجالس والمسايرات» المجلد الثانى ح ٢٠ ص ٣٧٢ — ٣٧٣
(٤) « « « « ص ٣٧٤
(٥) ابن النعمان «كتاب تربية المؤمنين» ورقة ١٧ و ٢١
(٦) « « « ١٩
(٧) « « « ٢٠
(٨) ابن النعمان «كتاب الهمة» ورقة ٩ (ب) ، ١٠ (أ)

ويقول جعفر الصادق « الله عز وجل أعظم من أن يترك الأرض بغير امام عادل إن زاد المؤمنون شيئا ردهم ، وإن نقصوا شيئا أتمه لهم ، وهو حجة على عباده»(١) .

وقال الرضا « إن الامامة زمام الدين ، ونظام المسلمين وصلاح الدنيا ، وعز المؤمنين ، إن الامامة أس الاسلام النامى وفرعه السامى ، بالامامة تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وتوفير الفىء والصدقات ، وإمضاء الحدود والأحكام ، ومنع الثغور والأطراف ، الامام يحل حلال الله ويحرم حرام الله ، ويقيم حدود الله ويذب عن دين الله ويدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة والحجة البالغة ، الامام كالشمس الطالعة المجللة بنورها العالم ، وهى فى الأفق بحيث لا تنالها الأيدى والأبصار ، الامام البدر المنير والسراج الظاهر والنور الساطع والنجم الهادى . . . الامام المطهر من الذنوب والمبرأ من العيوب المخصوص بالعلم ، الموسوم بالحلم . . . معدن القدس والطهارة والنسك والزهادة والعلم والعبادة ، مخصوص بدعوة الرسول ونسل المطهرة البتول . . . فهو معصوم مؤيد موفق مسدد ، قد أمن من الخطأ والزلل والعثار ، يخصه الله بذلك ليكون حجته على عباده وشاهده على خلقه»(٢)

وأصبح الخليفة الفاطمى يعتقد أنه وحده القمين بفهم القرآن الكريم والسنة والشريعة والقادر بمفرده على تفسيرهما لأنه مستودع العلم الشرعى ، تنتقل هذه الصفة منه إلى ولده بطريق الميلاد الطبيعى !!

ولبست الخلافة الفاطمية مظهر الملك الشرعى وأبهته ، وارتدت سطوة الحكم وعظمته ، فبعد أن كان الامام لا يحجب عنه أحداً فى عهد الخلفاء الراشدين

---

(١) الكلينى « كتاب أصول الكافى » ص ٨٤ و ٨٦
(٢) » » » ص ٩٦ و ٩٧

اتخذ الخليفة الفاطمى الحجاب [١]، وأقام الشرطة لحراسته [٢]، وبعد أن كان فى ذلك العصر بعيداً عن مظاهر الترف، يسوس ملكه بما يحدثه الوازع الدينى فى النفس، نجد الخليفة الفاطمى يتخذ المقصورة فى المسجد ويصلى بها منفرداً عن الناس، فإذا سجد قام الحراس على رأسه رافعين السيوف، وبذلك عاش تحوطه الأبهة والعظمة، يسوس ملكه بقوة البطش وحد السيف.

ونرى أن قولهم بأن للامام عصمة وأنه من عنصر إلهى، وهى نظرية الحق الإلهى [٣] نظرية هادمة لمبدأ الإسلام الجميل، وهو أن الامام بشر كسائر البشر ولد كما يولدون وتعلم أو جهل كما يتعلم الناس أو يجهلون، فاذا انحرف عن العدل فلا طاعة له على الناس، إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وإن انحرف عن جادة الصواب، كان عاصياً يجوز عزله.

---

(١) كانت الحجابة معروفة للمصريين فى عهد الأمويين، وكان الولاة فى أيامهم يتخذون الحجاب، وقد وصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز بن مروان واليه على مصر مثلا فقال: «وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك، فانه وجهك ولسانك، ولا يقفن أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذى تأذن له أو ترده» ولا شك أن الحجابة استمرت فى العصرين الطولونى والإخشيدى. ابن طباطبا «الفخرى» (طبعة ١٣١٩ هـ) ص ١١٥ والقلقشندى «صبح الأعشى» ج ٣ ص ٢٧٧.

(٢) القلقشندى «صبح الأعشى» ج ٣ ص ٥٠٧ و ٥٠٨

(٣) معناها أن الله اصطفى أشخاصاً للحكم بين الناس وخصهم بالسيادة وأيدهم بروح من عنده فهم خلفاؤه فى أرضه الموكلون بالقيام على مصالح البشر. وليس للبشر قبلهم حقوق، وإنما عليهم السمع والطاعة. وقبل أن توجد هذه النظرية لدى الفرس الذين قامت على أكتافهم الخلافة العباسية، والذين كانوا يقدسون ملوك آل ساسان ويعتبرون دمهم ليس من جنس دم الشعب، وجدت بمصر زمن الفراعنة الذين ادعوا الربوبية حتى قال فرعون موسى لقومه «أنا ربكم الأعلى»، وكانت هذه النظرية من أسس الفلسفة الصينية القديمة فقد اعترف كونفوشيوس **confucius** (٥٥١ — ٤٧٩ ق. م) وهو فيلسوف صينى، بالحق الالهى للملك الذى يستمد سلطته من السماء، ومن ثم لقب الملك فى الصين «بابن السماء» ودولته بالامبراطورية السماوية. وجدت هذه النظرية عند العباسيين فكان أبو جعفر المنصور يقول «إنما أنا سلطان الله فى أرضه» ثم الفاطميين فكان «المعز لدين الله» يقول «دولة مهى لى قد قلدنى الله أمرها»، وكان القتل عقوبة من تذمر من أمر من أوامره أو تمرد على قانون من قوانينه، لأنهم كانو يرونها صادرة من الاله الذى يمليها على الخليفة. ابن النعمان «المجالس والمسايرات» المجلد الثانى ج ٢١ ص ٤٢٧ والدكتور زكى عبد المتعال «تاريخ النظم» ص ١٦ و ١٧

وعصر « دولة الله » أوجدها فى العلويين غلاة الشيعة عندما أتى أصحاب عبدالله بن سبأ الحميرى عليا وقالوا له جهلا منهم وحمقا « أنت الله » فاحرقهم بالنار ، فجعلوا يقولون وهم يرمون فى النار « الآن صح عندنا أنك الله ، لانه لايعذب بالنار إلا الله » [١] .

كذلك كانت النصيرية وهم أتباع نصير غلام الامام علىّ تقول بألوهية الامام على [٢] ، ولقد بثت هذه التعاليم منذ ابتداء الدولة الفاطمية بالمغرب على يد أبي عبد الله الشيعى ، الذى كان يضلل الناس ويقول عن المهدى إنه ابن رسول الله ، ويقول لغيرهم إنه هو رسول الله وحجة الله ، ويقول للبعض الآخر — حمقاً منه وزيغاً — « إنه هو الله الخالق الرازق » [٣]

وقد رأى حسن بن حيدرة الفرغانى الأحزم سنة ٤٠٩هـ (١١٠٨م) مثلا حلول الاله فى الخليفة الحاكم بأمر الله ، فخلع عليه خلعا سنية ، وحمله على فرس مسرجة ولجام . وقربه منه ، كما قرب منه سنة ٤١٠ هـ (١١٠٩م) حمزة اللباد الأعجمى الذى قال بعبادة الحاكم بأمر الله ، وإن الاله حل فيه ، وناداه « باسم الحاكم الرحمن الرحيم » ، ولقد تغالت الرعية فى تقديس الخليفة فلثموا قدميه ويديه ، مهما عظم شأنهم ومركزهم [٤] على مرأى من الناس ، وقبلوا الأرض بين يديه ، وقاموا وقوفا كلما ذكر اسمه فى الخطبة أو مر أمامهم بالطرقات ! !

ولقد تغالى الجمهور فى هذا الاحترام الآثم لخليفتهم المقدس فركعوا عند رؤيته ، وسجدوا [٥] وترجلوا لمن يريده ، واعتبروا تقبيل ردائه شرفا عظيما .

---

(١) ابن حزم « الفصل » حـ٤ ص ١٨٦

(٢) « تاريخ جبل لبنان » ورقة ٦٣ وابن عبد ربه « العقد الفريد » حـ ١ ص ٣٥٠ وابن خلدون « المقدمة » ص ١٧٢ والقلقشندى « صبح الأعشى » جـ ١٣ ص ٢٥٠ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » حـ ٤ ص ٧٦

(٣) أبو شامة « كتاب الروضتين » حـ ١ ص ٢٠١ و٢٠٢

(٤) النويرى « نهاية الأرب » حـ ٢٦ ورقة ٧٢ .

(٥) ابن ميسر « أخبار مصر » حـ ٢ ص ٥١ و ٥٣ و ٥٤ وابن خلكان « وفيات الأعيان » حـ ٢ ص ٥٤٨ والذهبي « تاريخ الإسلام » حـ ٣ ص ٢٩١ والقلقشندى « صبح الأعشى » حـ ٣ ص ٤٩٨ — ٥٠٠ و ٥٢٠ والمقريزى « الخطط » حـ ٢ ص ٢١٨ و ٢١٩

وكان داعى الدعاة يجلس بالقصر ليقرأ فى دفتر عليه علامة الخليفة ، فاذا فرغ من تلاوته على المؤمنين والمؤمنات حضروا إليه ليمسح على رؤوسهم بمكان العلامة التى بخط الخليفة [١] وكان من تقاليدهم أن من يدفع ٣٣⅔ دينارا أكنجوى (تلك الضريبة التى فرضت على الرجل والمرأة لصندوق الأخوة باعتبارهما عضوين فيها) تخرج له رقعة مكتوبة من الخليفة نفسه وعليها « بارك الله فيك وفى مالك وولدك ودينك » ، فيدخر ذلك ويتفاخر به [٢] وكانت العادة ان يخرج من يغضب عليه الخليفة إلى باب الفتوح ويكشف رأسه ويستغيث بعفو أمير المؤمنين [٣] وأغلب الظن أنه كان لذلك لا يركب أحد فى القصر إلا الخليفة [٤] . وتطلبوا أن يبارك الخليفة الجيش والأسطول ويدعوا لرجاله بالنصر والظفر [٥] . وأخيرا فأس هذه الخلافة الفاطمية التى بنيت على أن مبعث سلطان خليفتهم الشرعى هو اختيار السماء ، وأنه يحكم الأرض بتفويض من الله سبحانه وتعالى لا بتفويض من الشعب ، هو أمر يخالف ما كان عليه الخلفاء الراشدون الذين استمدوا سلطانهم من الشعب ، عندما جهر أبو بكر مثلا عقب توليته الخلافة بقوله « إن أحسنت فاعينونى ، وإن أسأت فقومونى » .

وفى أيام الدولة الأموية كان الخليفة عمر بن عبد العزيز يقول « لست بخير من أحدكم ولكنى أثقلكم حملا » ، وروح القرآن الكريم تنبذ حق الخليفة الفاطمى الالهى ففى القرآن قول الله تعالى مخاطبا النبى عليه الصلاة والسلام « هل كنت إلا بشراً رسولا » [٦] وقوله « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » [١]

---

(١) المقريزى « الخطط » جـ ٢ ص ٢٢٦
(٢) « جـ ٢ ص ٢٢٦
(٣) « جـ ١ ص ١٧٤
(٤) « جـ ٢ ص ٢١٩
(٥) القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٥١٠ و ٥١١
(٦) الآية ٩٣ من سورة الإسراء رقم ١٧
(٧) الآية ٢ من سورة الفتح رقم ٤٨

فكيف يرقى الخليفة الفاطمى منزلة فوق منزلة جده محمد صلوات الله عليه ؟ ! .

وكان يصحب اعتلاء الخليفة الفاطمى العرش عدة مظاهر غاية فى الابهة والعظمة ، يجتمع فيها الأمراء والقضاة ورجال الدين وكبار رجال الدولة . فاذا استوى على العرش ، أصبح من الصعب ايجاد حد فاصل بين ما يفصل فيه من الأمور الدينية ، أو المسائل السياسية والادارية ، لأنه كان يجمع فى يده السلطتين الروحية والزمنية ، لذا كانت وظائفه متعددة ، فهو رئيس الدولة الأعلى وذاته مصونة لا تمس ، ورئيس الحكومة وزعيم الأمراء والقائد الأعلى للجيش وله النفوذ الفعلى فى تصريف أمور الدولة والتعرض لشئونها ، فله الولاية والعزل واقطاع الاقطاعات إلى غير ذلك .

اما أهم مظاهر سيادته فكان ذكر اسمه فى الخطبة على المنابر ونقشها على السكة ، وكان ذكر اسمه فى الخطبة هو المظهر الذى يدل دلالة واضحة على أنه كان له اعتبار روحى وكيان دينى ، وهو الذى يحث على الجهاد فى سبيل الله والدين ، ويدعو إلى تفريج الكروب وتخفيف البلاء إذا نزل بملكه ضرر وانتشر به وباء ، ويخرج إلى جيوشه البرية والبحرية ليباركها . وهو المهيمن على شئون موظفى دولته ، يكافئهم حسب كفاية كل منهم ، ويملأ أعينهم بالعطاء الكثير ، ويفسح لكل منهم المجال حسب اخلاصه ويتدرج بهم فى المناصب حتى يصلوا إلى أعلاها ، ويعاقب من يثبت لديه إدانته منهم ، ويكافئ من يستبسل فى القتال ويعزل من ينحرف منهم عن جادة الصواب أو تثبت عليه رشوة أو يخرج على قوانينه .

ولم يقتصر حقه على عقاب الموظفين فحسب بل كان له أيضا عزلهم من مناصبهم ، وكان يأمر أحيانا بمصادرة أملاكهم وأموالهم إذا اتضح له أنهم جمعوها بطرق غير مشروعة .

وله أن يتولى القضاء بنفسه وأن ينظر فى المظالم .

ومع ذلك كانت حكومته بيروقراطية ، لأنه كان يعتمد فى إدارة شئون الدولة على كبار الموظفين الاداريين ، ويمنح كلا منهم حرية التصرف فى الأمور التى يباشرها بعد مراقبته لهم ومحاسبتهم أمامه على أعمالهم .

(ب) ولاية العهد

مات النبي صلى الله عليه وسلم لإثنى عشرة ليلة من شهر ربيع الأول سنة ١١ هـ (٨ يونية سنة ٦٣٢ م) ولم يؤثر عنه نص صريح فيمن يتولى خلافة المسلمين من بعده ، ولم ترد فى الكتاب الكريم ولا السنة الشريفة فى انتخاب خليفته إلا أوامر عامة ، مثل قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم »[١] وقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »[٢]، وقوله تعالى « إنما المؤمنون إخوة »[٣]، وقوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[٤]، ومثل قوله عليه السلام « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، « وكلكم لآدم وآدم من تراب » ، « واسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى » .

وكانت ولاية العهد زمن الخلفاء الراشدين انتخابية شورية ، ولكنها استحالت فى العهدين الأموى والعباسى إلى وراثية ، فانعدمت الشورى ، إذ أصبح انتخاب ولى العهد يحصل صوريا ، وأصبح الخليفة يعين ولى عهده ويأخذ البيعة له من وجوه الناس وكبار القواد فى حضرته وبطريق الوالى فى إقليمه سواء بالوعد أو بالوعيد .

ولقد استمرت طريقة اختيار الخليفة الوراثية سائدة فى الدولة الفاطمية

---

(١) الآية ٣٨ من سورة الشورى رقم ٤٢

(٢) الآية ٥٩ من سورة النساء رقم ٤

(٣) الآية ١٠ من سورة الحجرات رقم ٤٩

(٤) الآية ١٣ من سورة الحجرات رقم ٤٩

فكان الخليفة عندما يشعر بدنو أجله يعهد بالخلافة [١] لمن يرى أن يكون ولى عهده ، وتتجدد البيعة بعد وفاته له بالجامع ، وكثيرا ما ستر الخليفة الفاطمى موت والده إن وجد نفسه فى مركز حرج يهدد ملكه ، والأمثلة كثيرة فى ذلك ، فقد أخفى مثلا الخليفة « القائم بأمر الله » موت والده « المهدى » مدة كما ستر الخليفة « المنصور بالله » موت والده « القائم » خوفاً من أن يعلمه أبو يزيد مخلد بن كيداد الخارجى ، فلما تغلب عليه سنة ٣٣٦ﻫ (٩٤٧م) أعلنه ، مع أن والده كان قد مات فى سنة ٣٣٤ ﻫ (٩٤٥ م) . كذلك أخفى الخليفة المعز لدين الله موت أبيه المنصور مدة ، كما ستر الخليفة العزيز بالله موت أبيه المعز لدين الله من ١١ ربيع الآخر سنة ٣٦٥ ﻫ وهو تاريخ وفاته إلى ١٠ ذى الحجة من السنة نفسها [٢] ، ولما استولى على الدولة الفاطمية الضعف ، انتقل حق اختيار الخليفة إلى أصحاب « الحل والعقد » فكانوا يختارون ممن يشتهون غير مراعين أن تكون الخلافة للأكبر فالأكبر من البيت الفاطمى ، فمثلا كان الخليفة المستنصر يريد أن يخلفه فى الإمامة ابنه « أبو منصور نزار » أكبر أولاده [٣] ، ولكن الأفضل شاهنشاه [٤] ابن بدر الجمالى الوزير رفض ، لأن المستعلى كان حفيدا لبدر الجمالى ، ولأن نزارا خرج ذات يوم فى حياة أبيه المستنصر ، فرأى الأفضل راكباً وقد دخل من أحد أبواب القصر ، فصاح به نزار « انزل يا أرمنى

---

(١) ابن ميسر « تاريخ مصر » ﺣ ٢ ص ٥٢ و ٥٤ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ﺣ ٤ ص ١١٢ و ١١٣ و ١٧٦ وابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » المخطوط ورقة ٤١ و ٤٣ و ٤٥ و ٤٨ .

(٢) أبو الفدا « كتاب المختصر فى أخبار البشر » ﺣ ٢ ص ٨٠ و ٩٥ والنويرى « نهاية الأرب » ﺣ ٢٦ ورقة ٣٧ و ٣٨ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٥٤ و ٥٦ .

(٣) يقول ابن واصل إن الحسن بن الصباح « قدم على المستنصر بالله وطلب منه أن يكون داعيا له ببلاد العجم فأجابه إلى ذلك ، فسأله عن الإمام بعده فذكر أنه قال إنه ولده نزار ... فمضى الحسن إلى بلاد العجم فدعا للمستنصر وبعده لولده نزار وبث دعوة الباطنية هناك » « مفرج الكروب » المخطوط المصور ﺣ ١ ص ١٢٦ .

(٤) مات بدر الجمالى والخليفة المستنصر فى سنة واحدة عام ٤٨٧ ﻫ (١٠٩٤ م) فخلف الأفضل شاهنشاه أباه بدرا واتبع سياسته .

يانجس عن الفرس ، ما أقل أدبك » !! فحملها الأفضل فى نفسه وحقد عليه ، وجمع الأمراء والخواص عندما مات المستنصر وخوفهم من نزار ، وأشار عليهم بتولية أخيه الأصغر المستعلى بالله بدله ، فنفذوا رغبته . والاسماعيلية إلى اليوم يقولون بإمامة نزار الثالث ، الذى لقب « بالمصطفى لدين الله » ، والذى تنسب إليه النزارية ، ولكن الأفضل تغلب عليه وبنى حائطاً عليه سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) فمات وقتل أنصاره[١] . وكان من أثر تدخل الأفضل فى تولية المستعلى بالله أن قام النزاع بين الاسماعيلية ، فذهب فريق منهم إلى أحقية المستعلى بالله بالخلافة ، وذهب فريق آخر إلى أحقية نزار ، وبذلك صارت الاسماعيلية فرقتين « مستعلية » ، « ونزارية » تطعن فى إمامة المستعلى وكان كلما مات خليفة بلا عقب ، انتهز الوزير فرصة ضعف الخليفة الفاطمى ووضع على عرش الخلافة أطفالا ضعفاء ، فوضع الأفضل مثلا طفلا عمره ٥ سنوات هو الآمر بأحكام الله ، ليقبض هو على زمام الأمور فى مصر ، ويصبح مطلق التصرف فى شئون البلاد فى عهده ، وبذلك أصبح للأفضل بن بدر الجمالى كل السلطة أيام كل من الخليفتين المستعلى بالله والآمر بأحكام الله[٢] وعندما قتل الخليفة الأخير سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠ م) خلف إمرأة حاملا ، فبويع بولاية العهد لابن عمه « الحافظ لدين الله » ولم يبايع بالامامة حتى ظهر الحمل المخلف عن الخليفة الآمر بأحكام الله ، فلما وضعت زوجته أنثى ، عهد إلى الحافظ بالخلافة أيضا .

كذلك نجد الملك الصالح طلائع بن رزيك عندما أراد أن يبايع لشخص من

---

(١) ابن منجب « الاشارة » ص ٥٩ وابن طاهر « اخبار الدول المنقطعة » ورقة ٧٣ وابن ميسر « تاريخ مصر » حـ ٢ ص ٣٥ و ٣٧ والنويرى « نهاية الأرب » حـ ٢٦ ورقة ٧٣ والمقريزى « الخطط » حـ ٢ ص ١٧٢ والعينى « عقد الجمان » مجلد ٣ حـ ١٧ ورقة ٤٧٣ و ٥٥٣ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » حـ ٥ ص ٤٢

(٢) النويرى حـ ٢٦ ورقة ٨١ وأبو الفدا « المختصر » حـ ٢ ص ٢١٤ و ٢١٥ والعينى حـ ١٧ المجلد الثالث ورقة ٥٥٣ والسيوطى « حسن المحاضرة » جـ ٢ ص ١٦ و ١٧ ودائرة المعارف الاسلامية المجلد الثانى ص ٦٢٠

أقارب الخليفة العاضد يعمل بقول بعض أصحابه « لايكن عباس أحزم منك حيث اختار صغيرا وترك من هو اسن منه واستبد هو بالأمر » ، وبذلك نجده يعهد بالخلافة إلى « العاضد لدين الله » ، بعد ابن عمه « الفائز بنصر الله » ثم زوجه ابنته كرها لتنتقل الخلافة من بعده لبنى رزيك (١).

وبذلك كان أمثال هؤلاء الخلفاء ألعوبة فى أيدى وزرائهم (٢).

ويمكننا أن نقول باطمئنان إن طريقة اختيار الخليفة الوراثية استمرت سائدة أيام قوة الدولة وازدهارها . نعم حاول الحاكم بأمر الله أن يقصى ابنه عن الخلافة ، فعهد إلى ابن عمه « أبى القاسم عبد الرحيم بن الياس بن احمد بن المهدى » سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) بولاية العهد من بعده ، وكتب اسمه على السكة ، ودعى له على المنابر ، وعينه سنة ٤١٠ هـ (١٠١٩ م) والياً على دمشق ، ولكن أخته « ست الملك » أبعدته عن الخلافة بعد موت الحاكم ، وعهدت إلى « الظاهر لاعزاز دين الله » بالملك ، بعد أن أجبرت ولى العهد عبد الرحيم ابن الياس على أن يبايعه ، والسيف مصلت على رأسه (٣).

ونلاحظ أن اعتلاء العرش فى الدولة الفاطمية على أساس المبدأ الوراثى كانت له ميزته وعيوبه ، فأما ميزته فانتقال الخلافة والحكم بطريق طبعى هادىء يتضمن بقاء العرش فى أسرتهم دون أن ينازعهم منازع ، وأما عيبه فهو أن الوراثة كانت تضع على العرش أحيانا من لم يستكمل الكفايات اللازمة للحكم . فيروى السيوطى (٤) أن الحاكم بأمر الله ارتكب الفاحشة ، ويروى غيره من

---

(١) النويرى « نهاية الأرب » حـ ٢٦ ورقة ٩٦

(٢) ابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٨٨ والعينى « عقد الجمان » مجلد واحد حـ ١٨ ورقة ١٨٨ و ١٨٩ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » المخطوط ورقة ٣ والمطبوع حـ ٥ ص ١٧٠ و ٢٣٧ وأبو الفدا « المختصر فى أخبار البشر » حـ ٣ ص ٣٧ والسيوطى « حسن المحاضرة » حـ ٢ ص ١٤ وابن اياس « بدائع الزهور » حـ ١ ص ٦٧

(٣) يحيى بن سعيد الأنطاكى « تاريخ الذيل » ص ٥٧ والنويرى « نهاية الأرب » حـ ٢٦ ورقة ٥٧ و ٥٨ و ٦٠

وانظر O'Leary, A Short history of the Fatimid Khalifate p. 186

(٤) « حسن المحاضرة » حـ ٢ ص ١٣

المؤرخين أن الخليفة « الظاهر لاعزاز دين الله » كان خليفة مستهترا شرب الخمر ورخص للناس بشربها ، وأقبل على اللهو وسمح للناس به ، وسمع الغناء وشرب الفقاع ، وأن الخليفة المستنصر بالله كان يصحب معه إذا ركب للنزهة النساء والخمر [١]، وكان الخليفة « الآمر بأحكام الله » متظاهرا باللهو واللعب منغمسا فى ملذاته متجاهراً بالمنكرات مشهورا بشرب الخمر مقبلا على الطرب ! كذلك كان « الظافر بأعداء الله » شغوفا باللهو والطرب وشرب الراح ، وفجر حتى باشر ابن وزيره مباشرة الأزواج عندما ذهب للمبيت عنده [٢] وكلها مسائل تكفى الواحدة منها لتفسد عصمة الإمام التى ادعوها .

ونلاحظ أخيرا أن بعض الخلفاء الفاطميين نزلت هيبته وذهب وقاره ! ففى الشدة العظمى مثلا تهكمت امرأة من رعايا المستنصر به ، فوقفت بمكان مرتفع من قصر الزمرد ورفعت على يدها رغيفا اشترته بعقدها البالغ ثمنه ألف دينار وقالت بأعلى صوتها « يا أهل القاهرة ادعوا لمولانا المستنصر الذى أسعد الناس بأيامه وأعاد عليهم بركات حسن نظره ، حتى تقوّمت على هذه القرصة بألف دينار . . . !! » [٣] وأصابته الفاقة حتى أصبحت السجادة التى تحته والقبقاب الذى فى رجله هو كل ما يملكه ، وترك القصر ليجلس فى الجامع الأزهر على الحصير ، وحتى أعاره الوزير بغلته ليركبها ! وتصدقت عليه الشريفة بنت صاحب السبيل بابشاد إحدى بنات شعبه برغيفين [٤] ، كذلك نجد الوزير « احمد بن الأفضل بن بدر الجمالى » يمنع الخليفة الحافظ

---

(١) النويرى « نهاية الأرب » حـ ٢٦ ورقة ٦٦

(٢) ابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٧٥ و٨٤ — ٨٦ وابن ميسر « تاريخ مصر » حـ ٢ س ٩٣ وأبو الفدا « المختصر فى أخبار البشر » حـ ٣ س ٢٨ والنويرى حـ ٢٦ ورقة ٩٤ والمقريزى « الخطط » حـ ٢ س ١٦٧ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » حـ ٥ س ٢٨٨ والمخطوط ورقة ٢١ وابن اياس « بدائع الزهور » حـ ١ س ٦٣ — ٦٥ وعلى مبارك باشا « الخطط التوفيقية » حـ ١ س ١٣ وانظر O'Leary A short history p. 231

(٣) ابن اياس « بدائع الزهور » حـ ١ س ٦١

(٤) العينى حـ ١٧ المجلد الثالث ورقة ٤٧٣ وابن طاهر ورقة ٦٨ والنويرى حـ ٢٦ ورقة ٧١ وابن اياس « بدائع الزهور » حـ ١ س ٦١

من الظهور ، ثم يقبض عليه ويسجنه مقيدا فى خزانة لا يدخل إليه أحد فيها إلا بأمره فى ١٦ ذى القعدة سنة ٥٢٤ هـ (١١٣٠) م . ثم أخلى سبيله فى ١٦ محرم سنة ٥٢٦ هـ (١١٣١ م) عندما قتل أحد مماليكه وزيره احمد(١) .

(ح) لباس الخليفة وشماره وألقابه

كما اتخذ الخلفاء العباسيون اللون الأسود شعاراً لهم(٢) كذلك اتخذ الخليفة الفاطمى الألوان لشعاره ، فكان البياض هو شعار العلويين ، ولقد صلى جوهر الجمعة بجامع عمرو فخطب الخطيب ببياض(٣) لقوله عليه الصلاة والسلام « إن من أحب ثيابكم إلى الله البياض فصلوا فيها وكفنوا فيها موتاكم »(٤) .

وكان الخليفة الفاطمى عند ركوبه فى أيام الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان يلبس توقيراً للصلاة الثياب البيضاء والمنديل والطيلسان(٥) .

وكان يلبس الثياب البيضاء الموشحة (وهى أجل لباسه) فى صلاة عيد

---

(١) ابن ميسر « تاريخ مصر » ص ٧٥ وابن طاهر ورقة ٧٨ والنويرى جـ ٢٦ ورقة ٨٨ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » المخطوط ورقة ٤ والسيوطى « حسن المحاضرة » جـ ٢ ص ١١٧

(٢) كان الخليفة العباسى إذا خرج فى المواكب خرج فى أكمل لباس فيكون عليه خفتا ديباج فضى وعمامة سوداء وعلى كتفيه وصدره وظهره البردة النبوية وهو متقلد بذى الفقار (سيف النبى عليه الصلاة والسلام) وفى يده اليمنى الخاتم والقضيب، إذ كانت البردة والقضيب شعار الخلفاء، وكان يلبس قلنسوة طويلة سوداء مزينة بجوهرة غالية ، وقباء أسود أو بنفسجيا .

وكان السواد هو لون الخرقة التى كانت تحضر فيها الصدقة كل يوم عند صلاة الصبح لتفريقها على المحتاجين .

أما سبب اتخاذهم اللون الأسود شعاراً لهم ففيه قولان : الأول أنهم اتخذوه لأن النبى عليه السلام يوم حنين ويوم الفتح عقد لعمه العباس راية سوداء ، أما الثانى (وهو ما نميل اليه) أنهم سموا المسودة لاتخاذهم السواد شعاراً لهم عند ما قتل « مروان بن محمد العباسى » أول القائمين من بنى العباس بطلب الخلافة .

المسعودى « مروج الذهب » جـ ٨ ص ١٦٩ و ٣٧٧ والشريف الرضى « ديوان الشريف الرضى » (بيروت ١٣٠٧ هـ) ص ٣١٣ و ٥٤٣ وابن سعيد « المغرب » ص ٣٠ والسيد أمير على « مختصر تاريخ العرب » ص ٣٨٧ .

(٣) ابن خلكان « وفيات الأعيان » جـ ١ ص ٢١٢ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٧٥

(٤) ابن سعد « الطبقات » جـ ٢ ص ٢١٢ .

(٥) القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٥١٠

الفطر[١] كما كان يلبس ثوبا يسمى « البدنة » من حرير مرقوم بالذهب يوم فتح الخليج فى اليوم الثالث أو الرابع من يوم التخليق[٢].

وكان يلبس الثياب المذهبة من البياض والملوّن فى المواكب المختصرة، والتى لا تزيد عن أربعة أو خمسة أيام فيما بين أول العام ورمضان[٣].

وتحدثنا المصادر التاريخية بأنه لما دخل المعز القاهرة احتجب فى القصر، وبثّ عيونه ينقلون إليه أخبار الناس، ثم ظهر بعد ذلك للناس وقد لبس الحرير الأخضر[٤] لأن النبى عليه الصلاة والسلام كان يلبس بردين أخضرين[٥] ولعل هذا ماجعل العلويين يطالبون الناس بلبس الخضرة وطرح لبس السواد وأن تكون الأعلام والقلانس أحيانا خضراء[٦].

وفى الاحتفال بصلاة عيد الأضحى كان الخليفة الفاطمى يرتدى ثيابا من الحرير الأحمر الموشح،[٧] لأن النبى عليه السلام كان يلبس برده الأحمر فى العيدين والجمعة[٨] وكان يخلع على وزيره ثيابه الحمر التى كانت عليه[٩]

وكانت للخليفة ثياب خاصة يلبسها فى قصره تتميز بأن أكمامها كانت على النصف من أكمام ثيابه التى كان يلبسها فى المواكب[١٠] وهو يلبس من الكساء قفطانا وجبة وقباء، ويتشح بالعباءة ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة غالية

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » حـ ٣ ص ٥١٢ - ٥١٤ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » حـ ٤ ص ٩٤ .

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » حـ ٣ ص ٥١٩

(٣) « « حـ ٣ ص ٥٢١

(٤) العينى « عقد الجمان » القسم الثانى من حـ ١٩ ورقة ٢٦٧ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » حـ ٤ ص ٧٤

(٥) ابن سعد « الطبقات » حـ ٢ ص ٢١٥

(٦) الجهشيارى « كتاب الوزراء » ص ٣٩٦ . والقلانس جمع قلنسوة وهى لباس فارسى وهى قبعات طويلة مخروطة

(٧) القلقشندى « صبح الأعشى » حـ ٣ ص ٥١٥

(٨) ابن سعد « الطبقات » حـ ٢ ص ٢١٣

(٩) ابو المحاسن « النجوم الزاهرة » حـ ٤ ص ٩٩

(١٠) القلقشندى « صبح الأعشى » حـ ٣ ص ٥٢٢

وكان السواد لا يلبس أيام الفاطميين كشعار لهم ، بل لمناسبة من المناسبات ، إذ مثلا لما خرج « الحافظ لدين الله » لتشييع جنازة « بهرام » النصرانى ، كانت عمامته خضراء وثوبه أخضر بغير طيلسان [١] ، أما القضاة والشهود فقد كانوا يرتدون ثياب الحداد فى مأتم عاشوراء ، وعلى ذلك فلم يكن السواد هو ثوب الحزن عند الخليفة .

كذلك لما قتل الخليفة « الظافر بأعداء الله » سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م) ، وأراد طلائع بن رزيك والى أخميم وأسيوط أن ينتقم من قاتله عباس وابنه نصر ، كان لابساً ثياباً سوداء وكانت أعلامه وبنوده سوداء كذلك ، وكان واضعاً شعور نساء القصر المرسلة إليه من عمه الخليفة الذى خلفه وهو « الفائز بنصر الله » على الرماح ، حزناً على الخليفة المقتول ، ومشى فى جنازته حافياً مكشوف الرأس فاقتدى به الناس [٢] .

وكان الخليفة الفاطمى يتميز عن رعيته بكثير من شارات الملك التى تقتضيها الأبهة والعظمة ، فكان إذا خرج فى موكبه تقلد السيف العربى المجوهر ، الذى كانت له حمائل يعلق بها على الكتف الأيمن وهو مدلى على الجانب الأيسر ، ونحن لانستطيع أن نؤكد أن هذا السيف هو ذو الفقار الذى غنمه النبى عليه الصلاة والسلام فى موقعة بدر من « منبه بن الحجاج » العربى المشرك . أما السيف الخاص الذى كان يحمل فى المواكب فكان من ذهب مرصع بالجواهر ، يحمله أمير من أعظم الأمراء عند ركوب الخليفة [٣] .

وكان الخليفة الفاطمى يضع على رأسه تاجاً عظيماً ينعت بالتاج الشريف هو تاج الخلافة ، فيه من الجواهر ما لا يوجد فى خزانة خليفة آخر ، وكانت الدرة اليتيمة وزنتها سبعة دراهم تعلو عمامته وحولها جواهر أخرى دونها

---

(١) النويرى « نهاية الأرب » حـ ٢٦ ورقة ٩١

(٢) ابن ميسر « أخبار مصر » حـ ٢ ص ٨٤ و ٩٤ وابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٨٦ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » حـ ٥ ص ٢٩٣

(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » حـ ٣ ص ٤٧٢

على جبهته مكان العامة ، ولقد اتخذ التاج رمزاً للحكم والسلطان من إيران[١]، أما قضيب الملك الذى يضعه الخليفة الفاطمى بيده فهو عود طوله شبر ونصف، ملبس بالذهب المرصع بالدر والجوهر[٢].

كذلك اتخذ الخليفة الفاطمى لجلوسه سرير الملك من ذهب ، وعليه مرتبة مذهبة بصدر الإيوان الكبير بالقصر ، وحوله الأمراء والأعيان وأرباب الرتب ، يقف من رسمه الوقوف ويجلس من له عادة الجلوس ، ولما ولى الخليفة « الآمر بأحكام الله » سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) نقل جلوس الخليفة من « الإيوان الكبير » بالقصر إلى « قاعة الذهب » بالقصر أيضاً ، وجعل الإيوان الكبير خزانة سلاح . وأول من فكر فى إجلاس الخليفة بمكان أعلى من مجلس رعيته هو معاوية ، إذ كان عمرو بن العاص بمصر يجلس فى قصره على الأرض ، وكان إذا حضر إليه المقوقس ، أحضر معه سريراً من الذهب محمولا على الأيدى ليجلس عليه فى حضرة عمرو الجالس على الأرض ، ثم اتخذ خلفاء المسلمين من بعد معاوية الأسرة والمنابر والتخوت ونافسوا فيها الأكاسرة والقياصرة[٣] ، كما اتخذ الخليفة الفاطمى المنبر والتخت والكرسى ليجلس عليها مرتفعاً عن رعيته ، وكان له خاتم يختم به على الرسائل والصكوك[٤].

وكانت المظلة علامة أبهة الخلافة الفاطمية ، فقد اتخذها المهدى[٥] عندما أصبح خليفة ، ورؤى المعز لدين الله سائراً والمظلة على رأسه بمجرد قدومه

---

(١) العينى « عقد الجمان » المخطوط ورقة ٦٨٨ من المجلد الرابع جـ ١٩

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٤٧٢

(٣) ابن ميسر « أخبار مصر » جـ ٢ ص ٥٣ وابن خلدون « المقدمة » ص ٢٢٦ والقلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٤٩٨ و ٤٩٩ والمقريزى « الخطط » جـ ٢ ص ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٢٢ و ٢٢٤ .

(٤) النويرى « نهاية الأرب » ورقة ٤١ والقلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٢٧٣

(٥) ابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة ورقة ٤٣ وابن خلدون « المقدمة » ص ٢٣١ وكان حامل مظلة المهدى هو مسعود الصقلي ثم عرس الصقلي .

لمصر[١] ، وأكبر الظن أنها نقلت إليهم من المغرب قبل الإسلام ، عندما كان الناس يظللون حكامهم بريش الطواويس[٢] .

أما المظلة فكانت قبة على هيئة خيمة على رأس عمود ، وكانت لها عندهم مكانة جليلة لعلوها رأس الخليفة ، وكان حاملها من أكبر الأمراء ، وكان لونها يشبه دواماً لون ثياب الخليفة[٣] . فمثلا فى صلاة العيد الأضحى تكون مظلة الخليفة حمراء تبعاً لثوبه الأحمر الموشح[٤] ، وبيضاء فى صلاة عيد الفطر ، لارتدائه البياض[٥] فى هذه المناسبة وكانت تتخذ المظلة من « الديباج أو الخز المحلى بالذهب والمرصع بالجوهر[٦] ، تنشر ويسير الخليفة فى الموكب وصاحب المظلة على يساره مجتهداً ألا يزول ظلها عن الخليفة ، وفى المواكب المختصرة كان يخرج الخليفة بدون مظلة[٧] .

ومن أبهة الخلافة وعظمتها أيام الفاطميين أن الخليفة إذا ظهر وجهه ليسير فى الموكب ، ضرب رجل ببوق لطيف معوج الرأس من الذهب يقال له الغريبة وهو مخالف لصوت باقى الأبواق ، فتضرب البوقات الأخرى فى الموكب وتنشر الألوية وأعلاها لواء الحمد على رمحين طويلين ملبسين بأنابيب من ذهب وبأعلاهما رايتان من الحرير الأبيض المرقوم بالذهب ملفوفتان على الرمحين غير منشورتين ، ويخرجان لخروج المظلة إلى أميرين معدين لحملهما[٨] .

---

(١) النويرى « نهاية الأرب » ورقة ٤٣

(٢) أبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ح ٤ ص ٩٤ وجورجى زيدان « تاريخ التمدن الاسلامى » ح ٥ ص ١٤٧

(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٣ ص ٤٧٣ و ٥٢١

(٤) « « ح ٣ ص ٥١٥

(٥) « « ح ٣ ص ٥١٢

(٦) أبو المحاسن ح ٤ ص ٩٤ و « كتاب الأغانى » (طبعة بولاق) ح ٦ ص ٥٩

(٧) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٣ ص ٥١٦ و ٥١٧ و ٥٢١

(٨) « « ح ٣ ص ٤٧٣

وكان للخليفة العلوى الرايات البيضاء وغيرها ولذا سموا المبيضة [١] ، وكان على هذه الألوية الفاطمية البيضاء أحيانا أهلة من ذهب فى كل منها صور سبع من الديباج الأحمر [٢] ، ومنسوج عليها بعض الآيات القرآنية والعبارات الدينية مثل « نصر من الله وفتح قريب » ، وكانت الطبول تقرع هى والصنوج فى مواكب الخليفة الفاطمى وتحمل النقارات على عشرين بغلا [٣] ، ويسير موكب الخليفة وحواليه الأساتذة والأمراء المطوقون وأرباب الخدم الجليلة ركبانا ومشاة على حسب مراتبهم وحامل الدواة ، وكانت هذه الدواة متخذة من الذهب وحليتها مصنوعة من المرجان ، تلف فى منديل مخصوص من الحرير الأبيض ، ويحملها شخص فى الموكب العام للخليفة [٤] وحامل السيف ، وحامل الرمح وهو رمح محلى بالذهب واللؤلؤ [٥] وحامل الدرقة المنسوبة إلى حمزة عم النبى عليه السلام ، وهى درقة كبيرة محلاة بالذهب والحرير عليها أمير من أكابر الأمراء فى الموكب [٦] وطوائف العساكر التى تزيد على ثلاثة آلاف فارس .

وكانت توضع فى وجه فرس الخليفة عند ركوبه فى الموكب قطعة ياقوت أحمر فى شكل الهلال [٧] تسمى « الحافر » زنتها أحد عشر مثقالا ، تخاط

---

(١) كانت راية الأمويين بيضاء وخضراء بعكس راية العباسيين التى كانت سوداء كتب عليها بالأبيض « محمد رسول الله » أما النبى عليه السلام فكانت له راية سوداء اسمها العقاب ورايات أخرى بيضاء

(٢) أبو يوسف « الخراج » ص ٢٢٩ وابن سعد « الطبقات » ح ٢ ص ٢١٧ وابن خلدون « المقدمة » ص ٢٢٥ والقلقشندى « صبح الأعشى » ح ٣ ص ٢٧٤ و ٢٧٥ ومتز « الحضارة الاسلامية » ص ٢٢٨

(٣) ابن خلدون « المقدمة » ص ٢٢٥ والقلقشندى « صبح الأعشى » ح ٣ ص ٤٧٥ و ٥٠٦ — ٥١٤

(٤) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٣ ص ٤٧٢

(٥) « « ح ٣ ص ٤٧٣

(٦) « « ح ٣ ص ٤٧٣

(٧) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٣ ص ٤٧٣

خياطة حسنة على خرقة من حرير ، وبدائرها قضب زمرد ، وكانت تحمل عند رأس الفرس مذبتان عظيمتان كالنخلتين ملويتان[١] .

كذلك كان من رسوم شارات الخليفة الفاطمى أن يضرب السكة ، فنقش أبو عبد الله الشيعى على السكة « الحمد لله رب العالمين » ، وسميت « السيدية[٢] » ، كما كتب المنصور والد المعز لدين الله على الدرهم فى أحد الوجهين « الله الواحد الغفور » ، وعلى الآخر « الامام أبو منصور »[٣] وعندما حضر جوهر لمصر كتب على الدنانير على أحد الوجهين « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، على خير الوصيين ، ووزير خير المرسلين محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » ، وعلى الوجه الآخر « الامام معد لتوحيد الأله الصمد المعز لدين الله أمير المؤمنين ضرب بمصر سنة ٣٥٨هـ[٤] وفى رواية أخرى أنه كتب فى أحد الوجهين فى سطر « الامام معد لتوحيد الإله الصمد » ، وفى سطر آخر « المعز لدين الله أمير المؤمنين » ، وفى سطر ثالث « بسم الله ، ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمانية وخمسين وثلثمائة » ، أما الوجه الآخر فقد كتب فيه « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » ، و « على أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين »[٥] ، وبذلك كتبوا على العملة اسم الله جل شأنه واسم نبيه عليه السلام وآله ، ثم اسم الخليفة ولقبه والتاريخ الذى صدرت فيه[٦] .

وكما كان يضرب على السكة اسم صاحب مصر كذلك كان يضرب عليها أحيانا اسم ولى العهد أو الوزير ، فمثلا كتب المستنصر اسم وزيره اليازورى

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » حـ ٣ ص ٤٧٤

(٢) ابن عذارى المراكشى « البيان المغرب فى أخبار المغرب » ص ١٤٨

(٣) ابن ميسر « تاريخ مصر » حـ ٣ ص ٤٩

(٤) النويرى « نهاية الأرب » حـ ٢٦ ورقة ٤١

(٥) المقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٧٦

(٦) « القلقشندى صبح الأعشى » حـ ٣ ص ٤٦٨

على السكة مدة شهر[١] . وكان طريق الخليفة يكنس ويرش بالماء وبالرمل الأصفر ، فاذا خرج وقف صاحب الباب ووالى القاهرة والاسفهسلار على رأس الطرق لمنع المارة ، ويقف الوزير والأمراء لانتظاره[٢] وزينت له الأسواق زينة عظيمة[٣] .

وكان يلقب الرئيس الأعلى فى الدولة الفاطمية « بالخليفة[٤] » ، وهو لقب يلقب به الزعيم الأعظم القائم بأمور الأمة الإسلامية ، لأنه يقوم مقام الرسول فى حكم المسلمين والمحافظة على دينهم .

وكان يلقب أيضاً بعبارة « أمير المؤمنين[٥] » ، فهو يدل على أن المسلمين أصبحوا قوة ، وأنه قد أصبح أميراً لهذه القوة ، ولا غرو فقد كان يعبر عن قائد الجيش بالأمير عند العرب فى الجاهلية ، وهو لقب يتمشى مع عهد الفتوح لما فيه من معنى السلطتين الحربية والإدارية . كذلك كان يلقب بلقب « الامام[٦] » ، والإمام هو كل رئيس قوم مقدم عليهم . ولقد حرص الفاطميون على وظيفة الإمامة فى الصلاة كما تدل عليه من صفة الزعامة ، حتى كانت الإمامة فى الصلاة فى عصرهم أخص مايتميز به خليفتهم لارتباطها الوثيق بالدين ولذا لقبوا الخليفة بلقب الإمام لأنهم يعتبرونه قدوة لهم وهادياً لهم إلى

---

(١) ابن ميسر « تاريخ مصر » حـ ٢ ص ٦٦ والمقريزى « اغاثة الأمة » ص ١٨

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » حـ٣ ص ٥٠٣ و٥٠٨

(٣) ابن ميسر « تاريخ مصر » حـ ٢ ص ٥٤ والقلقشندى «صبح الأعشى» حـ٣ص ٥٢٢

(٤) القلقشندى « صبح الأعشى » حـ ٣ ص ٤٧٥ و ٤٨١ و٤٨٣ و٤٩٨ و ٥٢٢ و حـ ٥ ص ٤٤٤ وابن اياس « بدائع الزهور » حـ ١ ص ٦٣

(٥) ابن النعمان « المجالس والمسايرات » المجلد الثانى حـ ٢١ ص ٤١١ و ٤١٢ و٤١٦ و٤١٧ وابن خلكان « وفيات الأعيان » حـ٣ ص ٥٥ والقلقشندى « صبح الأعشى » حـ ٣ ص ٥٠١ والمقريزى « الخطط » حـ ٢ ص ١٦٢ . وكان الخليفة عمر بن الخطاب أول من لقب بهذا اللقب

(٦) ابن النعمان « المجالس والمسايرات » المجلد الثانى حـ ٢١ ص ٤١١ و ٤٣٠ ورسائل الحاكم بأمر الله ورقة ٢ . ولايزال إلى الآن ملك اليمن يلقب بالامام .

الطريق المستقيم . كذلك كان يلقب الخليفة الفاطمى « بالسلطان[١] » ، وأصله فى اللغـة الحجة ، وسمى السلطان بذلك لأنه حجة على الرعية ، يجب عليهم الانقياد له ، ولقب السلطان كان لا يطلق فى القرن الرابع الهجرى إلا على الخليفة ، فكان يقال دار السلطان (أى دار الخلافة) ، وعلى ذلك قيـل إن كلمة « فرعون » لقب زعيم مصر قديما « والسلطان » لقبه حديثاً[٢] ، وقد سمى ناصرو خسرو خلفاء الفاطميين « سلاطين[٣] » ، وهو حجة لدينا لأنه زار مصر وسمع من أهلها أنهم كانوا يلقبون الخليفة بهذا الاسم . ويحدثنا القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى[٤] بأن قاضى القضاة كان يخاطب خليفته فى الجامع فيقول « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى الخطيب ورحمة الله وبركاته »

كما كان الخليفة الفاطمى يخاطب ب« سيدنا » و« مولانا » و« سيف الإسلام » و« ناصر الإمام أو الأئمة » ، و« كافل قضاة المسلمين » و« هادى دعاة المؤمنين » و« كاشف الغمة » ، و « غياث الأنام »[٥] وبغير ذلك من الألقاب[٦] .

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » حـ ٥ ص ٤٤٧ والمقريزى « اغاثة الأمة بكشف الغمة » ص ٢٠ حيث يقول و « كان يبتاع للسلطان ... الخ » والسيوطى « حسن المحاضرة » حـ ٢ ص ١٥٦ . وأول من لقب بالسلطان هو خالد بن برمك وزير الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ و٧٨٦ — ٨٠٩ م) لقبه به الرشيد تعظيماً له ورفعة لمقامه

(٢) أبو المحاسن « النجوم الزاهرة » (طبعة ليدن) حـ ٢ ص ٢٥٢ ومتز « الحضارة الاسلامية » ص ٢٨

(٣) Nassiri Khosrau, Sefer Nemeh pp . 156—159

(٤) حـ ٣ ص ٥١٠

(٥) ابن النعمان « المجالس والمسايرات » المجلد الثانى حـ ٢١ ص ٤٣٢ والنويرى « نهاية الأرب » حـ ٢٦ ورقة ٥٢

(٦) ومن أراد التوسع فى ألقاب الخليفة فليقرأ van Berchem, Corpus Inseriptorum Arabicorum, Egypt Tome I & Viet Gaston, Corpus Inscriptorum, Egypt. Tome II & M. Max Van Berchem, Titres Califiens d'occident. فى المجلة الأسيوية سنة ١٩٠٧ ص ٢٤٥ وما بعدها .

٢ – نظام البـــلاط

(ا) مسكن الخليفة

كان قصر الخليفة الفاطمى هو القصر الذى بناه جوهر ، مولى الخليفة المعز لدين الله وقائد جيشه ، ليلة قدومه لمصر عندما أوى المصريون إلى مضاجعهم ، وسكنوا إلى مخادعهم ، إلا جوهر إذ سهدت عينه ولم يبت ليلته حتى وضع شمالى القطائع ، مدينة ابن طولون ، أساس القاهرة ، حيث شيد قصرين عظيمين ، أحدهما قصر الخليفة الفاطمى الخاص ، والآخر كان بمنزلة متنزه يطل على حديقة كافور ، بينهما ميدان لاستعراض الجند يعرف باسم مابين القصرين ، يسع عشرة آلاف عسكرى مابين فارس وراجل ، فكان الخليفة يمر من أحد القصرين إلى الآخر من تحت الأرض بطريق أعده لذلك حتى لاتكثر رؤيته للناس فيستهينوا به . ولقد وصف لنا ناصرو خسرو هذا القصر فقال : إنه كان فى وسط القاهرة ، وبينه وبين الأبنية المحيطة به فضاء يفصله عنها ، وكان يحرسه فى الليل خمسمائة حارس من الفرسان وخمسمائة حارس من الرجالة ، وكانت أسواره عالية فلا يستطيع أحد رؤيته من داخل المدينة ، وكان بالقصر ألوف من الخدم والنساء والجوارى ، وله عشر بوابات فوق الأرض ، وباب يقود إلى ممر تحت الأرض يعبره الخليفة راكبا ليصل إلى قصر آخر(١) . ويحدثنا العينى فى مخطوطه (٢) أن صاحب العسس كان من رسمه أن يطوف كل ليلة حول القصر ، فى ألف رجل بالطبول والبوقات فى أثواب زاهية .

وكان القصر الكبير الشرقى ، سكن الخليفة الفاطمى وموضع جلوسه لدخول عساكره وأهل دولته ، وفيه تقيم أسرته وحاشيته ورجال بلاطه

---

(١) Sefer Nameh, Relation du Voyage du Nassiri

(٢) « عقد الجمان » القسم الرابع من حـ ١٩ ص ٦٨٥

وفيه الدواوين والخزائن ومن يقوم بأعمالها والإشراف عليها .

ويقال للقصر الآخر « القصر الصغير الغربى » ، وقد تم بناؤه فى عهد الخليفة العزيز بالله ، يتحول إليه الخليفة فى أيام النيل للتنزه على الخليج ، ويقال لهذين القصرين معا « القصور الزاهرة »[1] ، التى كانت دار الملك وقصر الجند ومركز الإدارة .

وكانت أرضية البلاط الفاطمى مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان ، وفيها تذهيب بهيج بنضارته وبهائه ، وبالسقوف ألواح تزينها الزخارف الذهبية الجميلة ، ونافورة يجرى الماء الصافى منها فى أنابيب من الذهب والفضة[2] وأراض وقنوات مرصوفة بالرخام ، ودروع وأسلحة تلمع بالذهب والفضة ، وبقصره دور واسعة وقباب وأروقة حليت جدرانها وسقوفها بالفسيفساء المذهبة والرسوم الملونة ، وحيطانها بالوشى والديباج وبساتين ومسطحات مظللة بالأشجار والرياحين ومقاصير للحرم وحجرات للخدم . وبالجملة فقد كانت القصور الزاهرة مضرب المثل فى حسن بهائها ورونقها كما امتازت بفخامة بنائها واتساعها وما يحيط بها من حدائق غناء وأشجار متكاثفة كما ازدانت بالمناضد الثمينة والزهريات الخزفية والتربيعات المرصعة والمذهبة التى بلغت حد الاتقان ، والفرش الفاخر والمتاع الثمين ، إلى غير ذلك من آيات الروعة والجمال لتبقى شاهدة بمآثرهم ، ناطقة بذكراهم .

وكما كثر الرقيق والجوارى فى قصر الأخشيد[3] ، كذلك كثروا فى

---

(١) ابن الأثير « الكامل » ج ٢ س ٢١٢ والمقريزى « الخطط » ج ٢ س ١٧٩ و١٨٠ و ١٨٢ والسيوطى « حسن المحاضرة » ج ١ س ١٠ وج ٢ س ١٢

(٢) انظر وصف غليوم رئيس أساقفة صور للبلاط الفاطمى سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧م) عندما زاره رسولا الملك أملريك وترجمة الدكتور زكى محمد حسن للعبارة فى كتابه « كنوز الفاطميين » س ١٦٢ و ١٦٣

(٣) كان لأبى المسك كافور الاخشيدى الخصى مثلا ٢٥٠٠ وقيل ٢٧٠٠ مملوك من الترك . النويرى « نهاية الأرب » ج ٢٦ ورقة ١٩ والمقريزى « الخطط » ج ٣ س ٤١ و ٤٢ والعينى « عقد الجمان » ج ١٩ القسم الثانى ورقة ٢١٦ و ٢١٧

قصر الخليفة الفاطمى ، وجلب النخاسون للدولة الفاطمية الغلمان والجوارى ، من النوبة والحبشه والسودان والتركستان وغيرها ، ممن حسن منظرهم وكثرت شجاعتهم ، وساعدهم على ذلك ما كان فيه الخلفاء من البذخ والثروة ، فعهد إليهم الخليفة بخدمة قصرة وحراسته ، وأسند إليهم أعلى المناصب ، وجعلهم من خاصته وحاشيته .

كذلك وجد الخصيان من الرقيق لخدمة حريم القصر أو الخليفة نفسه ، فكانو أحيانا يحفون بالخليفة مطلقين البخور على جانبي طريقه إذا خرج مثلا لجبر الخليج ، ومنهم من لمع اسمه كبرجوان التركى الخصى الذى وصل إلى رتبة الوساطة .

ولقد بلغ الرقيق فى قصر الخليفة عدة آلاف ما بين أشراف وخدم فيذكر ابن أياس[1] أنه كان بقصر الخليفة الحاكم بأمر الله مثلا ، أربعة آلاف جارية ما بين بيضاء وسوداء ومولدة .

وكان لست الملك أخت الخليفة الحاكم بأمر الله مثلا أربعة آلاف جارية ، منهن ١٥٠٠ جارية من الأبكار والباقى من الثيبات[2] ،

ويقدرهم « ناصرى خسرو » بقصر الخليفة المستنصر بنحو ثلاثين ألف جارية . ولما استولى صلاح الدين الأيوبى على قصر الخليفة العاضد ، آخر خلفاء الدولة الفاطمية ، وجد به إثنا عشر ألف جارية . ولم ينظر الخليفة الفاطمى إلى الرقيق فى قصرة نظرة امتهان وازدراء ، بدليل أن بعضهم كانت أمهاتهم من الرقيق .

وكما وجدت المحظيات من الجوارى ، كذلك وجدت الراقصات والمغنيات فى القصر ، فكانت الجارية تشترى ثم تلقن الأشعار ، وتتعلم الموسيقى على كبار رجالها ، حتى تنبغ فى فنها .

---

(١) « بدائع الزهور » حـ ١ ص ٥٨

(٢) أبو الفدا « المختصر فى أخبار البشر » حـ ١ ص ١٥١ والذهبى « تاريخ الاسلام » حـ ٣ ص ٢٩١ وابن اياس « بدائع الزهور » حـ ١ ص ٥٨

ومن الفتيات من أحرزت مكانا رفيعا ، فكانت للخليفة المستنصر بالله مثلا مغنية غنته لما خطب البساسيرى فى بغداد باسم المستنصر ، فى هذه الذكرى الجميلة هذين البيتين .

يا بنى العباس صدوا ملك الأمر معد
ملككم ملك معار والعوارى تسترد

فسر الخليفة منها وطرب ، ووهب لها أرضا من أحسن منتزهات القاهرة جائزة ، لانشادها هذا الشعر ، عرفت بأرض « الطبالة »[١] .

وكما زاد المعز لدين الله من جوارى المغاربة فى القصر ، كذلك زاد ابنه العزيز بالله من جوارى الأتراك فيه . وكانت إذا قامت الفتن والثورات الطائفية ، وتغلب رئيس احدى الطوائف على الأخرى ، ناصر فريقه وزادهم فى القصر ، فمثلا اصطنع ابن عمار المغاربة، ففرّق لحقده على الأتراك معظم جوارى القصر ، وتخلص منهن ، إما بالعتق أو بالبيع ، وبذلك اقتصد من مصاريف المطابخ ، ومن الأرزاق التى كانت تصرف عليهن مبلغا كبيراً انتفع به صنائعه من المغاربة .

(ب) محتويات القصر

كانت دولة الفاطميين من أعظم دول الاسلام ملكا ، وأنبلها ترفاً وتمتعا أحدثوا فى مصر كثيراً من المواسم والأعياد والحفلات الوطنيه ، التى فيها تقدم الموائد الكثيرة المزخرفة بالذهب والفضه والعاج ، وعليها من الأطعمة الفاخرة وأنواع الحلوى اللذيذة الشىء الكثير ، وكثيراً ما تقدم معها أصناف الكسوة الثمينه والهدايا والدنانير والدراهم ، لأرباب الدولة والخواص ثم للخدم والجند . وكان تأنقهم بجمع التحف والذخائر النفيسة ، من آنية الذهب والفضة والأحجار الكريمة عجيباً ، وتقدمت فى زمانهم الصناعة العربيه فى

---

(١) وهى المنطقة التى تحد من الشمال والغرب بشارع الظاهر ، ومن الجنوب بشارع الفجالة، ومن الشرق بشارع الخليج المصرى .

التطريز والحياكة وغيرها ، فكانت بالقصر عدة خزائن ساعدتهم على هذا الرقى برقى الصناعات وإظهار حضارتهم .

أما الخزائن فهى[١] :

خزانة الكسوة : أو الكسوات . كانت دار الكسوة عبارة عن خزانتين الأولى الخزانة الظاهرة ، ويتولاها أستاذ أو غيره من خواص الخليفة ، وهى ملآى بأنواع الأقمشة وملابس النساء والرجال من الديباج الملون على اختلاف أنواعه ، والشرب[٢] الخاص الدبيقى[٣] والسقلاطون[٤] ، وغير ذلك من أنواع القماش الفاخر . وكان يحمل إليها مايعمل بدار الطراز بتنيس ودمياط والأسكندرية ، وبها ، صاحب المقص ، وهو رئيس الخياطين والمقدم عليهم وتحت يده عدد منهم ، لهم أمكنة يفصلون ويخيطون فيها ما يكلفون بخياطته من لباس الخليفة ، وما يحتاج إليه من الخلع والتشريفات وغير ذلك ، ثم ينقل إلى الخزانة الثانية المسماه خزانة الكسوة الباطنة ، التى تتولاها امرأة تنعت « بزين الخزان» ، تساعدها ثلاثون جارية ، ولا يغيّر الخليفة ثيابه إلا عندها وتتلق الزهور لتعطير ثيابه يوميا .

وبخزانة الكسوات جميع أنواع الثياب المصنوعة فى دار الطراز ، أو المجلوبة من البلاد الاسلامية وغيرها ، فتفصل منها كسوة الشتاء والصيف ، لرجال القصر ونسائهم وأولادهم وخواصهم وخدمهم وحواشيهم ومن يلوذ بهم ، كما تصنع بها خلع الأمراء والوزراء وكبار الموظفين ، من الثياب الدبيقية

(١) الخزانة اسم الموضع الذى يخزن فيه الشىء

(٢) نوع من النسيج كان يحاك فى تنيس

(٣) الدبيقى نوع من القماش الحريرى المزركش كان يصنع فى دبيق ، وهى قرية كانت تابعة لمدينة دمياط اشتهرت بصناعة المنسوجات الموشاة بالحرير والذهب ، تصنع فيها العمائم الشرب الملونة والمذهبة الغالية الثمن التى يبلغ طول كل عمامة منها مائة ذراع منسوجة بالذهب فى الحرير ، وإليها ينسب الدبيقى وهو نسيج مذهب . المقريزى « الخطط » (١٢٧٠ هـ) حـ ١ ص ٢٢٦ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » حـ ٤ ص ٨١

(٤) كلمة يونانية تطلق على ثياب كتان موشاة منقوشة بألوان الحرير . المقريزى « الخطط » (١٢٧٠ هـ) حـ ١ ص ٤٤٧

والعمائم المطرزة بالذهب[١] ، والأطواق والأسورة والسيوف المحلاة ، للخلع على الأمراء ، وعقود الجواهر للخلع على الوزراء ، وكانت تصنع بها الثياب الحريرية المطرزة بالذهب وغيرها من ثياب المواسم والأعياد (خلع التشريفة) التي كان الخليفة يخلعها على كبار دولته . وكانت العادة أن الكسوات التي تخلع على أعوان الخليفة من خزانة الكسوة ترفق ببراءات أو رقعات من ديوان الإنشاء ، وكان يزيد مقدار كسا القصر (التي تخرج فى الشتاء والصيف من خزانة الكسوات) على الستمائة دينار ، ونرجح أن عادة استعمال الملابس المحلاة بالذهب قد أخذت عن الفرس ، وكانت كسوة الكعبة الشريفة تعمل فى شطا[٢].

وكان من أبهة الخلافة الفاطمية أن يرسموا علامات يختص بها الخليفة ، فكان يكتب اسم الخليفة على طراز ثوبه المعد له ، من الحرير والديباج ، أو الابريسم فى نسج الثوب بخيوط الذهب ، أو مايخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب ، وبذلك تعتبر ثيابه بهذا الطراز معلمة ، فاذا خلع منها على أحد ، عرفت ، وعرف لابسها بتقريبه منه وكان لخزائن الكسوة ديوان يعرف باسم « ديوان خزائن الكسوة » لصاحبه رتبة عظيمة[٣] كما كان فى دور نسج الثياب رجل قائم عليها يناط به النظر فى أمور الصناع والاشراف عليهم وصرف أرزاقهم ، وكان « صاحب الطراز » يختار من خواص الخليفة

---

(١) كان يبلغ ثمن العمامة من الذهب خمسمائة دينار

(٢) وهى قرية قريبة من دمياط اشتهرت بالثياب الشطوية ، ومن طرازها تعمل الكسوة للكعبة ، وكانت كسوة الكعبة أيام المعز لدين الله « سعتها اثنى عشر شبرا فى اثنى عشر شبرا وأرضها ديباج أحمر » « وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق » ، ولا شك فى أنها كانت ثقيلة فى وزنها .

القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٣ ص ٤٧٦ والمقريزى « الخطط » ح ٢ ص ٢٥٥ و ٢٦٢ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ح ٥ ص ١٦

(٣) القلقشندي « صبح الأعشي » ح ٣ ص ٤٩٤

الذين يثق بهم [١] من أرباب الأقلام ، وكان مقامه بدمياط [٢] وتنيس [٣] وغيرهما [٤] ومن عنده تحمل الثياب إلى خزانة الكسوة [٥].

خزائن الجوهر والطيب والطرائف : حدثنا عنها البطائحى [٦] فقال إنه « كان بها الأعلام والجواهر التى يركب بها الخليفة فى الأعياد » ، فكان يؤخذ من تلك الخزائن ما يحتاج إليه ثم يرد إليها ثانية بعد الاستغناء عنه ، فيرد سيف الخليفة الخاص والرماح الثلاثة وغيرها من الآلات المختصة بموكب الخليفة والدالة على أبهته وعظمته [٧] كما كان بها الطيب والطرائف والصندل والعود والأبنوس والعاج وغيرها [٨]

خزائن السلاح : فيها أنواع السلاح المختلفة، ففيها الخوذ المحلاة بالذهب والفضة والسيوف العربية والرماح والأسنة والقسى والنبل والدروع إلى غير ذلك من آلات السلاح ، كان ينفق عليها الأموال الطائلة سنويا [٩] لأجور العمال وصلاح سلاحها ومسحه ودهانه إلى غير ذلك ، وكان يرجع إليها كل سلاح مات صاحبه .

---

(١) ابن خلدون « المقدمة » ص ٢٣١ و ٢٣٢

(٢) اشتهرت دمياط بالنسيج الفاخر المنسوج بالذهب

(٣) اشتهرت تنيس أيضاً بالنسيج الفاخر ، فكان يعمل فيها ثوب الخليفة الخاص المسمى « البدنة » وكان يتكلف كثيراً لأنه مصنوع أغلبه من الذهب ، كما كانت تحاك بها الثياب الشروب الغالية الثمن والبوقلمون ، وهو نوع من القصب الملون الذى يتغير لونه حسب ساعات النهار . الدكتور زكى محمد حسن « كنوز الفاطميين » ص ١٤٥ حاشية رقم ٢ وذكر خسرو أن البوقلمون كان يصدر إلى المشرق والمغرب انظر Sefer Nameh, Relation du Voyage du Nassiri Khosrau p. 111 كما اشتهرت تنيس بعمل الأثواب الكتانية التى لا يدخلها الذهب .

(٤) كان من أهم المراكز الصناعية أيضاً القيس وهى قرية بالشرقية اشتهرت بعمل القماش القيسى وكان يحتوى على الحرير كما اشتهرت بعمل الأكسية والثياب الصوفية .

(٥) القلقشندى « صبح الأعشى » ج٣ ص ٤٩٤

(٦) هو وزير الخليفة الآمر وقد وزر له سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) وألف كتابا فى التاريخ يشير إليه المقريزى أحيانا .

(٧) المقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٦٢

(٨) « « ج ٢ ص ٢٦٢ — ٢٦٦

(٩) فمثلا صرف عليها الخليفة المعز لدين الله من ٧٠ ألف دينار إلى ٨٠ ألف دينار سنويا

وبهذه الخزانة مستخدمون يعملون فيها آلات السلاح على اختلاف أنواعها بحسب ما يؤمرون ، وكان يجلب إليهم الخشب والحديد والأصباغ وغيرها من المواد التى تتطلبها هذه الخزانة .

خزائن الفرش والأمتعة : كان الخليفة يحضر إليها من غير جلوس ، ويطوف فيها ويسأل عن أحوالها . بها أثمن الفرش وأجملها ، وأغلى الستور وأبدعها ، وعدد كبير من الأمتعة النفيسة[١] .

خزانة السروج : هى قاعة كبيرة بالقصر تحتوى على السروج واللجم من الذهب والفضة وسائر آلات الخيل ، مما يختص بالخليفة أو موظفيه من أرباب الرتب العالية أو الخدم ، وكان بها عمال كثيرون من خرازين وصاغة وغيرهم[٢] .

خزانة الشراب : وتحتوى على كثير من الأشربة والمربات العظيمة ، كما كان بها أيضا أصناف الأدوية والعطريات الفاخرة ، أما ما تحتويه من الآنية والآلات والصحون والأزيار ، فلم يكن من المتيسر على غير الملوك الحصول عليه[٣] .

خزانة الطعم : وكان فيها الفستق والسكر والعسل والزيت والشمع ، إلى غير ذلك ، وكانت تخرج منها أطعمة الخليفه عدا اللحم والخضر ، لنفسه وأهل بيته وموظفيه[٤] .

خزائن الخيم : وكانت تحتوى على عدد كثير من الخيم[٥] .

خزائن البنود : البنود هى الرايات والأعلام ومفردها بند وهو العلم

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٣ ص ٤٧٧ وقد عدد المقريزى فى « خططه » ما بها فى ح ٢ ص ٢٦٦ — ٢٦٨

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٣ ص ٤٧٧ والمقريزى « الخطط » ح ٢ ص ٢٦٩

(٣) « « « ح ٣ ص ٤٧٦ « « ح ٢ ص ٢٧٢

(٤) « « « ح ٣ ص ٤٧٦

(٥) المقريزى « الخطط » ح ٢ ص ٢٧٠ — ٢٧٢

الكبير أو الراية أو اللواء ، وقد اتخذت البنود قديماً وحديثاً فى القتال وفى الاحتفالات الدينية وعلى جانبى مقابر المساجد أيام الجمع ، وكانت تحلى ببعض الآيات القرآنية والعبارات الدينية ، وكانت تحتوى على عدد كثير من الأعلام والرايات وآلات الحرب ، وكان فيها ثلاثة آلاف صانع ، بناها الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله[١] وقد احترق جميع مابها فى سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م) عند ما أريد نقلها ليلا ، إذ سقطت شمعة من أحد الفراشين فأتت على محتوياتها .

حواصل المواشى : وكان للخليفة حاصلان للمواشى أحدهما للخيول والبغال والآخر للجمال ، وكانت تلك المواشى كثيرة العدد ، تأكل من شون الأتبان وتستخدم فى المواكب ، له ولأرباب الرتب والمستخدمين فى دولته ، وبها من السياس والكلافين وغيرهم العدد الكثير[٢] ويديرها ديوان الكراع .

أما الغلال وحواصلها فكانت موزعة فى عدة أماكن بالقاهرة والفسطاط وتصرف منها ، الرواتب للخدم والصدقات وأرباب الجوامع والمساجد والجرايات والطواحين السلطانية وجرايات رجال الأسطول وغير ذلك ،[٣]

ففى الاهراء (الأشوان) كان يخزن سنوياً ما يزيد على ٣٠٠ ألف أردب غلة ، أكثرها من الصعيد[٤] وكان الحماة بالأهراء لكل منهم من ٥ إلى ١٠ دنانير[٥] وكان فى حواصل بضاعة الخليفه الكثير من الأخشاب والحديد وآلات الأساطيل من القنب والكتان والمنجنيقات وغيرها .

من هذا نرى أن الخزائن أنشئت لحفظ ما توجبه رسوم الملك وأبهة الخلافة ، وما تستدعيه لوازم البلاط من الأمتعة والفرش والثياب والزينه ، وما تحتاجه عساكره البرية والبحرية من السلاح والخيام والبنود والذخائر ، وأن

---

(١) المقريزى « الخطط » حـ ٢ س ٢٧٨ و ٢٧٩

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » حـ ٣ س ٤٧٨ و ٤٧٩ . وقيل لجماعة الخيل خاصة كراع « المصباح المنير س ٨١٨ »

(٣) « « حـ ٣ س ٤٧٩

(٤) على مبارك باشا « الخطط التوفيقية » حـ١ س ١٢

(٥) القلقشندى « صبح الأعشى » حـ ٣ س ٥٢٦ والمقريزى « الخطط » حـ ٢ س ٢٤٣

كلا من هذه الخزائن كان بها موظف كبير يعاونه عدد كبير من الموظفين والخدم ممن يقومون بتنظيفها . وكان الخليفة يتفقدها من وقت لآخر فى أيام السنة [١]

ونلاحظ أن خزائن الخليفة الفاطمى لم تصل الإدارة فيها إلى تعيين الحدود الفاصلة بين الواحدة والأخرى بدقة ، إذ بينما نجد مثلا فى خزائن الجوهر والطيب والطرائف سيف الخليفة الخاص والرماح وغيرها من الآلات المختصة بموكب الخليفة ، نجد فى « خزائن السلاح » أنواع السلاح المختلفة ، مع أن المنطق السليم كان يقضى بوضع كل الأسلحة فى خزانة واحدة يطلق عليها مثلا « خزانة السلاح » بحيث لا يوجد فى خزانة أخرى سلاح ما .

ولم نعثر على سجل منتظم بمشتملات المخازن والبيوت الخليفية ، مع عظم أهميتها وشمولها على أدوات ومهمات تقدر بمبالغ طائلة ، لذلك كانت هذه المخازن على كثرتها وأهميتها وعدم قيد مشتملاتها ورصد الداخل فيها والخارج منها ، مما يشجع على سرقتها وتبديدها حتى من أصحاب عهدتها والمشرفين عليها !

دار الضيافة : دخلت مصر منذ العصور القديمة فى علاقات سلمية أو حربية مع غيرها من الأمم ، وقد اضطرتها الضرورات الناشئة عن اشتباك المصالح فى زمن السلم إلى قبول التحكيم واستقبال السفراء خصوصاً وقد فتحت أبوابها للأجانب وأفسحت لهم المجال فى بلادها ، وكان اكرام الغرباء من سجايا أهلها .

ولا شك فى أن من العوامل التى قربت بينها وبين بعض الدول ، وجود محالفات تجارية أحكمت العلاقات والروابط بينها وبين تلك الدول ، كما وجد نوع من التفاهم أحكمت عراه علاقات الجوار أو الدين ، وبذلك وجدت الروابط بينها وبين الأمم الأخرى خصوصا المتحدة معها فى المعتقدات الدينية والأمانى الاجتماعية .

نعم كانت العلاقات بين مصر وغيرها من الأمم قليلة والمفاوضات من الحوادث العرضية إذ لم يعرف التمثيل الخارجى الدائم إلا فى أواخر القرن

---

(١) المقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٥٣

الثانى عشر الميلادى ، غير أنه كان هناك مبعوثون غير دائمين يقوم الواحد منهم بالمهمة التى ينتدب إليها ، حتى اذا ما أتمها عاد إلى دولته[١] فمثلا أرسل جوهر سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢م) سفيراً للملك جورج ملك النوبة يدعوه للإسلام ودفع الجزية ، فقابله ملك هذه البلاد بأدب جم ورضى بدفع الجزية دون اعتناق الاسلام ، إذ بقيت النوبة مسيحية حتى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى)[٢] لذلك كانت للخليفة دار ضيافة ينزل بها السفراء الذين يفدون على ملكه ، وكان لمتولى دار الضيافة نصف قنطار من الخبز كل يوم[٣] فاذا قدم رسول الروم مثلا للديار المصرية ، نزل من باب الفتوح وقبل الأرض ماشيا إلى أن يصل إلى القصر[٤] .

وسمى متولى دار الضيافة « بالنائب » ووظيفته بـ « النيابة الشريفة » ويختار متوليها من أعيان العدول وأرباب الأقلام ، ومهمته أن يتلق الرسل الواصلة من الدول ومعه صاحب الباب فى خدمته فينزلهم الأمكنة المخصصة لهم ، ويمنع الناس من الاتصال بهم ، ويوفر لهم الراحة ويقدمهم للسلام على الخليفة ، بعد أن يحيط الوزير علماً بذلك ويتفق معه على الساعة ، فيدعو الوزير حينئذ صاحب الباب ، ويدخل بالرسل على الخليفة وصاحب الباب عن يمينه والنائب عن يساره .

وكانت مهمة « النائب » ارشاد الرسل عن (البروتوكول) الخليفى ، فيعلمهم مايقولون بحضرة الخليفة ، بحيث تتم الزيارة على أحسن الوجوه .

وإذا غاب « النائب » كان هناك من يخلفه فى وظيفته إلى أن يعود ، وكان عليه ألا يتناول من الرسل هدية أو طرفة إلا باذن الخليفة[٥]

---

(١) الدكتور سامى جنينة « دروس القانون الدولى العام » ص ٣٠٠

(٢) O'Leary, A short history of the Fatimid Khalifate p. 107

(٣) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) حـ ١ ص ٤٦٠

(٤) « « حـ ٣ ص ١٧٤

(٥) المرحوم الأستاذ الأيوبى « الفاطميون » حـ ٢ ص ١٦٤ نقلا عن المقريزى « الخطط »

(ح) حاشية الخليفة

أما موظفو القصر[١] فهم : —

حامل المظلة : وهو الذى يحمل المظلة فوق رأس الخليفة فى المجالس والمواكب ، كركوبه فى رأس العام ونحوه ، وهى من الوظائف العظام ، يتقلدها أمير جليل له عندهم التقدم والرفعة لحمل ما يعلو رأس الخليفة ، وكان يدعى حامل المظلة أيام المعز لدين الله « شفيع الصقلبى » .

حامل سيف الخليفة : وهى وظيفة تلى الاسفهسلار[٢] ، وصاحبها يحمل سيف الخليفة فى المواكب التى تحمل فيها المظلة ، ومرتبه ٧٠ ديناراً شهرياً .

حامل رمح الخليفة : صاحب هذه الوظيفة يحمل رمح الخليفة فى المواكب التى تحمل فيها المظلة ، وهو رمح صغير ، ويتقاضى هذا الموظف ٧٠ دينارا شهريا .

حملة السلاح أو الركابية : وصبيانهم كانت عدتهم تزيد على ألف رجل متقلدين السيوف يسيرون يمنة ويسرة على جانبى الخليفة ، تحت رياسة اثنى عشر مقدما ، وأصحاب هذه الوظائف هم ما يسمون فى الوقت الحاضر بالحرس الملكى ، وكان مرتب كل من مقدمى الركابية ٥٠ ديناراً شهرياً ، كما كان يعطى الركابية من خمسة إلى خمسة عشر ديناراً شهرياً .

الأساتذة المحنكون : سموا بالمحنكين لأنهم كانوا يدورون العمامة على أحناكهم كما تفعل العرب والمغاربة الآن ، ولكل منهم ١٠٠ دينار شهريا ، وهم الخدام الخصيان المعبر عنهم بالطواشية ، وكانوا من أقرب الناس إلى الخليفة

---

(١) ابن ميسر « تاريخ مصر » ح ٢ ص ٩٠ والنويرى « نهاية الأرب » ح ٢٦ ص ٩٣ والقلقشندى ح ٣ ص ٤٨١ و ٤٨٣ — ٤٨٥ و ٤٨٨ — ٤٨٩ و ٤٩٦ — ٤٩٧ و ٥٠١ و ٥٢٥ — ٥٢٧ والمقريزى « الخطط » ح ٢ ص ٢١٩ و ص ٢٤٣ و ٢٤٦ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٩٥ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ح ٤ ص ٩٥ وعلى مبارك باشا « الخطط التوفيقية » ح ١ ص ٩

(٢) كلمة أعجمية معناها بالعربية قائد الجيش .

فهم أصحاب أنسه المطلعين على أسراره ، وكان إذا ترشح أستاذ للتحنيك وحنك حمل إليه كل واحد من المحنكين بدلة كاملة من ثيابه ومنديلا وفرساً وسيفا ، فيصبح لاحقا بهم وفى يده ما بأيديهم ، إذا حضروا بين يدى الخليفة حضروا بسمت ووقار ، وكانوا يتمتعون بمكانة جليلة من الخليفة لأنهم خواصه وأقرب الناس إليه ، وكانت عدتهم تزيد على الألف ، ومنهم :

ا — « متولى شد التاج ، أو شادُّ التاج » : وهو الذى يشد تاج الخليفة الذى يلبسه فى المواكب الرسمية ، وله ميزة على غيره بلبس التاج الشريف الذى يعلو رأس الخليفة ، ومرتبه مائة دينار شهرياً ، ويكون شده بمنديل من لون لبس الخليفة ، ويعبر عن هذه الشدة بشدة الوقار .

ب — « صاحب المجلس » : وهو الذى يتولى الإشراف على المجلس الذى يجلس فيه الخليفة الجلوس العام فى المواكب ، وإخطار رجال الدولة كالوزير والأمراء وغيرهم بحضور الخليفة وجلوسه على سرير الملك ، وكان ينعت بـ « أمين الدولة » ، ومرتبه مائه دينار شهريا .

حـ — « صاحب الرسالة ، أو حامل الرسالة » : وهو الذى يخرج برسالة الخليفة إلى رجال دولته من وزير وغيره ليبلغهم رسالة الخليفة ، وكان يسمى فى أواخر الدولة الفاطمية بـ « الأمير الثقة » ، ومرتبه مائة دينار شهريا .

ء — « متولى زمام القصر » : وكان المشرف على شئون القصر ، فيتولى إدارة أمور خدام القصر ويشرف على أعمالهم ، ومرتبه مائة دينار شهريا .

هـ — « صاحب الدفتر » : المعروف بدفتر المجلس وهو « المتحدث على الدواوين الجامعة لأمور الخلافة » ، ومرتبه مائة دينار شهرياً .

و — « حامل الدواة » : وهى دواة الخليفة التى يسير بها فى المواكب .

ز — « متولى زم الأقارب ، أو زمام الأشراف الأقارب » : وهو الذى يشرف على شئون أقارب الخليفة وكانت كلمته نافذة فيهم ، ومرتبه مائة دينار شهرياً .

ح — «متولى زم الرجال»:[١] وهو الذى يتولى إعداد طعام الخليفة.

ط — «صبيان الخاص»: وهم أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدولة الذين يتولون خدمة الخليفة فى حياته الخاصة، وكانت عدتهم نحو الخمسمائة ويسكنون أماكن خاصة، ويتدربون على الفروسية[٢] وقد قتل يانس وزير الحافظ مئات منهم، كما قتل ابن السلار أيام الخليفة الظافر عدداً كبيرا منهم فانكسرت بذلك شوكتهم[٣].

ى — «صبيان الحجر»: وكانو شبانا يناهزون الخمسة آلاف نسمة، معهم سلاحهم ويقيمون فى حجر منفردة تبلغ السبعة، ولكل حجرة منها اسم يخصها، ويطلبون فى المهم من الأمور، فمن كان ذا شهامة وحسن خلقه أرسله ولاة الأعمال للخليفة، وبذلك نشأت فى هذه الفرقة، وكانت مصرية فى بادىء أمرها وتؤلف من أنبلهم منبتا[٤].

ك — «الخدم العاديون»: الذين يعملون بالقصر وهم كثرة، ينظفون القصور فى الداخل والخارج، ولكل منهم ثلاثون ديناراً شهرياً[٥] وكان للرشاشين فى القصر عرفاء يتولى أمرهم أستاذ من خواص الخليفة وعدتهم نحو الثلثمائة رجل، وجاريهم من خمسة إلى عشرة دنانير شهريا[٦].

ثم هناك من رجال الخواص طبيب الخليفة الخاص، الذى كان يجلس على باب الخليفة كل يوم مستعداً لمعالجته هو وأسرته، وله خمسون ديناراً شهريا

---

(١) هناك وظيفة أخرى من غير المحنكين تسمى بهذا الاسم أى «زم الرجال» يتحدث صاحبها على طوائف الرجال والأجناد «كزم صبيان الحجر» وزم الطائفة الآمرية والطائفة الحافظية وزم السودان وغير ذلك. القلقشندى «صبح الأعشى» ج ٣ ص ٤٨٦ ونفرقها على ذلك «بزم الرجال والطوائف» «صبح الأعشى» ج ١٠ ص ٣٠٨

(٢) ابن ميسر «أخبار مصر» ج ٢ ص ٩٠

(٣) الأيوبى «الفاطميون» ج ١ ص ٩٨ و ص ١١٦ نقلا عن المقريزى «الخطط»

(٤) المقريزى «الخطط» ج ٢ ص ٢٤٤

(٥) «صبح الأعشى» ج ٣ ص ٥٢٦ والمقريزى «الخطط» ج ٢ ص ٢٤٣

(٦) «صبح الأعشى» ج ٣ ص ٥٢٧ و «الخطط» ج ٢ ص ٢٤٣

ويعاونه ثلاثة أو أربعة أطباء لمعالجة مرضى القصر من الأقارب والخواص ولكل منهم عشرة دنانير شهريا ، ويكتبون رقاعهم على خزانة الشراب التى كانت بمثابة صيدلة اليوم .

وكما استعين بأهل الذمة فى الدواوين ، كذلك استعين بهم فى الأعمال الأخرى فمثلا كان منهم أطباء الخليفة وكانت لهم منزلة سامية عنده ، فمثلا كان اسحق بن سليمان اليهودى طبيب المنصور وابنه المعز لدين الله قبل ولايته للعهد ، ثم لما تربع المعز لدين الله على العرش اتخذ موسى بن العازار ، طبيبا له[1]

وكان « أبو الفتح سهل بن مقشر » النصرانى طبيب الخليفة العزيز بالله وطبيب ولده الحاكم بأمر الله ، ولما مرض الخليفة الحاكم بأمر الله وداواه ابن مقشر أعطاه عشرة آلاف دينار[2] .

ولما مات ابن مقشر استطب الحاكم بعده اسحق بن ابراهيم بن نسطاس[3] .

أما قراء الحضرة فقد كانوا يزيدون على العشرة ، يقرأون القرآن الكريم بحضرة الخليفة فى مجالسه وركوبه فى المواكب وفى مختلف المناسبات ،وكانوا يأتون فى قراءاتهم بآيات مناسبة للحال ، فتقع موقع الاستحسان عند الخليفة

---

(١) ابن خلدون « العبر » ج ٤ ص ٤٥ والقلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٩٦ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٤٧

(٢) ابن العبرى « مختصر تاريخ الدولة » (طبعة اليسوعيين) ص ٣١٦ والأستاذ عنان « الحاكم » ص ٣٧ والنويرى « نهاية الأرب » ج ٢٦ ورقة ٥٥ وقد اعتل الطبيب ابن مقشر هذا فعجز يوماً عن الركوب ، فلما تماثل كتب الخليفة العزيز بالله إليه بخط يده « بسم الله الرحمن الرحيم ، على طبيبنا سلمه الله ، سلام الله الطيب وأتم النعمة عليه ، وصلت إلينا البشارة بما وهبه الله من عافية الطبيب وبرئه . والله العظيم لقد عدل عندنا ماروقناه نحن من الصحة فى جسمنا أقالك الله العثرة وأعادك الله إلى أفضل ماعودك من صحة الجسم وطيبة النفس ... » . المرحوم الياس الأيوبى « الفاطميون » ج ١ ص ٣٨ نقلا عن « القلقشندى » .

(٣) ابن أبى أصيبعه كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » ج ٢ ص ٨٩ واحمد امين بك « ظهر الاسلام » ص ٢٠٣

والحاضرين ، غير أنهم كثيراً ما أتوا بآيات إذاروعى قصدهم فيها ، أخرجت القرآن عن معناه ، كما يحكى أنه لما استوزر الخليفة المستنصر مثلا بدر الجمالى قرأ قارئهم «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله، لعلكم تشكرون»[1] ولما استوزر الخليفة الحافظ رضوان بن ولخش ، قرأ قارئهم « يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات ، لهم فيها نعيم مقيم »[2]

ولكل من قراء الحضرة من عشرة دنانير إلى عشرين ديناراً شهرياً .

الشعراء : كان الشعراء فى أيام الدولة الفاطمية يقومون مقام الصحف السيارة فى عصرنا ، لذا احتضن الخلفاء الفاطميون وأمراؤهم ووزراؤهم الشعراء ، وجادوا عليهم بالعطايا والأموال الكثيرة فمدحوهم بغرر المدائح وعيون الشعر ، هم وأهل بيتهم ، وأطنبوا فى مدح أخلاقهم وعقائدهم .

وكان من هؤلاء الشعراء أهل سنة لا يغلون فى المديح ، وأهل شيعه يغلون فيه ، كقول من قال :

هذا أمير المؤمنين بمجلس — أبصرت فيه الوحى والتنزيلا
وإذا تمثل راكبا فى موكب — عاينت تحت ركابه جبريلا[3]

ورتب لكل شاعر من عشرة إلى عشرين ديناراً شهرياً ، وكثيراً ما كان شعراء الخليفة من موظفى ديوان الإنشاء .

وكما أكرم كافور «أبا الطيب المتنبى» سنة ٣٤٦ هـ (٩٥٧ م) عندما نزل عليه وخلع عليه وأعطاه أموالا كثيرة ، كذلك فعل الخليفة الفاطمى المعز لدين الله لشاعره الأندلسى محمد بن هانىء عندما نظم هذا الشاعر مدائحه فيه ، وذكر فى شعره عقائد المذهب الاسماعيلى ، فصاغ نظرية الإمامة وعصمة

---

(٤) الآية ١٢٢ من سورة آل عمران رقم ٣

(٥) الآية ٢٠ من سورة البقرة رقم ٩

(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٩٧

الأئمة ، وغير ذلك من العقائد الشيعية ، والأمثلة فى ذلك كثيرة ، كقوله :

ماذا تريد من الكتاب نواصب   وله ظهور دونها وبطون

حيث يبين هنا أن للشريعة ظاهراً وباطناً .

وكقوله :

أهل النبوة والرسالة والهدى   فى البينات وسادة أطهار

والوحى والتأويل والتحليل والتحريم   لا خلف ولا إنكار

وكقوله :

قد كان ينذر (أى السيف) بالوعيد لطولما   أصغى إليك ويعلم التأويلا [١]

ولقد أنجب الخليفه المعز لدين الله شاعراً تبوأ عرش الأدب ، تاركا لأخيه نزار عرش الخلافة ، فكان شعره يتدفق فى سلاسة ورقه ، هذا الشاعر المجيد هو « تميم بن المعز » المتوفى سنة ٣٧٤ ﻫ (٩٨٤م) ، ومن شعره الذى يرد به على ابن المعتز الشاعر السنى العباسى .

ليس عباسكم كمثل علىّ   هل تقاس النجوم بالأقمار [٢]

ولقد مدح الشاعر « المهذب بن الزبير » الصالح بن رزيك بقصيدة نونية عندما انتصر الأسطول المصرى على الأسطول الرومى فى زمنه بقوله :

أعلمت حين تجاور الحيان   أن القلوب مواقد النيران

ومدح عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان اليمنى (٥١٥ — ٥٦٩ ﻫ و ١١٢١ — ١١٧٤ م) الخليفتين « الفائز » ، « والعاضد » ، ووزراءهما ، واستمر موالياً للدولة الفاطمية حتى بعد زوالها على يد صلاح الدين الأيوبى ، إذ رثاها

---

(١) انظر ديوان ابن هانى . والذى نشره الدكتور زاهد على . وراجع أحمد امين بك « ظهر الاسلام » ص ٢٠٧ . أما ترجمة ابن هانىء فهى فى ابن خلكان « وفيات الأعيان » ﺣ ٢ ص ٥ وتفيد أنه قتل خنقا فى رجب سنة ٣٩٢ (٩٧٣ م) وأوردها ابن الخطيب فى « الاحاطة فى أخبار غرناطة » ﺣ ٢ ص ٢١٢ والمقرى فى « نفح الطيب » ﺣ ٢ ص ٣٦٤ وابن منجب « الاشارة » ص ٣١

(٢) للشاعر تميم بن المعز لدين الله ديوان شعر مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول . وانظر احمد بك أمين « ظهر الاسلام » ص ٢١٢ و ٢١٧

بقصيدة [١] كانت سبب شنقه وصلبه ، عدد فيها مكارمهم ومحاسنهم ، مطلعها :

رميت يادهر كف المجد بالشلل   وجيده بعد حسن الحلى بالعطل

وختمها بقوله :

والله لازلت عن حبِّى لهم أبداً   ما أخر الله لى فى مدة الأجل

وعمارة هذا كان شافعياً ، أحسنوا له فوالاهم ومدحهم وقال فيهم :

أفاعيلهم فى الجود أفعال سنة   وإن خالفونى فى اعتقاد التشيّع

وكان الخليفة هو زعيم الأمراء المهيمن على شئون الخاصة والعامة ، وله ترقيتهم من « أدوان الأمراء » ، وهم الذين لم يؤهلوا لحمل القضب ، ويكون فى خدمة كل منهم خمسة مماليك ، إلى الأمراء « أرباب القضب الفضية » ، وهم الذين يركبون فى المواكب بالقضب الفضية التى يخرجها لهم الخليفة من خزائن التجمل ، وتكون بأيديهم ويكون فى خدمة كل منهم أربعون مملوكا ، وهؤلاء يرقون إلى « أرباب الأطواق » ، أو « الأمراء المطوقين » [٢] وهم الذين يخلع عليهم بأطواق الذهب فى أعناقهم ، ويكون فى خدمة كل منهم مائة مملوك [٣]

وكان مجال ترقية هؤلاء الأمراء من رتبة إلى أخرى هى مواهبهم أو كفاءتهم ، وكما كان للخليفة مكافأتهم ، كذلك كان له حق معاقبتهم إذا أذنبوا.

وكانوا يتكلمون عن الخليفة بكل احترام ، ويعبرون عنه فى كلامهم بمولانا ، ويضع الواحد منهم نفسه من الخليفة موضع المولى ، ومرتبهم من عشرة إلى تسعين إلى مائة دينار شهرياً ، حسب تفاوت الرتب [٤] .

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٥٣٠ — ٥٣٢

(٢) « « « ج ٣ ص ٤٧٦ .

(٣) وأكبر الظن أن أول أمير خلع عليه الطوق والسواران هو « الاخشيد » أمير مصر إذ ركب بعد أن زينت له الشوارع والأسواق إلى الجامع العتيق وعليه خلع الخليفة العباسى « الراضى » التى أنفذها مع وزيره الفضل بن جعفر سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م) الذى سار معه فى موكبه أما « خمارويه » فلم يرسل له الخليفة إلا السيف والتاج والوشاح من غير طوق

الكندى ص ٢٤٠. وأبو سعيد « المغرب فى حلى المغرب » ص ١٧ و ١٨ ومتز « الحضارة الاسلامية » ص ٢٢٩ . وقد ظل الطوق والسوار يتحلى به الأمراء المطوقون فى الدولة الفاطمية رغم ماقضى به فقهاء الاسلام من تحريم لبس الذهب والتحلى به .

(٤) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٥٢٥ .

وخلع الأمراء الثياب الدبيق والعمائم المقصب المذهب [١] ، وكانت ترفع براءات يصدرها ديوان الإنشاء وصاحب الباب [٢] . واستحدثت الحجابة من أيام الدلة الأموية ، عندما اتخذ معاوية بن أبي سفيان ومن جاء بعده من الخلفاء ، حاجبا لبابهم ، بعدحادثة الخوارج مع الامام على ومعاوية وعمرو ابن العاص ، وذلك خوفاً على أنفسهم من شر الناس ، ومنعهم من النظر فى مهام الدولة .

وكانت هذه الوظيفة أيام الفاطميين من الوظائف المهمة ، ولا يشغلها إلا موظف كبير ، لا يتشرف أحد بمقابلة الخليفة إلا باذنه ، وهو حاجب يحجب الناس عن الدخول على الخليفة ، ويبلغ إليه أخبار رعيته ، ويأخذ لهم منه الاذن ، ومرتبه مائة وعشرون ديناراً شهرياً [٣] ، وينعت بالمعظم ، وكان يلى الوزير فى الرتبة ، فمثلا رقى « يانس » صاحب الباب إلى الوزارة بعد قتل احمد بن الأفضل بن بدر الجمالى فى ١٦ محرم سنة ٥٢٦ هـ (١١٣١م) ومن هنا أطلق على هذه الوظيفة « الوزارة الصغرى » .

وكان لصاحب هذه الوظيفة فى عصر متأخر النظر فى المظالم فى ظل الوزير صاحب القلم ، أما إذا كانت الوزارة عسكرية ، لا مدنيـة ، فكان الوزير صاحب السيف هو الذى يجلس للمظالم بنفسه و « صاحب الباب » يكون من جملة من يقف فى خدمته ، وبذلك لا يتصدى للحكم فى المظالم .

وكانت هذه الوظيفة من أجل الوظائف ، يتولاها أجل الأمراء من أصحاب السيوف ، وكان يستشـار فى كثير من أمور الدولة ، وتقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم فى خدمته ، وله عدد كبير من النواب لمساعدته فى أعماله .

---

(١) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ١ ص ٤٤٠

(٢) وظيفة كبيرة الشبه بكبير الأمناء فى أيامنا

(٣) المقريزى « الخطط » جـ ٢ ص ٢٤٣

وكان يساعده فى أعماله ، نائب صاحب الباب ، الذى كانت له أيضاً المنزلة الرفيعة والرتبة الجليلة ، وكان ينتخب من الأعيان العدول وأرباب الأقلام من ينوب عن ، صاحب الباب ، إذا غاب ، ويساعده فى عمله إذا حضر[١].

ونحن لانقر الأستاذ المرحوم لأيوبى على قوله إن هذه الوظيفة أوجدها الخليفة الحافظ لدين الله[٢] ، لأنها كانت موجودة منذ ابتداء الدولة الفاطمية بمصر ، فكان جعفر بن على حاجب المعز لدين الله ، ثم ولى الحجابة عمار بن جعفر بعد وفاته[٣] .

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » حـ ٣ ص ٤٨٢ و ٤٨٨ و ٥٢٠ والمقريزى « الخطط » حـ ٢ ص ٢٤٥ وانظر Metz, The Renaissance of Islam. p. 15 .

(٢) المرحوم الياس الأيوبى « الفاطميون » حـ ٢ ص ١٥٩

(٣) ابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٤٨ والنويرى « نهاية الأرب » حـ ٢٦ ورقة ٤٦

الفصل الثانى

السلطة التنفيذية

١ – الحكومة الفاطمية

(ا) الوزارة بمصر فى عهد الفاطميين

الوزارة كلمة مشتقة من الوَزَر ، وهو الملجأ والمعتصم ، ومنه قوله تعالى « كلا لا وزر »[١] ، ولذا طلب موسى عليه السلام من الله جل شأنه أن يمده برجل يستعين به فقال : « واجعل لى وزيراً من أهلى هرون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى »[٢] ، فالوزارة على ذلك تشد قواعد المملكة[٣] ولقد قال النبى عليه السلام « إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزير صدق ، إن نسى ذكره وإن ذكر أعانه ، وإن أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسى لم يذكره وإن ذكر لم يعنه »

وبذا قيل لكل من أعان أميراً أو سلطانا أو خليفة على أمره إنه وزيره ، بمعنى أنه مؤازر له ، وأن الرعية تلجأ إليه فى حوائجها ، وبذلك يكون موضعه من المملكة كموضع العينين من الرأس[٤] ، وقيل إن كلمة وزير مشتقة من « الأوزار » ، وهى الأمتعة ومنه قوله تعالى « ولكنا حُمّلنا أوزاراً من زينة القوم »[٥] فيكون الوزير متقلداً بخزائن الملك أو أمتعته ، وقيل إنها مشتقة

---

(١) الآية ١١ من سورة القيامة رقم ٧٥

(٢) الآيات ٢٩ — ٣٢ من سورة طه رقم ٢٠

(٣) لو كان السلطان يستغنى عن الوزراء ، لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران عليه السلام . الابشيهى « المستطرف » ص ١١١

(٤) الابشيهى « المستطرف » ص ١١٢

(٥) الآية ٨٧ من سورة طه رقم ٢٠

من « الوِزْر » ، وهو الثقل لأن الوزير يحمل أعباء الحكومة ، ومنه قوله تعالى « حتى تضع الحرب أوزارها » [١] ، وقيل إنها مشتقة من « الأزر » ، وهى الظهر لأن الخليفة يقوى بوزيره [٢]

ولبساطة الإسلام وبعده عن أبهة الملك ، لم يكن لفظ الوزير فى صدر الإسلام معروفا [٣] والوزارة من المناصب التى أخذها العباسيون عن الفرس ، لذا يقول القضاعى فى كتابه « عيون المعارف فى أخبار الخلائف » إن أول من لقب بالوزارة فى الإسلام كان أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال وزير السفاح [٤] (١٣٢ - ١٣٦ هـ و ٧٥٠ — ٧٥٤ م) ، وقال إنما كانوا قبل ذلك يقولون كاتب ، فكان هذا الكاتب يضطلع بأعمال الوزير دون أن يلقب بالوزير ، فنجد مثلا احمد بن طولون اتخذ « احمد بن محمد الواسطى » كاتباً له ، يدير له شؤون دولته وينصح له ويقوم له بعمل الوزير [٥] .

ولذلك لم يل منصب الوزارة فى مصر أحد فى عهد تبعيتها للخلفاء الراشدين والأمويين .

ولم تعرف الوزارة بمصر معناها الحقيق وهو أن يكون للوزير رتبة خاصة ولوظيفته قواعد معينة وقوانين مقررة ، إلا فى عهد الإخشيديين (٣٢٣-٣٥٨هـ

---

(١) الآية ٤ من سورة محمد رقم ٤٧

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » حـ ٥ ص ٤٤٨ وابن منجب « الاشارة » ص ١٠

(٣) ابن خلدون « المقدمة » ص ٢٠٦

(٤) ويقول ابن طباطبا « والوزارة لم تمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا فى دولة بنى العباس فاما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فاذا حدث أمر ، استشار ذوى الحجى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة ، وسمى الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمى كاتبا أو مشيراً » . الفخرى (طبع مصر سنة ١٣١٧ هـ) ص ١٣٥ وابن الصيرفى « الاشارة إلى من نال الوزارة » ص ١٠ .

(٥) الدوادار « زبدة الفكرة » حـ ٤ ورقة ٦ والقلقشندى « صبح الأعشى » حـ ٣ ص ٢٧٧ وحـ ٥ ص ٤٠٩ و حـ ١١ ص ١٤٩ والسيوطي « حسن المحاضرة » حـ ٢ ص ١١٢

و ٩٣٤ - ٩٦٨ م) ، حيث وليها العزيز جعفر بن الفرات [١] ، فكانت له مكانة ممتازة بين سائر رجال الدواوين ، وكان مقدماً على جميع القواد ، يقف على بابه كثير من رجال الحراسة ، وإذا خرج ذهب بين يديه غلمان مسلحون [٢]

وتحدثنا المصادر التاريخية بأن جوهراً عند فتحه لمصر توقف فى مخاطبة أبى الفضل بن الفرات فى كتابه بالوزير ، ولم يخاطبه بذلك إلا بعد مراجعة ، وقال : « ما كان وزير خليفة » [٣] . فاسم الوزير كان غير مقبول فى أول دولتهم ، إذ كان يتولى كل من المهدى وابنه القائم بأمر الله وحفيده المنصور بنصر الله شئونه بنفسه دون واسطة ، وبذلك كان من أجل أصحاب وظائفهم شخص غير الوزير هو إما قاضى القضاة ، أو الحاجب ، أو حامل المظلة [٤] . ومن هنا قيل إن العزيز بالله هو أول من اتخذ الوزراء بتعيينه بن كلس وزيراً سنة ٣٦٨ هـ (٩٧٨م) [٥] ، فالخلفاء الفاطميون الأوائل الذين وجدوا قبل المعز لدين الله أطلقوا على الوزير كلمة حاجب ، كما كانت الحالة فى الدولة الأموية فى الأندلس [٦] فلما شعروا بوجوب التوسع فى النظم الإدارية ، التى يقوم عليها الملك الباذخ ، أنشأوا الوزارة ، وكان ذلك عندما فتحوا مصر .

أقر جوهر الوزير « أبا جعفر بن الفرات » السنى المذهب فى منصبه لقدم عهده بالقضاء ، حيث تولى هـــذا المنصب فى عهد العباسيين والأخشيديين ، وليتألف قلوب المصريين ويكتسب محبتهم ، ولكنه عمل على

---

(١) وزر الفضل جعفر بن الفرات لكافور الاخشيدى. السيوطى « حسن المحاضرة » ح ٢ ص ١١٦

(٢) الجهشيارى « كتاب الوزراء » ص ١١٢ ومتز « الحضارة الاسلامية » ص ١٤٧

(٣) ابن خلكان « وفيات الأعيان » ح ١ ص ١١٩ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٧٠ ومتز « الحضارة الاسلامية » ص ١٥١ .

(٤) ابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٤٣ والنويرى « نهاية الأرب » ح ٢٦ ورقة ٣٦ و ٣٧ .

(٥) السيوطى « حسن المحاضرة » ح ٢ ص ١٢٩

(٦) ويحدثنا المقرى فى « نفح الطيب » ح ٢ ص ٩٩ عن هذه الوظيفة فيقول « وأما قاعدة الوزارة بالأندلس ، فانها كانت فى مدة بنى أمية مشتركة فى جماعة يعينهم صاحب الدولة للاعانة والمشاورة ، ويخصهم بالمجالسة ويختار منهم شخصا لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه بالحاجب » . وبذلك يحل بأمر الخليفة فى إدارة البلاد . وانظر Provencal, L, Espagne P. 64

إضعاف هذا المنصب إضعافاً كبيراً ، إذ لم يجعل له من وظيفته فى الوزارة إلا الاسم فقط ، لأنه عين خادماً يبيت معه فى داره ويلازمه فى غدواته وروحاته ، ويراقبه فى حركاته وسكناته ، فيكون عينا عليه [١] .

وبعد أن كان جوهر قد فرض تدبير الأموال عند الفتح لرجال تحت إشراف الوزير « أبى الفضل جعفر بن الفرات » ، وجعل لنفسه الاشراف الأعلى على كل هؤلاء ، نجد المعز لدين الله فى المحرم سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) يعهد بالخراج وجميع وجوه الأموال والحسبة والسواحل والأعشار والجوالى والأحباس والمواريث والشرطتين وجميع ماينضاف إلى ذلك فى مصر وسائر الأعمال إلى « أبى الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس » و « عسلوج بن الحسن » وكتب لهما بذلك سجلا قرىء على منبر جامع بن طولون يوم الجمعة ، وبذلك أصبح يعقوب بن كلس وزيراً أيام المعز لدين الله ، بعد أن كان من جملة الكتاب فى الدولة الأخشيدية .

أما « جعفر بن الفرات » فقد اعتذر عن البقاء فى منصب الوزارة بعد وصول المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر بعد أن اشترط عليه الخليفة أن يبقى فى الديار المصرية بعد اعتزاله ، حتى يتمكن من استشارته فيما أشكل عليه من الأمور [٢] .

وعلى ذلك كان ابن كلس هو ساعد المعز لدين الله الأيمن ووزيره [٣] ، يقضى باسمه فى شئون الدولة وينفذ أوامره ، كما وزر لابنه العزيز بالله سنة ٣٦٨هـ

---

(١) النويرى « نهاية الأرب » ح ٢٦ ورقة ٤٠ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٨٥

(٢) ولقد ساهم بعد عزله فى مساعدة الدولة الفاطمية ، فتولى الوزارة مرتين فى عهد العزيز بالله ، والخراج سنة ٣٨٢ هـ (٩٩٢ م) فى عهد نفس الخليفة ، وتوفى سنة ٣٩١ هـ (١٠٠٠ م) بعد أن زوج ابنه « أبا العباس الفضل بن الفرات » بابنة الوزير يعقوب بن كلس ووثق أواصر الصداقة بين الأسرتين . ابن خلكان « وفيات الأعيان » ح ٢ ص ١٣٩ وابن منجب « الأشارة » ص ٢٥ و ٢٦ والمقريزى « الخطط » ح ٢ ص ٨٤

(٣) ابن طاهر أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٤٧ وابن خلكان « وفيات الأعيان » ح ٣ ص ٣٩٢ والنويرى « نهاية الأرب » ح ٢٦ ورقة ٤٦

(٩٧٨م) ، فكانت المكاتبات تعنون باسمه فيقول : « من يعقوب بن يوسف وزير أمير المؤمنين إلى فلان »[١] ، وقام بأعباء منصبه خير قيام حمل العزيز بالله على أن يأمر بأن تكون جميع المكاتبات الرسمية باسمه ، وأن يكتفى بتوقيعه على المراسيم . فكان بذلك أول من وزر[٢] للمعز بالديار المصرية من أهل الذمة الذين أسلموا[٣] .

وكانت الوزارة تعلو أحيانا فتكون « وزارة تفويض » ، ويعبر عنها عندئذ بالوزارة وفيها يفوض الخليفة للوزير تدبير أمور دولته برأيه واجتهاده ويمنحه السلطة الواسعة ، ويفوضه فى أمور الدولة والتصرف فى شئونها دون الرجوع إليه . ويقول السيوطى[٤] « الوزير نائب الخليفة ، يفوض إليه جميع أمور المملكة وتولية من رآه من القضاة ونواب البلاد وتجهيز العساكر والجيوش وتفرقة الأرزاق إلى غير ذلك » وإن له « البسط والقبض والرفع والخفض والابرام والنقض والقطع والوصل والولاية والعزل والتصرف والصرف والامضاء والوقف » .

وتنحط أحياناً أخرى ويعبر عنها عندئذ « بالوساطة أو السفارة »[٥] ، أو « وزارة تنفيذ »

وقد ذكر الماوردى فى كتابه الأحكام السلطانيه[٦] الفرق بين وزارة التفويض ووزارة التنفيذ فقال إنهما افترقا فى حقوق النظر من أربعة أوجه :

(١) ابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٤٩ ، والنويرى « نهاية الأرب » ح ٢٦ ورقة ٤٩

(٢) النويرى « نهاية الأرب » ح ٢٦ ورقة ٤٩ وابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٤٧ و ٤٨ والعينى « عقد الجمان » القسم الثالث ح ١٩ ورقة ٤١٩ و ٤٢٠ ، والسيوطى « حسن المحاضرة » ح ٢ ص ١١٦ وابن خلدون « العبر » ح ٤ ص ٥٥

(٣) أظهر ابن كلس اسلامه سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) وكان كافور قد رأى فيه ذكاء وفطنة ودهاء ، فقال لو كان مسلما لصلح أن يكون وزيراً ، فلما أسلم خلع عليه وزاد مرتبته عنده . ابن منجب « الاشارة » ص ٢٠ و ٢١

(٤) « حسن المحاضرة » ح ٢ ص ١٢١ و ١٢٣

(٥) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٥ ص ٤٤٩

(٦) ص ٢٦ والدكتور حسن ابراهيم حسن « تاريخ الاسلام السياسى » ح ٢ ص ١٩٨ و ١٩٩

(الأول) ، يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر فى المظالم وليس ذلك لوزير التنفيذ ،

(الثانى) ، أنه يجوز لوزير التفويض أن يستبد بتقليد الولاة وليس ذلك لوزير التنفيذ ،

(الثالث) ، أنه يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب ، وليس ذلك لوزير التنفيذ ،

(الرابع) ، أنه يجوز لوزير التفويض أن يتصرف فى أمور بيت المال ، يقبض ما يستحق له ويدفع ما يجب فيه ، وليس ذلك لوزير التنفيذ ،

كذلك افترقا فى شروط التقليد من أربعة أوجه :

(الأول) ، أن الحرية معتبرة فى وزارة التفويض وغير معتبرة فى وزارة التنفيذ ،

(الثانى) ، أن الأسلام معتبر فى وزارة التفويض وغير معتبر فى وزارة التنفيذ ،

(الثالث) أن العلم بالأحكام الشرعية معتبر فى وزارة التفويض وغير معتبر فى وزارة التنفيذ ،

(الرابع) ، أن المعرفة بأمر الحرب والخراج معتبرة فى وزارة التفويض وغير معتبرة فى وزارة التنفيذ ،

وعلى ذلك فوزراء التنفيذ وزراء ليس لهم استقلال بالأمور .

وكان يتقلد الوزارة أحياناً أرباب السيوف ، وهم الوزراء الحربيون وأحياناً أرباب الأقلام . وقد فرق القلقشندى [١] بينهما فقال : « صاحب السيف يكون قائماً فى مجلس السلطان فى جملة الأمراء القائمين ، وصاحب القلم يكون جالساً كما يجلس أرباب الأقلام من كاتب السر وغيره » ، ويعتبر بدر الجمالى وزير المستنصر أول أرباب السيوف من وزرائهم ، كما يعتبر صلاح الدين يوسف

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ح ١١ ص ١٤٩

ابن أيوب مؤسس الدولة الأيوبية آخر وزير من أرباب السيوف [١] .

ويعتبر يعقوب بن كلس وزير الخليفة المعز لدين الله وابنه العزيز بالله أول أرباب الأقلام من وزرائهم ، كما يعتبر المغربى وزير المستنصر آخر من وزر لهم من أرباب الأقلام [٢] .

وكان بدر الجمالى وزيراً للسيف والقلم معاً [٣] .

ومن أشهر وزراء التفويض فى الدولة العباسية مثلا « آل برمك » و « أمير الجيوش » بالدولة الفاطمية ، فكان هذا اللقب الأخير يطلق على كل وزير سيف سالب لسلطة خليفته العسكرية والإدارية ، فكان إليه وحده يرجع أمر الحرب والسلم .

ويحضرنا من أرباب الأقلام وزارة اليازورى والتسترى ووزير الوزراء على بن الفلاح وغيرهم ، ومن أرباب السيوف « برجوان » الخصى ، وقائد القواد « الحسين بن جوهر » وغيرهما من أرباب السيوف [٤] .

وفى أواخر عهد المستنصر بالله حدث الانقلاب الوزارى بتولى العسكريين أو رجال السيف ، وكان أولهم كما قلنا بدر الجمالى ، ذلك القائد العظيم الذى وزر للخليفة المستنصر سنة ٤٦٧ هـ ، (١٠٧٤ م) ، فغير فى خطة الوزارة وجعلها وزارة تفويض ، وسلب الخليفة الفاطمى سلطته ، واستأثر هو بكل السلطات ، تاركا له المظاهر الاسمية فقط ، فكان يرجع « لأمير الجيوش » لقب الوزير العسكرى ، أمر السلم والحرب وجميع إدارة المملكة الفاطمية العسكرية والمدنية ، فإليه تعيين أكبر المناصب فى الدولة حتى ما كان منها بيد الخليفة كتعيين قاضى القضاة وداعى الدعاة ، واستمر هؤلاء الوزراء الطغاة

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٤٨٢ و ٤٨٣

(٢) « « « جـ ٣ ص ٤٨٩

(٣) ابن ميسر « تاريخ مصر » جـ ٢ ص ٣٠ و ٣٣ والعينى « عقد الجمان » مجلد ٣ جـ ١٧ ورقة ٤٧١

(٤) أبو الفدا « المختصر فى أخبار البشر » جـ ٢ ص ٢٣١ والقلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٤٨٩ و ٤٩٠ .

قابضين على السلطة الفعلية بالبلاد حتى سقوط الدولة الفاطمية فى سنه ٥٦٧هـ (١١٧١ م) وبعد أن كان بقاء الوزير فى مركزه يتوقف على رضى الخليفة الفاطمى عنه ، أصبح فى قدرة هؤلاء الوزراء العظام أمر تعيين الخليفة الفاطمى وعزله ، فانقلبت بذلك الأوضاع

أما أهم عمل الوزير فكان إدارة مالية البلاد ، فكان عليه أن يوازن بين الدخل والخرج فى أبواب ميزانيته ، لذلك كان له حق فرض الضرائب وإسقاطها ، وله التوقيع عن الحضرة والاشراف على شئون المملكة الهامة التى يقوم بها مختلف الكتاب وأصحاب الدواوين ، وقد يضمن الوزير أموال الدولة سنوياً ويجريها على رسومها ، وإذا حصل وفر حمله إلى بيت المال .

وكان على الوزير بمقتضى وظيفته أن يؤدى أعمالا خاصة ، فهو أحيانا الملازم للخليفة فى المسجد ، وأحياناً أخرى المنتظر مع غيره على باب القصر وأحياناً ثالثة الملازم له فى القصر .

وكان على الوزير ان يحضر هو أو ابنه أو أخوه سماط شهر رمضان ويجلس فى صدره [١] وإلا حضر صاحب الباب ، إلى غير ذلك .

وأتحف الخليفة الفاطمى وزيره من وقت لآخر بالهدايا والأطعمة ، وخلع عليه ثياباً هى رسم الوزارة فى مناسبات معينة ، وأمر الناس أن تترجل له . وكان يتولى الوزير أخذ البيعة لولى العهد [٢]

وقد اشترط فى الوزير أن يكون على صفات حميدة ، فيقول ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى [٣] « الوزير وسيط بين الملك ورعيته ، فيجب أن يكون فى طبعه شطر يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ، ليعامل كلا من الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة ، والأمانة والصدق رأس

---

(١) ابن منجب « الأشارة إلى من نال الوزارة » ص ٢١

(٢) « « « « ص ٣٦ و ٦٠

(٣) « الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية » (طبعة القاهرة ١٣١٩ م) ص ١٣٦ و ١٣٧ وابن منجب « الأشارة إلى من نال الوزارة » ص ١٠

ماله ، قيل إذا خان السفير بطل التدبير ! وقيل : ليس لكذوب رأى ! والكفاءة والشهامة من مهماته ، والفطنة والتيقظ والدهاء والحزم من ضرورياته ، ولا يستغنى أن يكون مفضالا مطعاماً ، ليستميل بذلك الأعناق ، وليكون مشكوراً بكل لسان ، والرفق والأناة والتثبت فى الأمور والحلم والوقار والتمكن و نفاذ القول مما لا بد منه . . . . »

وكما عين وزراء من أهل الذمة بالمشرق[١] كذلك عين الخلفاء الفاطميون منهم وزراء ، فمثلا كان « أبو الفرج يعقوب بن كلس » الذى كان يهوديا وأسلم متفوقا فى المالية ماهراً فى الإدارة ، وانتعشت البلاد فى عهده ، ولما مرض مرض الموت ركب الخليفة العزيز بالله إليه وعاده ، وقال له : « وددت أنك تباع فابتاعك بملكى وولدى » ، ولما توفى سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠م) حضر الخليفة جنازته بغير مظلة وصلى عليه وألحده بيده فى قبره ، وكان دفنه فى قبة بدار الخليفة كان قد بناها لنفسه[٢] كذلك لما مات ابن كلس رد العزيز بالله النظر فى الأموال إلى عيسى ابن نسطورس المسيحى[٣] ثم رفعه إلى منصب الوساطة .

ورقى « فهد بن إبراهيم » النصرانى إلى منصب الوزارة للحاكم بأمر الله بعد أن كان كاتباً ، ولقب بالرئيس فكان آفة على المسلمين وعدة للنصارى ، كذلك تقلد الوزارة « أبو نصر بن عبدون » الكاتب النصرانى سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩م) الذى صرح له الحاكم بأمر الله أن يوقع عنه ، كما تقلدها زرعة ابن نسطورس المتوفى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢م) الكاتب النصرانى ، (وهو أخو عيسى بن نسطورس السالف الذكر) أيام الخليفة الحاكم بأمر الله .

وفى أيام الخليفة المستنصر تولى الوزارة « أبو سعد منصور بن أبى اليمن

---

(١) فمثلا عين عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) ابن منصور نصر بن هارون النصرانى وزيراً للدولة .

(٢) ابن منجب « الاشارة » ص ٢١ والنويرى « نهاية الأرب » حـ ٢٦ ورقة ٤٩ وابن خلدون « العبر » حـ ٤ ص ٥٥ والسيوطى « حسن المحاضرة » حـ ٢ ص ١١٦

(٣) ابن خلدون « العبر » حـ ٤ ص ٥٥ والسيوطى حـ ٢ ص ١١٦

سورس بن مكرواه بن زنبور، الذى كان نصرانيا وأسلم، كذلك تولى ابو سعد التسترى (وكان يهوديا فأسلم) نظارة أم الخليفة المستنصر الخاصة.

وكان أبو نجاح بن قنا النصرانى المعروف بالراهب وزيراً للخليفة الآمر بأحكام الله، الذى أمر أن تعمل له بتنيس ودمياط ملابس مخصوصة من الصوف الأبيض المنسوج بالذهب ليلبسها، ومن فوقها العفافير الديباج، وسمح له أن يركب الحمير بسروج محلاة بالذهب والفضة، وكان يشم ريحه من مسافة بعيدة لتطيبه بالمسك يوميا [١]، وكما تقلد الأحزم بن أبى زكريا أمر الدواوين أيام الخليفة الحافظ لدين الله، كذلك عهد هذا الخليفة إلى بهرام الأرمنى النصرانى سنه ٥٢٩ هـ (١١٣٤م) بالوزارة، ولما مات بهرام سنة ٥٣٥هـ (١١٤٠م)، حزن الخليفة عليه حزنا شديداً، وأخرجه عند صلاة الظهر فى تابوت عليه الديباج وحوله النصارى يبخرون باللبان والسندروس والعود وخرج الناس كلهم مشاه بحيث لم يتأخر منهم أحد من الأعيان، وخرج الخليفة راكبا بغلة خلفه والقسس يقرأون الانجيل، ولقد بكى عليه بكاء شديداً عندما وضع فى قبره [٢].

ولا شك فى أن المسلمين كانوا يكرهون أن يكون أحد من أهل الذمة فى منصب رفيع كالوزارة، لاسيما وأن من رسوم هذا المنصب أن يصعد الوزير مع الامام المنبر ليزرر عليه المزرّة (الستارة) الحاجبه له عن الرعية وغير ذلك من الأمور التى تتصل بعوائد المسلمين الدينية، مما اضطر الخليفة

---

(١) ابن طاهر «أخبار الدول المنقطعة» ورقة ٥١و٥٢ و ٧٥ وابن ميسر «أخبار مصر» جـ ٢ ص ٥٦ و ٧١ والنويرى «نهاية الأرب» جـ ٢٦ ورقة ٨٧ والعينى «عقد الجمان» المجلد الأول جـ ١٨ ورقة ٢٠

(٢) ابن ميسر «أخبار مصر» جـ ٢ ص ٨٤ والدوادار «زبدة الفكرة» ورقة ١٧٥ و ١٧٦ والعينى «عقد الجمان» ورقة ٤١٩ — ٤٢١ وأبو المحاسن «النجوم الزاهرة» جـ ٤ ص ١٥٨ وأنظر أيضا Lane - Poole, A History of Egypt p. 121

إلى أن يضع تقليداً جديداً ، بأن يعهد إلى القاضي بالقيام بمثل هذه المهام عندما يكون الوزير من أهل الذمة [١] .

غير أن أهل الذمة عندما ولاهم الخلفاء الفاطميون أكبر المناصب فى الدولة أظهروا محاباة ظاهرة لبنى ملتهم ، فعينوهم فى المناصب الحكومية ومنعوا المسلمين أصحاب الأغلبية العظمى فى البلاد من أن يستخدموا ، فكانوا بذلك العاملين على بث شعور الكراهية والبغض بينهم وبين المسلمين ، فتذمر المسلمون وقاموا بالاحتجاج عند الخليفة بين الفينة والفينة ، فكان ذلك سبباً فى اعتزالهم واقصائهم عن مناصب النفوذ . كذلك سخط المسلمون على أهل الذمة من الوزراء فى العصر الفاطمى ، لأنهم تمكنوا من جمع الثروات ووقفوا قسماً كبيراً من أراضى مصر على الكنائس والأديرة ، ولأنهم تسلطوا على عقول الخلفاء .

فاذا قسا خليفة فاطمى على أحد وزراء أهل الذمة فانما كان يقسو فى إعتقادنا تحت ضغط الرأى العام الإسلامى بالبلاد ، الذى كثيراً ما آلمه محاباة نفر من أهل الذمة وايثاره بكل النفوذ والسلطان ، وحرمان المسلمين من حقهم الطبيعى فى تقلد أعلى الوظائف العامة ، ومن هنا نشأ القبض على بعض وزراء أهل الذمة وحبسهم وعزلهم ومصادرة أموالهم وقتلهم أحياناً .

وتحدثنا المصادر التاريخية بوقوف امرأة فى طريق الخليفة العزيز بالله ، (وقيل صورة مصنوعة على هيئة امرأة) ، بقصة (شكاية) فيها : « يامولاى بالذى أعز النصارى بعيسى بن نسطورس ، واليهود بمنشا بن ابراهيم القزاز ، وأذل المسلمين بك ، إلا نظرت فى أمرى [٢] » ، لأن عيسى مال إلى النصارى وقلدهم الأعمال والدواوين ومنع المسلمين منها ، وسلك مسلكه منشا والى الشام فرفع اليهود واستخدمهم .

---

(١) ابن ميسر « أخبار مصر » ج ٢ ص ٧٩

(٢) ابن الأثير « الكامل » ح ٩ ص ٤٣ وأبو الفدا « المختصر فى أخبار البشر » ح ٢ ص ١٣١ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ح ٤ ص ١١٥ و ١١٦ والسيوطى « حسن المحاضرة » ح ٢ ص ٦٣ وابن اياس « بدائع الزهور » ج ١ ص ٤٨ و ٤٩

وسواء أصحت هذه الرواية أم كانت مختلقة لأنها رويت لأكثر من خليفة، فنسبت إلى العزيز بالله أحيانا[١] وإلى الحاكم بأمر الله أحيانا أخرى[٢] فهى لدينا ذات مغزى هو أن نفوذ وزراء أهل الذمة طغى ، واستعانتهم ببنى جنسهم ازدادت ، حتى تكوّن فى مصر رأى عام يقول بالحد من سلطانهم ، وعدم اصطناعهم لبنى جنسهم .

فمثلا عيسى بن نسطورس حابى أهل ملته وعينهم فى الوظائف الهامة[٣] بعد أن عزل الكتبة وجباة الضرائب من المسلمين ، ولما عوتب فى ذلك قال : « ان شريعتنا متقدمة ، والدولة كانت لنا ثم صارت إليكم، فجرتم علينا بالجزية والذلة ، فمتى كان منكم إلينا احسان حتى تطالبونا بمثله ، إن ما نعناكم قاتلتمونا، وإن سالمناكم أهنتمونا، إذا وجدنا لكم فرصة ، فماذا تتوقعون أن نصنع بكم »؟[٤]

لذلك لما عاد ابن نسطورس إلى منصبه اشترط عليه استخدام المسلمين[٥]

أما أبو سعد التسترى اليهودى فقد تعسف بالمسلمين وحابى أهل ملته ، حتى كان المسلمون يحلفون « بحق النعمة على بنى اسرائيل » ، وهذا ما حدا بالشاعر[٦] أن يقول :

يهود هذا الزمان قد بلغوا	غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم	ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إنى نصحت لكم	تهوّدوا قد تهود الفلك[٧]

---

(١) ابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٥٢ و ٥٣

(٢) الذهبى « تاريخ الإسلام » جـ٣ ورقة ٢٨٧

(٣) ابن منجب « الاشارة » ص ٢١

(٤) النويرى « نهاية الأرب » جـ ٢٦ ورقة ٥٠

(٥) النويرى « نهاية الأرب » جـ ٢٦ ورقة ٤٩

(٦) يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن فى كتابه « الفاطميون فى مصر » ص ٢١١ ان هذا الشاعر يحتمل أن يكون الرضى بن البواب وهو شاعر معاصر

(٧) ابن ميسر « أخبار مصر » حـ ٢ ص ١ و ٢ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » جـ ٥ ص ١٩ والسيوطى « حسن المحاضرة » جـ ٢ ص ١١٦

وما حدا بالشاعر الحسن بن بشر الدمشقى أن يقول بمصر أيام الخليفة العزيز بالله متهكما :

تنصر فالتنصر دين حق   عليه زماننا هذا يَدل
وقل بثلاثة عزّوا وجلّوا   وعطل ماسواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا   عزيزابن، وروح القدس فضل[(١)]

أما أبو نجاح بن قنا النصرانى الراهب فانه لم يبق أحد من المسلمين أيام الخليفة الآمر إلا ناله منه مكروه ، من ضرب أو نهب أموال[(٢)]

ولما قرب الخليفة الحافظ الأحزم بن زكريا النصرانى إليه وأولاه أمر الدواوين ، أعاد لكتاب النصارى تجبرهم ، وركبوا البغلات الرائعة والخيول المسومة بالسروج المحلاة باللجم الثقيلة ، وضايقوا المسلمين فى أرزاقهم واستولوا على الأحباس الدينية والأوقاف الشرعية ، واتخذوا العبيد والمماليك والجوارى من المسلمين والمسلمات ، وفى ذلك يقول ابن الخلال :

إذا حكم النصارى فى الفروج   وغالوا بالبغال وبالسروج
وذلت دولة الاسلام طرا   وصار الأمر فى أيدى العلوج
فقل للأعور الدجال هذا   زمانك إن عزمت على الخروج[(٣)]

ولما تولى بهرام الأرمنى النصرانى الوزارة سنة ٥٢٩ هـ أيام الخليفة الحافظ ولى الأرمن ، فلما اشتد ضرره بالمسلمين جمعهم رضوان بن ولخش لمحاربته[(٤)]

ويقول أوليرى[(٥)] : إن الفاطميين بالغوا فى استخدام أهل الذمة فى

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٤٣ . كان الفاضل بن صالح أحد قواد الخليفة العزيز بالله ، وقد استمر فى أيام ابنه ، وبالغ الحاكم بأمر الله فى إكرامه إلى حد أنه عاده دفعتين فى مرضة مرضها لأنه قضى على أبى ركوة الذى خرج على الحاكم سنة ٣٩٦ هـ مدعيا أنه من بنى أمية ليستولى على العرش

(٢) النويرى « نهاية الأرب » جـ ٢٦ ورقة ٨٧ .

(٣) المقريزى «الخطط» جـ ٢ ص ٢٥٠

(٤) العينى « عقد الجمان » المجلد الأول جـ ١٨ ورقة ٩٢ وعلى مبارك باشا « الخطط التوفيقية » جـ ١ ص ١٧ .

O'Leary de Lacy, A Short History of the Fatimid Khalifate p. 114 (٥)

المناصب المدنية أكثر مما جرت به العادة من قبل .

ونرى أن الحركات التى كان يقصد بها مقاومة أهل الذمة فى العصر الفاطمى من الوزراء كانت موجهة إلى محاربة سلطتهم على المسلمين ، إذ أن سيطرة الذمى على المسلم أمر غير مألوف للمسلمين .

ولا يخامرنا شك فى أنه إن صدر مرسوم بشأن أهل الذمة فانما كان صدوره لاعادة المستبد منهم إلى حظيرة القانون ، ولم يكن أبداً نتيجة تعصب دينى ، فقدضرب الحاكم بأمر الله عنق ابن نسطورس لما استجار الناس به من سوء فعله [١] كذلك لما نال الناس من أبى نجاح بن قنا النصرانى المعروف بالراهب من الجور والظلم واستباحة الأموال ، قتل ، ولما أساء بهرام النصرانى السيرة سجنه الحافظ ثم اطلقه فترهب [٢] .

وعلى ذلك فلم يفرق الخليفة الفاطمى فى دولته بين المسلم والنصرانى واليهودى ، بل كانت وظائف الدولة على ذلك حقا للجميع على السواء مسلمين وغير مسلمين ، متى توفرت فى رعاياه الكفاءات المطلوبة [٣] .

ولم يكن لمعتقدات الأفراد المذهبية — من باب أولى — دخل فى تقلد منصب الوزارة ، فتولى وزراء غير شيعيين منصب الوزارة دون أن يحول مذهبهم السنى بينهم وبين المنصب ، كرضوان بن ولخش المولود سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) الذى استوزره الخليفة الحافظ ، وكأحمد بن الأفضل الجمالى ، وكابن السلار الكردى الشافعى الذى استوزره الخليفة الظافر سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) .

وربما ولى الوزارة الأخ بعد أخيه ، فمثلا لما توفى الوزير عبد الكريم

---

(١) ابن الأثير « الكامل » جـ ٩ ص ٤٣ وابن ميسر « أخبار مصر » جـ ٢ ص ٥٤ والعينى « عقد الجمان » المجلد الأول جـ ١٨ ورقة ٢٠ وابن اياس « بدائع الزهور » جـ ١ ص ٤٨ و ٤٩

(٢) العينى « عقد الجمان » المجلد الأول جـ ١٨ ورقة ٩١ والمجلد الثالث جـ ١٩ ورقة ٤٢٢ و ٤٦٧ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » جـ ٤ ص ١١٥ و ١١٦

(٣) انظر مقالا لنا بالمقتطف عدد أغسطس سنة ١٩٤٥ بعنوان « أهل الذمة فى العصر الفاطمى » ص ٢١٤ — ٢٢٢

ابن عبد الحاكم بن سعيد الفارقي سنة ٤٥٣ هـ (١٠٦١ م) تولى الوزارة أخوه أبو على احمد بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقي [١] سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢م)، لثقافته وعلمه وقوة حجته.

وكثيرا ما أقرّ ابن الخليفة ولى العهد وزير والده عندما يعهد إليه بالخلافة.

وأسس مكان الوزارة بأفخر الأثاث، ووضعت فيه الستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب، وكان به عرش الخليفة محجوبا بستور ترفع إذا حضر الخليفة بمجلس الملك لبحث الأمور العامة، التى يستمر بحثها عادة ثلاث ساعات.

(ب) رسوم الوزارة ومميزاتها

كان للوزير أيام الدولة الفاطمية مكانة ممتازة بين سائر رجال الدواوين فهو المقدم عليهم وصاحب الكلمة النافذة فيهم بعد الخليفة، فكانت الوزارة هى أرفع الوظائف وأعلاها رتبة، ولذا قال السيوطى: «الوزارة تلى الخلافة إذا أنصف صاحبها وعرف حقه» [٢] لأن الخليفة يشرفه بتدبير مملكته فيجعله كافل القضاة، وهادى الدعاة، محيطا بأمور جميع المملكة إذا أدّى عمله على أحسن وجه، ولذلك كثيراً ما نرى الخليفة يدعو فى تقليده فيقول: «والله سبحانه يؤيد الدولة العلوية بعزماتك الثاقبة، ويعيد عليها حقوقها بسيوفك القاضبة وآرائك الصائبة، ويجعل أمد عمرك طويلا» [٣].

ولقد أمر الخليفة الآمر بأحكام الله بأن يدعى لوزيره «الأفضل» على المنابر بهذه العبارة: «اللهم انصر من اصطفاه أمير المؤمنين لدولته، وارتضاه وانتخبه لتدبير أحوال مملكته، واجتباه وولج إليه الأمور فساسها أحسن

---

(١) ابن ظاهر «أخبار الدول المنقطعة» ورقة ٧١ وابن منجب الصيرفى «الاشارة إلى من نال الوزارة» ص ٤٨ و ٤٩

(٢) السيوطى «حسن المحاضرة» ج ٢ ص ٨٤

(٣) « « « ج ٢ ص ١٢٢ و ١٢٣

سياسة ، يقظةوجداً وحزماً ، واستكفاه فى المهمّات فكفى فيها مضاء واستقلالا وعزماً ، وجرّد فيه للمصالح مرهفاً تساوى فى المضاء حدّاه ، واطلع منه كوكب سعد علا وأشرف سناؤه وسناه ، الأجل المأمون ، عز الإسلام ، فخر الأنام ، نظام الدين ، خالصة أمير المؤمنين ، أبا عبد الله محمد الآمرى ، أعانه الله على مصالح المسلمين ووفقه فى خدمة أمير المؤمنين ، وأدام له العلو والبسطة والتمكن ، اللهم اجعل كوكب سعده أبداً عالياً مشرقا ، وافتح للدولة على يديه مغربا ومشرقا . واقرن بالتوفيق آراءه وعزائمه ، وامض فى نحور أعداء الدين أسنّته وصوارمه ، [١] .

وكما كان للوزير أيام الاخشيديين لباس خاص به ، فكان من رسومه أن يلبس دراعة[٢] وقيصا ومبطّنة وخفا ، وأن يرتدى السواد لأنه لباسه الرسمى ويرتدى فى الاحتفال الرسمى قباء وسيفا بمنطقة وعمامة سوداء [٣] كذلك كان للوزير أيام الدولة الفاطمية زى خاص به ، فكان من زى الوزراء الفاطميين أن « يلبسوا المناديل الطبقيات بالاحناك تحت حلوقهم كالعدول ، وينفردون بلبس الدراريع مشقوقة من النحر إلى أسفل الصدر بأزرار وعرى ، وهذه علامة الوزارة ، ومنهم من تكون ازراره من ذهب مشبك ، ومنهم من تكون أزراره من لؤلؤ » [٤] .

كذلك كان للوزير الفاطمى رسوم خاصة تقتضيها وظيفته ، فمثلا كانت تحمل إليه الدواة بالذهب من خزانة الخليفة ، وكان يقف بين يديه الحجاب (فمشى فى ركاب ابن السلار مثلا أيام الظافر ، الجنود ويبلغون الستمائة يؤدون وظيفتهم بالنوبة)[٥] وأمره نافذ « فى أرباب السيوف من الأجناد وفى أرباب

---

(١) ابن منجب « الاشارة إلى من نال الوزارة » ص ٦٣

(٢) جمعها دراعات وهى ثياب مشقوقة من الصدر

(٣) الجهشيارى « كتاب الوزراء » ص ٣٢٥ وياقوت « ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب » ج ٥ ص ٣٥٦

(٤) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٩٠

(٥) المرحوم الأيوبى « الفاطميون » ج ١ ص ١١٦

الأقلام »[١] ، ويلزم الناس بالترجل له كلما سار فى الشوارع أو قدم إلى القصر ، وإذا جلس الخليفة الفاطمى على سرير الملك بالقصر استدعى الوزير من داره بصاحب الرسالة على حصان رهوان مسرع ، فيركب الوزير فى هيئته وجماعته وبين يديه الأمراء ، ولما يدخل على الخليفة يسلم ويقبل يديه ورجليه ولما تخرج له المخدة ويؤمر بالجلوس ، يجلس على يمين الخليفة وكان إذا لزم أن يتخاطب الوزير مع الخليفة فى أمر من الأمور ، أن يقوم الوزير من مكانه ويقرب من الخليفة منحنيا على سيفه ، وكان الوزير آخر من ينصرف من حضرة الخليفة بعد تقبيل يديه ورجليه ليذهب إلى داره ، وفى خدمته من حضر فى خدمته إلى القصر [٢].

وإذا ركب الخليفة فى أول العام ، يخرج للوزير ورجاله عشرة من الخيل مسرّجة بالذهب والفضة مرصع بعضها بالجواهر بمراكب من ذهب ، وفى أعناقها أطواق الذهب وقلائد العنبر ، وفى أرجل أكثرها خلاخل الذهب والفضة ، ويستدعى من داره بصاحب الرسالة على النحو السابق ، ويركب من داره وبين يديه الأمراء وحاشيته وأولاده وأقاربه ، فاذا وصل إلى الشباك وجد تحته كرسيا كبيرا من حديد فيجلس عليه ، فاذا جلس رفع كل من زمام القصر وصاحب بيت المال الستر من جانبه ، فيرى الخليفة رأسا على مرتبة عظيمة فيقف ويسلم حتى يؤمر بالجلوس على كرسيه ، فاذا ختم المجلس قام الوزير إلى الخليفة وقبل يديه ورجليه ، ثم يخرج إلى داره ومعه الأمراء ركبانا ومشاة على حسب مراتبهم [٣]، ولا يصبح الصبح إلا ويبكر الأمراء إلى دار الوزير ليركبوا معه ، فيخرج من داره ويركب إلى القصر من غير استدعاء ، وأمامه ما شرفه به الخليفة من الألوية والأعلام والأمراء بين يديه ركبانا ومشاة وأولاده وأخوته قدامه ، وهو فى ثيابه الفاخرة والمنديل والحنك ومتقلدا

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٩٠ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢١٨ و ٢١٩

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٩٩ و ٥٠٠

(٣) « « ج ٣ ص ٥٠٤ و ٥٠٥

بالسيف الذهب ، ويسير وراء الخليفة فى هيئة عظيمة وفى ركابه نحو خمسمائة رجل من أصحابه والأجناد من جانبيه .

وكان على الوزير أن يترجل وينتظر الخليفة هو والأمراء ، فاذا دخل الخليفة إلى دوره ركب والأمراء بين يديه وأقاربه حواليه إلى خارج باب القصر ويسيرون فى خدمته حتى داره فينصرفون ، ويحد الوزير العزّة ، وهى دنانير رباعية ودراهم خفاف مدورة ، يأمر الخليفة بضربها فى العشر الأخير من ذى الحجة ليفرقها على الوزير والأمراء وأرباب المراتب من حملة السيوف والأقلام وعندما ترسل إليه العزة من الخليفة يتقبلها الوزير على سبيل التبرك [1].

وفى ركوب الخليفة أيام الجمع يقف الوزير على باب المنبر ووجهه إليه ، فاذا استوى جالسا أشار إلى الوزير بالصعود فيصعد إلى أن يصل إليه ، فيقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يزر عليه وينزل مستقبلا للخليفة ويقف ضابط للمنبر ، فان لم يكن الوزير صاحب سيف ، كان الذى يزرّ عليه قاضى القضاة ، ويقف صاحب الباب ضابطا للمنبر . ولما يخطب للخليفة يطلع إليه ليفك ذلك التزرير عنه ، وينزل القهقرى ويصلى خلفه هو وأرباب الرتب من أصحاب السيوف والأقلام وغيرهم ، وإذا فرغ عاد إلى القصر ، ويمشى الوزير وراءه ، [2] وقد رأينا أن الرسم إذا قدم الوزير على الخليفة أو أدبر عنه أن يكون متجها إليه بوجهه احتراما له . وفى ركوب الخليفة لصلاة عيدى الفطر والأضحى ، يسير الوزير من داره إلى قصر الخليفة على عادته المتقدمة ، ويركب الخليفة على ما تقدم فى أول العام ، وإذا صعد المنبر لخطابة العيد ، وقف أسفل المنبر ، فيشير إليه فيصعد ويقبل رجليه بحيث يراه الناس ، وعند عودته إذا قرب الخليفة من القصر تقدمه الوزير على العادة ، وإذا جلس على المائدة استدعى الوزير فيجلس معه ، ولما يقوم ينصرف الوزير إلى داره والأمراء فى خدمته [3]

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٥٠٥ و ٥٠٨

(٢) « « ج ٣ ص ٥١٠ و ٥١١

(٣) « « ج ٣ ص ٥١٢ — ٥١٥

وفى عيد النحر إذا عاد الخليفة إلى القصر خلع على الوزير ثيابه الحمر التى كانت عليه يوم العيد ، ومنديلا والعقد المنظوم بالجواهر ، ويركب الوزير بالخلعة من القصر ويشق القاهرة ، إلى دار الوزارة [١]. واذا أراد الوزير أن يكتب شيئا فى حضرة الخليفة ، كان الرسم أن يؤتى له بدواة لطيفة ويمسك بالدواة أحد الخدم حتى يفرغ من كتابة ما يريد [٢] .

وفى ركوب الخليفة لتخليق المقياس عند وفاء النيل ، كان من رسوم الوزير أن يصلى هو والخليفة كل منهما ركعتين بمفرده [٣] .

وكان جلوس الوزير للمظالم إذا كان صاحب سيف ، فى صدر المكان وقاضى القضاه مقابله ، وعن جانبيه شاهدان من المعتبرين وكاتب الوزير بالقلم الدقيق ، ويليه صاحب ديوان المال ، وبين يديه صاحب الباب واسفهسلار وبين أيديه النواب والحجاب على طبقاتهم ، وذلك يومان فى الأسبوع [٤] .

ولا أدل على مكانة الوزير الممتازة ، من أن الخليفة نفسه كان يتزوج من عائلته ، فقد عقد المستنصر زواج ابنه المستعلى على « ست الملك » ابنة بدر الجمالى ، كما زوّج الملك الصالح طلائع بن رزيك الخليفة العاضد من ابنته ، [٥] وكانت للوزير مكانة ممتازة بين سائر رجال الدواوين فمثلا رتب الوزير ابن كلس الحجاب فى داره نوبا وأجلسهم على مراتب وألبسهم الديباج وقلدهم السيوف .

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٥١٥ و ٥١٦

(٢) وكانت العادة أن يمسك الوزير الدواة بيده اليسرى ويكتب بيده اليمنى ، وفى هذا مشقة وعسر ، فيسره للوزير «على بن عيسى» الخليفة المقتدر العباسى (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ و ٩٠٨ — ٩٣٢ م) بأن كان يحمل الدواة أحد الخدم ، وبذلك كان أول وزير حباه الخليفة بذلك وأصبح رسماً لمن يأتى بعده — الجهشيارى « كتاب الوزراء » ص ٣٤٢ ومتز « الحضارة الإسلامية » ص ١٤٨

(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٥١٧

(٤) « « ج ٣ ص ٥٢٩ و ٣٥٠

(٥) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٣٤ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٥ ص ٣١٨

وكان راتب الوزير فى كل شهر خمسة آلاف ديناراً نقداً ، ويعطى لكل ولد من أولاده ولكل أخ من اخوته من مائتى دينار إلى ثلثمائة دينار شهريا ، ومع ذلك أعطى شجاع بن شاور المنعوت بالكامل خمسمائة دينار شهرياً ، وكما أعطى قبل ذلك الخليفة العزيز بالله لابن كلس وزيره مائة ألف ديناراً سنوياً [١]

وكان للوزير أيضاً رواتب أخرى متنوعة [٢] كجرايات الحبوب واللحوم والاقطاعات والهدايا والخلع فى المواسم والأعياد ، كما كان لدوابه العليق والأتبان ، وكان يعطى لحاشيته من مائتى دينار إلى خمسمائة دينار [٣].

ولما مرض ابن فلاح وسيط الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥م) ركب إليه الخليفة لعيادته فى داره وأعطاه خمسة آلاف دينار وكانت هذه عادة الخليفة إذا عاد أحدا ، ولما مات ركب إليه ولى العهد وصلى عليه وواراه وحضر معه قاضى القضاه [٤] .

وكان منهم من يكتب اسمه على السكة مع الخليفة [٥] ، ويشارك الخليفة فى كتابة اسمه فى الطراز [٦] فمثلا ، ثبت اسم ونعت الأفضل وزير الآمر بأحكام الله على طراز ما يعمل فى أعمال المملكة من الملابس والفرش والآنية ، [٧] وكان يخلع عليه الخليفة [٨] أما خلع الوزارة فكان ثوبها أحمر ،

---

(١) ابن منجب « الإشارة إلى من نال الوزارة » (طبعة القاهرة ١٩٢٤ م) ص ٢٣

(٢) فكان أمين الدولة أبو محمد الحسن بن عمار بن أبى الحسين كبير كتامة وسيدها المقتول سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠م) يأخذ « خمسمائة دينار للحم والحيوان والتوابل والفاكهة وسلة من الفاكهة بدينار وعشرة أرطال شمع كل يوم وحمل ثلج كل يومين » ابن منجب « الإشارة إلى من نال الوزارة » ص ٢٩

(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٥٢٥ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٤) ابن منجب « الإشارة » ص ٣١ و ٣٢ .

(٥) السيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ١١٦

(٦) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٥٢ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٨٤ والدكتور زكى محمد حسن « كنوز الفاطميين » ص ١١٨

(٧) ابن منجب « الاشارة » ص ٦٣

(٨) قد لا يخلع الخليفة على الوزير ، وهذا نادر ، كما حدث عندما عين الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٥ هـ أبا العباس الفضل بن الوزير ابن الفرات فقد تولى « من غير خلع ولا حملان » . ابن منجب « الاشارة » ص ٣٠

ويقلده الخليفة سيفاً مرصعاً بالياقوت والجوهر ، والعقد الجوهر والطوق المذهب ، ويربطه فى عنقه بيده ، ومنهم من يقيد بين يديه بغلات وخيل وعدة دواب لشئون البريد عند الخلع عليه بسروج مذهبة ، ومنهم من يخلع عليه بالطيلسان المأثور وبالأثواب وغيرها التى تجمع بين الشرف والجمال فلا يبق بعدها مطمح لآمال ، والأمثلة كثيرة فى ذلك ، فقد خلع الحاكم بأمر الله مثلا على وزيره الحسن بن عمار بسيف من سيوف والده العزيز بالله وحمله على فرس مسرج من الذهب وحمل معه ٥٠ ثوبا من البز الرفيع [١] ، وخلع الخليفة الفاطمى على ولد العزيز واخوته وحاشيته أيضا [٢] ، كما خلع الخليفة الحاكم بأمر الله على قائد القواد الحسين بن القائد جوهر بثوب ديباج أحمر ومنديل أزرق مذهب ، وقلد بسيف حليته ذهب ، وحمل على فرس بسرج ولجام ، وقيدت بين يديه ثلاثة أفراس بمواكبها ، وحملت بين يديه خمسون ثوبا صحاحاً من عدة أنواع ، عندما رد إليه تدبير المملكة [٣] وخلع الخليفة الآمر بأحكام الله على وزيره الأفضل سنة ٥١٥هـ (١١٢١م) من الملابس الخاصة وطـوّق بطوق ذهب مرصع وقلد سيفاً [٤] ، وخلع نفس الخليفة على وزيره المأمون البطائحى وطوقه بطوق من ذهب مرصع وقلده سيف ذهب .

(ح) الألقاب الوزارية

لم نلاحظ تهافتاً على الألقاب فى أيام المعز لدين الله من الوزراء كما كان أيام من أتى بعده ، إذ لقّبوا بألقاب كثيرة[٥] ، فمنهم من لقب بألفاظ منسوبة إلى الدولة ، كأبى محمد الحسن بن عمار الكتامى ، الذى لقب بـ « أمين الدولة» .

---

(١) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ س ٥٣

(٢) « « «

(٣) ابن منجب « الاشارة » س ٢٨ وابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ س ٥٦

(٤) ابن منجب « الاشارة » س ٦٣

(٥) لعله خشى إن هو منح الألقاب الفخرية لكبار دولته أن يوجد طبقة ممتازة لها نفوذ سياسى واجتماعى تنافسه مركزه كخليفة .

فكان بذلك أول من لقب من دولتهم بمصر من المغاربة ، وهو شيخ كتامة وسيدها أيام الخليفة العزيز بالله [١] و « الحسن بن صالح بن على الروزبارى » الذى لقب بـ « عميدالدولة » و « بهرام » الأرمنى النصرانى الذى لقب بـ « تاج الدولة » و « ابن أبى كدينة » الذى لقب بـ « ولى الدولة » [٢]

ومن الوزراء من سمى بأسماء الملوك والخلفاء فقد لقب رضوان بن ولخش وزير الحافظ مثلا بـ « الملك الأفضل » سنة ٥٣٠هـ (١١٣٥م) ، ولم يلقب وزير قبله بذلك ، فكان بذلك أول وزير للمصريين لقب بالملك ، كما لقب طلائع بن رزيك عندما ولاه الخليفة الفائز بـ « الملك الصالح » ، ولقب ابنه رزيق بـ « الملك العادل » ، وهو نفس اللقب الذى لقب به ابن السلار والى الأسكندرية عند ما استوزره الخليفة الظافر .

كذلك لقب شاور وزير الخليفة العاضد بـ « الملك المنصور » ، وهو نفس اللقب الذى لقب به أسد الدين شيركوه ، وكذلك لقب صلاح الدين يوسف بن أيوب بـ « الملك الناصر » [٣] .

ومن وزراء الدولة الفاطمية من أفرد له التلقيب ، فمثلا لقب ابن كلس سنة ٣٦٨هـ (٩٧٨م) بـ « الوزير الأجل » ، ولقب أبو نصر بن عبدون سنة ٤٠٠هـ (١٠٠٩م) بـ « الكافى » [٤] ، ولقب زرعة بن عيسى بن نسطورس

---

(١) العينى « عقد الجمان » القسم الثالث من جـ ١٩ ورقة ٤٦٨

(٢) ابن مسكويه « تجارب الأمم » جـ ٦ ص ٢٢٢ وابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٥٣ والنويرى « نهاية الأرب » جـ ٢٦ ورقة ٥٠ والسيوطى « حسن المحاضرة » جـ ٢ ص ١١٨ .

(٣) ابن ميسر « تاريخ مصر » جـ ٢ ص ٩٤ والنويرى « نهاية الأرب » جـ ٢٦ ورقة ٩٣ و ٩٩ و ١٠٣ وأبو الفدا « المختصر » جـ ٣ ص ٢٨ و ٤٦ — ٤٨ والذهبى « تاريخ الإسلام » جـ ٣ ص ٤٣٢ والمقريزى « الخطط » جـ ٢ ص ١٧٣ « والسلوك » جـ ١ ٤٣ و ٤٤ والعينى « عقد الجمان » مجلد واحد جـ ١٨ ورقة ٩٢ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » جـ ٥ ص ٢٩٣

(٤) ابن منجب « الإشارة إلى من نال الوزارة » ص ١٩ و ٢١ والنويرى « نهاية الأرب » جـ ٢٦ ورقة ٥٥ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » المخطوط المصور القسم الثالث ورقة ٤ والسيوطى « حسن المحاضرة » جـ ٢ ص ١١٨ ودائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول ص ٢٧٠

بـ « الشافى » سنة ٤١١هـ (١٠٢٠م) ومنهم من ثنى له التلقيب ، فنعت « بهرام » مثلا بـ « سيف الاسلام » و بـ « تاج الدولة » ، كما لقب « أسد الدين شيركوه » بـ « الملك المنصور » ، « أمير الجيوش » [١] .

ومن الوزراء من ثلث له التلقيب فمثلا لما استوزر الخليفة « الظافر بأمر الله » الأمير نجم الدين أبا الفتح سليم بن محمد بن مصال سنة ٥٤٤هـ (١١٤٩م) لقبه بـ « السيد الأجل » ، « المفضل » ، « أمير الجيوش » [٢] .

ومن الوزراء فى العصر الفاطمى من لقب بأكثر من ذلك ، فكان لقب اليازورى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله « الناصر للدين ، غيّاث المسلمين ، الوزير الأجل المكين ، سيد الرؤساء ، تاج الأصفياء ، قاضى القضاة وداعى الدعاة » .

كما لقب أبو على احمد بن الأفضل بـ « ناصر الحق ، هادى القضاة إلى اتباع الحق ، مولى الأمم ، مالك فضيلتى السيف والقلم » [٣] .

ومن الوزراء الفاطميين من لقب بلقب « وزير الوزراء » ، فلقد لقب الحاكم بأمر الله وزيره على بن جعفر بن فلاح الكتامى بـ « وزير الوزراء » « ذى الرياستين » ، « الأمير المظفر » ، « قطب الدولة » [٤] .

ونرى أن هذه الألقاب الرنّانة التى كان منها « شمس الملك ، عميد الدولة وناصحها » ، « الأجل الأوحد ، صفى أمير المؤمنين » ، « تاج الرياسة، وفخر الملك »

---

(١) ابن منجب « الإشارة » ص ٢٨ والنويرى « نهاية الأرب » جـ ٢٦ ورقة ٨٩ وأبو الفدا « المختصر فى أخبار البشر » جـ ٣ ص ٤٦ وأبوالمحاسن « النجوم الزاهرة » جـ ٥ ص ١٤١ و ١٤٢ و ١٥٣ .

(٢) ابن ميسر « تاريخ مصر » جـ ٢ ص ٨٩ والقلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٥ ص ٤٤٣

(٣) ابن ميسر جـ ٢ ص ٢٦ و ٦١ والنويرى جـ ٢٦ ورقة ٦٢ و ٨٥ و ٨٨ وأبو المحاسن جـ ٥ ص ٢٣٨ و ٢٣٩ والسيوطى جـ ٢ ص ١١٧ و ١١٨

(٤) متز « الحضارة الإسلامية » ص ١٥٥ نقلا عن يحى بن سعيد الأنطاكى صلة كتاب أوتيخا المسمى « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » ص ١٢٨ .

« سيد الوزراء ، وظهير الأئمة » ، « سماء الخلصاء ، فخر الأمة » ، « فخر الوزراء ، عميد الرؤساء » وغيرها [١] أهملت وماتت على مر الأيام فى العصور التى تلت العصر الفاطمى ، وأنها شجعت من منحوها من أعوانهم أن يستبدوا بالأمر دون الخليفة مما أدى إلى زوال ملكهم ، فمثلا لقب قسيم الخلافة « صاعد بن عيسى ابن نسطورس » المقتول سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٨ م) بـ « الأمين الظهير ، شرف الملك ، تاج المعالى ، ذى الجدين » [٢] ولقب أبو الفتح المسعود بن طاهر الوزان سنة ٤٠٩ هـ عندما تولى الوساطة بـ « الأمير شمس الملك ، المكين الأمين » [٣] ولقب أبو الحسين عمار بن محمد عندما تولى الوساطة فى جمادى الآخرة سنة ٤١١ هـ (١٠٢٠ م) بـ « الأمير الخطير ، رئيس الرؤساء » [٤] ولقب أبو الحسين عمار ابن محمد سنة ٤١٢ هـ (١٠٢١ م) عندما تولى الوساطة ايام الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بـ « الأمير رئيس الرؤساء ، خطير الملك » [٥] ، كما لقب أبو الفتوح موسى بن الحسن عندما ولى الوساطة فى محرم سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) بـ « يد الدولة » ، ولقب أبو الفتح المسعود بن طاهر الوزّان سنة ٤١٤ هـ (١٠٢٣ م) بـ « الأمير شمس الملك المكين الأمين » [٦] ولقب أبو محمد الحسن بن صالح الروذبارى وزير الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله المصروف سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) بـ « عميد الدولة وناصحها » [٧] ولقب أبو القاسم على بن احمد الجرجانى (نسبه إلى جرجريا قرية بالعراق) بـ « الوزير الأجل الأوحد ، صنع أمير المؤمنين وخالصته » ، بعد أن كان يلقب فى سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) بـ « نجيب الدولة » [٨]

---

(١) ابن منجب « الإشارة إلى من نال الوزارة » ص ٢٨ — ٣٠ و ٣٤ و ٣٨
(٢) « « ص ٣٢
(٣) « « ص ٣٣
(٤) « « ص ٣٣
(٥) « « ص ٣٣
(٦) « « ص ٣٤
(٧) « « ص ٣٥
(٨) « « ص ٣٥

ولقب أبو منصور صدقه بن يوسف الفلاحى عند ما ولى الوزارة سنة ٤٣٦ هـ (١٠٤٤م) بـ « الوزير الأجل ، تاج الرياسة ، فخر الملك ، مصطفى أمير المؤمنين »[١]

ولقب أبو البركات الحسين وزير الخليفة المستنصر سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨م) بـ « سيد الوزراء ، ظهير الأئمة ، سماء الخلصاء ، فخر الأمة »[٢] ولقب أبو الفضل صاعد بن مسعود ، وهو من شيوخ الكتاب متولى الوساطة سنة ٤٤١ هـ (١٠٤٩م) بـ « عميد الملك ، زين الكفاة »[٣].

ولقب أبو محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى وزير الخليفة المستنصر الفاطمى سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) بالنعوت الآتية « الناصر للدين ، غياث المسلمين ، الوزير الأجل الأوحد المكين ، سيدالوزراء ، تاج الأصفياء ، قاضى القضاة وداعى الدعاة ، علم المجد ، خالصة أمير المؤمنين »[٤] وعوض عن « خالصة أمير المؤمنين » بـ « خليل أمير المؤمنين »[٥].

ولقب أبو الفرج محمد بن جعفر المغربى وزير الخليفة المستنصر سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) بـ « الوزير الأجل الكامل الأوحد ، صفى أمير المؤمنين وخالصته »[٦].

وكان لقب الوزير عبد الله بن يحيي المدبر سنة ٤٥٣ هـ (١٠٦١م) « الوزير الأجل ، العادل ، الأمير ، شرف الوزراء ، سيد الرؤساء ، تاج الأصفياء ، عز الدين ، مغيث المسلمين ، خليل أمير المؤمنين وخالصته وصفوته »[٧] وفى المقريزى[٨] « الوزير الأجل ، شرف الوزراء ، وتاج الرؤساء ، العادل

---

(١) ابن منجب « الإشارة إلى من نال الوزارة » ص ٣٨
(٢) « « ص ٣٧
(٣) « « ص ٣٩
(٤) « « ص ٤٠
(٥) « « ص ٤١
(٦) « « ص ٤٧
(٧) « « ص ٤٨
(٨) المقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ١٤٤ وابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٩٢

الأمين ، الأوحد المكين ، معز الدين ، مغيث المسلمين عمدة أمير المؤمنين »

ولقب الوزير عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقى[١] سنة ٤٥٣ هـ (١٠٦١ م) بـ « الوزير الأجل فخر الوزراء ، عميد الرؤساء ، قاضى القضاة وداعى الدعاة ، مجد المعالى ، كفيل الدين ، يمين أمير المؤمنين وصفوته »[٢] وقد توفى فى المحرم سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) .

ولقب الوزير أبو على احمد بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقى ، ثان من ولى الوزارة من بيته ، سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) بـ « الوزير الأجل ، قاضى القضاة ، وداعى الدعاة ، ثقة المسلمين ، خليل أمير المؤمنين وخالصته »[٣] ولقب الوزير أبو عبد الله الحسين ٤٥٤ هـ بـ « سديد الدولة ، ذى الكفايتين ، الوزير الأجل ، الكامل الأوحد »[٤] وفى سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) اشتهر الوزير أبو احمد احمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم بـ « جلال الملك وولى الوزارة ، والوزير الأجل الأوحد ، سيد الوزراء ، مجد الأصفياء ، قاضى القضاه وداعى الدعاة ، خليل أمير المؤمنين »[٥] .

ولقب الوزير أبو غالب عبد الظاهر بن فضل المعروف بابن العجمى سنة ٤٥٥هـ بـ « الوزير الأجل الأوحد الأسعد ، تاج الوزراء ، الأمين المكين ، شرف الكفاءة ، ذى المفاخر ، خليل أمير المؤمنين وخالصته »[٦] .

ولقب الحسن بن القاضى ثقة الدولة وسناؤها المعروف بابن كدينه وهو من أسرة عبد الرحمن بن ملجم ، قاتل الامام علىّ سنة ٤٠ هـ (٦٦١م) أيام الخليفة المستنصر فى سنة ٤٥٥ هـ عندما تولى الوزارة بالنعوت الآتية « الوزير

---

(١) كان والده القاضى عبد الحاكم بن سعيد الفارقى المتوفى سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) انظر ترجمة هذا القاضى فى « كتاب الولاة وكتاب القضاة » للكندى ص ٤٩٧ و٦١٣

(٢) ابن منجب « الإشارة إلى من نال الوزارة » ص ٤٨ و ٤٩

(٣و٤) « « ص ٤٩

(٥و٦) « « ص ٥٠

الأجل الأوحد ، جلال الإسلام ، ظهير الأمام ، قاضى القضاة وداعى الدعاة ، شرف المجد ، خليل أمير المؤمنين وخالصته [١] .

وكان أبو المكارم المشرف بن اسعد ينعت قبل الوزارة بـ « رئيس الرؤساء وذخيرة الملك » فلما وليها سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) لقب بـ « وزير الوزراء العادل ، خليل أمير المؤمنين » [٢] .

ولما ولىّ أبو على الحسن بن أبى سعد إبراهيم بن سهل التسترى الوزارة فى سنة ٤٥٦ هـ نعت بـ « العميد علم الكفاة » [٣] ولما ولى أبو القاسم هبة الله ابن محمد الرعيانى الوزارة سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٤ م) نعت بـ « الوزير الأجل ، سيد الوزراء ، تاج الأصفياء ، ذخيرة أمير المؤمنين [٤] .

ولقب محمد بن الأشرف وزير المستنصر المقتول سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٣ م) بـ « الأجل المعظم فخر الملك » [٥] . كما لقب أبو الحسن طاهر وزير المستنصر سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) بالنعوت الآتية « الأجل الوجيه سيد الكفاه ، نفيس الدولة ، ظهير أمير المؤمنين [٦] .

ولقب الوزير المقتول سنة ٤٥٨ هـ أبو عبد الله محمد بن أبى حامد بـ « القادر العادل شمس الأمم ، سيد رؤساء السيف والقلم ، تاج العلى ، عميد الهدى ، شرف الدين ، غياث الاسلام والمسلمين ، حميم أمير المؤمنين وظهيره [٧] » .

كذلك لقب أبو سعد منصور المعروف بابن زنبور سنة ٤٥٨ هـ بـ « الأجل الأوحد المكين ، السيد الأفضل الأمين ، شرف الكفاة ، عميد الخلافة ، محب أمير المؤمنين [٨] » .

(١ و ٢) ابن منجب « الاشارة الى من نال الوزارة » ص ٥١
(٣ و ٤) « « ص ٥٢
(٥ و ٦) « « ص ٥٣
(٧ و ٨) « « ص ٥٤

ولقب الوزير بدر المستنصرى الأرمنى سنة ٤٦٦ هـ بـ « السيد الأجل ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام » [١] .

ولقب أبو القاسم شاهنشاه بن السيد الأجل أمير الجيوش بدر المستنصرى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) بـ « السيد الأجل ، سيف الإمام ، جلال الإسلام ، شرف الانام ، ناصر الدين ، خليل أمير المؤمنين » [٢] ولقب أخيراً السيد الأجل الأفضل وزير الخليفة الآمر بأحكام الله « بـ « السيد الأجل ، المأمون تاج الخلافة عز الإسلام ، فخر الأنام ، نظام الدين ، خالصة أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد ابن الأجل نور الدولة أبى شجاع الآمرى » [٣] .

٢ — دواوين الحكومة الفاطمية وكبار الموظفين الاداريين بها

(ا) النظام الادارى

أما النظام الإدارى فى مصر الاسلامية ، فلم يدخل عليه العرب تغييراً يستحق الذكر على ما كان عليه فى عهد الحكم الرومانى ، إذ وجد العرب أن هذه الدولة كغيرها من البلاد التى فتحوها ذات نظام إدارى ثابت مبنى على حضارة أصلية ومدنية عريقة ، فلم يتغير اختصاص وظائف المدير أو المحافظ والمأمور والمفتش الزراعى مثلا وإن تغيرت نعوتهم ، فكان الأول يطلق عليه أيام الرومان Epistrategoi والثانى Toparch والثالث Sitologos [٤] ، ولكنهم أحدثوا من الإصلاح ما يتفق مع عقائدهم الدينية ، فكان الوالى بعد الفتح الإسلامى يعين من قبل الخليفة ، وينوب عنه فى حكم البلاد ، ويقوم بأعمال الدولة من صلاة وقضاء وخراج وجند وشرطة ، إلى غير ذلك .

---

(١) ابن منجب « الاشارة الى من نال الوزارة » ص ٥٥

(٢) « « ص ٥٧

(٣) « « ص ٦٢

(٤) انظر Milne, A History of Egypt under Roman Rule (London 1913) p216

وراجع Stanley lane - Poole, History of Egypt in the Middle Ages (London 1901) p. 18

واستمرت النظم الادارية فى صدر الإسلام وفى عهد بنى أمية نظا أولية بمصر ، ثم تنوعت أيام بنى العباس فى العهدين الطولونى والاخشيدى لتقوم بتوزيع العمل وضمان حسن سيره ، وبذلك اختصت كل إدارة بأعمال معينة. وفى مصر كانت اللغتان اليونانية والعربية مستعملتين فى دواوين الحكومة ، وربما استعملت أيضاً اللغة القبطية بجانبهما ، فلما ولى مصر « عبد الله بن عبد الملك بن مروان » حوّل ديوان خراجها إلى العربية سنة ٨٧هـ ، وبذلك ظلت الدواوين تدوّن بمصر باليونانية إلى أن عربها « الوليد بن عبد الملك ابن مروان » (٨٦ — ٩٦هـ)[١] .

ولما حكمت الدولة الفاطمية مصر لم تدخل على نظامها الأدارى تغييراً يستحق الذكر ، فناب جوهر عن مولاه المعــز لدين الله فى إدارة شئون البلاد ، وبذلك وجدت بمصر وظيفة « نائب الخليفة » [٢] ، فكان إليه تعيين الموظفين وتوقيع المراسيم والمنشورات وتنفيذ القوانين ، وهو الذى يكاتب النواب فى مهام الأمور المتعلقة بأعمالهم وينظر فى المظالم ، وبالجملة فقد كان له التصرف المطلق فى كل أمر يتعلق بالجيش أو المال أو الجند وفى كل ذى وظيفة ، وتكفل بتصريف أمور الدولة حتى قدم الخليفة المعز لدين الله لعاصمة ملكه سنة ٣٦٢ هـ .

وكان التقسيم الادارى يشمل ثلاث ممالك أو أقطار كبيرة هى: البلاد المصرية وفيها القاهرة مركز الخلافة الفــاطمية ، ثم الشام وللخليفة فيها نوابه الذين

---

(١) كذلك لما فتح المسلمون الشام والعراق كان يكتب ديوان الخراج فى الأولى بالرومية ، فنقله إلى العربية « أبو ثابت سليمان بن ســعد » مولى حسين فى عهــد هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) ، وفى الثانية بالفارسية ، فأمر « صالح بن عبد الرحمن » مولى بنى تميم أيام الحجاج بنقل الديوان من الفارسية إلى العربية . ابن خلدون « المقدمة » ص ٢١٢ وجورجى زيدان « تاريخ التمدن الإسلامى » جـ ١ ص ٢١٢

(٢) و « نيابة السلطنة » وظيفة ابتدعهــا الأيوبيون وأحياها بيبرس مع ما أحياه من الوظائف الأيوبية ، وكان « نائب السلطنة » هو السلطان الثانى . القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٤ ص ١٦ و ١٧
وراجع ما كتبه Van Berchem عن « نائب السلطنة » فى « Corpus, Egypte, I, PP. 20 et Seq. »

يحكمونها هى وسائر فلسطين ، وأخيراً أفريقية وله فيها نواب يعرفون بالولاة يحكمونها باسمه . أما أعمال الحرمين فكانت تابعة للخليفة الفاطمى من الوجهة المذهبية فقط ، بمعنى أنه كان يدعى للخليفة الفاطمى فيها ولكنها كانت مستقلة بشئونها ، ولكن مالبثت هذه الأملاك أن ضاعت الواحدة بعد الأخرى فى أواخر دولتهم .

ويهمنا فى هذا البحث البلاد المصرية ، فنقول إن القطر المصرى كان مقسما إلى أقسام إدارية ليسهل حكمه ، ويصير متماسك البنيان ، مدمج الاشراف فى الادارة المحلية مع الادارة المركزية ، فيصبح كآلة واحدة متصلة الأجزاء يبذل الجهد المتواصل لاصلاح مختلف أجزائها حتى يمكن إدارتها إدارة سليمة منتجة ، فكان كل عمل (إقليم) ينقسم إلى كور (وهى المراكز الآن) ، وكل كورة تشتمل على عدة قرى ، ولكل قرية زمام أطيان خاص بها ، وعلى كل عمل أو إقليم رئيس (هو بمثابة المدير الآن) ، وعلى كل كورة نائب رئيس (هو بمثابة المأمور الآن) ، وعلى كل قرية زعيم (هو بمثابة العمدة الآن) . فوالى الاقليم يشرف على اقليمه ويعمل على استتباب الأمن به ، فيحافظ على أموال الناس وأرواحهم ، ويبث الطمأنينة والنظام فيه ، وينفذ ما يصدره الخليفة وأعوانه إليه من التعليمات ، وكان عليه أن يقيم فيه فى عاصمة الكورة (المديرية) حتى يعرف كل صغيرة وكبيرة عنه ، فمثلا كان مقر حاكم الجيزة مدينة الجيزة ، والبهنساوية مدينة البهنسا ، والفيومية مدينة الفيوم ، والأسيوطية مدينة أسيوط وهكذا ، كما كان مقر حاكم الشرقية مدينة بلبيس ، والبحيرة مدينة دمنهور ، والغربية مدينة المحلة ، وجزيرة بنى نصر مدينة أبيار وهكذا .

وكما كان والى الإقليم قبل الدولة الفاطمية يشرف على أكثر من إقليم [1] كذلك كان الوالى الفاطمى يشرف أيضا على أكثر من عمل فيحدثنا المقريزى [2] مثلا أنه لما قدم جوهر ولى « مزاحم بن محمد بن رائق » « الحوف والفرما »

---

(١) كان مثلا « أبو نصر غلبون بن سعيد » المغربى يتولى عمل أسيوط وأخميم سنة ٣٣٥ فعزله عنهما كافور . ابن ميسر « أخبار مصر » ج ٢ ص ٩٤

(٢) « اتعاظ الحنفا » ص ٧٨

كما ولى « طلائع بن رزيك ، عمل « أسيوط وإخميم [١] ، والأمثلة كثيرة فقد وجد والى « البحيرة والأسكندرية » كما وجد والى « الأشمونين والبهنسا ، كذلك وجد والى « دمياط وتنيس » و « الدقهلية والمرتاحية [٢] » و « قوص وإخميم » [٣] .

وكانت ولاية الصعيد أكبر المناصب بعد الوزارة [٤] .

وحدثنا القلقشندى [٥] عن أهم الولاة فقال إن « والى القاهرة » ومرتبه خمسون ديناراً شهرياً ، و « والى الفسطاط » وله أيضا خمسون ديناراً شهرياً ، كان لكل منهما مكان فى الموكب الخليفى يسير فيه ، وكانت رتبتهما جليلة ، غير أن رتبة الأول كانت تزيد على رتبة الثانى ، إذ هو والى العاصمة ، مقر الإدارة الحكومية من مدنية وعسكرية ودينية ، وكان « والى قوص » حاكما على جميع الصعيد ، أما « والى الشرقية » فكانت ولايته دون ولاية قوص ويحكم أعمال بلبيس وقليوب وأشمون ، وكان « والى الغربية » أقل مرتبة من والى الشرقية ، ويحكم أعمال المحلة ومنوف وأبيار ، أما « والى الإسكندرية » فكان أقل مرتبة من والى الغربية ، ويحكم أعمال البحيرة بأجمعها . وكان الوالى يسأل عن إدارته أمام الخليفة ، ويلتزم إزاءه بواجبات كثيرة من عسكرية ومالية ، فمثلا كان سكان الولاية يجبرون على أعمال السخرة وتقديم أنفسهم للخدمة العسكرية ويؤدون ضرائب بنسبة ما عندهم من ثروة عقارية . وكان يخلع على هؤلاء الولاة من خزانة الكسوة « بالبدنة » وهو النوع الذى يلبسه الخليفة الفاطمى فى يوم فتح الخليج .

وقد أورد لنا أبو صالح الأرمنى فى تاريخه الكنائس [٦] بياناً ذا فائدة عظيمة لأنه يوضح لنا فيه النواحى والكفور بكل كورة وإن كان مع الأسف أغفل فيه مساحة كل كورة ، إلا أنا نستدل منه على أن حكام أسفل الأرض (الوجه البحرى) كانوا موزعين على أربعة عشر عملا كالآتى :

---

(١) ابن ميسر « أخبار مصر » ج ٢ ص ٩٤ . ومنية ابن خصيب وقوص وأسوان وكانت تسمى الأعمال الأسيوطية

(٢) أبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٥ ص ٢٩٥ و ٢٩٧ و ٣١٢

(٣) ابن ميسر « أخبار مصر » ج ٢ ص ٨٧

(٤) أبو الفدا « المختصر فى أخبار البشر » ج ٣ ص ٤٠

(٥) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٨٤ و ٤٨٧ و ٤٨٨ و ٥٢٥ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٦) ص ١٠ وما بعدها والمرحوم الأمير عمر طوسون « مالية مصر » ص ٢٢٥ — ٢٢٩

الكورة (المديرية)		عدد نواحيها	عدد كفورها
الشرقية	كلها شرقى فرع دمياط ويقال لها الحوف الشرقى	٢٩٤	١٥٨
المرتاحية		٤٨	٤١
الدقهلية		٣٩	٣١
الأبوانية		٦	—
جزيرة قويسنا	بين فرعى النيل	٦٨	٦
الغربية		١٤٩	١٦٥
السمنودية		٩٧	٣٢
المنوفيتان		٦٩	٣٢
فوة والمزاحمتان		١٠	٣
النتراوية		٦	—
رشيد والجديدية وأدكو		٣	—
جزيرة بنى نصر		٤١	٢٣
البحيرة	غربى فرع رشيد	٨٧	٨٩
حوف رمسيس		—	١٠١
المجمـــوع		٩١٧	٦٨١

أما حكام أعلى الأرض (الوجه القبلى) فكانوا موزعين على سبعة أعمال (مديريات) كالآتى :

الكورة (المديرية)	عدد نواحيها	عدد كفورها
الجيزة	٧٠	٢٧
الاطفيحية	١٣	٤
البوصيرية	١٣	١
الفيومية	٥٥	١١
البهنساوية	٨٤	٢١
الأشمونين	٥٤	٥٧
الأسيوطية	٢٢	٣٢
المجموع	٣١١	١٥٣

وعلى ذلك كان بالقطر المصرى بالوجهين البحرى والقبلى ١٢٢٨ ناحية و ٨٣٤ كفراً

ونرى أن جملة نواحى وكفور مصر التى بلغت ٢٠٦٢ أيام الفاطميين يجب أن تكون أكثر عدداً من ذلك خصوصا وأن هذا المؤرخ لم يضبط الأعداد بدليل أنه ذكر أن جملة النواحى والكفور كانت٢١٨٦ منها ١٢٩٦ ناحية و ٨٩٠ كفراً ، وهذه الجملة تزيد ٦٨ ناحية و ٥٦ كفراً على الجملة فى الجدول السالف الذكر . وقد وجد على جريدة بخط « ابن عيسى بقطر بن شغاء (الكاتب القبطى المعروف «بالبولس» متولى خراج مصر للدولة الإخشيدية) أن كور مصر وقراها كانت بالوجهين البحرى والقبلى ٢٣٩٥ قرية منها٩٥٦ قرية بالصعيد و١٤٣٩ قرية بأسفل الأرض ، وذلك فى سنة ٣٤٥هـ (٩٥٦م)[١] وكان يساعد الوالى عدد من الموظفين ، كان يقترح على الخليفة تعيينهم .

وليست لدينا معلومات تفصيلية نطمئن إليها عن نظام الولايات السياسى وتقسيماتها الإدارية ، إذ لم يشر المؤرخون إلى هذه الناحية بل أهملوها اهمالا يكاد يكون تاماً ، لذلك لم نعثر على خريطة لمصر العليا .

أما الإدارات الرئيسية فى الدولة الفاطمية فكانت متعددة ، يشرف كل منها على ناحية معينه من نواحى الإدارة العامة ، وكما اتخذ جوهر بقصر الخليفه الفاطمى عدة خزائن ، كذلك رتب به أيضاً الدواوين ، فلما قدم مولاه المعز لدين الله مصر ونزل بقصره بالقاهرة أبقى دواوين مملكته كما وضعها جوهر ، فلما مات المعز لدين الله سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥م) وعهد بالخلافة لابنه العزيز بالله ، قلّد هذا الأخير الوزارة ليعقوب بن كلس ، الذى نقل الدواوين إلى داره ، فأصبحت بذلك كل الدواوين فى قصر ابن كلس ، وغدا به طائفة من الحجاب يرتدون الملابس الحريرية ، ويتقلدون السيوف ، ويمنطقون

---

(١) المقريزى « الخطط » جـ ١ ص ١١٨ .

بالمناطق (١) ، فلما مات يعقوب بن كلس لخمس خلون من ذى الحجة سنة ٣٨٠ (٩٩٠ م) نقلها العزيز بالله بعد موت وزيره إلى القصر ، وبذلك استمرت هذه الدواوين بالقصر كما كانت أيام الخليفة المعز لدين الله ، وفى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله نقل أبو الفتح المسعود بن طاهر الوزان ، الذى تقلد فى ذى الحجة سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٨ م) الوساطة ، جميع الدواوين إلى داره .(٢) ثم رجعت بعده إلى مقرها بالقصر مرة أخرى ، كذلك نقلها الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى إلى مسكنه الخاص الذى بناه سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧م) فلما قتل سنة ٥١٥ هـ (١١٢١ م) رجعت من بعده كما كانت إلى القصر ، واستمرت به حتى زالت الدولة الفاطمية (٣)

وكان لهذه الداوين من الموظفين من يقوم بأعمالها والاشراف عليها وكان المشتغل بإدارة الدواوين يمثل الثقافة الأدبية ويتزيا بزى يخالف العلماء والفقهاء ، فكما لبس العالم الطيلسان لبس الكاتب فى الدواوين درّاعة . (٤)

وليس فى أيدينا من النصوص مايؤيد غلق الدواوين فى يوم معين أسبوعيا زمن الدولة الفاطمية ، وأكبر الظن أن يوم الجمعة كان يوم العطلة الرسمية أيامهم كما كان أيام العباسيين (٥) ، خصوصا بعد أن أثبتت المصادر التاريخية

---

(١) العينى « عقد الجمان » القسم الثالث من ج ١٩ ورقة ٤١٩ و ٤٢٠

(٢) ابن منجب « الأشارة إلى من نال الوزارة » ص ٣٣

(٣) ابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ٢ ص ٣٩٦ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٣٥ و ٢٣٦

(٤) متز « الحضارة الاسلامية » ص ١٣٦ نقلا عن « ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب » ج ١ ص ٢٣٤ والمقدسى ص ٤٤٠

(٥) كانت دواوين الخلافة تغلق فى يومى الجمعة والثلاثاء من كل أسبوع أيام الخليفة العباسى « المقتدر » (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ و ٩٠٨ — ٩٣٢ م) الأول لأنه يوم صلاة والثانى للراحة من عناء الشغل أيام الأسبوع ولقضاء حوائجهم . متز « الحضارة الإسلامية » ص ١٣٦

أن الدواوين كانت تغلق أياما لموت العظماء [١] ، فقد حزن العزيز بالله على يعقوب بن كلس حزناً شديداً وأغلق الديوان من أجله ١٨ يوما ، كما حزن الخليفة الحافظ على بهرام حزناً شديداً عند موته سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) وأمر بغلق الدواوين ثلاثة أيام ، فاذا كانت الدواوين تغلق لموت عظيم من أهل الذمة فأحرى بها أن تغلق يوم صلاة يوجبها الدين ، كذلك عطلت الدواوين أيام الشدة العظمى . [٢]

أما أهم الدواوين الإدارية فى العصر الفاطمى فهى :

(١) **ديوان أسفل الأرض أو الوجه البحرى أو الدلتا** : [٣] كان يعنى بالنظر فى أقاليم الوجه البحرى الادارية كالشرقية والمرتاحية والدقهلية والأبوانية والغربية والسمنودية والمنوفيتين والبحيرة وغيرها خلا الثغور ، وبه عدة كتاب استحسن فيهم من يجيد الأساليب البليغة والعبارات الفخمة عند تدوين الرسائل ، وبذلك اعتمدوا على رجال الأدب ممن عرفوا بسلامة العبارة وفصاحتها وسعة العلم ، وكان على رأسه موظف كبير هو « صاحب ديوان أسفل الأرض » .

(٢) **ديوان أعلى الأرض أو ديوان الصعيد** [٤] كان يعنى بالنظر فى الأقاليم الادارية التى تدخل فى اختصاصه ، وهى الصعيد الأعلى والصعيد الأدنى ، ومن كوره (مديرياته) الجيزة والأطفيحية والبوصيرية والفيومية والبهنساوية .

---

(١) ابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ٣ ص ٣٩٥ والنويرى « نهاية الأرب » ج ٢٦ ورقة ٤٩ و ٩١ والسيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ١١٦ وابن خلكان « الأشارة الى من نال الوزارة » ص ٢١

(٢) المقريزى « اغاثة الأمة » ص ٢٥

(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٩٥

(٤) « « ج ٣ ص ٤٩٥

والأشمونين والأسيوطية ، وكان به عدة كتاب يجيدون الخط علاوة على كثرة معلوماتهم ووضوح أسلوبهم ، وكان يتولاه رجل من كبار الموظفين هو « صاحب ديوان الصعيد » ، وأكبر الظن أن اختصاصات القرية والأقاليم ارتكزت فى هيئة تمثيلية واحدة هى الديوان المختص بها [1] فلم يكن للقرية أو الاقليم الداخل فى اختصاص الديوان أى نوع من الحكم الذاتى المحلى ، وإنما كان يدير شئونها الديوان الواقع فى زمامها ، إدارة سليمة متواصلة الانتاج .

(٣) ديوان الانشاء والمكاتبات [1] : لم يهتم نواب الخلفاء بمصر بهذا الديوان

---

(١) الديوان اسم لموضع يجلس فيه الكتاب ويجمع على دواوين ، اختلف الناس فى أصله وفى تسميته ، فقال بعضهم إنه عربى بمعنى « الأصل الذى يرجع إليه ويعمل بما فيه » ، إذ قال ابن عباس : « إذا سألتمونى عن شىء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ، فان الشعر ديوان العرب » ، ويقال دونته أى أثبته ، وقال البعض الآخر إن أصله أعجمى ، وهو قول الأصمعى وعليه اقتصر الجوهرى فى صحاحه فقال : الديوان « فارسى معرب » ومعناه بالفارسية سجل أو دفتر .

وكما اختلف الناس فى أصله أهو عربى أم أعجمى ، كذلك اختلفوا فى سبب تسميته بالديوان وقد ذكر الماوردى فى كتابه « الأحكام السلطانية » أن لهذه التسمية وجهين أحدهما : أن كسرى اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم فقال « ديوانه » أى مجانين ، ومن هنا سمى موضعهم بهذا الاسم ، ثم حذفت الهاء من آخره لكثرة الاستعمال تخفيفاً للفظ فقيل : « ديوان » ، ثانيهما : أن الكتاب كانوا مهرة يقفون على الظاهر والخفى من الأمور ، لذلك سموا لحذقهم فى الأمور التى تعرض عليهم « بالديوان » ومعناها بالفارسية « الشياطين » ، ثم أطلق اسم الديوان من باب المجاز على المكان الذى يحفظ فيه الديوان وهنا يقول الماوردى فى كتابه الأحكام السلطانية « والديوان موضوع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال » .

والانشاء مصدر للفعل انشأ الشىء ينشئه إذا ابتدأه واخترعه ، لذلك كانت المكاتبات تنشأ وتبدأ من « ديوان الإنشاء » ، فاذا خطب خليفة فاطمى فانما كان يخطب وفق الخطبة التى يعدها له « ديوان الانشاء » .

وعمر هو أول خليفة دون الدواوين ، اقتبسها من الفرس للدولة الاسلامية ، ولما كانت الرسائل أكثر أنواع الكتابة فقد سمى هذا الديوان بـ « ديوان الرسائل » منذ القدم ، وأطلق عليه أيضا « ديوان المكاتبات » وكان لقب متوليه « صاحب ديوان الرسائل » أحيانا و « متولى ديوان الرسائل » أحيانا أخرى ، كما كان ينعت بـ « صاحب ديوان المكاتبات » أو « متولى =

قبل الدولة الطولونية ، رغم أنه أول ديوان وضع فى الإسلام ، فما كادت تستولى هذه الأسرة على مصر حتى اهتمت بترتيب هذا الديوان وانتظام مكاتباته واستمرت هذه العناية به حتى انقراض الدولة الإخشيدية ، فلما قدم الخليفة الفاطمى المعز لدين الله مصر عنى به فارتفع سهمه وذاع صيتـه ، وتبعه فى هذه الرعاية باقى أفراد أسرته[١] . ولقب متوليه أيام الدولة الفاطميـة « بصاحب ديوان الإنشاء » وبـ « كاتب الدّست الشريف »[٢] وكان يخاطب بـ « الشيخ الأجل » [٣] لأن متوليه كان أجل كتاب البلاغة ، وكان لصاحبه الإشراف على الولايات والرسائل التى ترد من الولاة ، ومن ديوان صاحبه يصدر كل أمر جلل ، وبه يستعمل ثمانية أقلام[٤] وإليه تسلم المكاتبات مختومة فيتولى صاحبه النظر فى الوارد منها والصادر ليعرضها على الخليفة بنفسه ثم يأمر بالإجابة عنها ، ولم يسمح أن يدخل ديوانه أو يجتمع بكتابه أحد إلا خواص الخليفة ، وإذا انتهى إلى صاحب هذا الديوان خبر يتعلق بالخليفة أو الرعية أسرع إلى إطلاع مولاه عليه[٥] ، وكان يتولى هـذا الديوان أيام

= ديوان المكاتبات » ونعت أيام المماليك بـ « كاتب السر » وروعى فى متوليه أن « تكون القلوب على أهليته متكاتفة والألسن بكفايته ناطقة » الجهشيارى « الوزراء والـكتاب » (القـاهرة ١٩٣٨م) ص ١٦ و ١٧ والماوردى « الأحكام السلطانية » (القاهرة ١٩٢٨ م) ص ١٩١ وابن خلدون « المقدمة » ص ٢١١ والقلقشندى « صبح الأعشى » ج ١ ص ٨٩ و ٩٠ وج ٣ ص ٥١٠ والمقريزى الخطط ج ١ ص ١٤٧

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ١ ص ٩٥

(٢) « « ج ١ ص ١٠٣ و ج ٣ ص ٤٩٠ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٤٤

(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ١ ص ١٠٢ و ج ٣ ص ٤٩٠ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٤٤

(٤) الطومار ويكتب به الخليفة علامات على المكاتبات ، ومختصر الطومار ، والثلث ، وخفيف الثلث ، والتوقيع ، والرّقاع ، والمحقق ، والغبـار . القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٥٢

(٥) الدكتور على ابراهيم حسن « دراسات فى عهد المماليك » ص ٢٤١ نقلا عن القلقشندى « صبح الأعشى » ج ١ ص ١٠١ والخالدى « المقصد الرفيع المنشا » المخطوط ورقة ١٢

الفاطميين جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمى ، فلم يكن للدين دخل فى تقلده لاقبلهم[١] ولا أيامهم ،فمثلا كتب اسحق بن نصر العبادى النصرانى لخمارويه بن احمد بن طولون[٢] ،وكتب «أبو المنصور بن سورزين» النصرانى للعزيز بالله ، ثم كتب بعده لابنه الحاكم بأمر الله ، ومات فى أيامه فكتب للحاكم القاضى «أبو الطاهر البهزكى» ، ثم كتب بعده لابنه «الظاهر لاعزاز دين الله» ، وكتب «ابن الدم» اليهودى للحافظ لدين الله[٣] .

وكانت لصاحبه مكانة رفيعة عند الخليفة الفاطمى ، حتى كان لا يوجد عنده ألزم لمجالسه منه ، فهو موضع سره ، يحاط بما لم يطلع عليه أخص الأخصاء من الوزراء والأهل والولد ، وكان مقرباً لديه يستشيره فى جميع أموره دائم الاتصال به «آناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته» «لا يثق بأحد من خاصته ثقته به ، ولا يركن إلى قريب أو نسيب ركونه إليه»[٤] ، لا يحجب عن الخليفة متى أراد المثول بين يديه ، وربما بات عنده الليالى ، لذلك كان يتطلب من متوليه أن يكون «صبيح الوجه ، فصيح الألفاظ ، طلق اللسان ، أصيلا فى قومه ، رفيعاً فى حسبه ، وقوراً حليما ، مؤثراً للجد على الهزل»[٥] و «من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة وزيادة العلم وعارضة البلاغة . . . . . . كتوماً للأسرار ، وفيا عند الشدائد»[٦]

وكثيراً ما تولى «صاحب ديوان الإنشاء» منصب «الوساطة» فمثلا

(١) كان يحرص ابن طولون على أن يكون الكاتب مصرى الجنس . ابن الداية «سيرة احمد بن طولون» س ١٥ والدكتوران حسن وعلى ابراهيم حسن «النظم» س ١٨٢

(٢) القلقشندى «صبح الأعشى» ج ١ س ٩٥

(٣) « « ج ١ س ٩٦

(٤) القلقشندى «صبح الأعشى» ج ١ س ١٠٢ و ج ٣ س ٤٩٠ والمقريزى «الخطط» ج ٢ س ٢٤٤ والخالدى «المقصد الرفيع المنشا» ورقة ١٢

(٥) القلقشندى «صبح الأعشى» ج ١ س ١٠٤ و ١٠٥

(٦) ابن خلدون «المقدمة» س ٢١٥ و ٢١٦

خلع على «أبي الفتوح موسى بن الحسن متولى ديوان الإنشاء سنة ٤١٢هـ (١٠٢١م) بالوساطة فى محرم سنة ٤١٣هـ (١٠٢٢م)[١]. وكان «أبو الحسن طاهر بن وزير» كاتباً فى ديوان الإنشاء ثم تولى الوزارة سنة ٤٥٨هـ (١٠٦٦م)[٢]، كما تولى «ديوان الانشاء» الوزير الروذبارى أيام الخليفة الظاهر وابنه المستنصر بعد الوزارة[٣]، كما تولاه بعد الوزارة سنة ٤٥٢هـ (١٠٦٦م) «أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي»[٤]، وبذلك كان للوزير بعد أن يصرف أن يتولى بعض الدواوين دون أن يرى فى ذلك انتقاصاً لمركزه، وكان إذا أضيف إليه وهو وزير باشره بنفسه أو فوضه إلى من يتحدث فيه عنه[٥].

ومن رسوم صاحبه أن يكون مقدماً على من عداه من أصحاب المنازل العالية وحاجبه من الأمراء الشيوخ، وله فى مجلسه المرتبة العظيمة والمخاد والمسند والدواة العظيمة الشأن لحسنها يحملها له أستاذ من الأستاذين المختصين بالخليفة عند حضوره لدار الخلافة، غير أنها لم يكن لها كرسى لتوضع عليه كدواة قاضى القضاة. وكان «أول أرباب الاقطاعات فى الكسوة والرسوم والملاطفات»[٦] وأعطى مرتبا شهرياً مقداره مائة وخمسون ديناراً.

أما أعوانه من أكابر الكتاب وأرباب الأقلام فهم:

١ — «**صاحب التوقيع بالقلم الرقيق على المظالم**»: وكانت رتبته جليلة تلى مباشرة رتبة صاحب الديوان لأنه قارىء الخليفة وجليسه، فكان يجلس مع الخليفة فى أكثر أيام الأسبوع فى خلوته، ويقرأ عليه ما يحتاج إليه من آيات

---

(١) ابن منجب «الأشارة إلى من نال الوزارة» ص ٣٤
(٢) « « ص ٥٣
(٣) « « ص ٣٥
(٤) « « ص ٤٨
(٥) القلقشندى «صبح الأعشى» جـ١ ص٩٣ و ١٠٣ وابن منجب «الاشارة» ص ٣٣
(٦) القلقشندى «صبح الأعشى» جـ ١ ص ١٠٢ و جـ ٣ ص ٤٩٠ والمقريزي «الخطط» جـ ٢ ص ٢٤٤ والخالدى «المقصد الرفيع المنشا» ورقة ١٢

القرآن الكريم أو أخبار الأنبياء والخلفاء السابقين ، ويقرأ عليه « ملح السير ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق ، ويقوى يده فى تجويد الخط وغير ذلك» لذلك كان يختار من بين الذين يجيدون الخط . ووظيفته تلى « كاتب الدست » فى الرسوم والكساوى وغيرها، وله طراحة ومسند ودواة محلاة بالذهب وحاجب بحيث لايدخل عليه أحد فى موضعه فى الديوان إلا بإذن ، وإذا جلس الوزير صاحب السيف للمظالم كان إلى جانبه، يوقع بما يأمر به على القصص (العرائض) فى المظالم »[1] ووكان مرتبه مائة دينار شهريا[2] .

ب — « **صاحب التوقيع بالقلم الجليل** » وكانت مهمته الاشراف على تنفيذ مايوقع به « صاحب القلم الدقيق » : فالمظالم ترفع أولا إلى « صاحب القلم الدقيق » فيوقع عليها بما يقتضيه أمر الخليفة أو الوزير أو بما يراه هو ، ثم تحمل إلى صاحب هذه الوظيفة « فيفصل فيها ما أجمل الأمر الأول ، ثم تحمل بعد ذلك إلى الخليفة فيوقع عليها » وعندئذ تسلم إلى الحاجب ليسلمها إلى أربابها وينفذ مافيها .

ولصاحب هذه الوظيفة الطراحة والمسند فى مجلسه بغير حاجب[3] وكان كل كاتب من كتاب « كاتب الدست » يأخذ مرتباً شهرياً قدره ثلاثون ديناراً شهريا[4] .

وكان التهافت شديداً فى العصر الفاطمى على الألقاب التى كانت تكتب فى المكاتبات الرسمية ، وتعظيم شأن المخاطب والدعاء له ، والتكلف فى الأساليب ، لذلك كان بالديوان كل عارف بقواعد البلاط ورسومه ، حتى تشمل الأوراق الخارجة منه على الألقاب الصحيحة والدعوات المضبوطة

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٣٩١ . والمقريزى « الخطط » جـ ٢ ص ٢٤٤

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ س ٥٢٦

(٣) القلقشندى « صبح الأعشي » ج ٣ س ٤٩١ والمقريزى « الخطط » ج ٢ س ٢٤٤

(٤) « « ج ٣ س ٥٢٦ « « ج ٢ س ٢٤٣

واشترطوا فيهم أن يكونوا من الملمين باللغة والنحو والصرف والبلاغة والأعراب ، حتى تخرج الكتب منزهة عن الأخطاء اللغوية ، مشتملة على المعانى التى قصدت ، فتكون « كاملة الفضيلة خطاً ولفظاً ومعنى واعراباً »[١] فلا يوجه إليها اعتراض معترض ولا طعن طاعن. فمثلا استخدم «ابن بابشاذ» المتوفى سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) أيام الخليفة المستنصر بالله فى هذا الديوان مراجعاً يراجع مايخرج منه انشاءً ويصلح مايراه من الخطأ فى الهجاء والنحو واللغة[٢].

ويحدثنا ابن مماتى[٣] عن الصفات التى كان يجب أن يتميز بها كتاب الدواوين عامة فيقول : « يجب أن يكون الكاتب حراً مسلماً عاقلا صادقاً أديباً فقيهاً عالماً بالله تعالى ، كافياً فيما يتولاه ، أميناً فيما يستكفاه ، حاد الذهن ، قوى النفس... جميل الذكر ، طويل الروح ، كثير الاحتمال ، حلو اللسان . . . . . شديد الأنفة ، عظيم النزاهة ، كريم الأخلاق . . . . لا يقبل هدية ، ولا يقبل من أحد عطية » .

وكان ديوان الإنشاء مزوداً بأنواع من الورق بعضها فاخر وبعضها عادى. وكان بعضها يصنع بمصر ، وبعضها يجلب من البلاد الأخرى . وكان الورق المنصورى أعظم الورق المصرى حجماً ، أما الورق المجلوب فكان منه الشامى «الحموى» المجلوب من حماة ، و « ورق الطير » أو « ورق البطائق » وكان يوضع لرقته تحت أجنحة الحمام الزاجل ، والورق « البغدادى » المجلوب من بغداد وقد كان أجود أنواع الورق المجلوب نوعاً وأكثرها اتساعاً .

ولما كان الكاتب صاحب صناعة فقد كان غالباً لا تفارقه دواته[١] ونعت

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ١ ص ١١٣

(٢) احمد بك أمين « ظهر الاسلام » ص ٢٠٥

(٣) « قوانين الدواوين » ص ٥ و٦

(٤) الجهشيارى « كتاب الوزراء والكتاب » ص ٢١٤

الكاتب فى أواخر أيام الدولة الفاطمية بـ « الفاضل » و « الرشيد » و « العماد » وغيرها [١]

(٤) البريد[٢] : يرجع البريد إلى أيام أكاسرة الفرس وقياصرة الروم وكانت مسافات متفاوتة ، ويقول القلقشندى[٣] إن معاوية بن أبى سفيان هو أول من استحدثه فى الإسلام ، وإنه أخذه عن الروم الذين ملكوا الشام وإن عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٨٦ هـ) أتقن نظامه وأحكم أمره بإدخال بعض التحسينات عليه ، حتى أدى خدمات جليلة فى إدارة شئون دولته ، وإن الخليفة الفاطمى جعل الإشراف عليه من اختصاص « صاحب ديوان الإنشاء » ، فمثلا فى عهد الحاكم بأمر الله عهد إلى « أبى عبد الله الحسين بن جوهر » بالبريد وديوان الإنشاء [٤] ، وبذلك ربط بمقتضاه جميع أنحاء المملكة بشبكة من خطوط البريد البرى والجوى ، فكان البريد واسطة الاتصال بين القاهرة مركز المملكة وباقى الولايات التابعة لمصر ، وجعل ادارته تابعة لديوان الإنشاء .

أما البريد البرى فقد كان أيام الفاطميين فى الغالب بواسطة الخيل فى أنحاء

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٥ ص ٤٤٣

(٢) البريد كلمة اختلف فى أصلها ، فقال بعضهم : إنها عربية مشتقة من برد بمعنى أرسل ، وقال البعض الآخر إنها كلة فارسية معربة أصلها « بريد ذنب » ومعناها مقصوص أو مقطوع الذنب ، لأن الفروس ميزاذنب بغل البريد بالقص ، ثم حذف العرب كلة ذنب ، وقيل بل هى مشتقة من Veredus اللاتينية ومعناها فى الاصطلاح « أن تجمل خيل مضمرات فى عدة أماكن فاذا وصل صاحب الخبر المسرع الى مكان منها وقد تعب فرسه ، ركب غيره فرساً مستريحاً وكذلك يفعل فى المكان الآخر حتى يصل بسرعة » ، وأما معناها اللغوى فهو أن البريد اثنا عشر ميلا ، ويظن أن الغاية التى كانوا قدروها بين بريد وبريد هى هذا القدر لسرعة وصول الأخبار . وقدرت هذه المسافة للبريد بأربعة فراسخ والفرسخ ثلاثة أميال . وكان يطلق على الرسول « بريدى » انظر جاستون فيت wiet « المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى » ترجمة الأستاذ وهبى ص ٤٢ وابن طباطبا « الفخرى فى الآداب السلطانية » ص ٧٨ والقلقشندى « صبح الأعشى » جـ ١٤ ص ٣٦٦ و « تاريخ البريد فى مصر » ص ٣٤

(٣) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٦٧ و ٣٦٨

(٤) ابن ميسر « أخبار مصر » جـ ٢ ص ٥٤

الأقاليم المترامية الأطراف ، فكان لكل محطة من محطات البريد عدد من الخيل تعرف باسم « خيل البريد » ، تحت رعاية بعض الموظفين والسواس الذين عهد إليهم الاهتمام بأمرها حتى تؤدى عملها على أحسن وجه .

وكانت المحطات تزود بالماء الكافى والطعام والعلف والزاد لتقى من بها من أشخاص وخيل من الجوع والظمأ ، كما كانت تعد بها المبانى لتقيهم برد الشتاء وحر الصيف ، ومن هذه المحطات يستطيع « البريديون » أن يستبدلوا جيادهم المتعبة بجياد أخرى مستريحة ، تعاونهم على تأدية ماموريتهم بأقرب وقت .

وكان الخليفة الفاطمى يختار « البريديين » ممن عرفوا باخلاصهم له واتصفوا بالصفات الحميدة كالكفاية والذكاء ، لأنهم ربما حملوا رسالته لمن يريد توصيلها إليه مشافهة وربما عهد إليهم بمراقبة العمال والتجسس على الأعداء . لذلك قال القلقشندى[١] إن من صفات البريدى « أن يكون قديراً على تنميق الكلام وتحسين العبارة ... صحيح الفكرة والمزاج ، ذا بيان وعارضة ولين .... صدوقاً بريئاً من الطمع » ، وكان من واجب « أمير البريد »[٢] السهر على سرعة ارسال بريد الخليفة واذاعة أوامره ، كما عهد إليه تقديم التقارير الخاصة بالأعمال الأدارية للخليفة ، واعطاء قوائم السفر التى تجيز لحاملها ، الحصول من المحطات المختلفة على جياد بالعدد الذى يلائم مكانته وأهمية ماموريته .

وكان البريد خاصاً بأعمال الدولة لا لنقل مراسلات الجمهور[٣] وكان البريدى يكلف بحمل البريد العادى إلى النواب والولاة ، فاذا برهن على اخلاصه سمح له بحمل الرسائل الهامة إلى من هم أرقى درجة كالملوك[٤] .

أما مراسلات الجمهور ، فكان أغنياؤهم يبعثون برسائلهم مع عبيدهم ، وينتهز الفقراء منهم هذه الفرصة ليرسلوا خطاباتهم مع هؤلاء العبيد .

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ١ ص ١١٥

(٢) سمى فى عصر المماليك بالدوادار . « تاريخ البريد فى مصر » ص ٣٩

(٣) « تاريخ البريد فى مصر » ص ٢٦

(٤) القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ١ ص ١١٥

وكانت هناك شارة هى لوح من الفضة أو النحاس الأحمر فى حجم الـكف منقوش على أحد وجهيه بعض العبارات الدينية واسم الخليفة لتميزه عن سائر إخوانه من موظفى الدولة ، ولتكسبه مكانة محترمة ولتجعله موضع الرعاية والتقدير [١] ، ولعل هذه هى أول محاولة لتمييز البريديين عن غيرهم .

وكان البريدى على علم بالطرق ووعورتها ليتجنب الجبال والوهاد والأنهار ، فيكون أسرع فى تأدية وظيفته على أحسن وجه [٢] .

وقد عهد للبريدى أيضا بنقل بعض الأشياء كالثلج من سوريا إلى مصر لسد حاجة البلاط والموظفين والسكان وتخفيفاً عن المرضى منهم ، وكان ما ينقل منه براً أنق وأنظف مما ينقل بحراً بالمراكب [٣] . خصوصا وأن السفن تسرع أو تبطىء تبعاً للتيار مما لا يكفل السرعة ، لذا استعملت السفن لنقل الأشياء الثقيلة ولا سيما القمح بأمر الحكومة [٤] وكان البريد السريع Cursus Velox لنقل رسائل الدولة ، والبريد البطىء Cursus Clabularis لنقل الأشياء الثقيلة [٥] ، ولم يقتصر الخليفة الفاطمى على هذا البريد العادى فى ارسال رسائله ، بل استخدم الحمام الزاجل ، الذى كانت له مطارات منتظمة ، وكان الحمام يحمل برقبته وأقدامه عــــلامات مميزة ، وكان له أشخاص يعنون به ويدربونه ، فيأخذونه بعيداً عن برجه ويتركونه حتى يعود إليه ، ثم يزيدون المسافة عن برجه تدريجيا ليتمكن من قطع المسافات البعيدة .

فإذا نزل الحمام إلى برج آخر نقل البراج ما يحمله على جناحه إلى طائر آخر ليوصله إلى المنزلة التى تليها [٦] ، فيكون أشبه بخيل البريد وإن كان أكثر

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ١ ص ١١٤ « وتاريخ البريد فى مصر » ص ٣٩

(٢) ابن خرداذبه « كتاب المسالك والممالك » ص ١٨٥

(٣) جاستون فييت « المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى » فى Egypte - Contemporaine (سنة ١٩٣٣ م) ص ٢٤١ — ٢٦٤ وترجمة الأستاذ وهبى ص ٥٣ وأنظر Nasiri - Khosrau, Sefer - Nemeh P, 158

(٤) « تاريخ البريد فى مصر » ص ٢٩

(٥) « تاريخ البريد فى مصر » ص ٣٠

(٦) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ١٤ ص ٣٩١

سرعة لأن مراكزه كانت تزيد عن مراكز البريد الجوى مسافة .

وكان الايجاز من أهم مميزات الرسائل التى ينقلها الحمام الزاجل ، فكان يستغنى فيها عن المقدمات الطويلة والألقاب الكثيرة مما كانت تمتاز به رسائل هذا العصر ، وكان يكتفى فقط بذكر التاريخ والساعة وإيراد المطلوب فى صيغة مقتضبة كالعبارات المرسلة اليوم من مكاتب التلغرافات فى البرقيات [1] ، يكتب مايراه بعبارة مختصرة على ورق رقيق حتى لايعوق سرعة الطائر أو يعجزه عن القيام بمأموريته ، وكان يطلق على هذا الورق إسم « ورق بريد الحمام » أو « ورق الطير » ، وتشد الرسالة تحت جناح الحمامة أو إلى ذيلها [2] ، وقد جرت العادة لزيادة الإطمئنان والثقة فى وصولها أن تكتب الرسالة من صورتين ترسلان على دفعتين بين الدفعة الأولى والثانية قدر ساعتين ، حتى إذا ضلت إحدى الحمامتين أو قتلت أو افترستها الجوارح أو وقعت فى أيدى الأعداء أمكن الإعتماد على وصول الحمامة الأخرى ، وقد جرت العادة أيضاً ألا يطلق الحمام فى الجو الممطر ولا قبل تغذيته الغذاء الكافى [3]

كذلك جرت العادة ألا تحمل البطاقة إلا فى جناحها ، لحفظها من المطر ولقوة الجناح . وكان يتوخى البرّاجون الابعاد فى التسريح عن مستقر الحمام لئلا ترجع إلى أبراجها إذا قربت المسافة ، وإذا أريد تسريح الطائر إلى الاسكندرية فلا يسرح إلا من منية (ميت) عقبة بالجيزة ، أما إذا أريد تسريحه إلى الشرقية فلا يسرح إلا من مسجد التبر خارج القاهرة ، وهكذا [4] وكان الطائر إذا سقط بالبطاقة لا يقطع البطاقة بيده إلا الخليفة ، وكان

---

(١) السيوطى « حسن المحاضرة » ص ١٦٦ « وتاريخ البريد فى مصر » ص ٤٤

(٢) المقريزى « الخطط » ح ٢٣ والسيوطى « حسن المحاضرة » ص٦٦

(٣) المقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٣١ و ٢٣٢ ومصلحة البريد « تاريخ البريد فى مصر » ص ٤٤ وانظر Lane-Poole, Egypt in the Middle Ages, p 246

(٤) السيوطى « حسن المحاضرة » ص ١٦٦

البراجون يديمون النظر إلى الجو لرؤيته ، فاذا سقط حمل بسرعة وعناية إلى مكان الخليفة ، ويأمر باخاله عليه عقب وصوله ، فيترك طعامه إن كان آكلا ويستيقظ من نومه إن كان نائماً ، حتى لا يفـوّت على نفسه ورعيته الأمور الهامة العاجلة [١]

أما رواتب البراجين فلم تقل عن رواتب زملائهم فى البريد البرى [٢] وكان الأفراد بمصر يعنون بتربية الحمام الزاجل ، وكانت الحكومة تستخدمه فى أغراضها لأعمال الدولة [٣] ولا أدل على اهتمام الدولة الفاطمية بهذا الحمام من أن وزير الخليفة العزيز بالله أرسل يوماً رسالة بالحمام إلى دمشق ، وكانت المسافة لذلك تقطع على الأكثر فى ثلاثة أيام أو أربعة [٤] فاستدعى ابن كلس أرباب الحمام وسألهم عما بدمشق من طيور مصر ، وأسماء من هى عندهم وكانت مائة ونيفاً وعشرين طائراً ، ثم التمس من طيور دمشق التى هى فى مصر عدة فأحضرها ، وكتب إلى نائبه بدمشق يعرفه بعدد الطيور الموجودة فى عاصمة الأمويين القديمة ، وبأسماء من هى عندهم ، ويأمره باحضارها إليه جميعها وأن يشد على كل طائر منها القراصيا ويسرحها فى يوم واحد ، فوصلت أغاب الحمائم وعلى جناحها القراصيا ، فقدمها للعزيز بالله .

وكان الحمام الزاجل يستخدم فى الحروب والسياسة والإدارة والتجارة لحمل الأخبار كما استخدموه فى اللهو ، فقد حدث مرة أن طائراً لابن كلس سبق طائراً للعزيز فى سباق أقيم للطيور ، فشق ذلك على الخليفة ، واتخذها

---

(١) السيوطى « حسن المحاضرة » ص ١٦٦

(٢) خليل بن شاهين الظاهرى « زبدة كشف الممالك » ص ١١٦

(٣) ومن الطريف أن الحمام الزاجل استخدمته القوات المحاربة فى الحرب العالمية الثانية وتقلوه فى أقفاص ، وذلك أن الطائرات المتحالفة كانت تلقى أقفاصا بالباراشوت فيها حمام زاجل وفيها تعليمات بأن من يعثر على بعض هذا الحمام يستطيع أن يكتب المعلومات الهمة عن العدو من ناحية موقعه أو مبلغ استعداده ، ثم يربطها فى رجل الحمامة الزاجلة ويطلقها وبذلك تطير الحمامة الى المكان الذى جاءت منه ، فيستفيد بذلك الحلفاء

(٤) جاستون فييت « المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى » ترجمة الأستاذ وهبى ص ٥٤

اعداء الوزير فرصة للطعن فيه ، فكتبوا إلى الخليفة أن يعقوب بن كلّس اختار من كل صنف أعلاه ، ولم يترك لأمير المؤمنين إلا أدناه حتى الحمام ، فبلغ ذلك الوزير فكتب إلى العزيز :

قل لأمير المؤمنين له العلى والمثل الثاقب
طائرك السابق ولكنه لم يأت إلا وله حاجب

فأعجب العزيز بالله من حدة ذكاء ابن كلس وسرعة خاطره .(١)

وكان لانتظامه أثر محسوس فى تسهيل أعمال الحكومة ، وتفقد الحالة فى أنحاء المملكة ، والألمام بكل صغيرة وكبيرة من أعمال الولاة والحكام ، وصد الغارات عن المملكة فى الوقت المناسب ، وكانت إدارة بريد الحمام منوطة بحكام الأقاليم (٢)

وكانت الورقة التى تكتب فيها الرسالة بهذه المراسلة الهوائية تعرف « بالبطاقة » (٣) .

وأفرد لصاحب البريد ديوان ، وعهد إليه بالاشراف على جميع الكتب المرسلة والحاضرة من جميع النواحى ، ليصل كل كتاب إلى الموضع المرسوم له ، وعهد إليه بالاشراف على البريديين والبراجين وتنجز أرزاقهم . وتولى « عرض كتب أصحاب البريد والأخبار فى جميع النواحى على الخليفة » (٤) .

أما أهم الخطوط البريدية(٥) بمصر فكانت :

١ — الخط من القاهرة إلى قوص :

ويمر بالجيزة وزاية أم حسين وونا وبيا ودهروط وقلوصنا ومنية

---

(١) « تاريخ البريد فى مصر » ص ٤٤
(٢) « » ص ٤٣
(٣) الأستاذ أمين الخولى « الجندية فى الاسلام » ص ٨٥ والبستانى « دائرة المعارف » جـ ٧ ص ١٦٨
(٤) ابن خرداذبه « كتاب المسالك والممالك » ص ١٨٤
(٥) « تاريخ البريد فى مصر » ص ٣٥ و ٣٦ و ٤١

ابن خصيب والأشمونين ودرده سربام ومنفلوط وأسيوط وطما والمراغة وبلصفوره وجرجا والبلينا والكوم الأحمر ودندرة وقوص .

٢ — الخط من قوص إلى بلاد النوبة :

ماراً بأسوان على الهجين (Dromadaires)

٣ — الخط من قوص إلى سواكن :

ماراً بكيمان قفط ولقيطة وعيذاب وبنى عامر وحميثرة وسواكن .

٤ — الخط من القاهرة إلى الاسكندرية عن طريق وردان :

ماراً بالجيزة وجزيرة القط ووردان وطرانه ودمنهور ولقينـــه والاسكندرية .

٥ — الخط من القاهرة إلى الاسكندرية عن طريق قليوب :

ماراً بقليوب ومنوف والمحلة والنحريرية والاسكندرية .

٦ — الخط من القاهرة إلى دمياط :

ماراً بسرياقوس وبلبيس والسعديين والبيضا وأشمون ودمياط .

٧ — الخط من دمياط إلى غزة :

ماراً بأشمون والصالحية وقاطبة والعريش والخروبة ورفح وغزة .

وكانت أهم طرق البريد بواسطة الحمام هى الخطوط الآتية : —

١ — خط بين القاهرة والاسكندرية .

٢ — خط بين القاهرة ودمياط .

٣ — خط بين القاهرة والوجه القبلى « قوص وأسوان وعيذاب » .

٤ — خط بين القاهرة ودمشق عن طريق غزة .

وهى نفس الخطوط التى انتظم فيها نقل البريد بواسطة الجياد فى ذلك العهد ، غير أن الحمام كان يقطع المحطة فى ثلث الوقت الذى كان يقطعها فيه الجواد .

الشرطة : كانت الشرطة عدة الخليفة ونائبه فى حفظ الأمن وايجاد الطمأنينة

بين الناس ، فكان صاحبها يراقب الجناة والمفسدين والمريبين ، فكانت وظيفة دينية منذ ولادتها ، وابتدأت بسيطة فى أول نشأتها شأن كل شىء مستحدث فكان نظام العسس[١] وهو الطواف ليلا للبحث عن أهل الريبة أول مظاهرها ثم تطورت يوماً بعد يوم حتى أصبحت فى خلافة الامام علىّ كرم الله وجهه من الوظائف التى لا يتولاها إلا علية القوم .

وتغير لقب متوليها فأصبح «صاحب الشرطة» بعد أن كان «رئيس الشرطة» وأصبح متوليها من كبار الموظفين المرشحين للحجابة والوزارة[٢] .

وبعد أن كانت وظيفة تابعة للقضاء تنفذ أحكامه فيتولى صاحبها إقامة الحدود ، نجدها تبلغ الرشد أحياناً وتطالب برفع هذه التبعية فتنفصل عن القضاء وتختص بالنظر فى الجرائم[٣] ولكن استقلالها لم يكن فى أغلب الأحيان تاما ، فقد كان صاحبها فى أيام الدولة الفاطمية يساعد القضاء فى إثبات التهم ونفيها وينفذ الأحكام القضائية الصادرة من القاضى أو المحتسب ، علاوة على عمله الأصلى وهو بث الأمن والطمأنينة فى البلاد[٤] وإقامة الحدود والتعازير على الجناة والمذنبين[٥] يقيمها وفق القواعد الشرعية التى سنها النبى عليه الصلاة والسلام ، واقتفى أثره فيها الإمام علىّ وغيره من الخلفاء .

فقد روى عن النبى عليه الصلاة والسلام «أن رجلا اعترف على نفسه بالزنا ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوط فأوتى بسوط مكسور ، فقال فوق هذا (أى فى الإيلام والايذاء لأن المكسور يخف به الإيلام) فأتى بسوط جديد لم تقطع ثمرته ، فقال بين هذين (أى لا المكسور ولا

---

(١) أول من أوجد نظام العسس هو الخليفة عمر بن الخطاب ومنع الرئيس من التجسس لأنه منهى عنه .

(٢) ابن خلدون « المقدمة » ص ٢١٩

(٣) الدكتور حسن ابراهيم حسن « تاريخ الاسلام السياسى » حـ ١ ص ٥٨١ و ٥٨٢

(٤) وكان من رسم صاحب العسس أن يطوف كل ليلة حول القصر فى ألف رجل بالطبول الخفاف والبوقات . أبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٤ ص ١٨٨

(٥) هذا التوسع فى الاختصاص كان موجوداً أيضا أيام الأمويين والعباسيين .

الجديد ، بل الوسط) فأوتى بسوط قد رُكب به فلان فأمر به فجلد »[١] وقد بـيّن الامام على كرم الله وجهه كيفية الضرب فى الحد فقال « اضرب واعط كل عضو حقه واتق الوجه والفرج »[٢] .

وكان صاحب الشرطة يضرب المرأة وهى قاعدة بعد أن تلف عليها ثيابها حتى لا تبدو عورتها ، وكان يجلد المرأة والرجل جلداً ليس بالتمطى ولا بالخفيف ، بل قواماً بين الجلدين[٣] ، وكان كل من الزانى والشارب إذا نفذ عليه الحد خلعت عنه ثيابه وضرب فى إزار ، إلا القاذف فكان يضرب وعليه ثيابه مالم تكن فرواً فتنزع عنه[٤] .

وكانت القاعدة أن ليس على مستكره حد[٥] وكانت تجرى الحدود والتعازير على المسلمين وغيرهم ، فإذا سرق المسلم من الذمى فإنه يلزمه من الحد ما يلزم السارق من المسلم ، فإذا كان السارق ذمياً فانه يلزمه ما يلزم السارق المسلم[٦] ، كذلك « الذمى إذا استكره المرأة المسلمة على نفسها ، فعليه من الحد ما على المسلم »[٧] .

أما الشرطة بعد الفتح العربى لمصر فقد كانت أيام عمرو بن العاص فى مدينة الفسطاط وكان يطلق عليها « دار الشرطة السفلى » ، وبقيت كذلك حتى قدوم جوهر لمصر ، وكان صاحبها عند الفتح هو « على بن الحسن بن لولو »

---

(١) « صحيح مسلم » حـ ٥ ص ١٢٥

(٢) أبو يوسف « الخراج » ص ١٩٣

(٣) « » ص ١٩٣

(٤) « » ص ١٩٨

(٥) أبو يوسف « الخراج » ص ١٩٩ . وفى السنن للبيهقى عن أبى عبدالرحمن السلمى « أتى عمر بامرأة جهدها العطش فمرت على راع فاستسقت فأبى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها ففعلت ، فشاور الناس فى رجمها فقال على هذه مضطرة أرى أن يخلى سبيلها ، ففعل » وهذه هى نظرية الضرورة فى القانون الجنائى الحديث . مؤلفنا « القضاء فى الاسلام » ص ١٠٦ نقلا عن ابن قيم الجوزية « الطرق الحكمية » ص ٦

(٦) أبو يوسف « الخراج » ص ٢١٠

(٧) « » ص ٢١٢

الذى صرفه جوهر فى شوال سنة ٣٥٨هـ وأسندها إلى «عروبة بن ابراهيم» وورد شبل المعرضى[١]

ولما أنشئت مدينة العسكر ، أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا[٢] ، فلما استولى الفاطميون على مصر جعلوا القاهرة مقر الشرطة العليا ، وقلد المعز لدين الله عند ما قدم مصر الشرطتين السفلى والعليا وأشياء أخرى إلى «أبى الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس» الوزير و «عسلوج» ابن الحسن ، وكتب لهما بذلك سجلا قرىء يوم الجمعة على منبر جامع احمد بن طولون[٣] وبذلك أصبحت العادة فى العصر الفاطمى أن يعلن عن صاحب الشرطة فى المساجد الجامعة .

وفى سنة ٣٧٤هـ (٩٨٥م) أسند المعز لدين الله «الشرطة العليا» لجبر بن القاسم[٤] ثم جمع له الشرطتين العليا والسفلى[٥] ، وتولى أبو الفتوح موسى بن الحسن «الشرطة السفلى» أيام الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ، ثم خلع عليه لولاية الصعيد فى جمادى الآخرة من سنة ٤١٢هـ (١٠٢١م)[٦]

وبذلك جمعت الشرطتان أحياناً لرجل واحد .

وكما كان عابس بن سعيد أول من جمع له مسلمة بن مخلد الأنصارى أمير مصر من قبل معاوية مع الشرطة القضاء سنة ٦١هـ ، كذلك كثيراً ماجمع

---

(١) المقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٧٦

(٢) لعل « صاحب الشرطة العليا » يحكم على الخاصة وأهل المراتب السلطانية من أصحاب الجاه و «صاحب الشرطة الصغرى» يحكم على العامة ، أما فى قرطبة فقد أوجد سنة ٣١٧هـ (٩٢٩م) عبد الرحمن الناصر شرطة ثالثة سميت بالشرطة الوسطى يحكم صاحبها على أصحاب الطبقة الوسطى . الأستاذ الغوابى « عبد الرحمن الناصر سيرته ونظم الحكم فى عصره » ص ١٠٦

(٣) ابن ميسر «تاريخ مصر» (طبعة القاهرة ١٩١٩م) ص ٤٥ وابن دقاق « الانتصار بواسطة عقد الأمصار» ج ٤ ص ١١ و ٤٥ والمقريزى «اتعاظ الحنفا» ص ٧٢ و٧٦و٩٥و٩٦

(٤) ابن منجب « الاشارة » ص ٢٣

(٥) « « ص ٢٤

(٦) « « ص ٣٤

لصاحب الشرطة فى العصر الفاطمى الشرطة والقضاء معاً ، فمثلا فوّض يعقوب بن كلس فى سنة ٣٦٩ هـ «الشرطة السفلى» لعلى بن سعيد الجلجولى فنظر فيها وفى القضاء ، [١] وقد حدث نتيجة لهذا الجمع أحيانا نزاع بين صاحب الشرطة وبين القاضى الذى كان يعتبر نفسه صاحب الولاية الشرعية الأولى ، وعند ذلك يتدخل الخليفة أو الوزير ، فكان الوزير يقرر أحيانا بأن ليس لأحدهما أن يعترض على الآخر فيما حكم فيه ، كما حصل فى سنة ٣٦٩ هـ (٩٧٩ م) وكما حصل سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) عند ما منع «مالك بن سعيد الفارقى ويكنى أبا الحسن» صاحب الشرطة من التكلم فى الأحكام الشرعية [٢] .

وكثيراً ما حسم الخليفة النزاع باضافة الحسبة إلى صاحب الشرطة ، فيصبح اختصاصه بذلك مستقلا عن اختصاص القاضى [٣] ، فمثلا ولى الحاكم بأمر الله قائد القواد أستاذ الأستاذين «غبن» الشرطتين والحسبة بالقاهرة ومصر والجيزة [٤] وكان الخليفة ينهى النزاع أحيانا بمنع صاحب الشرطة من التكلم فى الأحكام الشرعية كما حدث سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) [٥] ، وكانت لا تقام الحدود فى المساجد أو فى أرض العدو [٦] .

وزيادة فى اطمئنان الخليفة الفاطمى إلى عدالة صاحب الشرطة ، كان أحيانا ينصب فى الشرطة وفى كل بلد شاهدين من العدول ، ويأمر ألا يقام على مرتكب جريرة حد إلا بعد أن يصح عند ذينك الشاهدين أنه مستوجب للحد كما فعل الحاكم بأمر الله [٧] .

---

(١) الكندى « كتاب الولاة وكتاب القضاة » ص ٤٢٠ وابن حجر « رفع الأصر » ورقة ١٩١

(٢) الكندى ص ٢٩١ وابن حجر « رفع الأصر » ورقة ٢١٣

(٣) الكندى ص ٤ — ٦ والقلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٨٧ وج ١٠ ص ٤٦١

(٤) قطع الخليفة الحاكم يدى « غبن » ولسانه سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) ثم قتله سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) . ابن منجب ص ٣٥

(٥) الكندى ص ٦٠٤ وابن حجر ورقه ٢١٣

(٦) أبو يوسف « الخراج » ص ٢١٢

(٧) ابن سعيد « كتاب المغرب فى حلى المغرب » ص ١٢٣

واشترط فى الاعتراف أن يكون اعترافا صحيحاً أى غير مصحوب بتهديد أو وعيد ، فاذا أخافه أو أجاعه أو حبسه ليقر على نفسه فلا يقام عليه الحد كذلك إذا أقر شخص بجريمة ثم أنكر فلا يجب عليه شيء [١]، ومن فجر بامرأة ثم تزوجها فانه يحد ، وكذلك يحد لو فجر بأمه ثم اشتراها[٢] . وكان القاضى يجمع أحيانا بين القضاء والشرطة والمظالم .

ويشبه الدكتور حسن ابراهيم حسن فى كتابه تاريخ الإسلام السياسى[٣] صاحب الشرطة اليوم بالمحافظ ، لأنه عبارة عن رئيس الجند الذى يساعد الوالى فى استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين . لذلك كان يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة .

(ب) النظام الحربي

عظمت عناية الفاطميين بكل من الجيش والأسطول ، لذلك سنبحث نظام الجيش وديوانه ، ونظام الأسطول المصرى وما وصل إليه من تقدم فى ميدان الصناعة الحربية والبحرية ، لنبين للقارىء كيف بلغ النظام الحربى أيام الفاطميين شأواً بعيداً من الرقى ، سمح للبلاد المصرية بأن تظهر بالمظهر اللائق بها بين الدول الحربية فى ذلك الوقت ، أما أهم الدواوين الموجود بها كبار الموظفين الحربيين ، فهى :

(١) **ديوان الجيش** [٤] : كان هذا الديوان أول ديوان وضع فى الإسلام وكان يسمى « ديوان الجند » ، وكان برأسه موظف كبير يختار دائما من المسلمين وكان ينقسم أيام الدولة الفاطمية إلى قسمين «ديوان الجيش» و«ديوان الرواتب» ، ولذلك سمى « ديوان الجيش والرواتب » ، وقد أعد لمعرفة أحوال الأجناد

---

(١) أبو يوسف « الخراج » ص ٢٠١ — ٢٠٩
(٢) « « ص ٢١١
(٣) ج ٢ ص ٢٠٧
(٤) يقابل وزارة الدفاع فى زماننا

فى مصر والولايات التابعة لها من الحياة والموت والمرض والصحة والغيبة والحضور ، وتحصى فيه أعمالهم وتحفظ جميع الأوراق المتعلقة بهم ، وإلى صاحبه المسمى « متولى ديوان الجيش » [(١)] أو « صاحب ديوان الجيش » الرتبة الجليلة والمكانة الرفيعة ، لأن وظيفته من أعلى الوظائف ، إليه مرجع شئون الجند وعرض الأجناد وخيولهم والنظر فى أمورهم واقطاعاتهم ، وبين يديه حاجب وله مرتبة على غيره لجلوسه بين يدى الخليفه ، وله الطراحة والمسند [(٢)] ومرتبه أربعون ديناراً شهرياً ، [(٣)] وقد يتولى صاحبه الوزارة فمثلا تولى ديوان الجيش سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) الروذ بارى واستمر يتنقل فى الوظائف حتى تولى الوزارة [(٤)] .

ولقد كان الخليفة عمر أول من جعل الجند فئة مخصوصة ، وجعل لها ديواناً للاشراف عليهم سمى بديوان الجند ، فيه تقيّد أسماؤهم وأوصافهم ومقدار أرزاقهم واحصاء أعمالهم . ولقد أكمل الأمويون والعباسيون مابدأه ابن الخطاب بتنظيم ديوان الجند .

وكان الجيش حتى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٨٦ هـ و ٦٨٥ – ٧٠٥ م) من العنصر العربى ، فلما توسع الأمويون فى فتوحهم استعانوا بالبربر فى الجيش ، وازداد عدد الجيش مئات الألوف من الجند أيام العباسيين ودخله الفرس ولا سيما الخراسانيين ثم الترك .

وقد اتخذ ابن طولون عدداً وافراً من جند السودان والروم ، واتخذ « مدينة العسكر » مقاما لهم ، ولما ضاقت بهم اتخذ « مدينة القطائع » وفيها أقامت القطائع المختلفة من جند السودان والنوبيين وغيرهم ، وكان بقصر ابن طولون مكان يشرف منه فى يوم عرض الجيش الذى بلغ بين سبعين ومائة

---

(١) يشبه فى الوقت الحالى وزير الدفاع

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٩٢ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٤٢

(٣) المقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٤٣

(٤) ابن منجب « الأشارة إلى من نال الوزارة » ص ٣٥

ألف مقاتل [١] ، وكان حرس خمارويه ، يلبسون الأقبية [٢] من الحرير والديباج ويتمنطقون بالمناطق العريضة الثقيلة ويتقلدون بالسيوف المحلاة ، فاذا سار خمارويه فى موكبه للنزهة أو للصيد أو للاحتفال بعيد من أعياد الدولة ومواسمها ركب فرساً وتقلد سيفاً بحمائل وتبع حرسه طوائف العسكر المختلفة ، وفى المؤخرة جند السودان عليهم الأقبية والعمائم السود حاملين سيوفهم وخوذهم

لذلك بلغ جيش الاخشيد ، وكانوا من طوائف مختلفة كالأتراك والروم أربعمائة ألف مقاتل [٣] عدا حرسه الخاص ، وقد انقسم الجند فى عهد أنوجور ابن الإخشيد إلى الكافورية أنصار كافور والإخشيدية أنصار الأسرة الإخشيدية ، والجيش هو الذى يذود عن حياض الدولة ويحمى ذمارها فكان إليه رد المغيرين على البلاد وتوسيع رقعتها ، كما كان إليه رد الأمن إلى نصابه إذا حدثت الثورات والفتن وغير ذلك ، ولقد كان الجيش أيام الدولة الفاطمية مختلف الأجناس واللغات [٤] ، فكانت الجنود التى رافقت جوهراً إلى فتح مصر كثيرة العدد [٥] وكانت الجنود التى سار بها الخليفة المعز لدين الله إليها بعد الفتح خليطا من العرب والبربر والصقالبة والروم

---

(١) Dr zaki Mohamad Hassan, Les Tulunides P. 167

(٢) الأقبية جمع قباء وهو ثوب يلبس فوق الثياب

(٣) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) .ج ١ ص ٩٤

(٤) استمر الجيش عربياً لحماً ودماً فى الغالب حتى أواخر الدولة الأموية ، فلما جاءت الدولة العباسية دخل عنصر الأتراك فى الجيش بكثرة ، وكما ظهر نجم العباسيين على أيدى أهل خراسان كذلك ظهر نجم الفاطميين على يد المغاربة من كتامة — عصب الخلافة الفاطمية — وغيرهم من القبائل كالبرقيين والصنهاجيين وغيرهم ، ولكل طائفة منهم قواد ومقدمون يحكمون عليهم وقيل إن عدد الكتاميين كانوا عشرين ألف فارس . ابن النعمان « المجالس والمسايرات » المجلد الثانى (١) ج ١ ص ٣ و ٤ والقلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٨٢ والمقريزى « الخطط » ج ١ ص ١٥٢

(٥) حتى أن جوهراً عند مارحل من أفريقية يوم السبت ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ لتسلم مصر أنشده الشاعر محمد بن هانىء عند رحيله من القيراون قوله : —

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع وقد راعنى يوم من الحشد أروع

أبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٤ ص ٢٨ و ٢٩

والأغلبية فيها للبربر ، وكان جيش المعز عظيما حتى قيل : «لم يطأ مصر بعد جيوش الاسكندر الأكبر من الجيوش أكثر من جيوش المعز لدين الله»[١] إذ كان معها من السلاح والعدد والكراع مالا يوصف ، واختطت القبائل المؤلف منها الجيش خطة عرفت بها حول القصر[٢] ، وقدّر ناصرو خسرو الجيش أيام الخليفة المستنصر بحوالى مائتين وخمسة عشر ألفا من البيادة[٣] وخمسة وثمانين ألفا من الخيالة[٤] ، أما حرس القصر فبلغ عددهم عشرة آلاف جلبو من أفريقية وآسيا وأوروبا[٥] .

وحينما وجد الخليط من الجند ، وجد التحاسد والتنافس بينهم ، وقامت الفتن والثورات ، ووجد من الخلفاء من يقدم عنصراً على آخر ويقربه إليه فمثلا قرب المعز لدين الله جند كتامة ، واختط لهم حارة كتامة لأنهم نصروا آباءه[٦] .

كما اصطنع ابنه العزيز بالله المماليك الديالمة والمصامدة والأتراك وجعلهم خاصته وبطانته ، فأسقط ابن كلس المغاربة واستخدم المشارقة فى سنة ٣٧٠هـ (٩٨٠م) من الترك والاخشيدية[٧] ، ثم رجع نفوذ كتامة لما ولى «ابن عمار» الكتامى «الوساطة» ، فلما ولى «برجوان» الصقلبي أغرى الخليفة الحاكم بأمر الله بهم ، فقتل منهم خلقاً كثيراً .

---

(١) ويقدر النويرى من قدم فى خدمة المعز لدين الله عند قدومه لمصر بمائة ألف مقاتل كتامى وأربعين ألف من البربر وستين ألف من الزنوج «نهاية الأرب» ج ٢٦ ورقة ٤٤ وابن اياس «بدائع الزهور» ج ١ ص ٤٦

(٢) ولكى يتجنب جوهر كل مايكدر راحة السكان لم يبح للمغاربة سكنى مدينة «مصر» ولا المبيت بها ، وكان إذا أرخى الليل سدوله أطلق منادياً ينادى فى شوارعها وأزقتها «لايبيتن أحد فى المدينة من المغاربة»

(٣) منهم ثلاثين ألف نوبى وسودانى وعشرة آلاف سورى وكردى وتركى وثلاثين ألف من الأرقاء المجلوبين من وسط أفريقية

(٤) ممن أتوا من شمال أفريقية من عرب وبربر أو من عرب الحجاز

(٥) O' leary, A short History of The Fatimid Khalifate PP. 198—200

(٦) على مبارك باشا «الخطط التوفيقية» ج ١ ص ٩

(٧) النويرى «نهاية الأرب» ج ٢٦ ص ٤٩

كذلك انحطت مكانة كتامة أيام الخليفة « الظاهر » الذى مال إلى الأتراك والمشارقة . وكما استكثر المعتصم العباسى سنة ٢١٨ هـ من الأتراك لأن أمه كانت تركية فولاهم حراسة قصره وأسند إليهم أعلى المناصب ، كذلك ارتفع سهم العبيد أيام الخليفة المستنصر لأن أمه كانت منهم فكرهت الأتراك وأغرت العبيد بهم وعاونتهم بالأموال والسلاح على الأتراك فوقعت حروب كثيرة بينهم [١]

ولقد قامت الحرب بين فرق العساكر أحيانا كما حدث بين الريحانية والجيوشية أيام الخليفة الحافظ [٢] ، كما كانت تحدث تماماً بين المغاربة والأتراك أو بين الأتراك والعبيد [٣] عندما يزاد فى أرزاق طائفة وتنقص من أرزاق أخرى ، وبذلك امتدت إلى الجيش العصبية القومية .

أما تعبئة الجيوش وطرق القتال فقد نالوا فيها حظاً عظيما ، فبعد أن كانت الطريقة القديمة الكر والفر بلا انتظام ، أصبحوا يقاتلون صفوفا كالحائط الممتد ، تسير بهذا الشكل لمقاتلة عدوهم متضامنين ، ليس لأحد منهم أن يتقدم عن الصف أو يتأخر عنه ، كما يفعلون فى الصلاة وفق قوله تعالى « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » [٤] .

---

(١) ابن ميسر « أخبار مصر » ج ٢ س ١٧ والعينى « عقد الجمان » مجلد ٢ ج ١٧ ص ٢٤٣ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٥ ص ١٩ وابن اياس « بدائع الزهور » ج ١ ص ٤٨ وعلى مبارك باشا « الخطط التوفيقية » ج ١ ص ٩ و ١٠ و ١٣ و ١٤

(٢) النويرى « نهاية الأرب » ج ٢٦ ص ٨٩ . وكلاهما من الجيوش الأرمنية السورية التى قدمت مع بدر الجمالى ، نزلت الطائفة الأولى بحارة العطوفية والثانية بالحسينية

(٣) النويرى « نهاية الأرب » ج ٢٦ ص ٦٤ و ٦٧ وابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ص ٥٣

(٤) الآية ٤ من سورة الصف رقم ٦١ . وكان الامام على يوصى جنده فى واقعة صفين فيقول « فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص ، وقدموا الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الأضراس » وكان عدد « الجريدة » قليلا ويليها « السرية » المؤلفة من ٥٠ جنداً إلى أربعمائة ، أما الكتيبة » فهى المؤلفة من ٤٠٠ جندى ، إلى ألف جندى ، و « الجيش » من ألف الى أربعة آلاف . الأستاذ الشيخ أمين الخولى « الجندية فى الاسلام » ص ٢٣ نقلا عن الثعالبي « فقه اللغة » (طبعة مصر سنة ١٣٢٥ هـ) ص ٢٢٠

كما كانوا يقسمون الجيش إلى خمسة أقسام : « مقدمة » وتكون أمامه لتبدأ المناوشات وتتعرف الطرق وترتاد المواضع وهى غالباً من الفرسان ، « وقلب » وهو وسط الجيش وفيه يتخذ القائد العام مركزه غالباً حتى يراه جميع الجند لتنفيذ جميع أوامره ، أو فى المقدمة ليثير حماسة الجند ويلق الفزع فى نفوس أعدائه ، أو فى عريش له على ربوة يشرف منها على جيشه .

أما الكتيبة الثالثة فتوضع « يمنة » وتسمى « الميمنة » ، كما توضع الرابعة على يسارها وتسمى « الميسرة » ، ويطلق عليهما المجنبتان أو الجناحان ، وتوضع الكتيبة الخامسة فى الخلف وتسمى « ساقة الجيش » .

وكان لكل فرقة من هذه الفرق الخمس أمير يأتمر بأمر القائد ، يقال له « صاحب الميمنة » أو الميسرة وهكذا ، ولهذا يسمى الجيش خميساً لقسمته إلى خمسة أقسام [١] ، ثم تفننوا فى طرق التعبئة للجيوش ، وكانوا دائماً شديدى الحرص على المحافظة على خطوط رجعتهم .

أما الجيش فقد كان يتألف من الفرسان والرجالة ، على كل عشرة عريف وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، وكان سلاحه السيف أشرف السلاح عند العرب [٢] . وكانت على أنواع [٣] منها الطويل والقصير وغيرهما وكانت تتخذ للسيوف حمائل تكون على الأكتاف أو يتخذ لها معالبق ، وكانوا يستعملون الأقواس وهى مصنوعة من الخشب الذى شد طرفاه بخيط أقصر من قضيبه ليتقوس ، والسهام مثلها مصنوعة أيضا من الخشب ، يركب فيها من الأمام قطعة مدببة من الحديد وأتقنوا الرمى بالنبل ، ولا غرو فقد كان الرسول عليه السلام يقول : « اركبوا

---

(١) أخذ نظام التعبئة أى تقسيم الجيش إلى كتائب عن الفرس

(٢) اشتق من قولهم ساف ماله أى هلك ، لأن السيف سبب الهلاك

(٣) المهند أو الهندوانى نسبة إلى الهند ، والحارية نسبة إلى الحيرة ، والمشرفى نسبة إلى المشارف (قرى من أرض العرب) ، وسمى السيف القصير « أبتر » والعريض « صفيحة » والدقيق بالـ « قضيب » . الأستاذ الخولى « الجندية فى الاسلام » ص ٣٠ — ٣٢ نقلا عن القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٢ ص ١٣٤ وابن طيفور « تاريخ بغداد » ج ٦ ص ١٦

وارموا وأن ترموا أحبّ إلىَّ من أن تركبوا » ، ويقول أيضا « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى » ، وقال أيضا « علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل » . وعملوا من الأقواس آلات مركبة لقذف السهم قذفاً شديداً ، وبعضها لقذف عدة سهام دفعة واحدة ، وكانت المقاليع أبسط الآلات القاذفة وتلحق بالقسى .

والرماح وهى آلة الطعن « تتألف من قناة تجعل فى آخرها حديدة مدببة هى السنان وتنعل بحديدة فى أسفلها تركز عليها تسمى الزّج » ، وكانوا يضعون الهلال عليها ، وبذلك اتخذوا الهلال شعاراً للاسلام ، واقتفى أثرهم فى ذلك الترك ، ولعل المسلمين اتخذوه شعاراً لهم لأن القمر انشق معجزة للنبى عليه السلام ، كما اتخذ البيزنطيون الصليب فى عهد قسطنطين شعاراً دينيا لهم على أعلامهم وبنودهم (١) . والحراب وهى أقصر من الرماح وكانت لهم مهارة عظيمة فى استعمالها ، والخنجر ويشبه السكين الكبيرة المنحنيـــة النصل أو المستقيمة ، والطبر (جمعها الأطبار والطبرزينات) لفظ فارس معناه الفأس أما البلطة فكانت كأختها الفأس يستصحبها الجند للتضارب بها عند اللقاء ولقطع الأخشاب وتمهيد الطرق أمام الجيوش . والدروع وكانت لهم بها عناية كبيرة إذ بها تتقى الطعان لأنها مصنوعة من الحديد ، كما كان المغفر يلبس على الرأس وعليها البيضة ، والطراق تلبس على الساعد ، والغفارة تلبس على الوجه بحيث تغطيه كله وتظهر العينين ، أما التجافيف (٢) فكان يلبسها الفارس كالدرع ليتقى بها الطعنات ، والمنجنيق (٣) وهى أداة ترمى بها الحجارة أو الحديد أو قدور

---

(١) الاستاذ الخولى « الجندية فى الاسلام » ص ٥٧ و ٥٨ نقلا عن المقريزى « الخطط » جـ ٤ ص ٣٨٣

(٢) ذكر المقريزى فى « خططه » جـ ٢ ص ٤١٧ تخافيف فأصلحها الأستاذ G.wiet وجعلها تجافيف . الدكتور زكى محمد حسن « كنوز الفاطميين » ص ٥٤

(٣) عرفها الفينيقيون منذ القدم واستخدمها النبي عليه الصلاة والسلام سنة ٨ هـ فى غزوة الطائف . ابن هشام جـ ٣ ص ٣٠٣

النفط أو السوائل الملتهبة أو غيرها على الأعداء . فهى آلة قاذفة أيضا يمكن فصل أجزائها عن بعض وتركيبها عند الاستعمال ، والدبابات آلات للحرب تتخذ من الخشب السميك وجلود البقر والابل واللبود والجلود المنقعة فى الخل لتقيها النار وغيرها ، لتقى من بداخلها مما يقذفه العدو عليهم ، فيها يدخل الجند بجوفها ويدفعونها إلى جدار الحصن فينقبونه وهم بداخلها ، تحميهم جوانبها وسقفها مما يرميه العدو من النبال أو غيرها ، وهى القلاع المتحركة (التانكس) ذوات العجل ، استعانوا بها على هدم أسوار الحصون والخنادق ، وهى ضيقة من أعلاها ويرمون منها الحجارة وغيرها بواسطة المنجنيقات الصغيرة التى ركبت فيها ، والضّبور كالدبابة تقريبا يصنع من الخشب المغطى بالجلد وتعرف اليوم بالسيارات المدرعة ، استعانوا بها فى هدم أسوار الحصون التى تعترضهم فى القتال . أما الكبش فهو عبارة عن حجرة صغيرة مركبة على عجل ومصنوعة من الخشب المحكم ، مغلقة بلبود أو جلود منقوعة فى الخل وبداخلها الجند الذين يحركونها ، ويربط فيها عمود أفقى له رأس كرأس الكبش وتقرب هذه الآلة إلى أسوار الحصن أو القلعة ، وتحرك رأس الكبش بحيث تصطدم بحائط السور المراد نقبه ، وقد ينقبونها بآلات معهم [١].

واستعملوا النار اليونانية وسموا القائمين على استعمالها « النفطية » ، واقتنوا غير ذلك من الأسلحة ، وأعدوا لها خزانة السلاح لتحفظ فيها [٢] ، وحفروا الخنادق على المعسكر ليحصنهم من مباغتة العدو ، وأقاموا الحصون والمعسكرات لراحة الجند أثناء الطريق .

وقد استكثر الخلفاء الفاطميون من الخيول فى الجيش لأن الدين يحث على اتخاذها حيث يقول الله جل شأنه « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط

---

(١) جورجى زيدان « التمدن الاسلامى » ج ١ ص ١٤٣ و ١٤٤

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٧٧ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٥١

الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم»[١] واعتنوا بأنسابها حتى كان لأنسابها جرايد (سجلات) مثبتة فى الديوان كأنساب الناس، كما استكثروا من غيرها من دواب الحمل كالبغال والحمير والجمال والأفراس والناقات، وأوجدوا لها الاصطبلات، وكان بها ديوان الكراع به عدة موظفين منهم الكاتب كما أوجدوا أيضا خزانة السروج ونظروا عليها من يحفظها ويهتم بها[٢].

واستعملوا العجلات لنقل الذخائر، وكان منها القذائف التى ترمى باليد والتى توضع فى قوارير من الزجاج تملأ بالنفط والصبر وبذر القرطم المقشور فتشعل قبل استخدامها، ويرمى بها بواسطة سلسلة، فإذا تصادمت بشىء اشتعلت النار فيه[٣]، كما استعملوا العجلات لنقل الأسلحة والجند من مكان إلى آخر واتخذوا الأعلام مع الجند فى القتال اقتداء بنبيهم صلى الله عليه وسلم، الذى اتخذ راية كانت تسمى العقاب[٤].

وكما كتب أبو عبد الله الشيعى فى بنوده «سيهزم الجمع ويولون الدبر»[٥]، وآيات أخرى من القرآن الكريم[٦]، كذلك كتبوا على البنود بعض الآيات القرآنية.

وكان لكل قسم من أقسام الجيش كالميمنة مثلا لواء، وكانت الألوية تارة خضراء وتارة أخرى بيضاء، أما أعلام الأمان عندهم فكانت بيضاء، إذ عندما قدم جوهر لمصر حمل رسوله بندأ أبيض وطاف به على الناس ليؤمنهم كما كانوا يطلبون الأمان برفع المصاحف على الرماح، كما حدث عندما خذل

---

(١) الآية ٦٠ من سورة الأنفال رقم ٨

(٢) ابن الأثير «الكامل» جـ ٢ ص ١٩ والقلقشندى «صبح الأعشى» جـ ٣ ص ٤٧٧ و٤٩٦ والمقريزى «الخطط» جـ ٢ ص ٢٦٩

(٣) الدكتور على ابراهيم حسن «دراسات فى عهد المماليك» ص ٤٤٨ نقلا عن ابن ارتبغا الزردكاش «الأنيق فى المنجانيق» المخطوط ص ١٠٣ وجرجى زيدان «تاريخ التمدن الاسلامى» جـ ١ ص ١٤١ و ١٤٢

(٤) ابن سعد «الطبقات» جـ ٣ ص ١٩

(٥) الآية ٤٤ من سورة القمر رقم ٥٤

(٦) ابن عذارى المراكشى «البيان المغرب فى أخبار المغرب» ص ١٤٩

الجند بهرام الأرمنى المسيحى وحملوا المصاحف على الرماح لنصرة رضوان بن ولخش أيام الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله[١].

وكان لواء الجيش يحمله أمير الجيش ، وقد يعطيه إلى غيره ، وهو شرف عظيم لمن يحمله ، كما كان للرايات فائدة أخرى هى التخاطب بها بدل النداء بالنقارات والبوق عندما يخشون الأصوات التى تنبه العدو إليهم ، وكانوا يتبعون نصيحة الامام على كرم الله وجهه فى قوله « أقيموا راياتكم فلا تميلوها ولا تجعلوها إلا بأيدى شجعانكم » ، وكانت الموسيقى تصحب الجيش ، إذ لما قدم جوهر لموضع القاهرة « كانت طبوله تضرب وأعلامه تخفق »[٢] ، لتثير الحمية فى نفوس الجند ، لأن النفس عندما تسمع النغم العذب تطرب وتفرح فيسهل عليها الصعب ، فمثلا عندما خرج الخليفة العزيز بالله لفتح الشام اتخذ خمسمائة من الأبواق ومثلها من البنود[٣].

كما كانوا يرسلون فى صحبة الجيوش كاتبا وترجمانا وقاضيا وعمالا ليمهدوا لهم الطريق ويساعدوهم فى تركيب آلات الحرب ، وأطباء مجهزين بما يلزم المرضى من أدوات وأدوية وأشربة ، حتى يقدموا بتضميد جراح الجند ومعالجة من يمرض منهم أثناء القتال واسعافهم[٤].

وكانوا إذا قاتلوا العدو التزموا ما أمكن وصايا النبى عليه الصلاة والسلام فى الحرب ، فلا يمثلون ولا يقتلون امرأة أو وليدا أو شيخا[٥] ، فقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « لا تقتلوا أصحاب الصوامع » ، وقوله « لا يقتل فى الحرب الصبى ولا المرأة ولا الشيخ الفانى » ، وقوله « اغزوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا امرأة ولا وليدا » .

---

(١) ابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ١ ص ٢١١ والنويرى « نهاية الأرب » ج ٢٦ ورقة ٩١ والعينى ، « عقد الجمان » المجلد الأول ج ١٨ ورقة ٥٧ و ٥٨

(٢) ابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ١ ص ٢١٢ والنويرى « نهاية الأرب » ج ٢٦ ورقة ٤٠ والعينى « عقد الجمان » القسم الثانى من ج ١٩ ورقة ٢٣٢

(٣) ابن خلدون « المقدمة » ص ٢٢٤ و ٢٢٥

(٤) Ameer Ali syed , A Short history of the Saraeens p.432

(٥) أبو يوسف « الخراج » ص ٢٣٠ — ٢٣٢

وعنوا بأصحاب الأخبار والعيون (الجواسيس) لمعرفة أخبار عدوهم لأن التجسس على العدو أمر تقتضيه الحرب . وكانوا يرغبون بالمال كل بالغ ذى شجاعة ومعرفة بالقتال للانضمام إلى الجيش ، ولا غرو فقد كان النبى عليه الصلاة والسلام لا يجند بالجيش إلا كل من بلغ على الأقل خمس عشرة سنة[١]

وكان يستحسن فى ملابس الجند ضيقها وقصرها حتى لا تحول بينهم وبين حركات القتال . ولا غرو فقد نهضت أيام الخلفاء الفاطميين صناعة المنسوجات فاتخذوا منها لجندهم مختلف المنسوجات ومتنوع الثياب من السراويل والبرانس وغيرها ، وكانت مساكن الجند الشكنات سواء أكانت خياما أم أبنية خاصة بهم ، وعندما اختطت القاهرة اختطت كل قبيلة خطة عرفت بها ، فزويلة بنت الحارة المعروفة بحارة زويلة ، واختط جماعة من أهل برقة الحارة البرقية واختط الروم حارة الروم التى بجهة الدرب الأحمر وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر ، كما اختط الديلم حارة الديلم ، والأتراك حارة الأتراك ، وهكذا[٢]

ومن مميزات الجيش الفاطمى بمصر سرعة الحركة والنشاط والصبر على المكاره والاستهانة بالموت ، ولعل اعتقاد معظم المسلمين فى القضاء والقدر مما زاد وقوى فى عزيمتهم ، وأصبح كل من الاقدام والجرأة من أخص صفاتهم لأن الأجل محدود والرزق مكفول ، ولأن تربية الفدائى منهم ألا يبالى بالموت إذ همه تنفيذ أوامر سيده ، لأن فى طاعته النعيم الدائم ، وكان تدريبهم من وقت لآخر يبث فيهم الرجولة الكاملة وحب الطاعة والنظام ، ولما كان العقل السليم فى الجسم السليم فقد دربوا على ألعاب كثيرة ، كلعب الكرة وسباق الجرى والتحطيب بالعصى والفروسية والحكشة (لعبة الهوكى الآن) وأعدت التمرينات الكثيرة لتقوية أجسامهم ، فمن تمرينات لتقوية الذراعين إلى أخرى لتقوية الظهر أو الرجلين أو الرأس والعنق .

وكانوا يدربون على المشى والجرى والوثب والقفز لبضعة أمتار ولعب

---

(١) أبو يوسف « الخراج » ص ٢٠٣ وابن عبد ربه « العقد الفريد » ج ١ ص ٦٦

(٢) المقريزى « الخطط » ج ٢ ص ١٧٩ — ١٨٢

التتابع والوثب العالى والوثب الطويل ورمى الجلة ورمى القرص ورمى الرمح وكرة القدم والملاكمة والمبارزة والشيش والمصارعة والتجديف والسباحة وركوب الخيل وغيرها (١). وكان يعهد إليهم بتعلم طرق انقاذ الغرقى واطفاء الحريق والانقاذ منه ، كما كانوا يدربون على الاسعافات الأولية وطرق حمل المصاب فى معسكراتهم ، وكان عرض الجيش وتفقد حالته وأسلحته وغير ذلك يقوم به من وقت لآخر الخليفة بنفسه ، فيجلس فى منظرة باب الفتوح لتوديع الحملات الحربية ، وفيها يأذن لقائد الحملة بالمثول بين يديه ، فيخلع عليه خلعة مزركشة بالذهب . فمثلا جلس الآمر بأحكام الله بمنظرة باب الفتوح فلما مرت أمامه الجيوش بطبولها وبنودها وأعلامها تتماوج كالبحر العجاج استدعى حسام الملك قائدها وخلع عليه حُلّة جليلة مذهبة بطوق مذهب ، وكان لا يرأس الجيش إلا كل رجل اتصف بالبسالة والنجدة والشجاعة والجرأة ممن نازل الأقران وقارع الأبطال وشهدت له التجربة بسداد الرأى فى الحرب وحسن التدبير والذكاء ، وكانت طاعة القائد واجبة كطاعة الخليفة نفسه ، لأنه نائبه ، وأطلق على القائد الأعلى للجيش لفظ « الأسفهسلار » (٢). وكان ينظر فى أمر الأجناد وفى جميع الشئون العسكرية ، وتلى وظيفته وظيفة « صاحب الباب » ، وتقف فى خدمته الحجاب على اختلاف طبقاتهم (٣). فكان صاحب هذه الوظيفة يعتبر من أصحاب السيوف فى كبار موظفى الدولة الفاطمية ، ويقول الأستاذ المرحوم الياس الأيوبى فى مذكراته المخطوطة « لم تحل لفظ « اسفهسلار »

---

(١) حتى يحفظوا للجند نشاطهم ويمنعوهم من أن يركنوا إلى الراحة والترف فتفسد مواهبهم الحربية . المقريزى « الخطط » ج ٣ ص ٣٢٠

(٢) كانت تسمى هذه الوظيفة عند ماحكم الترك مصر بـ « سارى عسكر » ، وهو ما يعبر عنه فى زماننا بسردار الجيش ، التى أطلق عليها الآن « رئيس أركان حرب الجيش »

(٣) أبو الفدا « كتاب المختصر فى أخبار البشر » ج ٣ ص ٤٧ و ٤٨ والقلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٨٣ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٤٥ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ص ٨١ — وقد كان نور الدين يكاتب صلاح الدين الأيوبى مؤسس الدولة الأيوبية فيما بعد ، بالأمير الأسفهسلار

محل اسم « قائد القواد » إلا بعد أن تغلب العنصر التركى فى الجيوش الفاطمية على العنصر المغربى »[١] ، وكان يعاون « صاحب ديوان الجيش » نقباء الأمراء »[٢] فيبلغون أوامره إلى جندهم ويعرفون أحوال الأجناد من الحياة والموت والغيبة والحضور وغير ذلك [٣] .

(٢) — ديوان الجهاد : يقال له « ديوان العمائر »[٤] ويختص بالنظر فى أمر الأساطيل المدنية والحربية وإنشائها وتسييرها والإنفاق على رجال البحر وكانت له إيرادات خاصة للانفاق منها على رؤساء المراكب ورجالها ، وإذا لم تكف موارده استعان ببيت مال المسلمين ليمده بما يحتاج إليه من المبالغ[٥] .

ولقد بدأت صناعة المراكب الحربية بمصر بعد الفتح العربى بسبب غارات القرصان والمسيحيين من بيزنطة ، وأنشأت أول دار صناعة بفسطاط مصر عام ٥٤ هـ[٦] بالروضة ، وكانت تعرف باسم « صناعة الجزيرة » ، ثم حصن ابن طولون « الروضة » ، ويقال إنه أنشأ بها مائة سفينة حربية حتى كان عهد الأسرة الإخشيدية ، فنقلها مؤسس الدولة الاخشيدية محمد بن طغج الإخشيد (٣٢٣ — ٣٣٤ هـ و ٩٣٤ — ٩٤٥ م) إلى ساحل مصر القديمة بمصر فى المصنع المعروف باسم صناعة السفن ، وبذلك وجه الاخشيد أيضا عنايته للاسطول [٧] .

وعمل المعز لدين الله ومن أتى بعده من الخلفاء الفاطميين بمصر على أن يكون لهم بجانب الجيوش البرية أسطول قوى فى بحر الروم (البحر الأبيض

---

(١) الاستاذ المرحوم الياس الأيوبى « الفاطميون » ج ٢ ص ١٥٩
(٢) هم قواد الارط الآن
(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٩٢
(٤) ويقابل اليوم وزارة البحرية
(٥) القلقشندى « صبح الاعشى » ج ٣ ص ٤٩٦
(٦) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) ج ٢ ص ١٩٥
(٧) « « « ج ٢ ص ١٩٥

المتوسط) ، ليدفعوا به تهديد البيزنطيين لبلاد الشام ، وكانت تابعة لمصر خصوصا بعد أخذهم أنطاكية وحلب ، فذكر ابن أبي طي أن المعز لدين الله أنشأ داراً لصناعة السفن بالمقس [١] ، وهي قرية على النيل ، وبنى بهذا المرفأ الصناعي ستمائة مركب وصفها المسبّحي [٢] بقوله « إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً ووثاقة وحسنا » ، غير أن المسبحي المعاصر يقول : إن العزيز بالله هو الذي أنشأ دار الصناعة هذه بالمقس [٣] .

وكانت غابات لبنان وما فيها من شجر ، ومصر وما يزرع فيها من أشجار الأثل والجميز والسنط والنبق والسرو وغيرها ، والحراج بالوجه القبلي في البهنسا وسفط والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص وغيرها ، تمد صناعة السفن الحربية والمدنية بالأخشاب [٤] . إلا أن أخشاب الأسطول غالبا ما كانت تجلب من بلدان أوروبا الجنوبية لمتانتها على أيدي البنادقة ، أما صناعة السفن والزوارق التجارية فاعتمدت على الأخشاب المحلية .

وكان بجانب الأسطول الحربي أسطول تجاري يسير بالتجارة ويحمل منسوجات مصر ومنتجاتها إلى المشرق بطريق جدة وعدن في بحر القلزم (البحر الأحمر) ، كما يسير في بحر الروم إلى المغرب وصقلية وغيرها ، وله مرافىء للحط والإقلاع في الاسكندرية ودمياط بسواحل مصر ، وعسقلان وصور وحيفا وصيدا وعكا بسواحل الشام ، بعضها على بحر الروم وبعضها في مياه بحر القلزم . فقد كان أسطولهم هناك في عيذاب ليحمي المراكب المصرية من مراكب القرصنة ببحر القلزم ، وكان عدد سفنه خمسة مراكب ثم صارت ثلاثة ، وكانت إمرة هذا الأسطول في يد والي قوص . وربما تولاه أمير ، وكان

---

(١) سميت بالمكس لأقامة صاحب المكس والعشار فيها ، والمكس دراهم كان يأخذها المكاس من بائعي السلع في الأسواق وقلبت الكاف قافاً فصارت المقس . المقريزي « الخطط » جـ ٤ ص ٥٣

(٢) المؤرخ المصري محمد بن أبي القاسم عبيد الله بن احمد المتوفى سنة ٤٢٠ هـ

(٣) المقريزي « الخطط » (بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ٢ ص ١٩٥

(٤) الأستاذ الشيخ أمين الخولي « الجندية في الاسلام » ص ١٠٢

يحمل إلى هذا الأسطول من خزائن السلاح ما يكفيه[١] .

وكانت الحكومة الفاطمية تحتكر الأخشاب وتبنى السفن لحسابها وتبيعها أو تفرض الضرائب الكبيرة عليها .

وفى أيام الخليفة العزيز بالله احترقت خمس عشاريات وأتت على العدة والسلاح ولم يبق إلا ستة مراكب ، فاتهم الروم وكانوا مقيمين بجوار الصناعة التى بالمقس ، فقامت العامة بنهب دورهم وبقتل نحو مائة رجل منهم[٢] .

وكانت مصر والاسكندرية ودمياط أهم مراكز إنشاء السفن فى العصر الفاطمى ، ولم يزل الأسطول المصرى محل عناية ورعاية الخلفاء الفاطميين حتى كان يتكون فى أواخر الدولة الفاطمية من ثمانين شونة وعشرة مسطحات وعشر حمالات ، وكانت جريدة قوادة تزيد على خمسة آلاف ، منهم عشرة قواد ، وكان لهم إقطاعات[٣] ، فلما استولى الصليبيون على بلبيس واستعدوا للزحف على الفسطاط ، أمر شاور وزير العاضد بإحراق الفسطاط سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) لكيلا يأوى إليها الصليبيون ، وليحول دون وصول العدو كما أحرق مراكب الأسطول[٤] .

وكانت أهم قطع الأسطول الحربى المصرى فى عصر الفاطميين تتكون من : —

الشوانى : وهى أهم القطع التى كان يتألف منها الأسطول ، فهى من أشهر السفن البحرية وأكثرها استعمالا ومفردها « شينى » أو « شونة » ، وهى من أقدم السفن البحرية استعمالا ، وهى سفن حربية كبيرة تتخذ بها الأبراج العظيمة والقلاع ، وتزود بالعدد والآلات الحربية وتجهز بالأسلحة والنّفطية

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٥٢٤

(٢) النويرى «نهاية الارب» ج ٢٦ ورقة ٤٨ والمقريزى « الخطط » (بولاق ١٢٧٠ هـ) ج ٢ ص ١٩٥

(٣) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) ج ٢ ص ١٩٣

(٤) « « « ج ٢ ص ١٩٤

لتستعمل فى الهجوم على الأعداء والدفاع عن نفسها إذا هاجمها العدو فتكون متقنة التسليح عليها رجال برعوا فى قتال البحر ، وكانت كالقلاع البحرية تحاصر وترمى بالنفط وبها اللجام[١] لتقذف به سفن العدو ليغرقها ، وبها كلاليب وهى خطاطيف كبار من الحديد لتطرح عليها فتوقفها ، وتزود المراكب الحربية أيضا بالأحجار والرماح والتراس والعشى وغيرها من آلات الحرب ، وكان عددها يزيد على خمسة وسبعين شينيا[٢] .

والحراريق أو الحراقات : مفردها « حراقة » ، وهى مراكب حربية كبيرة تقل فى الحجم عن الشوانى ، تجهز أيضا بآلات الحرب مثل المنجنيقات الكبيرة والصغيرة والأسلحة النارية كالنار الاغريقية وأنابيب النفط ، وكان من الحراقات أنواع تستعمل فى النيـــل لحمل الأمراء ورجال الدولة فى الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية ، ولعلها تشبه « الذهبيات » الآن وإن كانت هذه تستعمل كمواطن للسكن ، فى حين كانت تستعمل الحراقات للرياضة البحرية .

والطرادات : وتدعى أيضا « الطرائد » وواحدها « طريدة » ، وهى سفن حربية صغيرة الحجم سريعة السير تحمل نحو ثمانين فرسا تستخدم فى حمل الخيول .

والأغربة : ومفردها « الغراب » نوع من « الشوانى » ، سميت بهذا الاسم لأن رأسها يشبه رأس الغراب .

والقراقير : وواحدتها « قرقورة » ، وهى سفن عظيمة تستعمل فى تموين الأسطول بالزاد والمتاع وأنواع السلاح ، ويقابلها ما يعرف اليوم بالنقالات .

والعشاريات : واحدها « العشيرى » ، وهو مركب نهرى حربى كان

---

(١) وهو حديدة طويلة محدودة الرأس تقذف بها مراكب العدو

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » ج٣ ص٥٢٣ وابو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج٥ ص١٥١

يجرى بالنيل ، ثم سيروها فى البحر مع الأسطول ، وهناك أيضا « الفلانك » و « القوارب » ، و « الحمالات » ، وكلها تحمل المؤن والزاد لرجال الأسطول وكان عدد الحمالات عشر حمالات[١] .

والشلنديات : ومفردها « شلندى » ، وهى مراكب مسطحة تحمل السلاح والمقاتلة ، لها أهمية الشوانى والحراقات فى الحروب ، وكانت عشر مسطحات[٢] .

وكما كانت السفن الكبيرة مهمة للأسطول ، كذلك كانت السفن الصغيرة كالكشير ، ويحمل من المجاديف من ثلاثين إلى ستة وثلاثين مجدافاً وكالزورق ويحمل من المجاديف من أربعة وعشرين إلى ثلاثين مجدافا لذلك فهى سفن سريعة الجرى ، خفيفة الحركة ، سهلة الانقياد كانت تستعمل كثيرا فى إحراق المراكب الكبيرة تلق فيها النيران وتهرب ، ولتقطع الطرق عليها ، فاذا هوجمت انتهزت الفرصة وهربت فى الأمكنة الضيقة ، فلا تلحقها السفن الكبيرة .

أما الشذاوات والسميريات والأولى مفردها «شذاة» ، والثانية واحدتها « سميرية » ، فهى سفن نهرية تنتقل بها الجنود والمؤن ، وتقام لحراسة أفواه الأنهار ، كما تستعمل لنقل التجارة وتكثر بها المجاذيف .

ولكى تختفى المركب من عين عدوها ، كانت تترك فى ظلام دامس فلا مصباح يوقد ولا نيران تشعل بها .

وكانت التعبئة البحرية تشبه أختها البرية أحيانا ، فقد يصنع أمير البحر من سفنه « قلباً » و « جناحين » و « مقدمة » و « ساقة » ، وقد يضع مراكبه على شكل نصف دائرة ، حتى إذا حاول العدو الاقتراب منها أحاطت به ، وقد يقابل أمير البحر عدوه بمراكبه صفوفا مستقيمة فتنطح مراكبه مراكب العدو « باللجام » قريبا من مؤخرها لتغرقها ، أو يشغل أمير البحر

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٥٢٣

(٢) « « ج ٣ ص ٥٢٣ وابن مماتى « كتاب قوانين الدواوين » ص ١٦

مراكب خصمه ببعض المراكب ثم ينقض عليه مرة واحدة من ورائه وهكذا .

وكان التخاطب فى البحر بالرايات والاشارات ، وكان للأسطول قائد يدبر أمر السلاح والحرب والقتال ويسمى « أمير البحر » أو « أمير الماء » ورئيس عالم بمهاب الريح ومسالك البحار والمقاذيف ، يدبر أمر جريته بالريح أو المجاديف وأمر ارسائه فى مرفئه[١] .

وكان الخليفة الفاطمى يركب الى المقس ويشرف على أسطوله ويقرأ عليه ويعوذه[٢] .

وكانت الأهالى تشاركه فى الاحتفال باستعراض الجيوش الحربية والأساطيل[٣] فيجلس الخليفة فى منظرة المقس وبصحبته الوزير لاستعراض الأسطول وتوديعه ، فيأتى القواد بالمراكب إلى تحت المنظرة وهى مزينة بالأسلحة والمنجنيقات ، مشحونة بالرجال والعدد والآلات ، وتسير بالمجاديف ذهاباً وعوداً كما تفعل فى حالة القتال ، وعندما تقوم ببعض المناورات وتنتهى منها يتقدم إلى الخليفة « المقدم » و « الريس » فيوصيهما ويدعو لها بالسلامة والنصر ، وقد يخلع عليهما ويعطى الخليفة المقدم مائة دينار والريس عشرين ديناراً ، وتنحدر المراكب إلى دمياط ومنها تخرج إلى البحر[٤] كما فعل الخليفة الآمر بأحكام الله عندما أرسل الحملة البحرية لقتال الصليبيين ، وقد انتصر الأسطول المصرى فى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧م) على أسطول الفرنج بصيدا .

وإذا انتهت الموقعة الحربية ووضعت الحرب أوزارها وغنموا مركبا

---

(١) ابن خلدون « المقدمة » ص ٢٢٠ و ٢٢١ والمقريزى « الخطط » ج ٣ ص ٣١٦ والاستاذ عباده « سفن الاسطول المصرى » ص ٥ — ٧

(٢) المقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٩٣ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٤ ص ١٩

(٣) المقريزى « الخطط » ج ٢ ص ١٩٥

(٤) « « ج ٢ ص ٣٦٨ — ٣٦٩

فقد كان يصطفى الخليفة لنفسه السبي الذى فيه من رجال أو نساء أو أطفال وكذلك السلاح ، وما عدا ذلك يكون للغانمين لا يساهمون فيه[١] .

وكان أمير البحر وغيره من موظفى الأسطول يتقاضون مرتبا شهريا يتراوح بين عشرين دينارا وديناريين[٢] وكانوا يبلغون نحو خمسة آلاف مقاتل بين « قواد » و « نواب » و « رؤساء » و « نواتية » وغيرهم ، وكانت اقطاعات الأسطول تعرف باقطاعات الغزاة[٣] ، إذ كان للأسطول ميزانية كبيرة من خراج الاقطاعات المحبوسة عليه .

ح — ديوان الاقطاع : كان أحد الدواوين الملحقة «بديوان الجيش» ، أعد ليختص بشئون الإقطاعات[٤] ، فينظر فيما هو مقطع للأجناد ، ولم يكن « لصاحب ديوان الجيش » أن يغير أحداً من الجند أو شيئاً من اقطاعه إلا بمرسوم[٥] ، وكان رئيسه يتقاضى أربعين ديناراً شهريا[٦] فعندما استولى الخليفة المعز لدين الله على مصر ، ضم إلى أراضى الدولة العامة بمجرد الغزو أملاك الأسرة الإخشيدية ، وبذلك تمكن من أن يقطع بعض الأراضى العامة فى ملكه نفراً من خواصه سواء أكانوا من أصحاب السيوف أم الأقلام وغيرهم من الأتباع ، فأقطعهم إياها أحياناً إقطاع تمليك ، فامتلك المقطع منهم الأرض «رقبة ومنفعة» «تمليكا مخلداً وإنعاما مؤبداً وحقاً مؤكداً يجرى على الأصل والفرع»[٧] وتصدر بذلك وثيقة من ديوان الإنشاء للمقتطعين تسمى «السجل»[٨] فساعد بذلك على انتشار الملكيات الخاصة ، ولا غرو فقد كان

---

(١) القلقشندى « صبح الاعشى » ج ٣ ص ٥٢٣ و ٥٢٤

(٢) « « ص ٥٢٣ المقريزى « السلوك » ج ١ ص ٤٥

(٣) الخطط ج ٢ ص ٣٧٣ والاستاذ عنان « الحاكم » ص ٢١٣

(٤) جمع قطيعة وهى ما يمنحه الإمام من الأرض لبعض المتازين بفعالهم من رعيته

(٥) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٩٢ والمقريزى «الخطط» ج ٢ ص ٢٤٢

(٦) المقريزى «الخطط» ج ٢ص ٢٤٣ — ويساوى حوالى أربعة وعشرين جنيها مصريا

(٧) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ١٣٨

(٨) « « ج ٣ ص ١٣٨ والدكتور البراوى « حالة مصر الاقتصادية فى العصر الفاطمى » ص ٤٧ .

الاسماعيليون وإخوانهم القرامطة شيوعيى الإسلام ، الذين قالوا بإبطال ملكية الأراضى وتوزيعها على المحتاجين إليها مجانا [١] .

كذلك أقطع الخليفة الفاطمى أحياناً أخرى أراضى الدولة العامة لبعض خواصه « إقطاع استغلال » ، وفيها لم يعط الخليفة الأراضى العامة لهم ملكية مطلقة ، بل منحهم فقط « حق الانتفاع » بإيرادها ، فتبقى بيد من أقطعه إياها ويتمتع بغلاتها وإيراداتها المدة المتفق عليها ، فاذا كان الاقطاع لمدى الحياة وتوفى ، ردت الأرض إلى الخليفة ، كذلك ترد بانتهاء المدة المتفق عليها ، أو إذا أخل المقطع بشروط الخليفة ، فهو على ذلك « إقطاع استغلال وهبة انتفاع » [٢] فلم تكن تنتقل ملكية الأراضى العامة إلى المقطع إليه فيتوارثها أبناؤه ، بل كان يحل فى الاقطاع محل الخليفة فى الانتفاع والاستغلال .

وكان الخليفة يقطع خواصه الأرض العامة نفسها ، سواء أكانت فى جهة واحدة أم فى جهات متعددة ، والأولى كمثل إقطاع الخليفة الظافر نصراً بن عباس كل قليوب [٣] والثانية كمثل إقطاع الخليفة العزيز بالله وزيره « يعقوب ابن كلس » بعض أراض بمصر والشام [٤] وبذلك يكون للمقطع إليه « ارتفاع الاقطاع » [٥] .

وكان الخليفة ينعم أحيانا بأراضى الدولة على بعض الناس إنعاما مؤبداً أو مؤقتا كما رأينا ، وأحيانا أخرى يعطيها مؤقتا لمن يدفع فيها مبلغا معينا عند

---

(١) بندلى جوزى وترجمة الأستاذ خليل سكاكينى « تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام » الجزء الأول من تاريخ الحركات الاجتماعية ص ٢٨

(٢) قسم الفقهاء المسلمون الاقطاع إلى تمليك واستغلال. الماوردى « الأحكام السلطانية » ص ١٨٧ وما بعدها .

(٣) أبو المحاسن « النجوم الزاهرة » المخطوط ورقة ٢٩ . وأنظر
O'leary , A short History p. 231

(٤) المقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٦

(٥) العينى « عقد الجمان » القسم ٣ من ج ١٩ ورقة ٤٢٠ وقد بلغ أقطاع ابن كلس من الخليفة العزيز بالله فى كل سنة الف دينار ولما قتل « ابن الدواس » الحاكم بأمر الله بايعاز أخته « سيدة الملك » زادت فى اقطاعه مما در عليه مائة الف دينار

المزايدات ، وكان هذا المبلغ يذكر فى الأمر الصادر باقطاعه جهةما ، وبديهى أنه كان يقل عما كان يجبيه المقطع من أهل الجهة ، ونكيـفه بأنه نوع من تأجير الأراضى العامة إلى طائفة بارزة من العامة والوزراء والأمراء والأجناد وغيرهم[١] ليدفعوا له الخراج عنها فى أوانه بانتظام ليتغذى به بيت المال ، وقد تعطى هذه الأراضى العامة إلى الفلاحين بايجار محدود أو وفق نظام المزارعة الذى هو المقاسمة فى المحصول بنسبة معينة .

وكان للخليفة مصادرة اقطاعات التمليك أو الاستغلال من أيدى أصحابها إذا سخط عليهم ، أو لم يقوموا بالتزاماتهم نحو بيت المال ، أو إذا اغتصبوا مواضع مجاورة لأملاكهم .

ففى وزارة الأفضل بن أمير الجيوش مثلا ، صدرت الأوامر بحل الأقطاعات جميعها عندما جار الأمراء وكبار المقطعين على من حولهم ، وعند عدم تأدية كبار المقطعين المبالغ المطلوبة منهم لبيت المال كاملة[٢] .

وكانت أراضى الدولة العامة تزاد أحيانا عندما تتحول بعض الملكيات الخاصة نتيجة لعدم وجود الوارث الشرعى فى أيام الوباء والقحط ، وبذلك يكثر عدد الاقطاعات ، ومن الغريب أن الأوضاع انقلبت فى أواخر الدولة الفاطمية فأصبح الوزير وهو صاحب السلطان الفعلى ، هو الذى يمنح الاقطاعات حتى لسيده الشرعى الخليفة[٣] ولغيره ، فقد باع طلائع بن رزيك الولايات للامراء وجعل لها أسعاراً[٤] .

على أن الخلفاء الفاطميين لم يتبعوا سياسة منح الاقطاعات للأجناد مقابل الرواتب ، فهذا نظام أدخله الأيوبيون عندما حكموا البلاد واتبعه المماليك من بعدهم .

---

(١) المقريزى « الخطط » ج ١ ص ٨٣ وج ٢ ص ٦

(٢) المقريزى « الخطط ج ١ ص ٨٣

(٣) أبو شامة « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين » (القاهرة ١٢٨٧ هـ) ج ١ ص ١٩٦

(٤) أبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٥ ص ٣١٣

وقدقام المقطعون بمجهود يشكر فى إقطاعاتهم، فأحيوا موات الأرض منها، واستخرجوا معادنها ، وأنشأوا بها بعض الصناعات الزراعية كمعاصر الزيت . وبذلك ازدحمت بالسكان وأصبحت كل قطيعة تعرف باسم من يسكنها كما كان متبعا فى نظام الاقطاع الذى شمل أوروبا فى العصور الوسطى .

(ج) النظام المالى

موارد الدولة :

١ — الخراج : كانت موارد الدولة متعددة وأهمها الخراج [١] وهو ضريبة عقارية حدثنا المقريزى [٢] عنها فقال إنها : « تؤخذ من الأراضى المزروعة حبوبا وعنبا وفاكهة ونخلا ، أو من الفلاحين هدية ، مثل الغنم والدجاج وطُرف الريف ، وهو بهذا لم يأت بها على سبيل الحصر ، فنرى أن نضيف إليها أشياء مثل « العناب وورق الصباغ والأغنام والجريد والرمان والشهد والعسل والنحل والخلايا وعسل القصب والأبقار والدواب والسمن والجبن والصوف والشعر » [٣] .

وكلها هدايا سامحت حكومة الخليفة الآمر الفلاحين فيها سنة ٥١٥ هـ .

وعلى ذلك كانت هذه الضريبة العقارية لا تدفع كلها نقداً ، بل كان بعضها يدفع عينا بالحاصلات وغيرها ، وكان أكثر خراج أراضى أعلى الأرض (الوجه القبلى) يعطى عينا مما يؤخذ من غلة الأرض ، أما أسفلها (الوجه البحرى) فكان أغلب ضرائب أرضه تعطى نقدا ، ومع ذلك فكانت الضريبة العقارية تزيد وتنقص تبعاً لزيادة الغلة أو نقصها ، بحسب الاهتمام

---

(١) الخراج لغة ، حصيلة الضريبة المفروضة على قطعة أرض أو عبد ، واصطلاحا هو الضريبة المفروضة على الأرض على المشهور ، ويكون الجزء الأكبر من ايرادات الدولة ، لذا يمتد هذا التعريف حتى يشمل « مجموع الجباية » واستعمل أكثر مؤرخى العرب كلمة خراج عندما يعنون الايرادات من خراج وجزية وعشور ... الخ ؛ باطلاق مدلول الجزء على الكل ، على أن هذه الكلمة بالمعنى الحقيقى لها ، تدل على مايجبى من الأرض المزروعة .

(٢) « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) ج ١ ص ١٠٣

(٣) المقريزى « الخطط » ج ١ ص ٨٣ و ٨٤

بالتعمير وإصلاح الجسور والخلجان وإنشاء الترع والعمل على صيانتها، إلى غير ذلك، وكثيراً ما انحطت الجباية فى أوقات الاضطراب والفتن، وكانت الضريبة على الحبوب تقدر بالأرادب، وفيما عداها بالنقد.

ويقول الماوردى[1] «إن الخراج كان يؤخذ أولا: عن الأرض التى فتحها المسلمون عنوه إذا عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ووقفها على مصالح المسلمين، بعد أن عوّض المحاربين عن نصيبهم فيها أو استرضاهم، وثانيا: عن الأرض التى أفاء الله بها على المسلمين (أى فتحت بدون قتال)، وملكوها وصالحوا أهلها على أن يتركوهم بخراج معلوم يؤدونه، ومصر قد اختلف فى شأنها أعنوة كان فتحها، أم صلحاً ذا عهد وشرط، لذا نرى أن نبين للقارىء منشأ الخراج فيها، فنقول: إن الأرض التى يستولى عليها المسلمون إما «أرض صلح» طلب أصحابها الأمان والدخول فى رعايا الدولة الإسلامية مقابل مقدار من الأموال يتفق عليه الطرفان، وبذلك تضم بلادهم إلى دار الإسلام ويحترم الإمام شروط الصلح، وإما «أرض عنوة» استولى عليها المسلمون غلبة وقهرا، وفيها انقسم المسلمون فريقين، قال الفريق الأول بتطبيق قاعدة الغنائم عليها أى تخمّس، فيعطى الخمس للدولة لينفق فى مصارفها وتفرق أربعة الأخماس الباقية على من حضروا القتال، وقال الفريق الثانى بوجوب ترك الأرض فى أيدى أصحابها يستثمرونها مع فرض مقدار معين يفرضه الإمام وبذلك تكون فيئا للمسلمين جميعا على كر السنين وتعاقب الدهور، هذان التياران اللذان كانا يتجاذبان هذا الموضوع والنقاش الذى دار بشأنه عقب فتح العراق، والذى انتهى بفوز الفريق الأخير وعلى رأسه الخليفه عمر، الذى رأى وقف الأرض على الصالح العام حتى لا يهمل العرب فرض الجهاد إذا تملكوا الأراضى واشتغلوا بالزراعة، إذ حصل عند فتح مصر أن طلب فريق الفاتحين وعلى رأسهم الزبير بن العوام قسمة البلاد، فأبى عمرو بن العاص ذلك وكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب الذى أمر أن تترك الأرض فى أيدى أصحابها يستغلونها ويدفعون عنها مقداراً معلوماً، كان فى أول الأمر

---

(١) «الاحكام السلطانية» ص ١٣١ و ١٣٢

دينارين ، وبذلك أصبح الأمر قاعدة عامة اتخذها العرب فى كل بلد فتحوه .

ونرى أن رأى الخليفه عمر هذا كان خيراً للعرب عامة ولأهالى البلاد خاصة ، إذ لو قسمت الأرض بين الفاتحين لما استطاع هؤلاء استغلالها بمثل قدرة أصحابها الأصليين الملمين بأصول زراعتها وعمارتها ، وفى هذا يقول أبو يوسف « وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ، لأن هذا لو لم يكن موقوفا على الناس فى الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ، ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ، ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة .... الخ »[1] .

ولقد اختلف الفقهاء عند تقدير الخراج على القواعد الشرعيسة ، لأن المحصول[2] لم يرد فيه نص شرعى ، لذا لجأنا إلى ما اتبع فعلا فى فرض الخراج ، فيحدثنا ابن حوقل الجغرافى[3] بأن الخراج كان ثلاثة دنانير ونصف عن الفدان الواحد (أى ٢١٠ من القروش)[4] فجعلها جوهر سبعة دنانير

---

(١) أبو يوسف « الخراج » ص ١٤ — ١٦ وابن عبد الحكم « فتوح مصر » ص ٨٤ — ٨٨

(٢) القمح هو أهم محاصيل مصر الزراعية الشتوية ، وهو الغـذاء الأساسى لأهل البلاد ويزرع فى أنحاء البلاد بالدلتا وبالوجه القبلى ، ومحصوله نحو مليون أردب سنويا ، والشعير ويزرع أيضا فى جميع أنحاء البلاد ، والفول وقد يتحصل من فدانه عشرون أردبا ، والحمص من أربعة أرادب إلى عشرة ، والعدس ويتحصل من فدانه عشرون أردبا ، والـكتان ومنه يستخرج الزيت ، والقرط (البرسيم) وهو غذاء الدواب ، والجلبـان وهو غذاء الجمال ، والبصل ويعطى الفدان منه عشرة أرادب ، والثوم والترمس ويصـل فدانه إلى عشرين أردبا وغيرها ، أما أهم محاصيلها الصيفية فهى القصب ، وتروى أرضه مرة كل سبعة أيام ، واللوبيا ، والسمسم ويحتاج لمجهود كبير ونفقات كثيرة ، يتراوح محصوله ما بين أربعة وستة أرادب والقطن ويصل محصول فدانه ثمانية قناطير ، والقلقاس ويعطى فدانه عشرة قناطير ، والباذنجان والـكرنب ، والنيلة ، واللفت ، وغيرها ، ومن الفاكهة التين ، والموز ، والتفاح ، والرمان والخوخ ، والمشمش ، والتمر ، والبطيخ ، والنارنج ، والسفرجل ، والكمثرى ، والتوت وغيرها ، ومن الزهور : النرجس ، والريحان ، والياسمين ، وغيرها . ابن حوقل « المسالك والممالك » ص ٨٩ والمقدسى « أحسن التقاسيم » ص ١٩٧ و ٣٠١ و ٣٠٢ والمقريزى « الخطط » ج ١ ص ٤٦٥ و ج ٢ ص ٤٤٨ — ٤٥١ والأيوبى « تاريخ مصر الإسلامية » ص ١٥٠ والأمير عمر طوسون « مالية مصر » ص ٢٣١ و ٢٣٢

(٣) ابن حوقل « المسالك والممالك » ص ١٠٧ و ١٠٨ والأمير عمـر طوسون « مالية مصر » ص ٢٢٣

(٤) يساوى الدينار ٦٠ قرشا تقريبا ، وفرض جوهر على كل فدان حنطة ثلاثة أرادب .

(أى ٤٢٠ قرشا) ، ويحدثنا المقريزى [١] بأن قطيعة (ضريبة) الفدان الواحد أيام الخليفة الحافظ كانت أربعة دنانير (أى ٣٤٠ قرشا) ، لذلك كانت طاقة الأرض على تحمل الضريبة هى التى تحدد الخراج ، وهذه الطاقة تتغير بتغير عوامل ثلاثة : طبيعة الأرض ، ونوع المحصول ، وطريقة الرى ، حتى تصان مصلحة كل من المكلفين بالأداء والمنتفعين منه .

وإذا ما فرض الخراج على أساس المبادىء سالفة الذكر فانه يقرر تبعاً لأجزل الطرائق عائدة ، فيفرض ، إما على مساحة الأرض إجمالا ، وإما على الجزء المزروع من الأرض فحسب ، أو على المحصول ، وتتخذ «السنة القمرية العربية» لحساب الخراج إذا فرض على الأرض برمتها ، وهنا ، يحملون الخراج مرتين الاولى فى غرة رجب والثانية فى غرة المحرم غالبا [٢] وإذا فرض على الجزء المزروع اتخذت «السنة الشمسية القبطية» فى الحساب إذ يقول المقريزى «وكانت العادة إذا مضى من السنة الخراجية أربعة أشهر ندب من الجند من فيه حماسة وشدة ، ومن الكتاب العدول ، وكاتب نصرانى فيخرجون إلى سائر الاعمال لاستخراج ثلث الخراج «على ما تشهد به المكلفات» [٣] فى «كيهك» يجبون ثلث الخراج وهو القسط الأول ، ثم يطالبون المكلفين بالاداء بالقسط الثانى فى «برمهات» ، حتى إذا حل «برموده» يكونون قد استخرجوا من الناس نصف الخراج ، وقيدوا ذلك فى سجلاتهم ، وإذا حل شهر «أبيب» يكون الناس قد أدوا ثلاثة أرباع الخراج ، ولا يأتى «مسرى» إلا وتكون الحكومة الفاطمية قد استخرجت خراج الأراضى الزراعية [٤] .

---

(١) « الخطط » جـ ١ ص ٢٤٩

(٢) المقريزى « إغاثة الأمة بكشف الغمة » ص ٢٣

(٣) المقريزى « الخطط » جـ ٢ ص ٢٤٩

(٤) الدكتور البراوى « حالة مصر الاقتصادية فى العصر الفاطمى » ص ٢٨٧ نقلا عن المقريزى « الخطط » (بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ١ ص ٨٦ و ٢٧٢

أما إذ فرض على المحصول ، فلا يستحق الخراج إلا منذ نضجه وتهيئته للاستهلاك ، وبذلك تمشى نظام هذه الضريبة العقارية مع حال الزراع وأوقات الغرس والحصاد ، وسارت السنتان الهلالية والخراجية مع اختلافهما فى الطول جنباً إلى جنب[١] ، ويستحق الخراج مرة كل عام ، حتى ولو كانت الأرض تنتج أكثر من محصول فى السنة ، ويسقط الخراج إذا ما هلك جميع المحصول نتيجة لنوازل طبيعية لا يمكن تلافيها ، من برد قارص أو حر لافح .

ولقد تركت الدولة الفاطمية الملكية العقارية بأيدى أصحابها ملكية تامة مطلقة رقبة ومنفعة ، ولا غرو فقد كتب جوهر للمصريين عهداً جاء فيه : « لكم علىّ أمان الله التام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام ، فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم »[٢] ، فاحتفظ لمولاه الخليفة المعز لدين الله بالحالة الراهنة statusquo ، وللمصريين باحترام مبدأ الملكية الخاصة فى أموالهم المنقولة والثابتة ، نظير الطاعة ودفع الضرائب ، وقد عثرنا على سندفى ووقف سنة ٤٠٢ هـ يؤيد ملكية الأفراد فى العصر الفاطمى للأرض ملكية تامة ذاتا ومنفعة ، حيث وردت العبارة الآتية « بسم الله ، هذا ما أوقف الفقيه عبد الله بن محمد بوقفيته هذه الضيعة بحدودها وحقوقها ... بناءها ومعابرها ... وشجرها . . . وكل ماهو حق فيها ، وكل حق فيها خارج منها ، حبساً ثابتاً مادامت الأرض ومن عليها » ، كما عثرنا على سند آخر يثبت أن هناك أملاكا عامة وأخرى خاصة ، وأن الأولى وهى من أموال الدولة كانت تكتسب بوضع اليد مدة من الزمن[٣] .

---

(١) كل ٣٢ سنة شمسية تساوى ٣٣ سنة هلالية ، وبذلك تنقص السنة القمرية عن الشمسية سنة تقريبا كل ٣٣ سنة . ابن مماتى « كتاب قوانين الدواوين » ص ٢٧

(٢) المقريزى « اتعاظ الحنفا » (طبعة بيت المقدس ١٩٠٨ م) ص ٦٧ — ٧٠

(٣) الدكتور البراوى « حالة مصر الاقتصادية فى العصر الفاطمى » ص ٤٤ و ٤٥ نقلا عن المقريزى « الخطط » ج ١ ص ٨٤ و ٨٥

فكان للمالك فى المصر الفاطمى حق الاستعمال Jus Utendi وحق الانتفاع Jus fruend وحق التصرف Jus abutendi ، وهى الحقوق الشاملة لحق الملكية التامة المطلقة .

أما مساحة الأرض الزراعية بمصر [١] فقد اختلفت فيها التقديرات تبعاً لاختلاف الآراء : فصاحبا النظم الإسلامية [٢] يقدرانها فى عهد المعز لدين الله بنحو ٢٨٥٠٧١٤ فداناً ، والمرحوم الأمير عمر طوسون [٣] يقدرها بنحو ٦٤٦٠٧٤٥ فداناً ، مع أنها كانت أيام العرب فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين تقرب من الستة ملايين من الأفدنة ، وأيام الاخشيد بنحو ٥٠٠٠٠٠٠ فداناً [٤]، وهذه الأرض تستثمر كلها فى الزراعة إذا كان الفيضان عادياً والأمن مستتباً ، وتنقص تبعاً لانخفاض النيل أو لوجود الفوضى والاضطراب ، واتفق أهل مصر على أن يمسحوا أرضهم بقصبة تعرف بالحاكمية ، طولها خمسة أذرع بالنجارى ، فتى بلغ الممسوح من الأرض

---

(١) مسحت الأراضى المصرية إلى آخر الدولة الفاطمية أربع مرات : الأولى حوالى سنة ٩٦ هـ (٧١٥ م) على يد الوليد بن رفاعة ، عامل الخراج على مصر ، خرج ومعه الكتاب والاعوان بالصعيد لهذا الغرض ستة أشهر حتى بلغ اسوان ، وثلاثة أشهر بأسفل الأرض (الدلتا) ، فأحصوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية ، ومن الرجال الذين يدفعون الجزية خمسة آلاف ألف رجل .

الثانية : أيام عبيد الله بن الحبحاب ، فى خلافة هشام بن عبد الملك الأموى سنة ١١٠ هـ (٧٢٩ م) حيث خرج بنفسه فمسح أرض مصر ، فكان غامر أرضها وعامرها مائة ألف ألف فدان والفدان أربعمائة قصبة ، والباقى استبحر وتلف ، وما يصلح للزراعة ثلاثين ألف ألف فدان ، وهو مبالغ فيه . والثالثة : أيام احمد بن المدبر فى خلافة المعتز بالله العباسى حول سنة ٢٥٣ هـ (٨٦٧ م) فكان مايصلح للزراعة أربعة وعشرين ألف ألف فدان ، والباقى مستبحر وبور من قلة الزراعة . والرابعة : أيام الأفضل بن بدر الجمالى ، فى خلافة الخليفة الآمر سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) . الكندى « فضائل مصر » المخطوط ورقة ١٣ والمقريزى « الخطط » ج ١ ص ١١٨ و ١٢٠ و ١٥٩ و ١٦١ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ١ ص ٤٧

(٢) الدكتوران حسن ابراهيم وعلى ابراهيم « النظم الاسلامية » ص ٣١٦

(٣) المرحوم الأمير عمر طوسون « مالية مصر » ص ٢٢٣

(٤) الدكتوران حسن وعلى « النظم الاسلامية » ص ٣٠٨ و ٣١٧

أربعمائة قصبة سموه فدانا (١) ، وتزيد المسالة صعوبة إذا أردنا ان نحدد عدد السكان ، إذ نجد تقديرات مختلفة ، فبعضهم يقدره بخمسة أو ستة ملايين نسمة (٢)، تهبط للفتن والثورات والمجاعات والأوبئة ، وأنه عندما أريد إحصاء سكان مصر والقاهرة شارعاً شارعاً وحارة حارة ، أمر الوزير البطائحى « والى القاهرة » ، الذى كان يقوم باحصاء الناس ، بعدم الانتقال من منزل لمنزل حتى يتم الاحصاء على أحسن وجه ، فكان بذلك ابن البطائحى « أول من عمل على إحصاء سكان البلاد وتدوينها فى قوائم خاصة » (٣)

ومن هذا الاضطراب الناشىء من عدم تحديد الأراضى الزراعية بمصر فى هذا العصر الفاطمى اختلفت تقديرات الخراج (٤) . أتى جوهر مصر والغلاء بها شديد (٥) ، فكان أول ما عمله تخفيف وطأة القحط والمجاعة بتنزيل السعر ، والعمل على وجود الأقوات ومنع احتكار الحبوب وكان عامل الخراج بمصر عند دخوله « على بن يحيى بن العرمرم » السنى المذهب ، فأقره جوهر فى منصبه شهراً ، ثم أشرك معه « رجاء بن صولاب» (٦)، وأكبر الظن أنه من المغاربة ، وفى المحرم من سنة ٣٦٣ﻫ (٩٧٣م)

(١) ابن مماتى « كتاب قوانين الدواوين» ص ٣٢

(٢) الدكتور البراوى « حالة مصر الاقتصادية فى العصر الفاطمى » ص٢٨ ويقدره صاحبا « النظم » ص ٣٠٦ عند الفتح العربى بما لا يزيد عن مليونى نسمة .

(٣) ابن ميسر « أخبار مصر » ج ١ ص ٦٥ و ٦٦ وابن منجب « الأشارة إلى من نال الوزارة » ص ١١

(٤) كان خراج مصر فى السنة الثانية لولاية عمرو بن العاص ١٠ مليون دينار ، وفى عهد خلفه عبد الله بن سعد بن أبى السرح ١٢ مليون دينار أيام الخليفة عثمان ، أما فى عهد معاوية فكان ٥ مليون دينار ، ثم نقص إلى ٤ مليون دينار أيام الخليفة العباسى هارون الرشيد ، ثم وقف بعد ذلك على ٣ مليون دينار ، وبلغ خراج مصر أيام ابن طولون ٤,٣٠٠,٠٠٠ دينار سنويا ، ونقص هذا الخراج فى عهد خمارويه للمصروفات الكثيرة التى صرفها ولاسيا على جهاز ابنته المعروفة بقطر الندى ، وبلغ خراج مصر أيام كافور الإخشيدى ٤ مليون دينار سنويا ، اليعقوبى « كتاب البلدان » ص٣٣٩ وابن دقاق « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » (القاهرة ١٣٠٩ ﻫ) ج ٤ ص ٦٧ والمقريزى « الخطط » (بولاق ١٢٧٠ ﻫ) ج ١ ص ٣١٩

(٥) العينى « عقد الجمان » القسم الثانى من ج ١٩ ورقة ٢٢١

(٦) المقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٧٨

صرفهما المعز من جباية الخراج وجعلها نصفين أحدهما فى يد « على بن محمد ابن طباطبا » و « عبد الله بن عطا الله » ، وثانيهما فى يد « الحسن بن عبد الله » و « الحسين بن احمد الروذبارى »[١] ووضعهم جميعاً تحت إشراف يعقوب بن يوسف بن كلس وعسلوج بن الحسن .

أما الخراج فقد جباه جوهر عند قدومه ٢٠٠و١٠٠ دينار فى سنة ٣٥٨ هـ فى رواية[٢] ، و ٣٠٠و٤٠٠ و ٣ دينار ونيفاً فى رواية أخرى[٣] ، ولما كان الدينار[٤] يساوى ١٥ فرنكا و ٨٠ سنتيما بتقدير العلامة صمويل برنارد فى كتابه وصف مصر ، وبذلك يساوى ٦٠٩ مليما ،ويساوى ٥٩١ مليما بتقدير الذهبى وعلى مبارك باشا ، لذلك نرى مع المرحوم الأمير عمر طوسون أن نأخذ بالوسط بين التقديرين ، وعلى ذلك نقدر الدينار بمبلغ ٦٠٠ مليما أى ٦٠ قرشا صاغا .

إذا علم ذلك ، فقد تبين الفرق الشاسع بين الروايتين فيما جباه جوهر إذ الأولى تجعله ٧٢٠و٠٠٠ ج . م ، فى حين تجعله الثانية ٢٠٤٠و٠٠٠ ج . م

لذلك نرى التقدير الأول هو التقدير الصحيح إذا استعرضنا حالة مصر إذ ذاك من تعذر وجود الأقوات لكثرة الاضطرابات وتعدد الفتن وكثرة الموتى ، خصوصا بعد موت كافور[٥] أما التقدير الثانى فهو لا يصح إلا بعد أن يستتب الأمن تماماً لجوهر ، إذ الفاتح يجبى عادة فى أول السنة

---

(١) ابن ميسر « أخبار مصر » ج ٢ ص٤٥ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص٩٥ و ٩٦

(٢) المرحوم الأمير عمر طوسون « كتاب مالية مصر من عصر الفراعنة » ص ٢٢٢ نقلا عن « كتاب نشق الأزهار » لابن اياس ج ١ ص ٣٧

(٣) المقريزى « الخطط » ج ١ ص ١٦٠

(٤) الدينار وحدة العملة الذهبية الإسلامية القديمة وهو مشتق من كلمة **Denarius** اللاتينية الدالة على العملة الفضية الرئيسية بروما. الدكتور زكى محمد حسن « كنوز الفاطميين » ص٤٢

(٥) المقريزى « الخطط » ج ١ ص ١٥٩ و « اغاثة الأمة بكشف الغمة » ص ١٣

أقل مما يجبيه فى السنين التالية ، خصوصا وأن الخراج أيام الاخشيد كان ٢ مليون دينار [١] .

وفى هذا يقول ابن حوقل [٢] : « ومما لا شك فيه أنها (أى مصر) جبت سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠م) على يد أبى الحسن جوهر عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله ثلاثة آلاف ألف دينار ومائتى ألف دينار » (٣٫٢٠٠٫٠٠٠ دينار = ١٫٩٢٠٫٠٠٠ ج . م) .

ويقول أبو المحاسن : « ثم جباه « أى الخراج » جوهر خادم المعز العبيدى ثلاثة آلاف ألف دينار ومائتى ألف دينار فى سنة ستين وثلثمائة (٩٧١م) » [٣] .

ولقد جبى المعز لدين الله سنة ٣٦٢ هـ ، خراج مصر ٣٫٤٠٠٫٠٠٠ [٤] ديناراً ، وجبى بعد سنة ٣٦٢ هـ لقد على يد وزيره يعقوب بن كلس الخراج ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار (٢,٤٠٠,٠٠٠ ج . م) [٥] ، ثم نقص الخراج أيام ابنه العزيز بالله إلى ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار ، ثم زاد فى عهد الحاكم بأمر الله إلى ٣٫٤٠٠٫٠٠٠ دينار ، ثم نقص أيام المستنصر إلى ٣٫١٠٠٫٠٠٠ دينار أولا (أى ١٫٨٦٠٫٠٠٠ ج . م) ، ثم إلى ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ دينار ثانيا (أى ١٫٦٨٠٫٠٠٠ ج . م) .

وكذلك ارتفع إيراد الخراج أيام المستعلى بالله فوصل إلى ٥٫٥٠٠٫٠٠٠ دينار ، (أى ٣٫٣٠٠٫٠٠٠ ج م) [٦] . ويقول المقريزى فى خططه [٧] « ثم

---

(١) المقريزى « الخطط » ج ١ ص ١٦٠

(٢) ابن حوقل « المسالك والممالك » ص ١٠٧

(٣) « النجوم الزاهرة » ج ١ ص ٤٦

(٤) المرحوم الأمير عمر طوسون « مالية مصر » ص ٦١

(٥) Abu Saleh: Churches Monesteries of Egypt p 82

(٦) المرحوم الأمير عمر طوسون « مالية مصر » ص ٦١ نقلا عن أبى صالح الأرمنى فى تاريخه « كنائس وأديرة مصر » ص ٣٠ وابن اياس فى كتابه « نشق الأزهار » ص ٣٧ و ٣٨ والمقريزى « الخطط » ج ١ ص ٩٩ و ١٠٠ وابن ميسر « أخبار مصر » ج ٢ ص ٥٩

(٧) ج ١ ص ١٠٠

تقاصرت (أى جباية مصر) إلى أن جباها القاضى الموفق أبو الكرم بن معصوم العاصمى التنيسى عينا خالصاً إلى بيت المال بعد المؤن والكلف ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار (١٠٠٠و٢٠٠و١٠٠٠ دينار = ٧٢٠و٠٠٠ ج.م) إلى آخر سنة أربعين وخمسمائة (١١٤٥م) أيام الخليفة الحافظ لدين الله ثم بعده لم يجبها هذه الجباية أحد حتى انقرضت الدولة الفاطمية، (١)

هذا الترمومتر المتقلب فى إيراد الخراج من وقت لآخر صعوداً وهبوطا فى أيام الدولة الفاطمية، يرجع هبوطه فى اعتقادنا إما إلى حدوث اضطرابات فى الأمن ، أو لوجود نقص فى النيل وقحط ووباء ، أو لوعد من أحد الخلفاء الفاطميين للمصريين بالتخفيف عنهم فى جباية الخراج لاستمالتهم إليه ، وأما بالنسبة للصعود فيرجع إما إلى رفع الضريبة العقارية على الفدان كما أخبرنا ابن حوقل أن جوهر فى سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٩م) رفع الضريبة العقارية على الفدان الواحد من ٣ ١/٢ إلى ٧ دنانير ، وإما لحادث عرضى ، كأخذ حكومة المعز لدين الله الدينار الراضى من الأهالى بثلاثة أرباع قيمته لتصهره إلى عملتها أو لمطالبة الحكومة الأهالى بالبواقى كما فعل ابن كلس وعسلوج .

وكان خراج الوجه البحرى يزيد كثيراً عن خراج الوجه القبلى ، لأن جملة النواحى والكفور بالأول كانت تزيد كثيراً على الثانى ، وكان ٨٠ ٪ من الخراج يأتى من المحاصيل الشتوية (٢)

ولقد أمدنا أبو صالح الأرمنى بهذه النواحى والكفور (٣) ولكنه بكل أسف أغفل مساحة كل كورة ، فتعذر علينا بذلك تقدير الجزء المنزرع

أما نظام الجباية (٤) : فقد اتبع الخلفاء الفاطميون فى جباية الضرائب العقارية على الأراضى الزراعية نظاما خاصا يسمى « نظام الالتزام » ، أو

---

(١) راجع فى خراج مصر فى عصورها المختلفة : Evett's Index to Abu Salih's : churches & monasteries of Egypt.

(٢) Dr. Forid E., The Introduction of Perennal Irrigation in Egypt. pp 44—47

(٣) « كنائس وأديرة مصر » ص ١٠ وما بعدها

(٤) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) ج ١ ص ٨٢

« تقبيل الأرض » ، وخلاصته أن يجعل شخص من الأشخاص الداخلين في المزايدة العلنية قبيلا (أى كفيلا) بتحصيل الضرائب فى قرية أو عدة قرى أو كور جرى المزاد العلنى عنها فى جامع عمرو ، أو فى جامع ابن طولون .

وكانت العادة أن ينادى فى المسجد الجامع كل أربع سنوات على كل أرض تريد الحكومة أخذ خراجها بطريق التضمين أو الالتزام أمام متولى خراج مصر وكتابه ، تضعها الحكومة أمام الناس من مختلف الطبقات ليتزايدوا فيها ، فاذا رسا العطاء على رجل منهم سمى « الضامن » أو « الملتزم » ، وقام الكتبة بكتابة اسمه والمبلغ الذى رسا عليه والأرض المأخوذة قباله ؛ وقام هو بتحصيل خراجها لنفسه ، فيتولى هو وأهله ونوابه زراعتها وترميم جسورها وتطهير ترعها وسائر وجوه أعمالها [١] ، التى تكفل له توريد المال المتفق عليه إلى خزينة الحكومة فى ميعاده ، فيحدثنا المقريزى [٢] مثلا أنه فى عهد الخليفة المعز لدين الله ضمن « على بن عمر بن العداس » كورة بوصير ، كما ضمن المعلم زوين مدينة القاهرة فى عهد الخليفة الظاهر [٣] ، وأنه فى زمن الخليفة المعز لدين الله تأخر مبلغ من الخراج على الضمان والمتقبلين وكان يسمى « البواقى » [٤] ، فشدد كل من « يعقوب بن كلس » و « عسلوج بن الحسن » فى طلبه [٥] ، وهذا يدل على أن الملتزم قد يتعذر عليه أحياناً لعذر قهرى كانخفاض النيل مثلا أن يعنى بالتزامه ، فعندذلك يجبر على الوفاء . وكما كان نظام الجباية معروفاً فى الأراضى العقارية العامة المصرية ، كذلك عرف الالتزام فى

---

(١) خصمت مصاريف التعمير هذه من الخراج لتعمير الأرض وزيادة غلاتها .

(٢) المقريزى « الخطط » (بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ٢ ص ٣١ . ويقول ابن منجب إنه ضمن مال الدولة ونفقاتها ، وحوسب على الدخل والخرج ، ولما اتضع المال أمر الخليفة العزيز بالله بمطالبته عما نقص . ابن منجب « الأشارة » ص ٢٤

(٣) Adu Saleh ' The Churches& Monasteties of Egypt p. 126

(٤) المقريزى « الخطط » (بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ١ ص ٨٢

(٥) المقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٩٧ و ٩٨

كثير من الايرادات ، فى النصف من شعبان سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) ضمن محمد بن القاضى أبى الطاهر محمد بن احمد ، الأحباس بمليون ونصف درهم[١] كذلك كان النطرون مضمونا إلى آخر سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) بمبلغ محدود[٢] .

ولقد أطال المامون البطائحى مدة الأربع سنوات السالفة الذكر فجعلها ثلاثين سنة ، فمهد بذلك لنظام الإقطاعات العسكرية التى ظهرت فى عصر الأيوبيين . وقد أفاد « التقبّل » الدولة ، بحصولها على المال مقدماً ، أو فى ميعاده إذا كان مقسطا ، وأفاد المتقبّل أو الملتزم بما كان يعود عليه بعد ذلك غالباً من زيادة بين ما دفعه أو تعهد بدفعه وما حصّله فعلا .

ولكن كانت لنظام جباية الخراج بواسطة الملتز[illegible] ه [illegible] لجسيمة إذ النفس البشريّة ميّالة لابتزاز ما يمكن ا[illegible] من الاموال ، فكان الملتزم يظلم الرعية ويشتط فى أخذ المال واستعمال وسائل التعذيب ، إلا أن كثيراً من الخلفاء الفاطميين كان من سياستهم العناية بأمر الفلاح وعدم إرهاقه ، ومعاملته معاملة تنطوى على الرعاية والعطف ، فخفف ذلك كثيراً من استعمال الملتزمين للوسائل القاسية فى تحصيل الخراج كالضرب المتلف وغيره ، وإن كانت عادة الخلفاء الفاطميين أن يصحب موظفى الجباية « شاد » ، ليجر المطالب أو يسحبه على وجهه ويضربه بالمقارع ، ولعله اختير أيام الخليفة الحافظ لدين الله من الغلاظ حتى لا يفارق المطالب إلا بعد أن يدفع ما عليه أو يبيع له شيئاً يفى بالمبلغ المطلوب منه .[٣]

ولم يترك بعض الخلفاء الفاطميين تقدير الضرائب للمتقبلين والمقطعين بل حددوها بأنفسهم ، حتى يحموا رعيتهم من التعسف ، وكانوا يراجعونها

---

(١) المقريزى « الخطط » (طبعه بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ٢ ص ٢٩٥

(٢) « « جـ ١ ص ١١٠ والدكتور البراوى « حالة مصر الاقتصادية فى العصر الفاطمى » ص ٢٨١

(٣) المقريزى « الخطط » جـ ٢ ص ٢٤٩

من وقت لآخر [١] ناظرين فى كل شكوى تصل إليهم عن الجباية .

ديوان الخراج [٢] : كان أحد الدواوين التى وجدت فى عهد الفاطميين وعلى رأسه موظف كبير لفرض الضرائب على الأرض والاشراف على جبايتها وأوجه انفاقها ، ويساعده فى ذلك العمال والجباة والكتبة وغيرهم وكان صاحبه يضع الترتيب للنداء على الضياع وغيرها ، وللقبالات ولجباية الأموال ، ويأمر بروك الأرض المصرية ، ويشرف على طريقة ربط الأموال عليها ، ويجلس بجامع ابن طولون ، ويحضر الناس للقبالات لديه ، فكل من اختار زراعة أرض وقبلها أشرف على توريد ما عليه لبيت المال فى أوانه وربط الضرائب على قاعدة المحررات ، وقد نقل الديوان من جامع ابن طولون إلى القصر بالقاهرة .

وقد نقل هذا الديوان من القبطية إلى العربية فى عهد عبد الله بن عبد الملك بن مروان والى مصر من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك وذلك سنة ٨٧ هـ ، ومع ذلك كان يسير الديوان هو وسائر دواوين الحكومة بالتاريخ القبطى حتى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) ، حيث أمر الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى باستبدال التاريخ القبطى بالتاريخ الهجرى ، فدل بذلك على أنه كان أكثر انقيادا إلى المؤثرات الدينية منه إلى مؤثرات العقل والمصلحة ، إذ من المسلم به أن السنة القمرية سنة لا يصح مطلقاً إتباعها فى الحسابات الزراعية الخراجية ، ولا فى الحسابات المصلحية السنوية ، لعدم تكامل الفصول الأربعة فيها ، ولانتقالها مع توالى السنين من شهر إلى شهر حتى تدور على الأشهر جميعها [٣] .

وكان على صاحب ديوان الخراج أن يعمل ارتفاع ما يجرى فى ديوانه وما عليه من النفقات ، أى يعمل ماندعوه اليوم بميزانية ديوانه ، وكان لصاحبه

---

(١) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ١ ص ٨٢

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٤٩٦ والمقريزى « الخطط » جـ ١ ص ١٠٣

(٣) المرحوم الياس الأيوبى « الفاطميون » جـ ٢ ص ١٤٨ و ١٤٩

أن يخفض الضرائب إذا قل المحصول لسبب من الأسباب ، ويراقب سير الجباية

٢ — **الجوالى** [١] (الجزية) : وكانت من موارد الدولة فى أيام الفاطميين وهى ضريبة رءوس أهل الذمة من اليهود والنصارى [٢] المقررة على رقابهم فى كل سنة ، وتدفع من المشتغلين بالتجارة والصناعة فى المدن ، أما فى الريف فتدخل فى الخراج ، وكانت تجرى بحسب السنة الهلالية [٣] ولا تجبى إلا مرة واحدة فى السنة من اليهود والنصارى الذين لم يسلموا ، وتقدر على حسب أحوال الناس ويسارهم عن كل شخص قادر [٤] ، فكانت تؤخذ من أغنيائهم ومتوسطى الحال منهم وفقرائهم ممن يكسبون [٥] ، أما فقراؤهم ممن يتصدق عليهم ولا قدرة لهم على العمل من ذوى العاهات فلا تؤخذ منهم الجزية ، كما لا تؤخذ من المرأة أو الصبى أو المجنون أو العبد أو الراهب ، وكان يشترط فيمن تجب عليه الجزية الذكورة والبلوغ والحرية [٦] وهى تسقط بالإسلام وهى وإن ثبتت بنص القرآن الكريم لقوله تعالى « قاتلوا الذين لا يؤمنون

---

(١) الجالية ما يفرضه العدو على بلد منهزم من المال والمحاصيل ، وهى أيضا بمعنى أهل الذمة ، سموا بذلك لأن الخليفة عمر بن الخطاب أجلاهم عن شبه جزيرة العرب ، ثم أطلق هذا الاسم على كل من فرضت عليه الجزية من أهل الذمة والمجوس وإن لم يكن صاحبها قد جلا عن وطنه ، ويقال استعمل فلان على الجالية إذ ولى أخذ الجزية منهم ، والعامة تطلق الجالية على نفس الجزية وجمعها جوال . أبو يوسف « الخراج » ص ٢ وانظر
Dozy R , Supplement aux dictionnaires Arabes

(٢) يقول المقدسى إنه فى القرن الرابع الهجرى كان بالقاهرة سبعة آلاف يهودى ، وبالأسكندرية ثلاثة آلاف يهودى وبمدن الدلتا نحو ثلاثة آلاف يهودى ، وبمدن الصعيد التجارية نحو ستمائة يهودى . أما القبط بأعلى وأسفل مصر وقت الفتح الاسلامى فكانوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس وفريضتهم يومئذ اثنى عشر ألف ألف دينار سنويا وقيل غير ذلك . المقريزى الخطط (المطبعة الأميرية) جـ١ ص ٢٨٨ وسعادة الدكتور محمد كامل مرسى باشا « الملكية العقارية » ص ٥٨

(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٤٦٢

(٤) « « جـ ٣ ص ٤٥٨ و ٤٥٩

(٥) الماوردى « الأحكام السلطانية » ص ١٣٩

(٦) ابن النعمان « دعائم الإسلام » ورقة ٤٢ والماوردى « الأحكام السلطانية » (مطبعة السعادة ١٩٠٩ م) ص ١٢٨ وابن مماتى « كتاب قوانين الدواوين » ص ١٣

وقدر أبو يوسف الجزية ثلاث فئات : ٤٨ درهما على الموسرين و ٢٤ درهما على المتوسطين و ١٢ درهما على الطبقة السفلى فى كل عام . أبو يوسف « الخراج » ص ١٤٥

بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتُوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »[١] فقد فرضت على الذميين فى مقابل فرض الزكاة على المسلمين ، ووجبت نظير قيام المسلمين بالدفاع عنهم وحمايتهم [٢] لأنهم لم يكونوا يدخلون مع المسلمين فى حروبهم ، والجزية ليست من مستحدثات الإسلام ، وإنما كانت معروفة من قديم الأزل عند اليونان والفرس والرومان [٣] فكانوا يضربونها على الأمم التى خضعت لسلطانهم ، وكانت سبعة أمثال الجزية التى وضعها المسلمون ويفرقها عن الخراج أنها موضوعة على الرؤوس وأما الخراج فموضوع على رقاب الأرض ، ولقد حثت الأحاديث النبوية على الرفق والإنصاف فى جبايتها من الذميين ، فلا يضرب أحد منهم لحمله على دفع الجزية أو يعذب ، بل تجبى منهم بروح العدل والرفق والإنصاف ، على أن من وضع عن ذمى جزية أو جبها الله عليه ، أو شفع له فى وضعها ، فقد خان الله ورسوله وجميع المؤمنين [٤]

ونراه إسرافاً زعم من يزعم أن الجزية وضعت على أهل الذمة إذلالا واهانة لهم ، لأن الشريعة الإسلامية ليست بأول واضع لها ، ولأنها إنما وضعت لتعطى للمقاتلة والجند الذين نصبوا أنفسهم لحماية البلاد واستتباب وسائل الأمن والسلام للكافة ، ولأن من كان من أفراد الملة يدافع عن نفسه وماله فليس عليه شيء [٥]. فأسباب الضريبة فى دولة القانون كانت إذن المزايا التى يتمتع

---

(١) الآية ٢٩ من سورة التوبه رقم ٩

(٢) أبو يوسف « الخراج » ص ٦٩ — ٧٢ والماوردى « الأحكام السلطانية » ص١٣٩ والقرطبي « الجامع لأحكام القرآن » ج٢ ص ١٠٩ والمرحوم محمد الخضرى بك « تاريخ الأمم الإسلامية » ص ١٦٨ .

(٣) فقد فرض اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد الجزية على سكان سواحل آسيا الصغرى نظير حمايتهم من الفينيقيين ، وكذلك وضع الرومان والفرس الجزية على جزء من رعاياهم .

(٤) ابن النعمان « دعائم الإسلام » ورقة ٢٤٥

(٥) البلاذرى « فتوح البلدان » ص ١٣٢ والنعمان « الجزية » ص ١٤ — ١٧

بها الفرد كنتائج للاجتماع ، وكان أساسها قائماً على قواعد الرضا العام ،وكانت متناسبة مع أهلية كل فرد للدفع ، فأعفى منهـــا من هم فى حاجة إلى العون والمساعدة . واستخدمت فى وجوه المصلحة العامة ، وقد بلغت الجوالى فى الدولة الأيوبية (سنة ٥٨٧ هـ) ١٣٠,٠٠٠ دينار [١] .

ديوانه الجوالى [٢] : اختص هذا الديوان بجباية الضرائب المفروضة على أهل الذمة ، وكان على رأسه موظف كبير عدل تعرض عليه الأعمال المالية المتعلقة بالجزية ، يعاونه بعض الموظفين الآخرين لضبط إيرادات الجزية التى يدفعها أهل الكتاب ، فاذا أسلم الذمى أو مات أثناء الحول ، ألزمه من يتولى ديوان الجوالى بقدر ما مضى من السنة قبل إسلامه أو وفاته ، وكان هذا الديوان ملحقا بديوان المواريث الحشرية ، وبذلك سمى « ديوان الجوالى والمواريث الحشرية »

٣ — **الزكاة** : يقول القرطبي فى أحكامه « الزكاة مأخوذة من زكا الشىء إذا نما وزاد ، يقال زكا الزرع والمال يزكو ، إذا كثر وزاد ، ورجل زكى أى زائد الخير ، وسمى الإخراج من المال زكاة ، وهو نقص منه من حيث ينمو بالبركة أو بالأجر الذى يثاب به المزكى ، وقيل أصلها الثناء الجميل ، ومنه زكى القاضى الشاهد ، فكأن من يخرج الزكاة يحصل لنفسه الثناء الجميل وقيل الزكاة مأخوذة من التطهير ، فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذى جعله الله فيه للمساكين » [٣]

ويقول المقريزى [٤] إن أول من جبي الزكاة بمصر كان صلاح الدين الأيوبى فى ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، أى بعد موت العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية ، ونرى أن هذا القول ما هو إلا من الصور القائمة التى

---

(١) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ١ ص ١٠٨

(٢) ابن مماتى « كتاب قوانين الدواوين » ص ١٣

(٣) القرطبي « الجامع لأحكام القرآن » جـ ١ ص ٣٤٣

(٤) « الخطط » جـ ١ ص ١٧٤

دست على الخلفاء الفاطميين نتيجة لاختلاف المذهب، وكانت الزكوات تفرق بعد جمعها على مستحقيها من الفقراء وغيرهم بعد أن ترفع إلى بيت المال السهام الثانية المفروضة له وفق قوله تعالى «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله، والله عليم حكيم» (١).

ويقضى الشرع الإسلامى أن تؤخذ الزكاة من المسلم الغنى لتبعد عنه نظرة الحقد والحسد، حيث يقول تبارك وتعالى «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها» (٢)، ويقول عليه الصلاة والسلام «فاعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم»، و «أدوا زكاة أموالكم فانها طهور لكم» (٣)، و «من أدى زكاة ماله فقد ذهب عنه شره» (٤). وإمامهم المعصوم، الذى يعتبر نفسه من أبناء النبى عليه الصلاة والسلام، والذى يعلم قوله تعالى «قد أفلح من تزكى»، كان له أخذ ما فرض على المسلمين فى أموالهم الزكوية التى مرجعها كتب الفقه عندهم (٥)

(١) الآية ٥٩ من سورة التوبة رقم ٩ — والعاملون عليها هم السعاة والجباة المكلفون بتحصيل الزكاة من الإمام، أما المؤلفة قلوبهم فقد كانوا فى صدر الإسلام يظهرون الإسلام يتألفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف ايمانهم، وقد حرمهم منه الخليفة عمر، وفى فك الرقاب أى المكاتبين، والغارمون هم أهل الدين الذين استدانوا لغير معصية أو تابوا، وليس لهم وفاء، أو لإصلاح ذات البين ولو أغنياء. القرآن الكريم تفسير الجلالين (طبعة عبد الرحمن محمد سنة ١٣٥٥ هـ) ص ١٧٢.

(٢) الآية ١٠٣ من سورة التوبة رقم ٩

(٣) ابن النعمان «كتاب الهمة فى آداب الأئمة» ورقة ٣٢ ا و ب

(٤) ابن النعمان «كتاب دعائم الاسلام» ورقة ١٥٣

(٥) الأنواع التى يجب فيها الزكاة خمسة أشياء: ا — زكاة النقد (الذهب والفضة) ب: — زكاة السوائم وهى الأبل والغنم جـ: — زكاة عروض التجارة ى: — زكاة المعدن والركاز وهما بمعنى واحد، وهو شرعا مال وجد تحت الأرض بالطبيعة أو بفعل فاعل هـ: — زكاة الزرع والثمار. ولمعرفة حكم الزكاة فيها يرجع إلى ابن النعمان «دعائم الاسلام» ورقة ١٥٩ — ١٦٢ و ١٦٩ وابن مماتى «كتاب قوانين الدواوين» ص ١١ و ١٢ وابن مطهر «مختلف الشيعة فى أحكام الشريعة» جـ ٢ ورقة ٤ وما بعدها. ويقول الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء فى مؤلفه «كتاب أصل الشيعة وأصولها» ص ٩٩ «ولا شىء منها إلا وهو موافق لمذهب من المذاهب المعروفة، الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى»

ولا شك أنه كان للزكاة «ديوان خاص» بها ، على رأسه موظف كبير ، يعاونه بعض الموظفين ، لأن الزكاة عند الشيعة ثانية الصلاة ، إذ من لا زكاة له لا صلاة له [١] ، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لعن مانع الزكاة وأنه عليه الصلاة والسلام قال « لا تتم صلاة إلا بزكاة ، ولا تقبل صدقة من غلول ، ولا صلاة لمن لا زكاة له ، ولا زكاة لمن لا ورع له » وعن عليّ كرم الله وجهه انه قال « لا تقبل الصلاة ممن منع الزكاة » [٢] ، وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عن علىّ أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال « إذا أراد الله بعبد خيراً ، بعث إليه ملكا من خزان الجنة ، فيمسح صدره فتسخو نفسه بالزكاة » ، وعن الامام علىّ أنه أوصى فقال « أوصى ولدى وأهلى وجميع المؤمنين بتقوى الله ربهم ، والله الله فى الزكاة ، وأنها تطفى غضب الله » ، وعن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال « أول من يدخل النار . . . ذو ثروة من المال لا يعطى حق ماله » ، وعنه أيضا أنه قال « ما يهلك مال فى بر ولا بحر إلا بمنع الزكاة » [٣] ، والزكاة تجب على كل إنسان بالغ عاقل ، غنى عن نفسه وعمن يعول من صغير او كبير ، حر أو مملوك ، وقدرها عن كل إنسان صاع من حنطة أو شعير أو تمر أو نحوها مما يحصل به القوت ، ومذهب الشيعة هنا لا يخالف مذاهب السنة فى شىء [٤] .

٤ — **المستغلات** : كذلك كان من موارد الدولة المعادن التى احتكرت الحكومة الفاطمية مناجمها ، وأهمها معدن « الشب » [٥] ، الذى كان محصوله السنوى حوالى ١٢ ألف قنطار ، والنطرون ، الذى كان محصوله السنوى

---

(١) العلامة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء « كتاب أصل الشيعة وأصولها » ص ٩٩

(٢) ابن النعمان « دعائم الاسلام » ص ١٥٨

(٣) « « ص ١٥٣ و ١٥٨

(٤) العلامة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء « كتاب أصل الشيعة وأصولها » ص ٩٩ و ١٠٠

(٥) يحتاج إليه فى أشياء كثيرة أهمها الصبغ .

حوالى ٣٠ ألف قنطار ، وكانت تباع لتجار الروم [١]

كذلك احتكرت الحكومة الفاطمية بيع محصول القرظ (ثمرة شجرة السنط) ، وخصصت بعض المراكب المصنوعة فى دار الصناعة لبيعها ، وباعت الأخشاب التى فضلت عن حاجة المطابخ فى القصور من أحراج كل من البهنسا والأشمونين والسيوطية والأخميمية والقوصية [٢] .

وكان الخليفة الفاطمى يملك عدداً كبيرا من الحوانيت والمخازن والأفران والحمامات بمصر والقاهرة وغيرها من المدن الكبرى .

ونرى أن ناصرى خسرو بالغ فى ذكر الحوانيت وايجارها بمصر والقاهرة عندما قدرها بعشرين ألفاً وعندما ذكر أن عدداً كبيراً منها كان يؤجر بسعر عشرة دنانير مغربية فى الشهر ، وأن ايجار الدكان منها كان لا يقل عن دينارين [٣]

وكان من موارد الدولة ما يقذفه البحر مثل العنبر والحلية ، وما يؤخذ من اللصوص من الأموال والأمتعة إذا لم يأت لها طالب يستحقها .

أما الديوان الذى أعدوه لذلك فكان ديوان المستغلات [٤] ، يرأسه موظف كبير يساعده بعض الموظفين .

٥ — دار الضرب : أى ضرب السكة أو العملة ، وكانت تمد الدولة بايراد طيب إذ كان يسبك فيها ما يحمل إليها من الذهوب [٥] وبحكم تبعية مصر للدولة الأموية ثم للدولة العباسية قد تعاملت بدنانير الخلفاء الأمويين ثم العباسيين ولما وليها احمد بن طولون سك نقوداً ذهبية وحدتها الدينار عرفت « بالأحمدية » نسبة إليه ، حتى إذا تم الفتح الفاطمى لمصر ، أمر جوهر بفتح دار الضرب

---

(١) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ١ ص ١٠٩ وابن مماتى « قوانين الدواوين » ص ٢٣ و ٢٤

(٢) ابن مماتى « قوانين الدواوين » ص ١٧ و ١٨

(٣) Nasiri Khosrou, Sefer Nemeh p .127

(٤) المقريزى « الخطط » (بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ٢ ص ٦

(٥) ابن مماتى « قوانين الدواوين » ص ٢٥ والمقريزى « الخطط » جـ ١ ص ١٧٨

وضرب السكة (١) وضرب الدينار المعزّى ونقش عليه فى أحد وجهيه ثلاثة أسطر أحدها ، دعى الأمام المعز لتوحيد الأحد الصمد ، وتحته سطر فيه ، ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، وفى الوجه الآخر ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون . على أفضل الوصيين ، وزير خير المرسلين ، (٢)

ولما حضر المعز لدين الله للقاهرة عاصمة ملكه ، وتولى بعده فيها أشباله كان الخليفة الفاطمى يختم السكة بختمه حتى يتميز الخالص من المغشوش بين الناس عند التعامل (٣) وكانت دار الضرب بجانب دار الشرطة فى البيمارستان الذى بسوق الحمام (٤) أما فى القاهرة فقد بنيت دار الضرب بجهة القشاشين ، قرب الجامع الأزهر ، بناها الوزير المأمون البطائحى زمن الخليفة الآمر وسميت الدار الآمرية ، ووجدت دروب الضرب أيضا باسكندرية وقوص وصور وعسقلان (٥) وكانت لا تباع الصنج والموازين والأكيال إلا بدار الضرب ، فيتوجه إليها جميع التجار ومعهم آلاتهم للكشف عليها ، فان وجدبها عيب أو نقص أو تلف ، كلفوا شراء غيرها (٦) ثم اذن لهم باصلاح ما بها من عيب . ولقدسك جوهر الدنانير الذهبية المعزية وساعده على ذلك كثرة ما جلبه معه من صناديق النقود الذهبية وأن منجم الذهب المحلى كان بوادى العلاق على مسيرة أسبوعين من أسوان وقد ظل الناس يتعاملون أيام جوهر أيضا بالدينار الراضى ، لكونه إذ ذاك

---

(١) السكة لفظة كانت اسماً للطابع ، أى للحديدة المتخذة لذلك ، ثم صارت تطلق على أثرها وهى النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم وهى علامة السلطان ، ثم صارت تطلق أخيراً على القيام على ذلك وهى الوظيفة .

(٢) الأب أنستاس « النقود العربية وعلم النميات » ص ٥٨

(٣) النويرى « نهاية الأرب » ورقة ٤١ وابن خلدون « المقدمة » ص ٢٢٦ — ٢٢٨

(٤) يحي بن سعيد بن يحي الانطاكى « تاريخ الذيل » ص ٣٤

(٥) المقريزى « اغاثة الأمة » ص ١٥ و « الخطط » ج ١ ص ١٧٧ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٤ ص ٥٣

(٦) المقريزى « الخطط » ج ١ . ص ٤٦٤ وابن مماتى « كتاب قوانين الدواوين » ص ٢٦

أكثر وزناً وأشد نقاءً من الدينار المعزى [١] فحمل المعز الناس على التعامل بدنانيره بطرق شتى : منها أنه أمر أن يكون « الراضى » بخمسة عشرة درهما و « المعزى » بخمسة عشر درهما ونصف ، كما جعل جوهر « الدينار الأبيض » أحيانا بعشرة دراهم وأحيانا أخرى بستة دراهم وأحيانا ثالثة بثمانية دراهم [٢]

وكثر ضرب الدينار المُعزِّى ، وامتنع يعقوب بن كاس وعسلوج بن الحسن أن يأخذا الخراج إلا دينارا معزيا ، فاتضع الدينار الراضى وانحط ونقص من صرفه أكثر من ربع دينار كما انحطت قيمة « الدينار الأبيض » ، فباع الناس الدينار الراضى بأقل من قيمته ، فعاد ذلك على مالية الدولة بالربح الوفير .

وفى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله أبى على المنصور بن المعز ، تزايد أمر الدراهم فى شهر ربيع الأول ، سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، فبلغت أربعة وثلاثين درهما بدينار ، ونزل السعر ، واضطربت أمور الناس فرفعت تلك الدراهم ، وأنزل من القصر عشرون صندوقا ، فيها دراهم جُدُد ، فرقت للصيارف ، وقرىء سجل بمنع المعاملة بالدراهم الأولى ، وترك من فى يده شىء منها ثلاثة أيام ، وأن يورد جميع ما تحصل منها إلى دار الضرب ، فاضطرب الناس ، وبلغت أربعة دراهم بدرهم جديد وتقرر أمر الدراهم الجدُد على ثمانية عشر درهماً بدينار [٣] .

وفى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) ضرب « المستعلى » اسم ابنه ولى العهد على الدينار وسماه الآمرى ، ومنع التعامل بغيره [٤] .

وفى سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٣م) ضرب « الآمر » الفضة السوداء بمصر المشهورة بالآمرية [٥] ، وبذلك كان بمصر فى العصر الفاطمى نظام المعدنين Bimetallic

---

(١) على مبارك باشا « الخطط التوفيقية » ج ٢٠ ص ٣٥

(٢) ابن ميسر « أخبار مصر » ص ٤٥ و ٤٦ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٨٠ و ٨٥ و ٩٧

(٣) الأب أنستاس « النقود العربية وعلم النميات » ص ٥٩

(٤) السيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ١٥٤

(٥) « « ج ٢ ص ١٥٥

System ، وبالرغم من أن الشرع علّق على الدينار والدرهم كثيراً من الأحكام كالزكاة وغيرها ، وجعل للدرهم الشرعى والدينار وزناً معينا ، فقد مال بعض الخلفاء الفاطميين عند إصدار العملة إلى جعلها تقل وزناً فى المعدن عن العيار العادى .

أما ديوان الضرب فكان يرأسه موظف كبير هو «قاضى القضاة» وبه عدد من الموظفين ، كل له عمل يختص به [١] .

٦ — **المواريث**: كانت المواريث عند الشيعة تخالف ما عليه الجمهور فى مسائل كثيرة أهمها : أن ليس عندهم عول ، فاذا مات شخص عن زوجة وبنتين وأم وأب ، فللزوجة الثمن ، وللبنتين الثلثان ، وللأم والأب الثلث ، فاذا كانت المسألة من ٢٤ ، كان الناتج ٢٧ ، فهذا عول ، فتقسم التركة إلى ٢٧ جزءاً بدلا من ٢٤

فتأخذ الزوجة ٣ من الـ ٢٧ والبنتان ١٦ من الـ ٢٧ والأبوان ٨ من الـ ٢٧ ، هذا هو حكم القاضى السنى فى هذه القضية إذا نيط به توزيع أنصبة الورثة فى المسألة السالفة الذكر .

أما القاضى الشيعى الذى «ينكر العول» [٢] ، ولعله ينكره لأن الخليفة عمر بن الخطاب هو أول من حكم به ، فيقدم الزوجة والأبوين على البنتين فى أخذ نصيبهم ، ويقسم التركة إلى ٢٤ جزءاً فقط ، وهنا يحكم باعطاء الزوجة ٣ من الـ ٢٤ (باعتبار أن لها الثمن) والأبوين ٨ من الـ ٢٤ (باعتبار أن ميراثهما الثلث) أما الباقى وهو الـ ١٣ جزءاً فيعطيه للبنتين [٣]

---

(١) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ١ ص ٤٤٥

(٢) العلامة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء « كتاب أصل الشيعة وأصولها » ص ١٤٢

(٣) ابن خلدون « المقدمة » (الطبعة الثالثة سنة ١٣٢٠ هـ) ص ١٨٦ والمقريزى « الخطط » جـ ١ ص ٣٩٣

كذلك « ليس عند الشيعة تعصيب » (١) ، فهم يقدمون القرابة على العصبة ، بمعنى أنهم يورثون الأقرب فالأقرب إلى الميت ذكراً كان أم أنثى بحسب الدرجة ، فالدرجة الأولى عندهم الوالدان والأبناء ، والدرجة الثانية الأجداد والاخوة والأخوات .. وهكذا ، ولا يرث الأبعد مع وجود الأقرب فاذا مات رجل مثلا عن بنت وابن ابن ، فالمال كله للبنت عند القاضى الشيعى لأنها أقرب من ابن الابن فتحوز المال كله ، نصفه « بالفرض » ونصفه الثانى « بالرد » ، وبذلك لا يشارك فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد فى ميراثها من أبيها .

والسر فى أن الشيعة يورثون كل المال للبنت ويجعلونها حاجبة حتى للأعمام أن بنى العباس كانوا يدعون أيلولة ميراث النبي عليه السلام من امامة المسلمين لهم ، لأن العباس عم للنبي فهو الوارث له يوم وفاته ، ويشارك فاطمة الزهراء فى تركته ، كذلك «على» أنزل من العباس لأنه ابن عم والعباس عم ، فقالت الشيعة إن فاطمة تحرز كل الميراث حتى يمنعوا بنى العباس من دعواهم ، أما القاضى السنى فيعترف بالتعصيب ، لذلك عندما تعرض عليه القضية السالفة الذكر فإنه يعطى البنت النصف « بالفرض » ، ويعطى ابن الإبن النصف الثانى من التركة « بالتعصيب » ، إذ هو من العصبة (٢) ، والقاضى الشيعى يقدم ابن العم الشقيق على العم لأب فى الميراث حتى يكون الإمام «على» متقدماً فى ارث النبي عليه السلام من العباس ، أما القاضى السنى فيعكس الآية فيجعل درجة العم أقرب من ابن العم فى الميراث ، فهو على ذلك لا يورث الأبعد مع وجود الأقرب (٣) .

والشيعة يقولون إن الأنبياء تورث ، وأهل السنة يقولون إنهم لا يورثون

---

(١) آل كاشف الغطاء « أصل الشيعة وأصولها » ص ١٤٢

(٢) ابن خلدون « المقدمة » (طبعة ١٣٢٠ هـ) ص ١٨٦ والمقريزى « الخطط جـ ١ ص ١٧٩

(٣) المقريزى « الخطط » جـ ١ ص ١٧٩

لحديث نبوى يقول «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » .

وهذا ما حدا بأبي بكر أن يأخذ من فاطمة الزهراء فدك (قرية بخيبر) بعد أن كان والدها قد أعطاها إياها للارتفاق بها ، أخذها أبو بكر منها ولما احتجت بأنها ترثها احتج عليها بالحديث السالف الذكر [١] .

ومن موانع الميراث اختلاف الدين فلا توارث بين المسلم وزوجته الكتابية ، ولا بينها وبين أولادها منه ، لأنهم مسلمون تبعاً لأبيهم ، ولكن الوصية لا يشترط فيها اتحاد الدين ، فهى تجوز للأجنبي (غير الوارث) بالثلث .

ومن موانع الميراث أيضا اختلاف الدارين ، فلا توارث بين « حربى » « وذمى » ، ولا بين « مستأمن » « وذمى » ، لاختلاف الدار بينهما ، فإذا مات المستأمن فى دار الإسلام ، فإن ماله يحفظ لورثته الذين هم فى دار الحرب لاتحاد الدار [٢] . والشيعة تقر إلى اليوم زواج المتعة [٣] التى أحلها على بن أبي طالب وأبو جعفر محمد الباقر وأبو عبد الله جعفر الصادق استنادا إلى الآية

---

(١) ابن هشام «كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم» (طبعة وستنفلد ١٨٥٨ — ١٨٦٠ م) جـ ٢ ص ١٠١٣ ورسائل الخوارزمى (طبعة القسطنطينية سنة ١٢٩٧هـ) ص ١٣٠

(٢) احمد أمين بك «ضحى الاسلام» جـ ٣ ص ٢٥٩ والمرحوم الأستاذ أحمد بك ابراهيم «بحث مقارن فى المواريث فى الشريعة الاسلامية» منشور بمجلة القانون والاقتصاد السنة الثالثة (١٩٣٣ م) ص ٨١٨ و ٨١٩ ولفضيلته أيضا « حكم الشريعة الاسلامية فى الزواج مع اتحاد الدين واختلافه وتغييره » منشور بنفس المجلة فى السنة الأولى (١٩٣١م) ص ١٤ وله أيضاً «أحكام المواريث على ماعليه العمل فى المحاكم الشرعية» منشور بنفس المجلة السنة الرابعة (١٩٣٤م) ص ٥٩٠ و ٥٩١

(٣) وهو التزوج بالمرأة لمدة معينة بأجر معين ، وقد أجازه النبي عليه السلام فى بعض الأوقات وعند الحاجة ، فلقد روى عن ابن مسعود أنه قال « كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس معنا نساء فقلنا ألا نختصى ؟ فنهانا عن ذلك ثم رخص لنا بعد ، أن تنكح المرأة بالثوب إلى أجل ثم قرأ ابن مسعود « ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم» . وعن سلمة ابن الأكوع قال « رخص لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى متعة النساء عام أوطاس ثلاثة أيام ، ثم نهى عنها »! وقد روى التحليل فى غزوات مختلفة آخرها يوم فتح مكة ثم حرمت . الآية ٨٦ من سورة المائدة رقم ٥ والترمذى ص ١٣٣ و ١٣٤ واحمد أمين بك « ضحى الاسلام » جـ ٢ ص ١٥٨ وجـ ٣ ص ٢٥٦ — ٣٥٨

الشريفة «فما استمتعتم به منهن، فآتوهُنَّ أجورهن فريضة »[١] ، لأنه سبحانه وتعالى عبر فى الآية الشريفة بلفظ الاستمتاع (أى المتعة) دون لفظ النكاح ولأنه تعالى أمر بإيتاء الأجر (فالعقد عقد إيجار والمتعة إيجار على منفعة البُضع) ، ولأنه تعالى أمر بإيتاء الأجر بعد الاستمتاع (وذلك يكون فى عقدى الإجارة والمتعة [٢] .

وعندما عيّر «عبد الله بن الزبير» «ابن عباس» بتحليله المتعة ، أحاله على والدته التى اعترفت له أنها ولدته بالمتعة[٣] ، المباحة فى شريعة الإسلام ، أما منع الخليفة عمر لها فكان منعاً مدنياً لا دينيا لمصلحة زمنية ومنفعة وقتيه ولذا تواتر النقل عنه أنه قال «متعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا أحرمهما وأعاقب عليهما[٤]» ، فنسب التحريم بذلك إلى نفسه ، وجعل العقاب عليها منه .

أما القاضى السنى فقد حرّمها [٥] لأن الزواج الصحيح لايكون إلا بدفع المهر أولا ، ثم بتمكين الزوج من الاستمتاع ثانيا ، والشيعة وإن أحلت زواج المتعة إلا أنهم لا يورثون الزوجين المتزوجين زواج متعة أحدهما من الآخر . ولا يشترط لصحة المتعة شهود كالزواج العادى الدائم ، بل تصح المتعة من غير شهود وتنتهى بانتهاء مدة العقد المحددة ، دون إيقاع طلاق ، وعدتها حيضتان لمن تحيض و ٤٥ يوما لمن لا تحيض ، أما عدة المطلقة من زواج عادى فهى ثلاثة قروء (حيضات) لذات الحيض وثلاثة أشهر للآيسات ولمن لا يحض

---

(١) الآية ٢٣ من سورة النساء رقم ٤

(٢) القلقشندى «صبح الأعشى» ج ١٣ ص ٢٣٣ واحمد بك أمين «ضحى الاسلام» ج ٤ ص ٢٥٥ و ٢٥٦

(٣) أم عبد الله بن الزبير هى أسماء أخت عائشة أم المؤمنين (بنتا الخليفة أبى بكر الصديق) أما زوجها الزبير فهو حوارى رسول الله وتزوجها بالمتعة . آل كاشف الغطاء «أصل الشيعة وأصولها» ص ١١٩

(٤) آل كاشف الغطاء «أصل الشيعة» ص ١١٧

(٥) حرمها الخليفة عمر لأنه لم يجد فرقاً بينها وبين الزنا وقال « لاأوتى برجل نكح امرأة الى أجل إلا رجمته »

وكانت المواريث الحشرية ، وهى مال من يموت وليس له وارث خاص بقرابة أو نكاح أو ولاء ، تعتبر من موارد الدولة ، لأنها ترتد إلى ديوانها لعدم وجود وارث شرعى لها ، وكان المصرى إذا مات بعيداً عن بلاده تعطى ثروته لأهله [١]، فمثلا منع الأفضل أحداً من أخذ شىء من التركات « وأمر بحفظها لأربابها ، فاذا حضر من يطلبها وطالعه القاضى بثبوت استحقاقها أطلقها فى الحال » [٢].

واتخذ الخلفاء الفاطميون ديواناً للمواريث [٣] ، سمى « ديوان المواريث الحشرية » لا يتولاه إلا عدل ، وفيه جماعة من الكتاب ، ويختص هذا الديوان بشئون المواريث وضبط أحكامها ، وكانت تضاف إليه أموال من يموت ولا يخلّف وارثاً له ، ومن يوصى بأن ماله بعد موته يكون للخليفة الفاطمى ، الذى قد يتنازل عنه لورثته ، فقد حدثنا ابن ميسر [٤] أن رجلا يدعى « جيش بن صمصامة » أوصى للخليفة الحاكم بأمر الله بتركته وقدرها ٢٠٠ ألف دينار تقريباً ، ولم يجعل لأحد من أولاده منها درهما ، ولكن الخليفة الحاكم رد التركة إلى ولدى الموصى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) قائلا « قد وقفت على وصية أبيكما رحمه الله فخذوه هنيئاً مباركا فيه » ، بعد أن خلع على ابنى هذا الموصى بحضرة أولياء الدولة ووجوهها ، وكانت ترد تركة من يموت من أهل الذمة ولا يخلف وارثا على أهل ملته [٥] ، ولا تدخل ديوان

---

(١) وقد روى أنه حمل إلى عميد الجيوش حاكم بغداد المتوفى سنة ٤٠١ هـ (١٠١٠م) مال كثير ، قد خلفه بعض التجار المسلمين ، وقيل له « ليس للميت وارث » فقال « لا يدخل خزانة السلطان ما ليس لها ، يترك إلى أن يصح خبره » فلما كان بعد مدة جاء أخ للميت بكتاب من مصر بأنه يستحق التركة ، فسلمها له . ابن الأثير « الكامل فى التاريخ » ج ٩ ص ١٥٨ ومتز « الحضارة الاسلامية » ص ١٩٢

(٢) ابن ميسر « تاريخ مصر » ص ٥٨ و ٥٩ — أما اللقطة وهى الأموال التى لم يعلم لها مستحق فقد كانت من نصيب بيت المال . وانظر O'Leary, A Short History p. 133

(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٩٦

(٤) « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٥٦

(٥) الجهشيارى « كتاب الوزراء والكتاب » ص ٢٤٨ ومتز « الحضارة الاسلامية » ص ٥٧

المواريث ، وذلك عمــلا بما روى عن الرسول عليه السلام من « أن المسلم لايرث الكافر ، وأن الكافر لا يرث المسلم ، وأنه لايتوارث أهل ملتين » وألحق هذا الديوان بديوان « الجوالى » السالف الذكر .

٧ — **الأموال المصادرة** : وكانت من موارد الدولة الفاطمية أيضا ، فكان كل من يسخط عليه الخليفة أو يقتله يصادر أمواله ويودعها « الديوان المفرد » ، ويقال إن الذى أنشأه هو « أبو النصر ابن عبدون » النصرانى الملقب بالكافى وزير الحاكم بأمر الله ، فبالديوان المفرد « أموال من يسخط عليه الخليفة ومن يقبض ماله من المقتولين وغـيرهم »[1] ، وهو ديوان يتصل بديوان المواريث فى عمله .

ومما هو جدير بالذكر أنه لما عاودت « الحسين بن جوهر » المخاوف لأنه كاتب أبا ركوة ورغبه فى العرش ، بات يرتعـد من سوء عاقبة ما بدر منه ففر هو وصهره القاضى عبد العزيز بن النعمان إلى بنى قرة بالبحيرة بأولادهما وجميع أموالهما وسلاحهما ، فأوقع الحاكم بأمر الله الحوطة على سائر دورهما وأملاكهما وجعلها للديوان المفرد .

٨ — **الأحباس** : فكان أول من أدخل ديوانها بمصر القاضى الليث بن سعد ، فقد أثر عنه أنه اشترى بعض الأراضى التابعة لبيت المال فى جهات عدة وحبسها على وجوه البر ، ثم أضيفت إلى هـذه الأراضى بعض الرباع والدور فى مدينة الفسطاط وغير ذلك من مصادر الإحسان[2] .

والأحباس أو الأموال الموقوفة هى الأموال المرصدة على جهة بر لا تنقطع ، ويصح أن تـكون منفعتها لأشخاص بشروط معينة[3] .

---

(١) المقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٨٧

(٢) الـكندى ص ٣٧٢ والقلقشندى « صبح الأعشى » ج ٤ ص ٣٨ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٩٤ و ٢٩٥ و Dr. Zaki Moh. Hassan, Les Tulunides p. 260

(٣) احمد أبو الفتح بك « المعاملات فى الشريعة الاسلامية والقوانين المصرية » ص ٣٥ و ٣٦

وكان الحاكم بأمر الله هو أول خليفة نحا نحواً جديداً بالإيقاف على الأراضى الزراعية علاوة على المبانى كالمنازل والحمامات والرباع وغيرها [١] كذلك وقف على الأزهر وجامع راشدة والمقسى ودار الحكمة، الأوقاف من عقار وكتب .

وقد حبس بدر الجمالى على ذريته كثيراً من الجهات فيها لأبنائه وأعقابهم من بعدهم مورد إيراد ثابت [٢] ، وشملت الأحباس غير الدور ، الطواحين والفنادق والحوانيت وغيرها ، وصرفت مصارفها أيضا فى الجوامع والمساجد والسقايات وجوارى المتصدرين لإقراء القرآن الكريم والعلوم الشرعية والأئمة والخطباء والمؤذنين وطلبة العلم وغيرهم [٣] .

ديوان الأحباس : وجعلت لهذه الأموال الموقوفة على جهات البر إدارة موحدة تشرف على جباية إيرادها وتنظيم انفاقاتها ، فكان ديوان الأحباس أو ديوان الأوقاف هو المختص بالنظر فى شئون الأحباس العامة والخاصة ، والإشراف على غلتها والانفاق فى الوجوه الشرعية .

وكان لا يخدم فى ديوان الأحباس [٤] إلا أعيان كتاب لمسلمين من الشهود والمعدلين ، لأنها معاملة دينية ، فيتولى الإشراف على الجوامع والمشاهد والرباطات والخوانق والسبل والمساجد والزوايا والمدارس والأراضى والعقارات لمحبوسة عليها والإحسان على الفقراء والمعوزين وكان يصرف هذا الديوان من إيراد الاوقاف على المصالح الخيرية وطوائف المستحقين ويضيف الباقى إلى بيت المال .

وقد قدرت أموال لأحباس فى سنة ٣٦٣ هـ بمبلغ مليون ونصف

---

(١) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ٢ ص ٢٩٤ و ٢٩٥
(٢) « « « « « جـ ١ ص ١١٠ وجـ ٢ ص ٢٩٥
(٣) ابن مماتى « كتاب قوانين الدواوين » ص ١٤
(٤) هذا الديوان يقابل وزارة الأوقاف الآن .

درهم[١]، وفى سنة ٤٠٣ هـ جعل الخليفة الحاكم بأمر الله الحكومة مسئولة عن الأعمال الخيرية العامة، بأن عمل على أن يصرف ديوان الأحباس من إيراده على الجوامع والمساجد وسواها مما ليس له إيراد خاص[٢].

٩ — المكوس: تنبه الخلفاء الفاطميون لأهمية هذه الضرائب غير المباشرة لتنمية مواردهم عند اتضاع الخراج، ولقد كانت هذه الرسوم تقل وتكثر من حيث نوعها ومقدارها وعددها، ولم يكن لها نسبة ثابتة، فكانت تأخذ الحكومة الفاطمية من تجار الروم الواردين على الثغور الخمس أحيانا، والعشر أحيانا أخرى، وكانت النسبة تتراوح بين ١٠ ٪ و ٢٠ ٪، وترتفع حتى تصل ٣٥ ٪ من قيمة البضائع[٣] الواردة والصادرة، وكانت الرسوم المفروضة على تجار المسلمين أقل من المفروضة على المسيحيين، ويحدثنا يحيى ابن سعيد أن عيسى بن نسطورس عند ما تولى الوزارة أحدث رسوما ومكوساً جائرة[٤]، ونحن نرجح أن هذا الوزير أحدث مكوساً زائدة على ما جرى الرسم بأخذه، لأن الراوى مواطن ومعاصر له ونصرانى مثله.

ومن الخلفاء الفاطميين من أبقى على ما وجده من تلك المكوس، ومنهم من زاد عليها، ومنهم من أسقط بعضها، فمثلا أسقط[٥] الحاكم بأمر الله معظم المكوس (الرسوم)، ولكن سرعان ما أعيدت هذه المكوس إلى ما كانت عليه فى عهد خلفه.

---

(١) المقريزى «الخطط» (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ٢ ص ٢٩٥

(٢) « « جـ ٢ ص ٢٩٥

(٣) القلقشندى «صبح الأعشى» جـ ٣ ص ٤٦٤ وابن مماتى «قوانين الدواوين» لناشره الدكتور سوريال ص ٣٢٦

(٤) يحيى بن سعيد «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» ص ١٠٨ ومتز «الحضارة الاسلامية» ص ٢٠٧

(٥) «الحضارة الاسلامية» ص ٢٠٦ نقلا عن يحيى بن سعيد ص ١٢٣ ا و ١٣٣ ب اسقطت هذه المكوس عند توليته يمناً واستبشاراً به، وكذا لما قتل الحسين بن جوهر وثار لقتله سكان القاهرة لأنه ابن مؤسس مدينتهم.

ولعل الكتاب السنيين هم الذين صوّروا لنا (للخلاف المذهبى) مصر أيام الفاطميين بأنها أرض المكوس ، فكان كل شىء فيها تفرض عليه المكوس ، ولم يسلم من ذلك إلا الهواء ، فجعلوا مكوس الفاطميين كثيرة لم يلغها إلا صلاح الدين الأيوبى .

ونرى أن هذه الضرائب وإن تعددت كانت خفيفة الظل على المصريين لازدهار النشاط الصناعى والتجارى فى العصر الفاطمى .

ولما كان صلاح الدين الأيوبى قد ألغى مكس البهار ، ومكس صناعة البز الواردة ، ومكس الصادر عن البضاعة بمصر ، ومكس البضائع والقوافل والمكس المفروض على البائعين مقابل استخدام الأماكن المخصصة لهذا الغرض ، كأسواق الغنم والدواب والسمك والرقيق وغيرها ، كما ألغى الرسوم على أعمال البيع والشراء ، وعلى المتاجر والمصانع والمخازن ، والتفتيش على البضائع ، والرسوم على الآلات نفسها فى محال الغزل والنسج ، ورسوم السفن بساحل النيل ، ورسوم حراسة الغلات ، وغيرها من السلع مما كان يصل إلى شواطىء النيل ، ورسوم المسالخ والمذابح ، ورسوم السمسرة فى عمليات البيع والشراء ، ورسوم المعديات من وإلى مصر من الجهات المجاورة ورسوم استعمال الميزان المسمى بالقبان ، إلى غير ذلك ، فإننا نستنتج بأن الرسوم أيام الدولة الفاطمية شملت الصناعة ، حتى جبيت من المواد الأولية وأماكن الصناعة والآلات المستعملة ، كما شملت التجارة ، فجبيت على عمليات البيع والشراء ، إذ لم يتم البيع إلا على يد سماسرة ، وبعد أن يختم على عمليات البيع والاصدار بخاتم الحكومة .

فكانت الثياب الشطوية مثلا لا تنسج إلا بعد أن يختم عليها السلطان ولا تباع إلاّ على يد سماسرة ، وكانت تفتش المراكب عند ابحارها من الميناء كما فى شطا [1] .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢١٣

وكانت رسوم الصناعة والتجارة تدفع لبيت المال فى القاهرة .

ويقول المقدسى الذى زار مصر فى أوائل عهد الفاطميين ، « أما الضرائب فثقيلة بخاصة فى تنيس ودمياط »[١].

وبلغ ما جبى من المكوس من الفسطاط وحدها فى يوم واحد ٥٠ ألف دينار مغربى ، وربما بلغت المبالغ المجباة منها ١٢٠ ألف دينار مغربى فى اليوم .

وبلغ ما جبى من المكوس فى كل من تنيس ودمياط والأشمونين فى يوم واحد ٢٢٠ ألف دينار [٢]، وقد حدثنا خسرو عن الخراج اليومى لتنيس وحدها فقدره بألف دينار[٣].

ويقول المقريزى [٤] ، إن متأخرات ثلاث سنوات لتنيس بلغت « ألف ألف دينار وألفى ألف درهم » .

وهذا يدل على أن الفاطميين كانوا يفرضون الرسوم العالية على أكبر مراكز إنتاج الكماليات من منسوجات فاخرة وغيرها .

ويقول المقريزى [٥] إن ما أسقطه صلاح الدين الأيوبى من المكوس كان يزيد عن « نيف ومليونى دينار ومليونى أردب » .

وهذا يدل على أن الحكومة الفاطمية كانت تفرض المكوس على الناس فيدفعونها نقداً وعيناً .

كذلك وجدت مراصد المكوس فى الثغور [٦]، وهى الأسكندرية ودمياط وتنيس ورشيد والبرلس والفرما والقلزم (السويس)،وكانت أسوان هى الثغر الذى يدفع فيه التجار المكوس على البضائع التى يجلبونها من النوبة أو

---

(١) متز « الحضارة الاسلامية » ص ٢٠٩ نقلا عن المقدسى ص ٢١٣

(٢) Lane-Poole, A History of Egypt in The Middle Ages p 114

(٣) Nasir Khosrou : Sefer Nemeh p 113

(٤) « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ١ ص ١٨١

(٥) » » جـ ١ ص ١٠٤ و ١٠٥

(٦) القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٤٩٥ وابن مماتى « كتاب قوانين الدواوين » ص ٢٢

يرسلونها إليها ، كما كانت عيذاب الثغر الذى تؤخذ فيه الرسوم على السلع الواردة من الحبشة وزنجبار واليمن وغيرها [١] ، ولما كانت هى وغيرها فى الغالب عند الحدود ، لذا كان التاجر يستطيع أن يطوف عاما كاملا أينما شاء فى حدود البلاد ولا يدفع شيئا من المكوس (الرسوم الجمركية) متى دفع المكس بتلك الثغور مرة واحدة ، ويعطى بذلك براءة تعفيه منها مدة عام .

وكانت «التعريفة الجمركية» كما نسميها اليوم فى الواقع مختلفة ، فكان يؤخذ من المكوس بالقلزم مثلا عن كل حمل درهم ، وتؤخذ الضرائب بالأسكندرية على المراكب الآتية من المغرب ، كما تؤخذ الضرائب بالفرما على المراكب الآتية من الشام [٢]، وظلت الأسكندرية محافظة على مكانتها الخاصة القديمة لأنها أهم مراكز الجباية فى مصر الشمالية فى العصر الفاطمى ، وكانت المراكب تفتش عند اقلاعها .

ووضعت المسالك على المواضع التى تنفذ إلى بلاد أهل الشرك ، وهى دار الحرب ، ليفتشوا من يمرّ بهم من التجار ، فمن كان معه سلاح أخذ منه ورُدَّ ، وكذلك من كان معه رقيق رُدّ ، وإن كانت معه كتب قرأت كتبه ، فان كان فيها خبر من أخبار المسلمين مكتوبا ، أخذت وأرسل صاحبها إلى الامام ليرى فيه رأيه ، وكان يستأدى من تجار الروم الواردين فى البحر عما معهم من البضائع ، فى الغالب العشر [٣]، وأنشأوا «ديوان الثغور» يرأسه صاحب ديوان الثغور ، للنظر فى الأقاليم الادارية المشتملة على الثغور ، وكان به عدة كتاب [٤]، لجبى المكس المقرر ولمنع كل تهريب يرتجى ، وكان بالثغور الحصون والقلاع والأسوار الحصينة ، وأقاموا بها الحاميات الدائمة .

ولما كانت المكوس من أهم موارد الدولة الفاطمية ، وهى ضرائب غير

(١) Nasiri Khosrou, sefer Nemeh P 178

(٢) متز « الحضارة الاسلامية » ص ١٩٧ و١٩٨ نقلا عن المقدسى ص ٢١٣ ومابعدها

(٣) أبو يوسف « الخراج » ص ١١٧ والمقريزى « الخطط » جـ ١ ص ١٧٦

(٤) القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٤٩٥ والمقريزى « الخطط » جـ ١ ص ١٧٦

شرعية فى نظر فقهاء المسلمين ، فقد أطلقوا عليها اسم «المال الهلالى»[1] الذى أحدثه ولاة السوء ، كالمكوس التى تؤخذ مثلا على الكلأ المباح ، أو على ما يصاد من سمك البحر . . وغيرها ، لتزيد هذه الضرائب فى دخل البلاد ، وكانت إدارتها المالية تشمل الديوان الهلالى ، وعلى رأسه موظف كبير يساعده عدد من الموظفين .

وعلى ذلك كان مال مصر فى أيام الدولة الفاطمية ينقسم قسمين : الأول « المال الخراجى » وهو ما يقابل اليوم « الأموال المقررة » ، والثانى « المال الهلالى » وهو ما يقابل ماندعوه اليوم « بالأموال غير المقررة » ، وكان يجبى هذا الأخير مشاهرة وكان يعرف بالمكوس .

نفقات الدولة

١ — **الأرزاق والجرايات** : كانت الأموال التى تجمع من الإيرادات والتى تسمى بالدخل ، تصرف معظمها فى النفقات العامة ، فتدفع منها أرزاق القضاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين ورواتب الجند ، ولم نعثر فى كتب المؤرخين على إحصاء دقيق منظم يبين أبواب المصروفات ، ولو أن الدواوين فى الدولة الفاطمية كانت تقدم (استيمارات) خاصة تشتمل على نفقاتها ، لذا اضطررنا للبحث هنا وهناك فى وجوه الإنفاق فى الدولة الفاطمية.

كان الدخل يدفع بعضه فى أرزاق الموظفين ، ومن يقرأ القلقشندى [2] والمقريزى [3] وغيرهما يجد بياناً لرواتب كبار الموظفين وغيرهم من المتصلين بخدمة الخليفة الفاطمى ، ومن يعملون فى قصوره ، ومن دونهم ، وأنه كان

---

(١) عرف هذا المال الهلالى فى زمن احمد بن المدبر صاحب خراج مصر أيام الخليفة العباسى المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ و٨٤٧ — ٨٦١ م) وما بعده بـ « المرافق » و« المعاون »

(٢) « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٨١ — ٥٢٧

(٣) « الخطط » ج ٢ ص ٢١٩ — ٢٤٦

للوزير وغيره من حواشى الخليفة خلاف المرتب ، جرايات الحبوب والعليق والأتبان سنوياً ، ورواتب من اللحوم برسم مطابخه ، والكسوة فى الأعياد والمواسم ، والانعام بالاقطاعات لاستغلالها .

ولكننا نلاحظ إغفال العدد الكبير من الموظفين وأرباب الرواتب فلم يذكر لنا المؤرخون مثلا مرتبات الكثير من أصحاب الوظائف فى الدولة الفاطمية ، كولاة الأقاليم وحكام النواحى ومتولى بعض الدواوين ، ولا كم كانت رواتب الجند .

وكان (ديوان الرواتب) هو المختص بالنظر فى الأرزاق والجرايات به اسم كل مرتزق فى الدولة وجارية ، من الوزراء وكبار الموظفين ومن دون هؤلاء ، وكانت رواتبهم الشهرية إما عينا كالقمح والشعير ، وإما نقداً . وقد بينا مقدار ما كان يتقاضاه خدام الدولة فى ذلك الحين ، كل فى موضعه .

وكان كتاب هذا الديوان يقيدون فى دفاتره المبالغ والمقادير المخصصة لأرباب الرواتب [١] ، وبه « كاتب أصيل بطراحة » ، يعاونه نحو عشرة آخرين يثبتون من استجد ويحذفون من مات ، لهذا احتاج هذا الديوان إلى دقة تامة وكثرة المراجعة بسبب ما كانت تتعرض له قوائم أرباب الأرزاق من أكبر وظيفة كالوزير إلى أبسط وظيفة كالفراش مثلا [٢] ، من حذف أو زيادة أو نقص أو تعديل .

وقال ابن الطوير عن ميزانية « ديوان الرواتب » إنها بلغت فى بعض السنين ما يزيد على مائة ألف دينار ونحـــواً من مائتى ألف ، ومن القمح والشعير عشرة آلاف ، وأنها كانت تعرض على الخليفة الفاطمى سنويا ليزيد من رواتب من يريد وينقص من الرواتب ما يرغب فى إنقاصه ، فعندما عرضت ميزانية الخليفة الحاكم عليه سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م) ، كتب بخط يده

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ س ٤٩٢

(٢) « « ج ٣ س ٥٢٥ — ٥٢٧

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله كما هو أهله ومستحقه .

أصبحت لا أرجو ولا أتقى إلا إلهى وله الفضل
جدى نبي وإمامى أبى ودينى الإخلاص والعدل

ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق ، والمال مال الله والخلق عيال الله ، ونحن أمناؤه فى الأرض ، أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها ، والسلام » [١] .

وعندما عرضت ميزانية هذا الديوان مثلا على الخليفة المستنصر كتب بخطه عليها « الفقر مر المذاق ، والحاجة تذل الأعناق ، وحراسة النعم بادرار الأرزاق فليجروا على رسومهم فى الاطلاق ، ما عندكم ينفد وما عند الله باق » [٢] ، وبذلك أمر ولى الدولة كاتب الإنشاء ابن جبران أن يحرر الميزانية كما هى ، دون أن ينقص من أرباب الوظائف شيئا .

وألحق ديوان الرواتب بديوان الجيوش ، فكان يثبت فيه أوقات أعطياتهم ومقدار أرزاقهم ، وتحت كل جندى جاريه وسنه ولون جبهته وأوصاف حواجبه وعيونه وأنفه . إلى غير ذلك من العلامات المميزة للشخص

ونرى أن الرواتب فى العصر الفاطمى لخدام الدولة لم تكن أقل منها فى عهدنا إذا راعينا النسبة بين قيمة النقود فى العصرين ، بل ربما كانت أكبر منها فمثلا كان يأخذ صاحب بيت المال الذى كان يشرف على الخزانة العامة مائة دينار (ستين جنيها مصريا) فى كل شهر ، وكان يأخذ الطبيب الخاص خمسين دينارا (ثلاثين جنيها مصريا) شهريا ، وكان راتب « صاحب الباب » [٣] وينعت بالمعظم ، مائة وعشرين دينارا (اثنين وسبعين جنيها مصريا) ، وكان راتب كل من حاملى السيف والرمح [٤] سبعين دينارا (اثنين وأربعين جنيها مصريا)

---

(١) ابن منجب « الاشارة » ص ٢٩ — ونسب ابن خلدون هذا إلى الخليفة الآمر بأحكام الله ج ٤ ص ٧١ فى حين نسبه ابن تغرى فى « النجوم الزاهرة » للخليفة المستنصر ج ٢ ص ٧٣٤ مع تغيير فى اللفظ دون المعنى .

(٢) الآية ٩٦ من سورة النحل رقم ١٦

(٣) يقابله عندنا اليوم كبير الأمناء .

(٤) بمثابة الياوران اليوم .

وكان قاضى القضاة يأخذ مائة دينار (ستين جنيها مصريا) .

وكان راتب قراء الحضرة يتراوح بين عشرة وخمسة عشرة وعشرين ديناراً (ستة وتسعة واثنى عشر جنيها مصريا) وراتب والى القاهرة خمسين ديناراً (ثلاثين جنيها مصريا) .

أما راتب الوزير الأكبر فلا شيء فى عهدنا يماثله أو يدانيه ، إذ كان راتبه فى الشهر خمسة آلاف دينار (ثلاثة آلاف جنيه مصرى) ، وكان أولاده وأخواته وأقاربه يتقاضون مرتبات ضخمة لمجرد كونهم أعضاء فى أسرته ، وهذا ما جعل هذا المنصب الدسم يتهافت عليه كل ذى مطمع من أرباب السيوف .

وقد ذيل الخليفة الحافظ استيمار الرواتب (كشوف المرتبات) بهذه الكلمات « أمير المؤمنين لا يستكثر فى ذات الله كثير العطاء ، وليجروا فى نسبياتهم على عادتهم .... كرماً من أمير المؤمنين وفعلا مبروراً وعملا بما أخبر به عز وجل فى قوله تعالى « إنما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً »[1] .

٢ — المرافق العامة

كذلك كان المال الذى يأتى من الايرادات السالفة الذكر ينفق جله على مايتطلبه البلد من وجوه الإصلاح فى مرافقه العامة ، من كرى الأنهار وإصلاح مجاريها ، وحفر الترع لتحسين حال الزراعة ، التى كانت مصدر معظم الثروة فى البلاد ، وفى الصرف على المسجونين والأسرى ، وتزويد الجيوش بالمعدات الحربية على اختلاف أنواعها ، وتقوية العمارة ، وتشييد المقابر والمساجد وفى العطايا والمنح للأدباء والعلماء ، واستقبال الرسل الواردين من الخارج .. إلى غير ذلك .

ولم يبين لنا المؤرخون كم خصص الخليفة الفاطمى لكل ما سلف ، فلم

---

(١) الآية ٩ من سورة الانسان رقم ٧٦

يبينوا لنا مثلا كم أنفق على الجيش وعلى الأسطول سنوياً ، أو كم صرف للجند من الأقوات والجرايات والكسى ، وكم كانت نفقات أعمال الرى ، والنفقة على بناء القصور والمساجد والجوامع والمناظر والمشاهد وغيرها من المنشآت وكم أنفق على الثغور وحراسة الطرق والبريد وغيرها من الأعمال العامة وكم أنفق أيضاً على أهالى مملكته من غير الديار المصرية [١] .

كذلك أهمل المؤرخون ذكر مصاريف الصيانة ، وما كان ينفق على خزائن القصور ، وكم كانت نفقات بعض المناسبات السنوية كالكسوة وغيرها فى الأعياد السنوية الدينية والقومية ، وما أنفق على الأيتـــام والأرامل من الفقراء .

إلا أن هذا لا يمنعنا من أن نقول إن نفقات الدولة فى أيام الدولة الفاطمية كانت كثيرة ، تدل عليها مظاهر الأبهة والعظمة التى تجلت فى البلاط الفاطمى ومواكبه ، وما كانت تحتويه قصوره من آلات الترف والزينة والتحف النفيسة ، وما كان فى خزائن قصره من جواهر وأسلحة وأشياء ثمينة وما كان يقدم فى أسمطته فى العيدين ورمضان والمواسم من مقادير وافرة من اللحوم والطيور وسائر الأطعمة الفاخرة [٢] ونلاحظ أيضا أنه كان هناك بيت مال عام للمسلمين وبيت مال خاص هو خزانة الخليفة ، وكانت وظيفة « صاحب بيت المال » [٣] أو « وكالة بيت المال » أيام الفاطميين من الوظائف الجليلة لا يتولاها إلا ثقة من الشيوخ العدول ، لأنه مستودع أموال المملكة فيفوض إليه الخليفة النظر فى شئون المملكة المالية والتصرف فيها لصالح الجماعة الإسلامية ، فكان يبتاع مايرى ابتياعه من الأشياء التى تملك ويجوز التصرف فيها شرعاً ويبيع مايرى بيعه منها ، ويعتق المماليك ، ويزوج الإماء وينشىء ما يحتاج إليه الخليفة من السفن والمبانى وغيرها ، وكان مرتبه الشهرى

---

(١) أرسل المعز لدين الله مثلا سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧١م) جراية القمح لأهالى الحجاز بمبلغ ٤٠٠ ألف درهم . ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٤٦

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٨٠

(٣) بمثابة وزير المالية فى العصر الحاضر

مائة دينار [١] وفى أيام جوهر كان « محمد بن الحسن بن مهذب » المغربى صاحباً لبيت المال ، واستمر فى هذه الوظيفة أيام الخليفة المعز لدين الله عند ما حضر لمصر ، ولذا كان هذا الخليفة يقول لصاحب بيت المال هذا « تقدم يامحمد بابتياع ، لنا ولمولاك عبد الله (اسم ابنه الأمير) فى كل يوم من الفاكهة الرطبة واليابسة كذا وكذا بسعر الناس ، ولا تعرف الرسول لئلا تقع محاباة ولا مسامحة ، وكذلك حوائج المطبخ » [٢] .

ففوض صاحب هذه الوظيفة على علو منزلته ، فى النظر فى شئون الخليفة المنزلية الخاصة . ومما يدل على علو منزلة صاحبها أن من يشغلها قد يرشح للوزارة فقد كان أمين الأمناء « أبو عبد الله الحسين ابن طاهر الوزان » قبل أن يخلع عليه الخليفة الحاكم بالوساطة والتوقيع عن الحضرة فى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢م) يتولى بيت المال ، ولما اختير للوساطة اختار أخاه « أبا الفتح مسعود » ليحل محله فى بيت المال [٣] .

كذلك كان «ابن دواس» هو صاحب بيت المال أيام الخليفة الحاكم ، فلما قتل الخليفة بايعاز من أخت هذا الخليفة ، تولى الوزارة [٤] . كذلك تولى «أبو على الحسن بن أبى سعد ابراهيم بن سهل التسترى » بيت المال ثم ولى الوزارة سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٣م) [٥] . ونلاحظ أنه كان يقضى دين المدين من بيت المال فنجد مثلا أن الخليفة العزيز بالله قضى من بيت المال ما على يعقوب بن كلس وزيره وقدره ستة عشر ألف دينار وأعطاها لدائنيه التجار على قبره [٦] كذلك جعلوا للفقير والمحروم حقاً فى بيت المال ولو كان ذمياً [٧] .

---

(١) المقريزى « الخطط » جـ ٢ ص ٢٤٣

(٢) « « اتعاظ الحنفا » ص ٩٠

(٣) ابن منجب « الاشارة » ص ٢٩

(٤) « « ص ٣٢

(٥) « « ص ٥٢

(٦) « « ص ٢٣ والعينى « عقد الجمان » القسم الثالث من جـ ١٩ ورقة ٤٢٠

(٧) رأينا حكماً أثناء اشتغالنا بالمحاماة لأحد حضرات القضاة الشرعيين يلزم فيه وزير المالية المصرية بالنفقة على أسرة عجز عائلها عن الكسب ، لأن الاسلام أوجب ذلك .

وكان من أعمال صاحب بيت المال ، وكان من الأساتذة المحنكين ، أن يفرش مصلى الجامع أيام ركوب الخليفة فى يومى عيدى الفطر والنحر بالطراحات فى المحراب على رسمها ، ويعلق سترين على المحراب يمنةً ويسرةً ويكون ممن يكونون فى خدمة الخليفة .

كذلك كان يحضر صاحب بيت المال للإيوان الكبير عندما يكون الخليفة فيه ، وعلى ذلك نرى أن وظيفته لم تكن مالية فقط بل كانت أيضاً تجمع فى ثناياها عدة أمور لا تمت للمال بصلة ، وأحياناً اتخذت الدولة الفاطمية ناحية من نواحى بيت المال لدفن العظماء ، كما حدث أيام الخليفة الظافر بأمر الله حيث وضع رأس العادل بن السلار وزيره بعد قتله فى بيت المال حيث وضعت فى خزانة الرؤوس [١] .

وكان الخليفة باعتباره الرئيس الروحى للمسلمين ، يقوم بنفقات المساجد وموسم الحج من ماله الخاص ، وإن كان انفصال البيتين مسألة تتعلق بضمير الخليفة ، فيحدثنا ناصرى خسرو - الذى زار مصر أيام الخليفة المستنصر - أنه سمع أنه فى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله أتى أحفاد ابن طولون وباعوا له جامع ابن طولون بمبلغ ٣٠ ألف دينار مغربى ، ولما أرادوا هدم مئذنته التى لم تكن قد بيعت ، منعهم الحاكم بأمر الله وأعطاهم عوضاً عنها خمسة آلاف دينار ، وبذلك اشترى أيضا منهم المئذنة .

كذلك دفع الخليفة الحاكم بأمر الله مائة ألف دينار لأحفاد عمرو بن العاص ثمناً لمسجد عمرو [٢] ، وفى هذين المثلين ما فيه الكفاية لإثبات أن الجوامع لم تكن مؤسسات عامة وإنما كانت مؤسسات خاصة ، حتى أمكن بيعها وشراؤها .

وجعل للنفقات ديوان على رأسه موظف كبير ، تعرض علية نفقات

---

(١) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٩٢

(٢) الدكتور يحيى الخشاب « سفرنامه » لناصر خسرو ص ٦١ — ٦٣

الدولة ، ويعاونه بعض الموظفين ، ويحدثنا النويرى [١] أن الحاكم بأمر الله بعد أن صرف الجرجراى عن الوزارة ولاه « ديوان النفقات » سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥م) ، فكان هـذا الديوان على ذلك فى مرتبة توازى الوزارة شأناً ورفعة .

نقد سياسة الفاطميين المالية : قلنا إننا لم نعثر فى كتب المؤرخين على احصاء دقيق منظم يبين أبواب المصروفات وأبواب الإيرادات ، حتى يمكن موازنة النفقات (الخراج) بالارتفاع (الدخل) ، لنعلم مدى الوفر على مر السنين ولكننا نجد فى ثنايا الكتب ما يدل على وجود دواوين أعدتها الدولة الفاطمية لتشرف على مراجعة الأعمال المالية فيها ، فمثلا كان « ديوان التحقيق » [٢] مختصا بالمقابلة على الدواوين ومراجعة أعمالها والتحقق من انتظامها ، ولا يتولاه إلا كاتب خبير يناط به مراجعة وتنظيم مصروفات الحكومة الفاطمية وكان يتقاضى صاحبه المسمى « متولى ديوان التحقيق » خمسين ديناراً شهرياً [٣] وله الخلع ومرتبة يجلس عليها ، وله حاجب يقف بين يديه [٤] .

وفى سنة ٥٠١ هـ جدده الأفضل بن بدر الجمالى ، واستخدم فيه وأبا البركات يوحنا بن الليث ، النصرانى ، وبقى فيه حتى قتل سنة ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) [٥] ولم يزل هذا الديوان موجوداً حتى زالت الدولة الفاطمية ، كذلك أشرف « ديوان المجلس » [٦] فى أيام الدولة الفاطمية على دواوين الدولة المالية ، فكان يعمل أرباب كل ديوان بالدولة ارتفاع مايجرى فيه وما عليه من النفقات ، ثم يقدمه إلى « متولى ديوان المجلس » [٧] وعلى ذلك كانت الدواوين مطالبة بأن

---

(١) « نهاية الأرب » ج ٢٦ ورقة ٦٤ وابن منجب « الاشارة إلى من نال الوزارة » ص ٣٥

(٢) لعله يشبه الآن ديوان المحاسبة

(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٥٢٦ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٤٣

(٤) « « « « ج ٣ ص ٤٩٣ « « ج ٢ ص ٢٤٢

(٥) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٤٢

(٦) لعله بمثابة وزارة المالية عندنا اليوم

(٧) المقريزى « الخطط » ج ١ ص ١٦٠ و ١٦١

تعد بياناً بإيرادها لتقديمه لهذا الديوان ، حتى يقوم بعمل «قدر ارتفاع الدولة» ثم يرفع متولى هذا الديوان بعد ذلك بياناً مفصلا للخليفة أو للوزير ليقره أو يعدله بالزيادة أو الحذف ، وكان يدوّن بهذا الديوان ما ينفق فى عيد الفطر وفى فتح الخليج ، وأسمطة رمضان وسائر المآكل والمشارب ، كما يدون ما يطلق من الاهراء [١] من الغلات لأولاد الخليفة وأقاربه وأرباب الرواتب على اختلاف الطبقات من المرتّب ، وما يرد من الملوك من الهدايا والتحف وما يبعث به إليهم من الملاطفات ، وما يخرج من الأكفان لمن يموت من أرباب الجهات المحترمات [٢] ، وكان يضبط فى هذا الديوان حساب ما ينفق فى الدولة من المهمات ، ليعلم ما بين السنة والأخرى من التفاوت ، وغير ذلك من الأمور الهامة . ولما أراد « اليازورى » وزير المستنصر ، أن يعرف قدر ارتفاع الدولة وما عليها من النفقات ليوازن بينهما ، تقدم إلى أصحاب الدواوين بأن يعمل كل منهم ارتفاع ما يجرى فى ديوانه وما عليه من النفقات ، ولما عملوا هذا وهو ما يسمى اليوم بالميزانية ، سلّمه إلى « متولى ديوان المجلس » لأن ديوانه « أصل الدواوين ومرجعها كلها وزمامها » فرأى ارتفاع الدولة ألفى ألف دينار (حوالى ١,٢٠٠,٠٠٠ ج . م) وكان خراج الشام وحده نصف ذلك المبلغ أى ألف ألف دينار ، تصرف منه رواتب وكساوى قدرها ثلثمائة ألف دينار (١٨٠,٠٠٠ ج . م) وثمن غلة للقصور مائة ألف دينار (٦٠,٠٠٠ ج . م) ونفقات لها قدرها مائتا ألف دينار (١٢٠,٠٠٠ ج . م) ، وصرف للعمائر وما يقام للضيوف الواصلين من الملوك الأجانب وغيرهم مائة ألف دينار (٦٠,٠٠٠ ج . م) ، وما يتبقى بعد ذلك من الدنانير يحمل كل سنة إلى بيت المال .

ولما طرد اليازورى وحدثت الفتن المعروفة وحلت الشدة العظمى انحط

---

(١) بالفتح جمع هرى بالضم ، وهو بيت كبير يجمع فيه الطعام . ويريد المقريزى فى « خططه » جـ ١ ص ٤٦١ أنها الأماكن التى تخزن بها الغلال والأتبان الخاصة بالسلطان احتياطاً للطوارىء

(٢) المقريزى « الخطط » جـ ١ ص ٣٩٨

خراج البلاد ، فمثلا كان ارتفاع الأرض السفلى (الوجه البحرى) ٦٠٠,٠٠٠ دينار فاتضع ذلك الارتفاع حتى كاد لا يبلغ المائة ألف دينار ، ولما ولى بدر الجمالى ارتفع الخراج سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) إلى ٣,٢٠٠,٠٠٠ دينار بفضل اعتنائه بالزراعة والتجارة وحسن إدارته ، وفى عهد الأفضل بن أمير الجيوش بلغ ٥,٠٠٠,٠٠٠ دينار ومتحصل الأهراء ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار ، وفى سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) حلت الاقطاعات جميعها وروكت روكا[١] جديدا فعادت الفائدة على المقطعين وعلى الديوان ، وبذلك حصل للديوان من ذلك ٥٠,٠٠٠ دينار وبالجملة فقد كان يناط بـ « صاحب ديوان المجلس » عمل « الاستيمار السنوى » وهو ما نسميه اليوم بالميزانية السنوية ، وكان هو المتحدث فى شئون الاقطاعات والأرزاق لدى الخليفة مباشرة وكان يخلع عليه وتخرج له دواة من خزانة الخليفة وله المرتبة والمسند وحاجب يقف بين يديه ، ويعاونه فى القيام بمهام هذه الوظيفة « صاحب دفتر المجلس » وهو من الأساتذة المحنكين ، وكما كان « صاحب ديوان المجلس » من أجل " كتاب الدولة ، كذلك كان معاونه أيضا من أجل كتاب الدولة[٢] ، وكان يتقاضى « صاحب دفتر المجلس » خمسة وثلاثين دينارا شهريا أما « متولى ديوان المجلس » فكان يتقاضى أربعين دينارا شهريا[٣] .

ونلاحظ أن الإدارة المالية الشاملة لعدد من الدواوين فى الدولة الفاطمية لم تصل فى بعضها إلى تعيين الحدود الفاصلة بين الواحدة والأخرى بدقة ، إذ بينما نجد « ديوان الاقطاع » هو المتحدث صاحبه فى شئون الاقطاعات ، نجد أن صاحب « ديوان المجلس » أعطى أيضا سلطة التحدث فى شئون الاقطاعات كذلك وجد « ديوان المراتب » أحد الدواوين الملحقة : بـ « ديوان الجيش »

---

(١) الروك : كلمة من أصل قبطى يقصد بها مسح الأرض وتقدير خراجها ومنها راك الأرض مصر
Il fit Le cadastre des terres de l' Egypte

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٩٤ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٣٦ والمرحوم الأيوبى « الفاطميون » ج ٢ ص ١٤٨ و ١٥٠

(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٥٢٦ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٤٣

ليكتبوا فيه كل جندى وجاريه ، وكان الأولى أن يكون مستقلا عن « ديوان الجيش » لأنه كان المختص بالنظر فى الأرزاق والجرايات لجميع الموظفين ، إذ كان يثبت فى دفاتره المبالغ والمقادير المخصصة لأرباب الرواتب عموماً .

كذلك نلاحظ ارتباط الديوان بالآخر وعدم استقلاله فيما نيط به من عمل ، فمثلا نجد أن كلا من « ديوان التحقيق » و « ديوان المجلس » غير منفصلين تماما فى أغراضهما الأساسية ، وهى مراجعة أعمال الدواوين الأخرى ، وتحقيق التوازن بين موارد الدولة ومصارفها ، ومع ذلك فقد كانت هذه الدواوين المالية منتظمة يضبط فيها حسابات الدولة كل فيما يخص موضوعها ، وترتبط ارتباطا وثيقا بالادارة الحكومية المركزية ، وتقوم بصيانة المال وحفظه والتصرف فيه ، حسبما تقتضيه مصلحة البلاد العامة .

وهناك ظاهره تستلفت النظر لباحث النظام المالى فى عهد الدولة الفاطمية إذ لا يجد فى الغالب فاصلا يفصل بين دواوين المال ، فكان « ديوان النظر » « خلاصة دواوين الأموال » ، وكان صاحبه من أصحاب المناصب الرفيعة ، وله الحق فى عزل من يرى عزله وتولية من يرى توليته من موظفى دواوين الأموال وكان عليه أن يعرض الأوراق المختصة بإدارته على الخليفة فى أوقات معروفة ويحث صاحبه على طلب الأموال ، وكل ما نعرفه عنه عبارة عن بيانات قليلة يتعذر معها مقارنته بغيره من دواوين المال التى كان له على ما يظهر الاشراف عليها ، بل لم تتعرض الكتب القديمة التى وصلت إلينا حتى بموازنة اختصاصه بـ « ديوان النظر » ، أو « المكاتبات » ، أو « المراجعات » الذى كان موجوداً أيام العباسيين ، والذى كان يقسم إلى أربعة أقسام : « ديوان الجيش وفيه الاثبات والعطاء ، وديوان الأعمال ويتولى الرسوم والحقوق ، وديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل ، وديوان بيت المال وينظر فى الدخل والخرج[1] .

---

(١) الدكتوران حسن وعلى ابراهيم حسن « النظم الاسلامية » ص٢٢٣ والدكتور حسن ابراهيم حسن « تاريخ الاسلام السياسي » ج ٢ ص ٢٠٥ والمرحوم الأيوبى « الفاطميون » ج ٢ ص ١٥٤

الباب الثالث

السلطة القضائية

أهم المناصب الدينية: ١ - قاضي القضاة :

١ - آداب القاضي ورسومه وألقابه : [١] كان القاضي يختار ممن يتوسم فيهم العلم بكتاب الله وسنة رسوله ، وكان يزكيه أن يكون رجلا عفيفاً ورعاً تقياً لا تأخذه فى الله لومة لائم [٢] حتى يكون قمينا بأن يوكل إليه النظر فى الأنفس والأعراض والأموال ، وإذا جلس للقضاء وجب أن يكون متنبها باذلا كل قواه الفكرية إلى تفهم الدعوى ، منصرفاً بكله إلى عمله ، متتبعاً لأقوال الخصوم ، لا يسمح لفكره أن يتعدى جو الجلسة ، لا يضجر ولا يتأذى بالخصوم لرثاثتهم . أو لارتفاع أصواتهم ، بل يجعل لكل خصم حريته فى الدفاع عن نفسه ، يتساوى أمامه الذمى والمسلم والرفيع والوضيع والشريف والخليفة [٣] ، إن ضحك لخصم وجب أن يضحك للخصم الآخر

(١) ابن النعمان « كتاب دعائم الاسلام » ورقة ٢٢٨

(٢) قال النبي صلى الله عليه وسلم « من استعمل رجلا (أى قلده عملا) من عصابة (جماعة) وفيهم من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » . « الجامع الصغير » (طبعة الحلبى ج ٢ ص ١٣٨

(٣) وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « سوّ بين الخصمين فى لحظك ولفظك » وقال أيضا عليه السلام « فاذا جلس بين يديك الخصمان فلا تقض حتى تسمع كلام الآخر كما سمعت كلام الأول ، فانه أحرى أن يتبين لك وجه القضاء » . أخرجه أبو داود والترمذى من وصيته صلى الله عليه وسلم للامام على حين بعثه قاضيا إلى اليمن . « تيسير الوصول » (المطبعة السلفية أولى ج ٤ ص ٥٤

حتى لا يسىء إلى أحدهما فيقعد عن الإدلاء بحجته ويترك الحق لصاحبه. فالمساواة بين الناس فى مجلس القضاء تكون فى وجهه ومجلسه وقضائه، «حتى لا يطمع شريف فى حيفه ولا ييأس ضعيف من عدله»، فمتى خص أحد الخصمين بالدخول عليه أو القيام له أو الإقبال عليه أو البشاشة له، وجب أن يخص الخصم الآخر أيضا بذلك، لأن هذا كله عنوان نزاهته، لذلك كان يقول الأمام على كرم الله وجهه «اخفض لهم جناحك، وألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك، آس بينهم فى اللحظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء فى حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم». لذا كان يراعى فى اختيار القاضى سعة الصدر وضبط النفس، وأن يكون قد حنكته التجارب. ليكون ذا معدلة فى أحكامه، متمكناً من الأحكام الفقهية ومعرفة تطبيقها، لا يسمع الدعوى لأحد الخصمين إلا بحضور الخصم الآخر ليجيب على تلك الدعوى فتتعادل كفتا الميزان.

إذ لما قلد رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام على كرم الله وجهه قضاء اليمن قال له: «إذا حضر خصمان بين يديك، فلا تقض لأحدهما حتى تسمع كلام الآخر»[1].

وكانت أخص صفات القاضى سعة الصدر وهدوء الأعصاب والاستماع لما يقال فى مجلس القضاء، وأن يكون حريصاً على كرامته، شاعراً بعظيم مسئوليته، لا يحكم وهو غضبان، لقوله عليه الصلاة والسلام «لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان»[2]، يقرأ أوراق الدعوى بدقة وعلى مهل، لا يتسرع فى حل النزاع، ولا يبطىء فيه، بل يكون بين ذلك قواما، وأن يكون خادماً مطيعاً للقانون الشرعى وروحه، لأنه هو المكلف بأن يقول رأى الشريعة الغراء فى النزاع المعروض عليه، باذلا عقله وضميره وقلبه وتجاربه

---

(١) الماوردى «الأحكام السلطانية» (طبعة ١٣٢٨ هـ) ص ٥٥

(٢) صحيح مسلم جـ ٥ ص ١٣٢ وأبو داود ص ١٤٩ والترمذى ص ١٥٩

وعلمه وجميع مواهبه ليكون حكمه عنوان الحق والعدل ، فلا يتذبذب وجدانه ولا يضعف إيمانه حيال ما يعتقد أنه الحق .

وكانوا يتطلبون من القاضى ألا يكون عابس الوجه مقطباً خشن العبارة ، حتى لا يؤثر بالخوف والإضطراب على المحق من الخصوم فيمنعه ذلك من أن يدلى بحجته ، فقد قال تعالى : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك »[١] ، وعليه ألا يؤثر على الخصوم أو الشهود بأى تأثير ، أو يستخرج منهم بأى طريقة الإجابة التى يريدها ، وكان القاضى مأموراً بدعاء الخصمين إلى الصلح ، ولا غرو فالنبى عليه السلام يقول « الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالا وأحل حراماً ، والمسلمون على شروطهم ، إلا شرطاً حرم حلالا أو أحل حراماً »[٢] .

وكانوا يتطلبون من القاضى أن يترك المُزاح والهزل إذا ما جلس على منصة القضاء ، حتى يكون لمجلسه هيبة ورهبة ، فقد سمع مثلا الخليفة الحاكم بأمر الله بأن هنـاك قاضياً فى مملكته يثبت فى قلنسوته قرنى ثور لينطح بها المعاند من المتخاصمين ، فلام القاضى[٣] .

ولما حضر إلى القاضى « احمد بن أبى العوام » المتوفى سـنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) « الأحزم » ، وكان رجلا مقرباً إلى الخليفة الحاكم بأمر الله ورفع إليه فتوى مصدرة « باسم الحاكم الرحمن الرحيم » ، أوقفه عند حده[٤] وهى حادثة تدل على سمو القضاء وعلو منزلته ونزاهته واستقلاله فى عمله .

ولما كان القاضى رمز العدالة وعنوان رقى الأمة ومظهر تقدمها ، كان من

---

(١) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران رقم ٣

(٢) رواه الترمذى وابن حبان وصححاه . بلوغ المرام (المطبعة السلفية أولى) ص ١٧٩ . هذا وقد أوجب قانوننا المصرى على قاضى المواد الجزئية أن يسعى فى المصالحة بين الأخصام فى أول جلسة يحضرون فيها أمامه

(٣) ابن اياس « بدائع الزهور » جـ ١ ص ٥٥ و ٥٦

(٤) أبو المحاسن « النجوم الزاهرة » جـ ٤ ص ١٨٣

الضرورى توفير الأسباب المؤدية لصون كرامته ، فيكرم حيث يجب التكريم ويعظم حيث يجب التعظيم ، فقد ارتفعت رتبة القاضى محمد بن النعمان الذى تولى قضاء مصر سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) لأن الخليفة العزيز بالله أجلسه معه يوم العيد على المنبر ، وكان يجالسه ويؤاكله ويركب معه ويسايره[١] .

ومن لم يحافظ على كرامته من القضاة عزل ، فقد حدثنا ابن ميسر[٢] أنه لما ولى الخليفة الحافظ قضاء القضاة للقاضى المعروف بابن الأزرق فى سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) ، وأضيف إليه تدريس دار العلم ، مضى إليها ، وكان مدرسها الفقيه « أبو الحسن على بن اسماعيل » ، فجرت بينهما مفاوضات أدّت إلى المصافعة والخصام ، فخرج القاضى إلى القصر ماشياً وقد تخرّقت ثيابه وسقطت عمامته ، ولما علم الخليفة الحافظ بذلك ، عظم عليه خروج القاضى فى الأسواق على تلك الهيئة ، فصرفه عن الحكم وغرمه مائتى دينار وألزمه داره .

وكان القاضى يقرب من أولى الأمر ليأمن سعاية الناس به عندهم ، إتباعاً لنصيحة الإمام علىّ فى رسالته للأشتر النخعى حيث يقول : « واعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك » .

وكانت وظيفته تُحاط بالهيبة وتقرن بالإجلال ، إذ « لما ورد المعز لدين الله استقبله الناس على طبقاتهم مشاة ، فلما رأوه قبّلوا الأرض بين يديه كلهم سوى القاضى أبى الطاهر ، فإنه كان راكباً ولما قرب ترجل وسلم عليه ولم يقبل الأرض ، فالتفت المعز إلى خواص صحابه وقال : من هذا الذى

---

(١) ابن حجر « رفع الأصر » ورقة ١٩٦ والسيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ٩ وترجمته فى ذيل « كتاب قضاة مصر » للكندى ص ٤٩٥ و ٥٩٢ . وقد توفى القاضى محمد سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٨ م) . ابن منجب ص ٢٦

(٢) « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٨٣ و ٨٤ والنويرى «نهاية الأرب» ج ٢٦ ورقة ٩١ وابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٨٢

خالف الناس كلهم ؟فقيل « قاضى مصر ، وهو من أهل العلم والدين » ثم لامه أحد الحجاب سراً فيما فعل ، فرفع صوته وقال جهراً بحيث يسمع المعز « وما هذا؟» أهو الشمس التى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها » وقال الله تعالى : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون »[١] . فأرضاه بذلك واستحسن قوله ، فرجع وهو قاض ، وعلت منزلته »[٢] .

وكان منصب القاضى يبعث الرهبة فى النفوس ، كما كان شخصه محل احترام الجميع ، فمثلا خرج الخليفة المعز عندما مات قاضيه « النعمان بن محمد أبو حنيفة » سنه ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) وصلى عليه وأضجعه فى التابوت[٣] وكان « برجوان » يعود القاضى « محمد بن النعمان » فى كل خميس مع عظمة برجوان ، ولما مات هذا القاضى سنة ٣٨٩ هـ ركب إليه الخليفة الحاكم بأمر الله وصلى عليه فى داره[٤] .

وكان القاضى « الحسن اليازورى » يستشيره الخليفة ، كما كان الوزير لا يقطع أمراً بدون استشارته ، ثم صار الخليفة المستنصر لا يخاطب الوزير إلا على لسانه ، وكان إذا خرج هذا القاضى من عند المستنصر مشى جميع أهل الدولة فى ركابه[٥] ، كذلك كان الخليفة العاضد لدين الله يعظم القاضى « الأعز الحسن بن العوريسى » الإسماعيلى المذهب الذى تولى

---

(١) الآية ٣٧ من « سورة فصلت » رقم ٤١

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن « الفاطميون فى مصر » ص ١٨٩ و ١٩٠ نقلا عن المقريزى « المقفى الكبير » ورقة ١٨٢

(٣) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٤٦

(٤) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٤٦ وابن حجر العسقلانى « رفع الاصر » ورقه ٢٥٥

(٥) ابن حجر « رفع الاصر » ورقة ٨٣ و ٨٤

قضاء مصر فى ربيع الأول سنة ٥٥٩ ﻫ (١١٦٣ م) .[١]

وأما الشروط التى كانوا يشترطونها فيمن يولى القضاء فكثيرة : وهى أن يكون حراً (لأن العبد لا يملك الولاية على نفسه فمن باب أولى لا يملكها على غيره) ، عاقلا ، بالغاً (لأن غير البالغ لا يؤخذ بقوله على نفسه فمن باب أولى لا يؤخذ به على غيره) ، مسلماً ، فقد قال تعالى : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا »[٢] ، عادلا ، ويفسر الماوردى العدالة بقوله : « والعدالة أن يكون صادق اللهجة ظاهر الأمانة ، عفيفاً عن المحارم ، متوقياً المآثم ، بعيداً من الريب ، مأموناً فى الرضا والغضب ، مستعملا لمروءة مثله فى دينه ودنياه[٣] » ، سليم السمع والبصر واللسان وهى اللياقة الطبية ، عالماً بالأحكام الشرعية ، غير محدود فى قذف ، وأن يكون رجلا فالذكورة واجبة فيه[٤] ، فإذا توفرت أهلية القاضى هذه تطلبوا فى قاضيهم أيضاً أن يكون متصفاً بصفات حميدة منها العدل والذكاء والعلم والمعرفة والورع والخوف من الله والاستقلال فى الحكم عن الغير[٥] .

وإذا جلس القاضى للحكم فلا يسلم على الخصوم ولاهم يسلمون عليه ، ولا يقوم لأحد وهو جالس فى مجلس القضاء مطلقا مهما سمت منزلة القادم[٦]

---

(١) ابن حجر « رفع الاصر » ورقة ٨٢

(٢) الآية ١٤١ من « سورة النساء » رقم ٤

(٣) الماوردى « الأحكام السلطانية » (طبعة ١٣٢٧ ﻫ) ص ٥٣ و ٥٤

(٤) ابن عابدين « كتاب رد المحتار على الدر المختار » ج ٤ ص ٤١٤ ومؤلفنا « القضاء فى الاسلام » ص ١٦٤ و ١٦٥ والأستاذان الشيخان محمد زيد بك الأبيانى ومحمد سلامة بك « كتاب المرافعات » (طبعة ١٩١٣ م) ص ١٧٩ والعمرى « ذخيرة الأعلام » المخطوط ورقة ١٧٦

(٥) وقال الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١ ﻫ و ٧١٧ ـ ٧٢٠ م) « إذا كان فى القاضى خمس خصال ، كمل : علم بما كان قبله ، ونزاهة عن الطمع ، وحلم على الخصم ، واقتداء بالأئمة ، ومشاركة أهل العلم والرأى »

(٦) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٨٧

ويقـــدم القاضى الخصوم على مراتبهم فى الحضور ، وإن تساووا فى الحضور أقرع بينهم ، فيقدم من خرجت قرعته ، إلا إذا رأى ظروفا تستدعى غير ذلك .

وكان يكتب كاتب الجلسة على ظهر الصحائف خصومة فلان بن فلان فى شهر كذا فى سـنة كذا ويجعله فى قمطره (١) ، ويكتب نظام نظر القضايا اليومى وهو ما نسميه بثبت الجلسة (الرول) ، وكانت جلسات القاضى للحكم علنية حتى ولو كان أحـد الخصوم الخليفة نفسه (٢) ، واختاروا المسجد الجامع (٣) ليجلس القاضى فيه ، حتى لا يمنع أحد من المسلمين من الدخول فيه

وفى سنة ٤٠٢ هـ (١٠١١ م) خاصم تاجر فاكهة الخليفة الحاكم بأمر الله أمام القاضى لأنه أمر أحـد عماله بابادة فاكهته ، وطالب الخليفة بتعويض قدره ألف قطعة من الذهب ، فعامل القاضى الخليفة معاملة خصمه وواجهه بالتهمة فلم ينكرها ، وصرح للقاضى أنه فعل ذلك خوفا من أن يستعملها الخصم خمراً ، ووعد بدفع مبلغ التعويض المطلوب إن حلف خصمه بأن فواكهه كانت ستستعمل للأكل فقط ، فحلف التاجر ، وبذلك استولى على التعويض من الخليفة (٤) .

وكما كانت مجالس القضاء تعقد بجامع عمرو والجامع الطولونى والجامع

---

(١) السرخسى « المبسوط » جـ ١٦ ص ٩٤ والدكتور عبد الفتاح السيد بك « الوجيز » ص ٢١ وما بعدها .

(٢) البيهقى « المحاسن والمساوىء » (طبعة شقالى) ص ٥٣٢

(٣) كان للمسجد الجامع أهمية رسمية خاصة ، ففيه يجلس قاضى القضاه فى أيام معينة . الكندى ص ٦٠٠ — ٦١١ وفيه مركز المحتسب العام . المقريزى « الخطط » جـ ٢ ص ٣٤٢ . وفيه يعقد مجلس الخليفة أحيانا ، وبه يعقد ديوان الخراج ، وبه تتلى الأوامر والسجلات والأحكام وبه مركز الحلقات العلمية والأدبية ، ومكان الخطب والدعوات ، ومنبر الجمع والمواسم والأعياد . القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٤٨٧ والمقريزى « الخطط » جـ ١ ص ١٣٢ و جـ ٤ ص ١٦ و ٤٣ والأستاذ عنان « تاريخ الجامع الأزهر فى العصر الفاطمى » ص ١٤

(٤) O,Leary, A Short History of the Fatimid khalifate p. 165

الأزهر ، كذلك كانت تعقد فى دار القاضى أحيانا (١) ، بعد أن يأذن للناس فى الدخول ، وقد ينتقل القاضى لمكان النزاع إذا لزم الأمر معاينته . ونعجب كيف سمح للقضاة بأن يجلسوا فى مساجد الله ليقضوا بين الناس فيها فتدخل عليهم المرأة الحائض والرجل الجنب ومن لا يحترز من النجاسة ، وقد ترتفع الأصوات فيها وتكثر .

وإذا فات هذا خليفة المسلمين الفاطمى كما فات القاضى نفسه ، فكيف فات ذلك المحتسب ، الذى كان حاميها من غشيان الباعة والمتطفلين ، والمكلف شرعا بمنع مانهت عنه الشريعة الغراء (٢) ، فقد كان قاضى القضاه يجلس يومى السبت والثلاثاء بزيادة جامع عمرو بمصر على طراحة ومسند حرير ، وكان إذا جلس بالمجلس جلس الشهود حواليه يمنة ويسرة على مراتبهم فى تقدم تعديلهم وببابه خمسة حجاب ، اثنان بين يديه واثنان على باب المقصورة وواحد ينفذ الخصوم (٣) ، وأمام قاضى القضاة كانت توضع الدواة على كرسى ، وهى دواة محلاة بالفضة تحمل إليه من خزائن القصور (٤) .

وكانت عادة المتحاكمين أن يتقدموا للقاضى برقاع فى الرقعة منها اسم المدعى واسم خصمه وأبيه ، فيأخذها الكاتب عند باب المسجد قبل مجىء القاضى حتى حضوره ، وإذا كانت الرقاع كثيرة لا يقدر القاضى أن يفصل فيها فى يوم واحد ، فرقها على أيام (٥) .

وبعد أن كان المتحاكمون فى العصر الأول الإسلامى يبسطون قضيتهم

---

(١) « طبقات السبكى » ج ٢ ص ١١٤ ومتز « الحضارة الإسلامية » ص ٣٧٠
(٢) السيزرى « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » ورقة ٥١
(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٨٧
(٤) المقريزى « الخطط » ج ١ ص ٤٠٣ ومتز « الحضارة الاسلامية » ص ٣٧٠
(٥) متز « الحضارة الاسلامية » ص ٣٦٨ و ٣٦٩ نقلا عن « كتاب أدب القاضى » المخطوط بمكتبة ليدن رقم ٥٥٠ ص ١٩

أمام قاضيهم وهم وقوف بين يديه [١] ، صار الرسم أن يجلس المختصمون بين يدى القاضى صفاً متساوين [٢] .

وكان قضاء القاضى لا ينقضه هو ولا ينقضه قاض آخر إذا كان موافقاً للشرع وداخلا فى سلطة ولايته واختصاصه [٣] ، وإلا كان الحكم محلا للطعن كما إذا ظهر أن البينة شهدت على خلاف المحسوس مثلا [٤] ، وكان للقاضى مطلق الحرية فى الحكم فى المستقبل بما يخالف ما حكم به أولا فى نزاع مشابه ، ولا غرو فقد كان كل من الإمام على ومن قبله عمر بن الخطاب يقول « تلك على ما قضينا وهذه على ما نقضى » [٥] .

ومع ذلك فقد كان الإمام على يمقت الاختلاف بين الفقهاء والمفسرين فى الفتيا ، إذ يقول : « ترد على أحدهم القضية فى حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه ، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذى استقضاهم فيصوب آراءهم جميعا ، وإلههم واحد ونبيهم واحد وكتابهم واحد » ، والله سبحانه يقول « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » [٦] ، وقال : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء » [٧] .

وكانت هناك سجلات لتقيد فيها الأحكام [٨] ، وأعطى المحكوم له صورة مكتوبة من الحكم ليستوفى بها ماله عندما ينفذ على خصمه .

---

(١) الكندى ص ٣٥٦

(٢) « ص ٣٧٤ — ٣٧٦ والبيهق « المحاسن والمساوىء » ص ٥٣٣ ومتز « الحضارة الإسلامية » ص ٣٧١

(٣) الأستاذان الشيخان زيد بك وسلامه بك « مباحث المرافعات » (الطبعة الثانية) ص ١٨٣ .

(٤) الدكتور عبد الفتاح السيد بك « الوجيز فى المرافعات المصرية » ص ٢٤ و ٢٥

(٥) الماوردى « الأحكام السلطانية » (طبعة ١٣٢٧ هـ) ص ٥٦

(٦) الآية ٣٨ من سورة الانعام رقم ٦

(٧) الآية ٨٩ من سورة النحل رقم ١٦

(٨) نشأ مبدأ تسجيل الأحكام عندما حكم سليم بن عتر التجيبى قاضى مصر فى خلافة معاوية ابن أبى سفيان (٤٠ — ٦٠ هـ و ٦٦٠ — ٦٨٠ م) فى ميراث بين ورثة متخاصمين ثم تناكروا الحكم فعادوا اليه فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه وأشهد فيه قادة الجند فكان هذا القاضى أول قاض دون الأحكام بمصر . الكندى ص ٣٠٩

وجُعل لكاتب القاضى قمطر ، فكان يختمها فتودع ، فاذا جلس أحضرت[١] .

وكان القضاة محاطين بطائفة من رجال العلم والفقه يعرضون عليهم ما أشكل عليهم من المسائل علهم يجدون عندهم حلا لما يستغلق عليهم ، عملا بقوله تعالى لنبيه الكريم « وشاورهم فى الأمر »[٢] .

واستعان القاضى بمترجم أو أكثر إذا كان بين الخصوم أو الشهود من لا يعرف العربية[٣] ، واشترط فى المترجم أن يكون ثقة عفيفا عدلا أمينا وكان على القاضى أن يتخذ كاتبا لمجلسه ليدون كلام الخصوم والبيانات أثناء الجلسة ، وكان يجب أن يكون مجلسه قريبا من مجلس القاضى ، حتى يرى القاضى — وهو المسيطر على الجلسة — ما يكتبه خوفاً من أن يؤثر فيه أحد الخصوم برشوة ، فيزيد كلمة أو ينقص أخرى فتخل بالمعنى المقصود أو تضيع حقا ، وكان على الكاتب أن يقرأ ما كتب على الشاهدين ، حتى إذا وجدوا فيه خلافاً أخبروه به ليصححه[٤] ، وهو ما تأخذ به الشرائع الحديثة وكان يشترط فى الكاتب أن يكون ذا عفة وعدالة وأمانة .

وكان من أعوان القاضى الجلاوزة[٥] (الحجاب) ، وهم أمناء يقفون على باب مجلس القضاء وقت انعقاد الجلسة ، نيط بهم حفظ النظام للجلسات ومنع رواد المحاكم من المزاحمة والتقدم فى غير دورهم واستدعاء الخصوم الذين طلب القاضى استدعاءهم ، وإخراج من يرى القاضى إخراجه ، واشترط فى الحاجب ما اشترط فى أعوان القاضى جميعاً من الأمانة وغيرها من الصفات

---

(١) كان أول من جعل لكاتب القاضى قطراً هو محمد بن مسروق الكندى . الكندى ص ٣٩١ و٣٩٢

(٢) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران رقم ٣

(٣) اتخاذ الترجمان عادة جاهلية بقيت بعد الإسلام ، فزيد بن ثابت كان يترجم لرسول الله كلام من يتكلم باللغة العبرية بين يديه . السرخسى « المبسوط » ج ١٦ ص ٨٩ و « فن القضاء » ترجمة رشدى بك ص ٢١٢ و ٢١٣

(٤) السرخسى « المبسوط » ج ١٦ ص ٩٤ وعارف الكندى « القضاء فى الإسلام » ص ٣٦ و ٣٧ ومؤلفنا « القضاء فى الإسلام » ص ١٤٩

(٥) كلمة جلواز كانت مستعملة بمصر فى عهد احمد بن طولون مكان كلمة حاجب

الحسنة ، حتى لا يرتشى فيقدم من لا يستحق التقديم ، خصوصا وهو المنوط به حراسة باب القاضى وطلب الإذن منه للزائرين ، سواء أكانوا من أرباب القضايا أم من غيرهم ، لذلك تطلبوا فيه أن يكون من أهل الصلاح والتقوى حتى يعامل الناس بالرفق واللين فى غير ضعف ولا تقصير [١] .

وأما العدول فهم من أكبر أعوان القاضى ، وكان الأصل فى الناس العدالة ، فتقبل شهادة بعضهم على بعض إلا إذا سلبت الشريعة الغراء الفرد هذا الحق .

ولما فشت شهادة الزور أصبح القاضى لا يقبل شهادة إلا من عرف لديه بالسلامة ، فاذا كان الشاهد مجهولا ، لا يعرف ، سئل عنه جيرانه ، فما ذكروه به من خير أو شر عمل به[٢] .

ولما لم تنقطع شهادة الزور بهذا الإجراء أيضاً جعلوا القاضى نفسه منوطاً به التأكد من اتصاف الشهود بالعدالة الشرعية ، فكان التثبت من شهادة الشهود والمبالغـــة فى اكتشاف أمرهم وعدالتهم والبحث عن أحوالهم من واجبات القاضى ، فكان القاضى يتنكر بالليل ويغطى رأسه ويمشى فى السكك ليسأل عن الشهود[٣] وبذلك وجد جماعة من الشهود الدائمين أمام القاضى[٤] .

ولما لم يسمح وقت القاضى لهذا كله ، عين رجلا يسمى «صاحب المسائل»[٥] للوقوف على حقيقة الشهود ، فنيط به السؤال عن الشهود ومداومة السؤال

---

(١) تاج الدين السبكى «معيد النعم ومبيد النقم» ص ٨٦ وابن عرنوس «تاريخ القضاء فى الإسلام» ص ١٢٨ و ١٢٩

(٢) كان «غوث بن سليمان» فى خلافة المنصور أول قاض سأل عن الشهود بمصر فى السر ، فكان كل من عدل عنده ، قبله . الكندى ص ٣٦١

(٣) الكندى ص ٤٣٧ ومتز «الحضارة الاسلامية» ص ٣٧٥ نقلا عن قدامة بن جعفر «الخراج» المخطوط بباريز رقم ٥٩٠٧ ص ١٢ ب

(٤) وجد هؤلاء الشهود الدائمون أمام القاضى منذ عهد الخليفة المنصور (١٣٦—١٥٨هـ و٧٥٤ — ٧٧٥ م)

(٥) أول من استعمل هذا العامل (صاحب المسائل) هو المفضل بن فضالة (١٦٨—١٦٩هـ)

عنهم من وقت لآخر قدر بستة أشهر [١] ، ثم قيل إن هذا الموظف كان يرتشي من بعض الناس ليقرر عدالتهم لدى القاضي [٢] .

وكانت تكتب أسماء الشهود فى كتب [٣] ، فابتدأ أن يكون للقاضى بطانة من بين هؤلاء الشهود الذين يثق بهم وبشهادتهم .

أما العدول فقد زاد عددهم أو نقص ، تبعاً للاحوال والظروف حتى بلغوا نحو الثلاثين أحيانا [٤] .

وكان القاضى أيام الخليفة الفاطمى يختارهم ويعدلهم بنفسه ، ولم يعدل قاضى القضاة أحدا إلا بتزكية عشرين شاهدا وبعد موافقة الخليفة [٥] .

وكان الشهود يعزلون بعزل القاضى أو بموته ، لأنهم أعوانه ومكانة الثقة فى نفسه ، فلما تولى القاضى « عبد العزيز بن محمد بن النعمان » القضاء بمصر سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) أوقف جميع الشهود الذين قلدهم ابن عمه « الحسين بن على بن النعمان » ما عدا « شرف بن محمد المقرى » ، فانه استكتبه فى التوقيع وفى القصص [٦] .

كذلك أوقف القاضى « الحسين بن على بن النعمان » جماعة من شهود عمه « محمد بن النعمان » ذكر المسبحى أسماءهم وكانوا أربعة عشر شخصاً [٧] .

ولما أسقط القاضى « ابن أبى العوام » سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٨ م) جماعة من

---

(١) الكندى ص ٤٢٢

(٢) « ص ٣٨٥

(٣) أول من اتخذ الشهود وجعل أسماءهم فى كتاب ودونهم وأسقط سائر الناس هو القاضى « العمرى » قاضى مصر من قبل الرشيد سنة ١٨٥ هـ ، ولقد اقتفى أثره كل من جاء بعده . الكندى ص ٣٩٤

(٤) الكندى ص ٤٢٢ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٤٦

(٥) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٨٦ و ٤٨٧

(٦) ابن حجر ورقة ١٦٥

(٧) « ورقة ٨٢

الشهود وتظلموا للحاكم بأمر الله قال لهم الخليفة : « الذى عدّ لكم هو الذى أسقطكم » [١] .

وكان الشهود يختارون بالكثرة أو القلة التى يريدها الخليفة أو قاضى القضاة ، فمثلا نجد الحاكم بأمر الله يستكثر من الشهود فيعين فى الشرطة وفى كل بلد شاهدين من العدول ، ويأمر بألا يقام على ذى جريرة ومرتكبها حد إلا بعد أن يصح عند ذينك الشاهدين ، أنه مستوجب للحد [٢] .

واستكثر مثلا القاضى « محمد بن أبى الفرج » الذى تولى القضاء بمصر فى ذى الحجة سنة ٥١١ هـ (١١١٧م) من قبول الشهود ، حتى بلغت عدتهم فى زمانه مائة وعشرين شاهدا ، وكانوا قبله ثلاثين [٣] .

ويحدثنا ابن حجر [٤] بأنهم كانوا يعينون لهؤلاء الشهود رئيساً ، فقد كان « الحسن بن كهمش » أيام الخليفة المعز لدين الله هو كبير الشهود ووجيههم والمقدم عليهم .

ونيط بهؤلاء العدول الشهادة ، وكانوا يراجعون السجلات والعقود للوقوف على مبلغ دقتها ومطابقتها للشرع ، وتزكية الشهود الذين يشهدون عند القاضى (لأن القاضى إنما يحكم بالبينة التى تحضر أمامه ، وليس له أن يلزم المدعى إحضار من يزكى من شهوده) ، وعهد إليهم أحياناً بأمور تتطلب الأمانة والذمة ، ففى سنة ٤٠٢ هـ (١٠١١ م) مثلا أنفذ الحاكم بأمر الله الشهود إلى الجيزة لقطع ما بها من الكروم ورميه ، لأن هذا الخليفة نهى عن الزبيب قليله وكثيره [٥] .

---

(١) الكندى ص ٦١٢ وابن حجر « رفع الإصر عن قضاة مصر » ورقة ٤٦

(٢) الكندى ص ٥٩٦ ومتز « الحضارة الاسلامية » ص ٣٧٧ نقلا عن ابن حجر « رفع الاصر » المخطوط رقم ٢١٤٩ باريز ص ١٢٨ ويحيى بن سعيد ص ١٢٣

(٣) ابن حجر « رفع الأصر » ورقة ٢٥٦

(٤) « ورقة ١٣٢ و ١٩٥

(٥) ابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ٣ ص ٥

واشترط فى الشاهد أن يكون عادلا نزيهاً ملماً بأحكام الفقه .

وكان من واجبات القاضى أن يتصفح أعمال هؤلاء العدول ويتحقق من حسن سيرتهم ليطمئن إلى عدالتهم [١] ، خصوصاً بعد أن اتسعت رقعة الدولة الفاطمية ، وكان القاضى يعمل برأيهم فيما له علاقة بالمتقاضين ، وكان من اختصاصهم أيضاً الشهادة على ما يصدره القاضى من الأحكام ، وأنه غير مخالف لأحكام الشريعة الاسلامية الغراء [٢] .

ويحدثنا ابن خلدون[٣] عن وظيفة من عدل فيقول : « هى وظيفة دينية تابعة للقضاء ومن موادتصريفه ، وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضى بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم ، تحملا عند الإشهاد وأداء عند التنازع وكتباً فى السجلات ، تحفظ به حقوق الناس و أملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم ، وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراءة من الجرح ، ثم القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عباراتها وانتظام فصولها ومن جهة أحكام شروطها الشرعية وعقودها ، فيحتاج إلى ما يتعلق بذلك من الفقه ، ولأجل هذه الشروط وما يحتاج إليه من المران على ذلك والممارسة له ، اختص ذلك ببعض الدول . ويجب على القاضى تصفح أحوالهم والكشف عن سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم واضطرار القضاة إلى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة ، فيعولون غالباً فى الوثوق بها على هذا الصنف ، ولهم فى سائر الأمصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها فيتعاهدهم أصحاب المعاملات للاشهاد وتقييده ، بالكتاب » .

---

(١) ابن عرنوس « تاريخ القضاء فى الاسلام » ص ١٣١ و ١٣٢

(٢) يشبه نظام هؤلاء الشهود بنظام المحلفين فى العصور الوسطى ، ولا يزال فى انجلترا إلى اليوم وإن كانت أعمال المحلفين الآن تختلف بعض الاختلاف عما كانت عليه فى العصور الوسطى . الدكتور حسن ابراهيم حسن « تاريخ الاسلام السياسى » ص ٥٧٦ و ٥٧٧

(٣) « المقدمة » (طبعة بيروت سنة ١٨٧٩ م) ص ١٩٥ و ١٩٦

ويمكننا أن نرجع مهمة العدول وعملهم إلى أمرين : أولهما كتابة العقود بين الناس فى معاملاتهم حسب ما تأمر به الشريعة الغراء ، وثانيهما : تزكية الشهود الذين يؤدون شهاداتهم أمام القاضى .

ويلبس العدول المناديل الطبقيات بالأحناك تحت حلوقهم [١] ولهم سجل تدون فيه أسماؤهم ورسوم (بروتوكول) فى جلوسهم مع القاضى .

وكثيرا ما ألزم القضاة الشهود بأن يركبوا معهم [٢] ، وكان جلوس الشهود حول القاضى يمنة ويسرة حسب تاريخ أسبقية التعديل لا السن ليشاهدوا ما يقع من أحكامه ، فالشاب المتقدم التعديل يجلس أعلى من الشيخ المتأخر التعديل [٣] .

وكان الشهود يجلسون فى الجامع على رسم القضاة فى الشتاء فى المقصورة وفى الصيف عند الشباك .

ولما كان حق الدفاع موجوداً منذ القدم [٤] عندما وجدت الخصومة

---

(١) القلقشندى «صبح الأعشى» ج ٣ ص ٤٩٠

(٢) الكندى ص ٥٤٥

(٣) القلقشندى «صبح الأعشى» ج ٣ ص ٤٨٧

(٤) كان الخصم يحاط بأهل وده وقرباه وكلهم يدافعون عنه ، ثم وجد عند جميع الأمم فى جميع الأزمان بعد ذلك رجال تضلعوا فى القانون وقصروا عملهم على مساعدة المتخاصمين بإبداء المشورة لهم أو بالدفاع عنهم أمام القضاء ، (فكان لليهود فى زمن موسى عليه السلام وعند الكلدانيين ، وأهل بابل ، والفرس ، والمصريين القدماء ، رجال من أهل العلم والذكاء يرجع الناس إليهم فى المشورة ويستعينون بعلمهم فى الخصومات ، فلما اخترع المصريون الكتابة بطلت المرافعة فى الخصومات مشافهة ، وسمحوا بها كتابة حتى لا يخلب المتكلم لب القاضى ، ببلاغته وذلاقة لسانه وحسن منطقه) خدمة للعدالة ، ومساعدة لصاحب الحق فى الحصول على حقه وكانت حظيرة مقام المحامين ، ودائرة المحكمة ، تعتبران من الأماكن المقدسة ، فإذا حان وقت العمل رش المكانان بالماء المطهر ، إشارة الى أنه يجب ألا يجرى فيهما من الأعمال أو الأقوال إلا ما كان طاهراً نقياً ، وكانت أتعابهم تصرف إما من بيت المال ، أو من موكلهم .

وكما وجدت المحاماة عند الأمم السالفة الذكر ، فقد وجدت أيضا عند اليونان ، والرومان منذ عهدهم الأول ، وكان شرف من يقف للدفاع عن الخصوم لا يقل عن شرف من يجلس للفصل بينهم ، وأبيح لكل خصم أن يوكل عنه من المحامين واحداً أو أكثر ، غير أنه لم يسمح بالكلام إلا لواحد ، وترك للباقين حق معاونته بنصائحهم . وقد وضع « دراكون » و «سيلون» =

وكان المحامون هم العنصر المتمم للقضاء ورسل النور يطلقون أشعتهم فى محراب القضاء فيزيدونه ضوءا ولمعاناً ، فقد بحثنا عن المحاماة فى مصر كأحد أعوان القاضى ، فلم نجد لها تاريخاً ولا ذكراً فى الكتب ، اللهم إلا على شكل نعت بسيط لأحد الأشخاص (١) .

ولما كانت الأحكام بمصر فى هذا العصر صادرة عن الشريعة الإسلامية فقد رأينا أن نلجأ فى هذا المبحث الغامض المهمل من المؤلفين إلى نفس أحكام الشريعة الغراء ، لنعرف ما قرره الفقهاء فى « وكلاء الحكم » ، فوجدنا أن التوكيل (٢) صحيح بالكتاب والسنة الشريفة وعليه الإجماع ، فقد قال تعالى: « فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ، فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ، ولا يشعرن بكم أحداً » (٣) . كذلك وكل النبى عليه السلام « حكيم بن حزام » فى شراء أضحية .

وتنقضى الوكالة بعزل الموكل للوكيل ، وبعزل الوكيل نفسه بشروط وأحوال معينة بشرط العلم ، فإن عزله ولم يجزه جاز عمله عليه ، كما تنقضى

= لتنظيم حرفة الدفاع أمام المحاكم ، قوانين لتوضيح الشروط الواجبة لمن يشتغل بهذا الفن ، وأطلقوا عليهم اسم « الخطباء » ، [واشترطوا فى الخطيب أن يكون حراً وعلى أحسن الصفات ، ومنعوا النساء من الاشتغال بالمحاماة لما ينبغى لهن من الحشمة والوقار . أحمد فتحى زغلول باشا «المحاماة» ص ٤ — ٩ و ١٣ و ١٥

(١) فقد نعت مثلا احمد بن الأفضل بن بدر الجمالى مدبر مملكة الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله ب «المحامى عن حوزة المسلمين » .

(٢) التوكيل كما هو معلوم هو « اقامة الغير مقام النفس ترفهاً أو عجزاً فى تصرف جائز معلوم ممن يملكه » ويشترط فى الموكل أن يكون أهلا للتصرف فيما يوكل فيه بنفسه لنفسه ، وفى الوكيل أن يكون عاقلا ، ولا يشترط فيه البلوغ والحرية ، وليس للوكالة لفظ مخصوص ، بل كل عبارة تدل عليها جائزة ، ولا تثبت وكالة الوكيل إلا إذا حصلت أمام القاضى ، وكان هذا يعرف الموكل اسما ونسباً أو بالشهادة فى أحوال مخصوصة ، والتوكيل جائز للمدعى والمدعى عليه ، سواء رضى به الخصم أم لم يرض . فتحى زغلول باشا «المحاماة» ص ١٧ و ١٨

(٣) الآية ١٩ من سورة الكهف رقم ١٨

الوكالة بإنجاز ما كلف الوكيل به ، وبموت أحدهما وجنونه جنونا مطبقا ، إلى غير ذلك .

وليس للحاكم رد الوكالة ، بل يجب عليه سماع المخاصمة من الوكيل وليس له أن يوكل إلا وكيلا واحدا ما لم يرض خصمه بأكثر ، والوكالة جائزة بعوض وبغير عوض [١] .

من هذا نرى أنه وإن أقرت الشريعة الغراء واعترفت بوكلاء الحكم ، إلا أن المحاماة لم توجد قبل مبايعة محمد على باشا بالولاية على مصر ، لأن القضاء بجميع أنواعه (مدنى وجنائى وشرعى) للمصريين وللأجانب كان من اختصاص المحاكم الشرعية وحدها ، والمحاكم الشرعية إذ ذاك ما كانت تعرف المحاماة ولا المحامين بالمعنى المعروف فى عصرنا الحاضر [٢] .

أما طرق الاثبات التى كان يحكم بها القاضى فكان منها البينة . والبينة فى الشرع اسم لما يبين الحق ويظهره ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يقول « البينة على المدعى واليمين على المدعى عليه [٣] » ، فالمدعى ملزم باظهار ما يبين صحة دعواه ، فان أظهر صدقه باحدى طرق الاثبات ، حكم له ، ومن البينة النكول عن الانكار ، واليمين ، وهى إما واحدة أو أربعة أيمان أو خمسين يمينا ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام : « لو يعطى الناس بدعواهم لادعى الناس دماء رجال وأموالهم ، ولكن اليمين على المدعى عليه » [٤] .

وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم نص اليمين التى كان يقسم بها كل من توجه

---

(١) للتوسع فى هذا البحث راجع علاء الدين بن عابدين « قرة العيون » جـ ١ ص ٢٤٩ وما بعدها و « الفتاوى الهندية » جـ ٣ ص ٥٦٠ وما بعدها و « الفتاوى الخانية » جـ ٣ ص ٢ وما بعدها .

(٢) عزيز خانكى بك « المحاماة من قبل انشاء المحاكم الأهلية ومن بعد » بحث منشور فى مجلة القانون والاقتصاد السنة السابعة (سنة ١٩٣٧ م) ص ٩٥٣

(٣) أبو داود ص ١٥٤ والترمذى ص ١٦٠

(٤) صحيح مسلم جـ ٥ ص ١٢٨

إليه ولو كان ذمياً ، وذلك فى حديث ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل « احلف بالله الذى لا إله إلا هو ، ما له عندك شىء »[١] . وروى عنه أنه قال « من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله » وكانت قريش تحلف بآبائها ، فقال « لا تحلفوا بآبائكم »[٢] .

ومن طرق الإثبات شهادة الشهود ، فقد قال تعالى : « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون »[٣] ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أكرموا الشهود فان الله تعالى يحيي بهم الحقوق »[٤] .

وقد بين النبي عليه السلام من تقبل شهادته ومن لا تقبل شهادته فى حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تجوز شهادة خائن (فى الدين أو المال أو الأمانة) ولا خائنة ولا زان ولا زانية ، ولا ذى غمر (أى حقد) على أخيه» أخرجه أبو داود[٥] والترمذى بعد قوله « ولا مجلود حداً » ، ولا مجرب فى شهادة » ، ولا« القانع (أى التابع مثل الأجير والوكيل) لأهل البيت » ، ولا ظنين فى ولاء ولا قرابة » لذا قال الفقهاء بوجوب رد كل شهادة جرت للشاهد مغنما ، أو دفعت عنه مغرما .

ومن الوقائع ما تثبت بشهادة أربعة شهود ، ومنها ما يثبت بشهادة ثلاثة وتارة بشهادة شاهدين ، وتارة أخرى بشهادة رجل وامرأتين . . الخ فمثلا قبل الله سبحانه وتعالى فى قتل النفس شاهدين ، ولم يقبل فى الزنا إلا أربعة وقال تعالى « واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين ، فرجل

---

(١) أبو داود ص ١٥٤

(٢) صحيح مسلم ج ٥ ص ٨١

(٣) الآية ٤٢ من سورة البقرة رقم ٢

(٤) السرخسى « المبسوط » ج ١٦ ص ٨٧

(٥) أبو داود ص ١٥١

وامرأتان » [١] ، وقال تعالى « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه » [٢] .

وقد تكون الشهادة عن طريق السماع par oui - dire ، وقد يشهد الشهود على وقائع لا يعلمونها إلا بالشهرة العامة par commune renommée ، ومن طرق الإثبات أيضا الكتابة .

كذلك حكم النبي عليه الصلاة والسلام بالقرعة ، مثلا فى رجلين أتيا إليه يختصمان فى مواريث لها [٣] ، وكان الإمام على يحكم أيضا بها ، عند ما اختصم ثلاثة نفر إليه رضى الله عنه عند ما كان باليمن ، فى غلام يدعيه كل منهم ويقول إنه ابنه ، فأقرع بينهم وجعل الولد للقارع [٤] .

كذلك تحدثنا المصادر التاريخية [٥] بأنه لما اتهم تجار الروم بحرق بعض سفن أسطول العزيز بالله الفاطمى ، أيام الوزير عيسى بن نسطورس ، وقبض على ثلاثة وستين رجلا فى النهاية واعتقلوا ، أمر هذا الخليفة بإطلاق ثلثهم وضرب ثلثهم ، وقتل ثلثهم ، فكتبت رقاع فيها « يضرب » و « يقتل » و « يطلق » وتركت تحت إزار ، وتقدم كل واحد منهم وأخذ رقعته ، ونفذ ما كتب فيها .

ومما استرشدوا فى حكمهم به ، الاستدلال بالامارات فى اللقطة ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام شرع أحكام اللقطة ، ففى البخارى أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عما يصنعه فى اللقطة ، فقال له : « عرفها سنة ، فان لم يظهر لها صاحب فشأنك بها » ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عندما جاءه رجل وسأله عن اللقطة « عرف عفاصها ووكاءها ثم عرفها سنة ، فان

---

(١) الآية ٢٨٢ من سورة البقرة رقم ٢

(٢) الآية ٢٨٣ من سورة البقرة رقم ٢

(٣) أبو داود ص ١٤٨ و ١٤٩

(٤) ابن قيم الجوزية « أعلام الموقعين عن رب العالمين » ج ١ ص ٧٣

(٥) يحيى بن سعيد الأنطاكى « تاريخ الذيل » ص ٣٣ و ٣٤ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ١٩٥ و ١٩٦ ومتز « الحضارة الاسلامية » ص ٩٢

جاء صاحبها ، وإلا فشأنك بها » [١] ، وكان القاضى يحكم فى جميع المسائل التى تلق إليه وفق الدليل الذى يثبت الدعوى ولو ظاهراً على خلاف الواقع لأن النبى عليه الصلاة والسلام كان يقول « أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » [٢] وحكم الإمام على برجم المرأة الزانية التى تحمل ولا زوج لها ولا سيد [٣] .

وليس للقاضى أن يأخذ بالحدس والتخمين ، بل بالإمارات وغيرها فاذا خاصم رجل آخر على فرس مثلا ، ولم ترجح بينة أحدهما على الآخر أطلق الفرس فى حى كل منهما ، فمن دخل الفرس داره ، فهو له .

ولا يحكم القاضى بشهادة نفسه ، وإنما يحكم بشهادة غيره ممن ينير له الطريق ، لأنه يجب ألا يرى الأشياء إلا بعين غيره .

والاعتراف هو أقوى الأدلة ، بشرط أن يكون خالياً من التهديد والوعيد .

وكانت رسوم القاضى بعد أن يخلع عليه فى قصر الخليفة بحضرة الأمراء وغيرهم ، أن يتوجه ومعه الناس والشهود إلى المسجد الجامع على بغلة مسرجة وتساق بين يديه اثنتان ، وبين يديه خلع من تحف الثياب فى مناديل تبلغ عدتها أحيانا سبعة عشر ، ومتقلداً سيفاً ، ليقرأ سجله هناك وهو قائم على قدميه وكلما مر ذكر الخليفة أو أحد من أهله أو ما بالسجود [٤] بعد صلاة الجمعة غالباً أمام الناس ، وفى هذا السجل يدعو الخليفة له بانزال الحكمة على « يده ولسانه وقلبه » ، ويبين له البلاد التى جعل له القضاء فيها ، ويذكر له الصفات الحسنة التى يجب أن يتصف بها ، والوصايا التى يريد أن يضعها نصب عينيه

---

(١) صحيح البخارى ج ٢ ص ٤٢ — ومعنى ذلك أنه إذا لم يوجد صاحب اللقطة بعد سنة ، فهى لمن وجدها ، وهو مبدأ يخالف تشريعنا المصرى لأن هذا الأخير يعاقب من لا يبادر الى تسليم اللقطة الى الجهة الرسمية فى مدة قليلة معينة كما يخالفه فى نقطة أخرى إذ يحفظ للعاثر الحق فى عشر قيمة المال المعثور عليه .

(٢) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٢٩

(٣) ابن قيم الجوزية « الطرق الحكمية » ص ٦

(٤) وهذه عادة مستهجنة تتنافى مع الدين ، ومع هذه الوظيفة الدينية .

كالتسوية فى الحكم فى أقواله وأفعاله ، والأخذ من صديقه لعدوه ، وتطهير مجلسه ممن يأكل الرشا ، وغير ذلك ، ثم يأمره أن يشرف على أعوانه ومن يعتمد عليه من أمنائه ويثنى عليه ، وقد يثنى أيضاً على أهله ، كما حدث عندما قرىء سجل القاضى « محمد بن النعمان » ، فقد ذكر فيه أبوه وأخوه وأثنى عليهما ، وبعد أن يقرأ هذا السجل على الناس فى المسجد الجامع ينصرف القاضى إلى داره ، فيركب إليه جماعة الشهود والأمناء والتجار ووجوه البلد بحيث لا يتأخر عنه منهم أحد [١] .

أما خلع القاضى التى كانت تمنح له عند توليته ، فكانت خلعا تنسج بلحمة من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان ، تمجيداً له وإشادة بذكر الخليفة ودليلا على أنها صنعت فى عصره ، ووثيقة لمن خلعت عليه تدل بنفسها على درجته ووظيفته ، وتشير إلى رضاء الخليفة عنه [٢] ، ويقول السيوطى [٣] « خلعهم (أى القضاة والعلماء) من الصوف بغير طراز ، ويكون الصوف فى الأصل أبيض وتحته رداء أخضر متسع ، فتحته على كتفه ، ويلبس غيرهم الفرجية الطويلة الكم .

وكما كان الخلفاء يمنحون أتباعهم ورجال حكومتهم فى كثير من المناسبات الخلع على نحو ما تفعله الحكومات فى العصور الحديثة من منح الرتب والأوسمة كذلك سمح للقاضى أن يخلع على نائبه ، فمثلا لما ولى القاضى « مالك بن سعيد ابن مالك الفارقى » ويكنى بأبى الحسن الذى ولى قضاء مصر فى ١٧ رجب سنة ٣٩٨هـ (١٠٠٧م) من قبل الخليفة الحاكم بأمر الله ، استخلف على القاهرة القاضى « أبا القاسم حمزة بن على بن يعقوب الغلبونى » وخلع عليه [٤] ، فكان بذلك

---

(١) ابن حجر « رفع الاصر » ورقة ٩١ و١٦٥ و ١٩٤ و ٢١٣ و ٢٥٥ والسيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ٩٣ — ٩٦

(٢) ابن خلدون « المقدمة » ص ١٨٦ و ١٨٧ والدكتور زكى محمد حسن « كنوز الفاطميين » ص ١١٤ — ١١٧

(٣) « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ١٧٠

(٤) الكندى ص ٦٠٣ و ٦٠٤ وابن حجر « رفع الأصر » ورقة ٢١٣

أول من فعل ذلك من القضاة ، لأن الخلع لم يكن إلا من قبل الخليفة أو الأمير ، وكما اختار أبو يوسف — أول من لقب بقاضى القضاة ببغداد زمن العباسيين — زياً خاصاً للقاضى تمييزاً له عن غيره ، فكان يلبس السواد على هيئة عمال بنى العباس ، ويتعمم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة [١]، ويرتدى كساء أسود من الصوف [٢]، كذلك اختار جوهر للقاضى عمامة ورداء أخضرين فقد ذكر المقريزى [٣] أنه فى ربيع الأول سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) دخل « عبد الله بن طاهر الحسينى » على جوهر بطيلسان كحلى وفى مجلسه القضاة والعلماء والشهود ، فأنكر جوهر الطيلسان الكحلى ومد يده فشقه ، فغضب ابن طاهر وتكلم ، فأمر جوهر بتمزيقه فمزق وجوهر يضحك ، وبقى حاسراً بغير رداء فقام جوهر وأخرج له عمامة ورداء أخضرين .

كذلك خلع الحاكم بأمر الله على القاضى على بن النعمان ثياباً بيضاء متنوعة ورداءً وعمامة مذهبين ، ولما قلد مالك بن سعيد بن مالك الفارقى القضاء قلده نفس الخليفة الحاكم بأمر الله عمامة وطيلسانا مذهبين [٤]، وعلى ذلك فقد كانت عمائم القضاة وأرديتهم فى العصر الفاطمى إما مذهبة أو خضراً .

وكما ظهر فى هذا العصر قضاة يتبعون المثل العليا والفضائل ، ويحافظون على إقامة شعائر الدين ، ويقومون يوم الجمع بالخطابة فى المساجد ، ويضربون للرعية القدوة الحسنة فى جميع شئون البلاد ، كذلك ظهر منهم من مات ضميره وفسدت نفسه ، واتجر بوظيفته ، ومن هذا الصنف الأخير القاضى « الحسين ابن على بن النعمان » ، فقد ملأ الخليفة الحاكم بأمر الله عينيه ويديه بالنعم فأضاف إليه أرزاق عمه القاضى محمد بن النعمان وصلاته وإقطاعاته ، مشترطاً عليه شرطاً واحداً ، هو التعفف عن أخذ أموال الناس بالباطل ، ولكن من

---

(١) الكندى ص ٣٧٨ والدكتور زكى عبد المتعال « النظم » ص ٣١٢

(٢) الكندى ص ٤٦٩

(٣) اتعاظ الحنفا ص ٨٧

(٤) ابن حجر « رفع الأصر » ورقة ٩١ و ٢١٣

فسدت ذمته لا تجدى النعم فى صلاحه ، فقد رفعت إلى الخليفة الحاكم بأمر الله رقعة متظلم يقول : « إن أباه مات وترك له عشرين ألف دينار ، وإنها كانت فى ديوان القاضى « الحسين » ، وكان ينفق عليه منها مدة معلومة ، فحضر يطلب من ماله شيئاً فأعلمه القاضى أن الذى له نفد ، فاستدعى « الحاكم » هذا القاضى ودفع إليه الرقعة ، فأجابه بما قال الرجل وأن الذى خلفه أبوه استوفاه فى نفقته ، فأمر الحاكم بإحضار ديوان القاضى فى الحال فأحضر ، ففتش فيه عن مال الرجل فظهر أنه لم يصله إلا القليل منه ، فعدد الحاكم على القاضى حسين ما رتبه وأجراه عليه وإكرامه إياه ، وما شرط عليه من عدم التعرض لأموال الرعية ، فجزع وهاله وقال « العفو وأتوب » وانصرف القاضى بالرجل ودفع إليه ماله ، وأشهد عليه ، ولكن الحاكم أمر بحبس القاضى ، ثم أخرجه بعد ذلك على حمار نهاراً والناس ينظرون إلى أن ساروا به إلى المنظرة ، فضربت عنقه وأحرقت جثته بعد أن تولى القضاء خمس سنين وسبعة أشهر وأحد عشر يوماً [١] ، وفى رواية أخرى [٢] أنه أنزل عن دابته ورمى فى النار ، فهلك .

ومن هذه الواقعة يتضح أن القاضى كان يتولى أموال اليتامى ، ولما توفى سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م) القاضى « محمد بن النعمان » ، وجد عليه من أموال اليتامى ٣٦ ألف دينار ، فأمر الخليفة الحاكم بأمر الله أن تصادر أمواله وأرسل « فهداً » النصرانى كاتب الوزير فاحتاط عليها ، وشرع فى تغريم الشهود الذين كانت الودائع تحت أيديهم (وهم خيار أهل البلدة) ، إلى أن تحصل على نصف الدين ، وأمر « الحاكم بأمر الله » ألا يودع بعد ذلك عند أحد الشهود مال يتيم ولا غائب ، وأفرد موضع يوضع فيه المال ويختم عليه أربعة من الشهود ولا يفتح إلا بحضورهم [٣] .

---

(١) ابن حجر « رفع الأصر » ورقة ٩٣

(٢) النويرى « نهاية الأرب » ج ٢٦ ورقة ٥٤

(٣) الكندى ص ٥٩٥ و ٥٩٧

وكذلك كانت خربة ذمة القاضى « عبد الحاكم بن سعيد الفارقى » المصروف عن قضاء مصر سنة ٤٢٧ ه ، فقد مات فى ولايته رجل يقال له الزيلعى ، وترك مالا جزيلا ، ولم يخلف إلا بنتاً واحدة ، فورثوها جميع المال على قاعدة مذهبهم ، فتطاول الناس لتزويجها لأجل كثرة مالها ، ومن جملتهم عبد الحاكم ، فامتنعت ، فحنق منها وأقام أربعة شهود بأنها سفيهة ، واحتوى على مالها ، فهربت منه وطرحت نفسها على الوزير « أبى القاسم الجرجرائى » وعرفته ما اعتمد معها القاضى ، فعمل لها محضراً برشدها ، واستكتب لها جماعة فيهم ابن اخت القاضى « أبى الحسين بن مالك بن سعيد » ، فأمر الوزير باحضار القاضى فأحضر مهاناً ، ووكل به من استعاد منه المال ، وذلك بعد أن كان قد تصرف فيه ، ثم قبض الوزير على الشهود الذين شهدوا بسفهها فأودعهم السجن ، وخلع على من شهد لها بالرشد [1] .

وكانت مناصب القضاء وراثية فى بعض الأسر [2] فى أيام الدولة الفاطمية ، فعندما قدم الخليفة المعز لدين الله إلى مصر استصحب معه جماعة من الفقهاء الممتازين ، وفى مقدمتهم بنو النعمان ، وهم أبناء أسرة مغربية نابهة من أكابر علماء المغرب ، اصطنعتهم الخلافة الفاطمية وجعلتهم دعامتها وألسنتها الروحية .

واستأثروا فى ظلها برياسة القضاء زهاء نصف قرن ، تعاقب فيه بنوها على القضاء ، ولم يتول عميدها « أبو حنيفة النعمان بن أبى عبد الله محمد بن منصور بن احمد بن حيون » [3] القضاء بمصر لوجود « أبى الطاهر محمد بن

---

(١) الكندى ص ٦١٣ و ٦١٤

(٢) كذلك كانت وظيفة القضاء بالمشرق وراثية ، ففى القرنين الثالث والرابع الهجرى تقلد قضاء القضاة من أسرة واحدة هى أسرة « أبى الشوارب » ثمانية رجال ببغداد ، هذا عدا ستة عشر قاضيا آخرين من هذه الأسرة . ابن الجوزى « المنتظم » ص ١٧٤ ا

(٣) لما مات بمصر سنة ٣٦٣ ه (٩٧٣ م) صلى عليه الخليفة المعز . ابن النعمان « شرح الأخبار » ورقة ١

احمد بن عبد الله البغدادى الذهلى ،[١] المالكى المذهب ، فلما استعفى أبو الطاهر قبل موته بيسير أعفى فى صفر سنة ٣٦٦ ﻫ (٩٧٦ م) ، فاستأثر « على ابن النعمان ،[٢] أول من لقب بقاضى القضاة بالقضاء ، بعد أن قاسم القاضى « أبا الطاهر » القضاء عندما عينه المعز سنة ٣٦٣ ﻫ (٩٧٣م) ، وبذلك استقل بالقضاء عامة فى صفر سنة ٣٦٦ ﻫ على إثر استقالة القاضى « أبى الطاهر » لشيخوخته وضعفه ، واستمر « على بن النعمان » على القضاء إلى وفاته سنة ٣٧٤ ﻫ (٩٨٤ م) ، وبذلك قام فى منصب قاضى القضاة للخليفتين المعز لدين الله وابنه العزيز بالله .

ولما مات « على بن النعمان » خلفه أخوه « محمد بن النعمان » أيام الخليفة العزيز بالله وابنه الحاكم بأمر الله ، ومات محمد أيام الخليفة الأخير ، كذلك ولى الحسين بن على بن النعمان القضاء أيام الحاكم بأمر الله الذى ضرب عنقه لأنه أكل أموال يتيم بالباطل ، وكذلك ولى « عبد العزيز بن محمد بن النعمان ابن حيون » فى خلافة الحاكم بأمر الله الذى قتله أيضا فى سنة ٤٠٣ ﻫ (١٠١٢م) وكذلك تولى من هذه الأسرة « أبو محمد القاسم بن عبد العزيز بن النعمان » فى ربيع الأول سنة ٤١٨ ﻫ (١٠٢٧ م) فى خلافة الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ابن الحاكم بأمر الله ، وبقى زمن الخليفة الظاهر وابنه المستنصر بالله حيث صرف سنة ٤٤١ ﻫ[٣] (١٠٤٩م) .

---

(١) السيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ٩١

(٢) هو أبو الحسين على بن النعمان . ابن خلدون « العبر » ج ٤ ص ٥٥

(٣) الكندى ص ٥٨٩ و ٦١٠ و ٦١١ وابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ٢ ص ٢١٩ — ٢٢٣ والسيوطى « حسن المحاضرة » ج ١ ص ٢٦٨ والأستاذ عنان « الحاكم بأمر الله » ص ٢٣٠ و ٢٣١ وانظر Gottheil, A Distinguished Familly of Fatimid Cadis In The Tenth Century (Jaos, 1906)

ولقد اختلف فى سنة موت القاضى « عبد العزيز بن النعمان بن حيون » فيقول الكندى فى « كتاب القضاة » ص ٤٩٥ و ٥٩٩ إنه قتل سنة ٣٩٨ ﻫ (١٠٠٧ م) ، ويقول ابن حجر فى « رفع الاصر » ص ٦٠٢ نقلا عن المسبحى إنه قتل سنة ٣٩٩ ﻫ (١٠٠٨ م) أما ابن خلكان فيقول بقتله سنة ٤٠١ ﻫ (١٠١١ م) . ابن منجب « الاشارة » فى ٦٧ و ٦٨

وكما ظل أولاد النعمان يتوارثون منصب القضاة بمصر ، كذلك توارثته أسر أخرى شيعية ، فمثلا أسرة الفارقى الشيعية تولى منها القضاء «مالك بن سعيد الفارقى» بمصر سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧م) أيام الخليفة الحاكم بأمر الله كما تولى «عبد الحاكم بن سعيد الفارقى» القضاء بمصر فى سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨م) فى خلافة الخليفة الظاهر ثم ابنه المستنصر ، كما تولى أيضا «أبو على احمد بن عبد الحاكم بن سعيد الفارقى» القضاء بمصر فى سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣م) ، وهو ابن عم «عبد الحاكم» فى خلافة المستنصر [١] .

كذلك عهد إلى عدد من أسرة اليازورى بالقضاء ، فالحسن اليازورى تولى القضاء بمصر سنة ٤٤١ هـ (١٠٤٩ م) أيام المستنصر ، وتولى ابنه القاضى «محمد بن الحسن بن عبد الرحمن بن على اليازورى» الاسماعيلى نيابة عن أبيه وأضيفت اليه «جميع أعمال مصر» ، وأضيفت إلى أخيه «جميع أعمال بلاد الشام» ، «واستقر أمرهما على القضاء طول ولاية أبيهما الوزارة» [٢] .

كما توارث القضاء بمصر بعض الأسر السنية فى العصر الفاطمى ، فمثلا أسرة «العوام» تولى منها «أبو العباس احمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن احمد بن على بن الحرث بن أبى العوام» الحنبلى المذهب القضاء بمصر سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) أيام الخليفة الحاكم بأمر الله ، كما تولى ابن عمه الحنفى المذهب «أبو عبد الله احمد بن محمد بن أبى بكر زكريا يحيى بن أبى العوام» القضاء سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) فى أيام الخليفة المستنصر بالله [٣] .

ونحن وإن رأينا أن مناصب الدولة العمومية يجب ألا تورث مطلقا بل تعطى لذوى المواهب من الناس أيا كانوا ، إلا أننا فى الوقت نفسه نشعر

---

(١) ابن ظاهر «أخبار الدول المنقطعة» ورقة ٥٥ و«رسائل الحاكم بأمر الله» المخطوطة ورقة ٨ والنويرى «نهاية الأرب» ج ٢٦ ورقة ٦٠ وابن خلدون «العبر» ج ٤ ص ٥٥ و٥٦ والسيوطى «حسن المحاضرة» ج ٢ ص ٩١

(٢) ابن حجر «رفع الأصر» ورقة ٢٢٦

(٣) ابن حجر «رفع الأصر» ورقة ٤٣ و ٤٦

بأن هذا التوريث فى القضاء لم ينتج عنه إلا القليل من الأضرار ، لأن من عهد إليهم بالقضاء كانوا فى الغالب على شىء كثير من العلم والمعرفة والأمانة والنزاهة .

أما رواتب القضاة فكانت تصرف لهم من بيت المال ، ولقد بلغ مرتب قاضى القضاة ١٢٠٠ دينار سنويا [١] ، حتى لا ينظر القاضى بعد هذا المرتب إلى شىء ، وكانت تضاف اليه أحيانا أعمال أخرى كالمظالم وبيت المال والقصص فيتقاضى عنها ما تخصص لكل وظيفة من هذه الوظائف ، مما أدى إلى ضخامة مرتبه ، حتى قال ناصرى خسرو إن « رزق قاضى القضاة بمصر فى القرن الخامس الهجرى كان ألفى دينار مغربى فى الشهر ، حتى لا يطمع فى مال الناس ويظلم أحداً » [٢] .

وإن دخل عبد الحكيم بن سعيد الفارقى قاضى مصر ، المصروف سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٥ م) عن القضاء ، لأنه كان يحكم بالهوى ، كان يزيد على ٢٠ ألف دينار [٣]

كذلك كان دخل القاضى « الحسين بن على بن النعمان » عظيما [٤] ، وكانت تعطى للقضاة أيضا رواتب من النقود والطعام والأعلاف واللحوم بما يكفيهم ويكفى أولادهم ، عدا المئونة والهدايا والاقطاعات ، فمثلا أقطع الخليفة الحاكم بأمر الله القاضى « ابن العوام » الحنبلى (٣٤٩ – ٤١٨ هـ و ٩٦٠ – ١٠٢٧ م) تلبانه ، وهى ضيعة معروفة بمصر ، وكتب له بذلك سجلا [٥] .

ولم نعثر أثناء بحثنا فى الكتب الخطية ولا فى غيرها على قضاة لم يأخذوا راتبا نظير قيامهم بهذه الخدمة الدينية ، كما عثرنا أيام العصر الفاطمى بمصر على

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٥٢٦ والمقريزى « الخطط » جـ ١ ص ٤٠١ و جـ ٢ ص ٢٤٣

(٢) الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب « رحلة ناصر خسرو فى مصر » ورقة ٧١ وانظر Nasiri Khosrau, Sefer Nameh p. 161

(٣) الكندى ص ٦١٣ و ٦١٤ و ٤٩٩

(٤) « ص ٥٩٧ وابن حجر « رفع الاصر » ورقة ٩٣

(٥) « ص ٦١١ « « ورقة ٤٥ و ٤٦

قضاة بغداد لم يأخذوا رزقا [١]، وكما رأينا ذلك فى العصر الأموى والعباسى [٢]

ونقرر مطمئنين أن القضاة فى العصر الفاطمى قد عاشوا فى حياتهم المنزلية عيشة طيبة ، محافظين على كرامتهم وكرامة وظيفتهم وما تتطلبه من المظاهر الخارجية ، وأن الخليفة كان لهم بالمرصاد ، يعزل ويغرم كل من يشذ عن هذه القاعدة [٣].

كذلك لم نعثر (كما عثرنا فى العصر الأموى) [٤]، على كيفية صرف مرتبات القضاة ، ولكن أغلب الظن أن تقليد صرف المرتبات مقدما ، كان هو المتبع فى أيام الدولة الفاطمية أيضا .

---

(١) اشترط مثلا القاضى « محمد بن صالح بن أم شيبان الهاشمى المالكى المذهب » عندما ولى قضاء القضاة ببغداد سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٢ م) ، وهو الوقت الذى كان فيه الخليفة المعز لدين الله بمصر ، ألا يأخذ أجراً على القضاء ، وكذا فعل القاضى أبو بكر محمد بن المظفر الشامى قاضى قضاة بغداد سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) ، وهو الوقت الذى كان فيه الخليفة المستعلى الفاطمى بمصر . الكندى ص ٥٧٣ ومتز « الحضارة الإسلامية » ص ٣٦٦

(٢) اتصف بعض القضاة بزهد الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ و ٧١٧ — ٧١٩ م) الذى نسج على منوال زهد النبى عليه السلام ، فكان القاضى أبو خزيمة المتوفى سنة ١٥٤ هـ (٧٧٠ م) مثلا إذا غسل ثيابه أو شهد جنازة أو اشتغل بشغل يخصه هو ولا يخص المسلمين ، لا يأخذ من رزقه بقدر ما اشتغل ، ويعيده إلى بيت المال ، ويقول : « إنما أنا عامل المسلمين ، فاذا اشتغلت بشىء غير عملهم ، فلا يحل لى أخذ مالهم » .

الكندى ص ٣٦٣ و ٣٦٤ وابن حجر « رفع الأصر » ورقة ١٧ و ١٨

كذلك نجد القاضى عبد الله بن خزامر قاضى مصر (١٠٠ — ١٠٥ هـ و ٧١٨ — ٧٢٣ م) قد بالغ فى الزهد حتى منع نفسه من راتب الوظيفة ، فقد ذكر الكندى أنه لم يأخذ أجراً أصلا عن وظيفته ، فقال إنه « لم يقبض عن القضاء لا درهما ولا ديناراً » . الكندى ص ٣٣٩ ولعله اقتفى أثر الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى ولى فى زمنه وعلم منه أن وظيفة القضاء وظيفة دينية لا يجوز لأحد التعيش منها .

(٣) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٨٣ و ٨٤

(٤) عثرنا على براءة زمن « مروان بن محمد » (١٢٧ — ١٣٢ هـ و ٧٤٤ — ٧٤٩ م) فيها « بسم الله الرحمن الرحيم : من عيسى بن أبى عطاء ، الى خازن بيت المسلمين . أعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضى رزقه الشهرى فى ربيع الأول سنة ١٣١ هـ (٧٤٨ م) عشرين ديناراً واكتبوا بذلك البراءة (أى شهادة علية) .

كتب يوم الأربعاء لليلة خلت من ربيع الأول سنة ١٣١ . الكندى ص ١٥٤

كذلك لم نعثر على قضاة لم يقبلوا القضاء إلا بعد احجام وتردد وتهديد كما عثرنا عليهم فى عصور سابقة ، فكانوا لا يطلبون القضاء بقلبهم ولا بلسانهم خوفا من وقوعهم فى الخطأ [1] .

كذلك لم نقف من المخطوطات التى وقعت تحت أيدينا ، على أن قضاة الفاطميين كان منهم من التزم على القضاء (وهو أن يلتزم القاضى القضاء على أن يؤدى لبيت المال مبلغاً معيناً نظير ما يجبيه من رسوم القضايا) كما رأينا ذلك مثلا فى الدولة العباسية [2] .

وكان القضاة فى العصر الفاطمى يفردون للرجال ناحية وللنساء أخرى إذا اختصموا إليهم ، ولقد ضرب أغلبهم أحسن الأمثال فى حسن السيرة ، والتفقه فى الدين ، والمحافظة على هيبة منصبهم الخطير ، وعدم التفرقة بين الناس .

أما عن نظام توظيف القضاة وترقيتهم وعزلهم ، فنرجح أنه لم يقم على أسس ثابتة ، لأنهم عهدوا به لكل من توفرت فيه الشروط السالفة الذكر ، وعرف بحسن السمعة بين الناس .

أما ألقاب القاضى الأكبر فكانت كثيرة : فهو قاضى القضاة ، وأستاذ الدعوة بالقصر ، وداعى الدعاة ، وأمين الأئمة ، وأمير الأمراء ، وأمين أمير المؤمنين ، والموفق فى الدين ، والأجلّ المكين ، والناصر لدين الله ، والوزير الأجلّ ، والقاضى الأمين ، والقاضى الأعز ، وثقة الدولة ، وثقة المسلمين وخليل أمير المؤمنين ، وجلال الملك وصوابه ، وذو الرياستين ، وسيد

---

(١) لما عرض مثلا القضاء على أبى خزيمة سنة ١٤٤ هـ (٧٦١ م) أمتنع ، فأحضر السيف والنطع نخاف ، فقبل ، كذلك لما عرض القضاء على حيوه بن شريح أخرج مفتاح بيته ودفعه لهم وقال : « لقد اشتقت إلى لقاء ربى » . ابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ٢ ص ٢١٥ — ٢١٨ وابن حجر ورقة ١٧ والسرخسى « المبسوط » ج ١٦ ص ٦٨ .

(٢) التزم مثلا القاضى « عبد الله بن الحسن بن أبى الشوارب » سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١م) — لمعز الدين بن بويه عن قضاء بغداد — أن يؤدى لبيت المال ٢٠٠ ألف درهم سنويا .

الوزراء ، وسناء الملك ، وشرف الأحكام ، وشرف الحكام ، وضياء الدين وعلم الإسلام ، وعلم الدين ، وعمدة أمير المؤمنين ، وفخر الوزراء ، وفخر الأمناء ، ونصير الدولة .. إلى غير ذلك من الألقاب .

وفى أغلب الأحيان كان يجمع القاضى الأكبر منها أكثر من لقب واحد فبينما كان لقب القاضى « محمد بن النعمان » سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) فى خلافة العزيز بالله مثلا « أستاذ الدعوة بالقصر »[١]، لقب القاضى « أبو محمد القاسم ابن عبد العزيز بن النعمان سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) أيام الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بـ « قاضى القضاة ، وداعى الدعاة ، وثقة الدولة ، وأمير الأمراء ، وشرف الحكام »[٢]، كما لقب القاضى اليازورى سنة ٤٤١ هـ (١٠٤٩ م) بـ « قاضى القضاة ، وداعى الدعاة ، الأجل المكين ، عمدة الدين ، أمين أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، سيد الوزراء ، جلال الملك وصوابه ، وخطير الملك وذى الرياستين »[٣]، ولقب عبد الحاكم بن وهب سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) أيام الخليفة المستنصر بـ « قاضى القضاة ، ثقة الأنام ، علم الإسلام »[٤]، ولقب عبد الله بن وهبه بن معالى سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) بـ « ضياء الدين ، فخر الأمناء »[٥] ، كما لقب ابن العوام الحنفى المتوفى سنة ٤٥٣ هـ (١٠٦١ م) بـ « قاضى القضاة ، نصير الدولة ، أمين الأئمة »[٦]، ولقب القاضى « احمد بن عبد الحاكم بن أبى سعيد بن سعيد الفارقى أبى على » سنة ٤٥٤ هـ بـ « فخر الوزراء قاضى القضاة ، الوزير الأجل ، داعى الدعاة ، علم الدين ، ثقة المسلمين ، خليل

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن « الفاطميون فى مصر » ص ٢٢٦

(٢) المقريزى «الخطط» جـ ٢ ص ١٧٠ والسيوطى «حسن المحاضرة» جـ ٢ ص ٩١

(٣) ابن ميسر «تاريخ مصر » جـ ٢ ص ١٩ والمقريزى «الخطط» جـ ٢ ص ١٧٠ وابن حجر ورقة ٨٤ و ١٩٦

(٤) ابن حجر ورقة ١٣٧ وما بعدها

(٥) « ورقة ١٣٦

(٦) « ورقة ٤٦

أمير المؤمنين» [١]، ولما أضيفت إليه الوزارة دعى بقاضى القضاة الأعظم [٢].
والمصادر التاريخية تفيض بالنعوت المختلفة لقاضى القضاة فى العصر الفاطمى [٣]

(ب) **تعيين القاضى**: الخليفة هو رئيس الدولة الاسلامية الأعلى وذاته مصونة لا تمس Sa personne est inviolable ، لأنه خليفة رسول الله الذى كان للشريعة مبلغا ، والذى لم يكن للمسلمين فى عهده قاض سواه ، يقيم الحد وينفذ الأحكام [٤] ، مركزه مستوجب للطاعة والاحترام، وعلاقته بالدولة كعلاقة الرأس بالجسم .

والقضاء هو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة ، فتولية القاضى فى الشريعة الاسلامية فرض لابد للإمام من القيام به ، إذ لما كان من المستحيل عليه القيام بنفسه ، أقام نوابا عنه فى ذلك ليحكموا بين الناس بالحق [٥] .

فالناس فى حاجة إلى القضاء — الذى هو الحكم بين الناس — ماعاشوا لأنه يفصل فى الخصومات ويقطع المنازعات ، فسنة الاجتماع جعلت لكل فرد حقوقا يجب أن يحترمها غيره ، كما جعلت على كل فرد واجبات يجب أن يقرها لغيره ، فهو من أجل الوظائف العامة وأسماها ، لاتذكر إلا مقرونة بالاجلال والاحترام ، فهو «منصب به الدماء تعصم وتسفك ، والأبضاع تحرم وتنكح والأموال يثبت ملكها ويسلب ، والمعاملات يعلم مايجوز فيها ويحرم ويكره ويندب» [٦] .

---

(١) ابن حجر «رفع الاصر» ورقة ٣٣
(٢) « « ورقة ٣٦
(٣) كان ميسر «تاريخ مصر» ج ٢ ص ٣٥ و ٧٠ و ٨٤ وابن حجر «رفع الاصر» ورقة ٨٢ و ٢٥٦ والسيوطى «حسن المحاضرة» ج ٢ ص ٩١ و ٩٣
(٤) ابن النعمان «دعائم الاسلام» ورقة ٢٦
(٥) أول خليفة دفع القضاء إلى غيره وفوضه فيه هو عمر بن الخطاب . ابن خلدون «المقدمة» (طبعة بيروت ١٨٧٩ م) ص ١٩٢
(٦) الأستاذ رانسون «فن القضاء» ترجمة الأستاذ رشدى بك ص ١٦٤ و ١٦٥ نقلا عن معين الأحكام للطرابلسى .

ولفظ القضاء له معان فى اللغة ، ومعنى فى الاصطلاح ، فمعانيه فى اللغة : الالزام والاخبار والفراغ والتقدير ، ومعناه فى الاصطلاح : فصل الخصومات وقطع المنازعات على وجه خاص ، صادر عن ولاية عامة بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة [١] .

والقضاء فرض فقد قال الله تعالى : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » [٢] وقال مخاطباً للنبي صلى الله عليه وسلم : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » [٣] .

وكان ينظر إلى القضاء كواجب مقدس يصعب على الانسان القيام به بطريقة ترضى الله والعباد ، فقد قال الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل » [٤] ، وقال سبحانه : « وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين » [٥] وقال : « وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى » [٦] ، وقال : « « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » [٧] .

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ما معناه . « من حكم بين اثنين تحاكما إليه وارتضياه : فلم يقض بينهما بالحق فعليه لعنة الله » ، وقال أيضا : « عدل يوم واحد أفضل من عبادة ستين سنة » [٨] ، وقال : « إن الله مع القاضى

---

(١) الأستاذ رانسون « فن القضاء » ترجمة الاستاذ رشدى بك ص ٣ والأستاذ الشيخ ابن عرنوس « تاريخ القضاء فى الاسلام » ص ٨٣

(٢) الآية ٢٦ من سورة ص رقم ٣٨

(٣) الآية ٤٨ من سورة المائدة رقم ٥

(٤) الآية ٩٠ من سورة النحل رقم ١٦

(٥) الآية ٤٢ من سورة المائدة رقم ٥

(٦) الآية ١٥٢ من سورة الأنعام رقم ٦

(٧) الآية ٥٨ من سورة النساء رقم ٤

(٨) رواه الديلمى عن أبي هريرة وأسنده من طريق أبي نعيم بلفظ « عدل حكم ساعة خير من عبادة سبعين سنة » . « كشف الخفاء » (طبعة القدس) ج ٢ ص ٥٨ .

مالم يجر ، فاذا جار تخلى عنه ولزمه الشيطان »[١] وقال أيضا : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر »[٢] ، وقال عليه الصلاة والسلام أيضا : القضاة ثلاثة واحد فى الجنة واثنان فى النار ، فأما الذى فى الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق وجار فى الحكم فهو فى النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار »[٣] ، ومن حكم الامام على كرم الله وجهه : « رحم الله امرءاً رأى حقاً فأعان عليه ، أو رأى جورا فردّه ، وكان عونا بالحق على صاحبه ، « ومن استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه ، كان العمل بهما أثقل عليه » .

والأصل أن يعين الخليفة القضاة رأساً ويبين لهم مدى اختصاصهم ولكنه يفوض نائبه (لكثرة مشاغله ورغبته فى التفرغ للأمور السياسية والحربية فى بلاده) فى تعيين القضاة[٤] ، ممن عرفوا بالعلم والفقه ، واشتهروا بالكفاية والاستقلال ، ممن يجلسون فى محراب العدالة قبلة القسطاط المستقيم وغايتهم إحقاق الحق وإنصاف المظلوم .

ولم يكن تعيين القضاة مانعاً للخلفاء من نظر أية خصومة تعرض عليهم لأن جميع الأمور فى البلاد مرجعها إلى الخليفة وهو صاحب الأمر المطاع فيها ، ومن يملك الكل يملك الجزء ، ولم يفصل المسلمون بين السلطتين التنفيذية والقضائية ، فقد كان الخليفة هو القاضى الأعلى للمسلمين يقوم عماله بالقضاء نيابة عنه ، وكان يتفقد أحـــوال قضاته فيتصفح أقضيتهم ويراعى أمورهم وسيرهم فى الناس ، سواء أكانوا معينين منه أم من نائبه .

---

(١) أخرجه الترمذى « تيسير الوصول » (المطبعة السلفية الطبعة الأولى) ج ٤ ص ٥٣ .

(٢) أبو داود ص ١٤٧ والترمذى ص ١٥٨ و ١٥٩ وصحيح مسلم ج ٥ ص ١٣١ والابشيهى « المستطرف » ص ١١٩

(٣) أبو داود ص ١٤٧

(٤) الماوردى « الأحكام السلطانية » ص ٦٣ وعلاء الدين على « كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال » (طبعة حيدر أباد سنة ١٣١٢ هـ) ج ٣ ص ١٧٣ وزيد بك وسلامة بك « مباحث المرافعات » ص ١٧٤

وعند ما قدم جوهر لمصر ، وجد على القضاء سنيأ هو « أبو الطاهر » فأبقاه على قضاء مصر ، لأن جوهراً أخذ على نفسه العهود والمواثيق بأن يطلق الحرية التامة للمصريين فى اعتناق مذهبهم ، فكان فى عزل « أبى الطاهر » الذى ظل فى منصب القضاء منذ ربيع الأول سنة ٣٤٨ هـ (٩٥٩ م) وإحلال قاض من الشيعة محله مما يثير شعور الجمهور ، فاستمر أبو الطاهر فى القضاء حتى سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) ، ولكن سلطته ضعفت ضعفا شديدا على إثر وصول « المعز » إلى القاهرة ، الذى أقره أيضا على قضاء مصر لغرض سياسى أيضا وخلع عليه ، بحيث ألزم هذا القاضى السنى فى أواخر عهده بالقضاء أن يصدر أحكامه وفق قوانين المذهب الشيعى [١] ، ولا أدل على تمسك الخليفة المعز لدين الله بولاية القضاء لنفسه ، من أنه لما عزم على المسير إلى مصر وقع اختياره على « أبى احمد جعفر بن على » الأمير ليخلفه فى بلاد المغرب ، فلما اشترط هذا الأخير أن يكون تقليد القضاء وغيره له وحده غضب المعز لدين الله وقال : « يا جعفر عزلتنى عن ملكى ، وأردت أن تجعل لى فيه شريكا فى أمرى ، واستبددت بالأعمال والأموال ، قم فقد أخطأت حظك وما أصبت رشدك » ، ثم أنه لما عرض خلافة المغرب من بعده على « يوسف ابن زيرى الصنهاجى » لم يرض به خليفة ببلاد المغرب إلا بعد أن اعترف له صراحة بترك القضاء وغيره لمن يراه ويختاره المعز لدين الله [٢] ، وفعلا عين هذا الخليفة على المغرب من قبله على القضاء قبل رحيله لمصر « أبا طالب احمد بن القاسم بن محمد المنهال » [٣] .

ولقد أقر المعز لدين الله « أبا الطاهر » فى منصبه ، لما رآه من ذكائه وحضور

---

(١) الكندى (طبعة Ruvon Guest سنة ١٩١٢ م) ص ٥٨٤ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٨٨ والسيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ٩١

(٢) المقريزى « الخطط » ج ٢ ص ١٦٥ « واتعاظ الحنفا » ص ٦٤

(٣) النويرى « نهاية الأرب » ج ٢٦ ورقة ٤٥ وابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٤٧

بديهته ، عندما سأله « كم رأيت من خليفة ؟ » ، فأجاب على الفور « ما رأيت خليفة غير مولانا المعز لدين الله صلوات الله عليه » ، فاستحسن المعز ذلك منه مع علمه أن « أبا الطاهر » رأى من الخلفاء العباسيين : المعتضد والمكتفى والمقتدر والقاهر والراضى والمتقى والمكتفى والمطيع [١] ، ولأنه رأى أن فى عزله وإحلال قاض شيعى مكانه نقض أمان جوهر للمصريين قد يؤدى إلى غضبهم وسخطهم .

وفى شوال سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) أشرك المعز لدين الله مع « أبى الطاهر » المالكى المذهب « أبا سعيد عبد الله بن محمد بن أبى ثوبان » المغربى [٢] ، فنظر فى المظالم الخاصة بالمغاربة أولا ، ثم اتسع اختصاصه حتى أصبح ينظر فى القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين ، ثم امتد أكثر من ذلك فشمل أخيراً قضايا المصريين أنفسهم ، وأصبح يطلق عليه قاضى مصر والأسكندرية [٣] .

ويقول ابن ميسر [٤] إنه لما مات « ابن أبى ثوبان » خاطب المعز « على ابن النعمان » ليحكم مع أبى الطاهر ، وفى سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) عينه ، فقاسم « أبا الطاهر » القضاء ، فكان ابن النعمان يجلس للقضاء فى جامع عمرو ، وأبو الطاهر يجلس للقضاء فى الجامع الأزهر ، والشهود يشهدون جميعا عندهما [٥]

---

(١) ابن ميسر « تاريخ مصر » ص ٤٤ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٩٢ . وفى رواية أن النعمان الذى كان على القضاء للمعز فى القيروان ، لما جاء لمصر أقام بها على القضاء إلى أن توفى . ابن خلدون « العبر » ج ٤ ص ٥٥ و٥٦ — وفى رواية أخرى أن هذا القاضى بمصر لم ينظر فى شىء (ابن ميسر ص ٤٤) وهو رأينا لأنه مؤرخ عاش قبل ابن خلدون .

(٢) الكندى ص ٥٨١ و ٥٨٤ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٨٨ و ٩١ والسيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ٩١

(٣) الكندى ص ٣٨٧

(٤) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٤٧ — ويحدثنا النويرى فى كتابه « نهاية الأرب » ورقة ٤٥ و ٤٦ فيقول « إن أبا سعيد عبد الله بن محمد بن أبى ثوبان » حكم بين المغاربة والجند والتجار إلى أن مات فى ربيع الأول سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) فتولى القضاء أبو الحسن على بن النعمان على قاعدته إلى أن مات أبو الطاهر ، فقضى أبو الحسن بن النعمان على الجميع » ابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٤٧

(٥) ابن حجر العسقلانى « رفع الاصر » ورقة ١٩٥

وظلت الحال كذلك حتى استقل « على بن النعمان » بالقضاء فى شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) على إثر استقالة « أبى الطاهر » لشيخوخته وضعفه وقد بدا هذا الضعف عليه على إثر إصابته بفالج أبطل شقه مما جعل « العزيز بالله » يقول بعد أن رآه على هذه الحالة « مابقى إلا أن تقلدوه »[١]، وبذلك أعلن تقلد « على بن النعمان » للقضاء عامة على منبر الجامع العتيق ، وبقى عليه حتى مات فى رجب سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) ، وكان شاعراً مجيداً وهو أول من لقب بقاضى القضاة فى مصر[٢]، ولم يكن يدعى بذلك إلا فى بغداد ، وذكر فى سجله « إذا دعى أحد الخصمين إليـــك ، ودعى الآخر إلى غيرك ، ردا جميعا إليك »[٣].

وكان قاضى القضاة «على بن نعمان» مرجع الأحكام الشرعية فى العبادات والمعاملات والحدود ، أى فى الشئون الدينية والمدنية والجنائية[٤].

وبالرغم من أن سلطة القضاء وتطبيق نصوص التشريع الإسلامى على الوقائع كانت للقاضى ،فقد نظر الخليفة الفاطمى فى القضاء إذا وجد داعيا للتدخل أو طلب منه الخصوم ذلك ، إذ كان حق التصدى هذا ثابتا للخليفة ، لأنه إذا حضر الأصيل ، بطل الوكيل ، خصوصا وأنه فى هذا العصر لم يوضع للقضاة اختصاصهم الموضوعى الذى يتبين منه ما يدخل فيه وما يخرج عنه من مواد المنازعات ، فيحدثنا المسبحى فى تاريخه أنه « وقفت امرأة للمعز وهو فى موكبه ، وأنشدت :

---

(١) الكندى ص ٥٨٥

(٢) السيوطى «حسن المحاضرة» ج ٢ ص ٩١ — كان أول من لقب بقاضى القضاة فى الدولة العباسية هو القاضى «أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم» صاحب كتاب «الخراج» وذلك فى عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد الذى كان يجله ويحترمه ، وقد أخذ هذا اللقب عن الفرس . أما فى الأندلس فقد كان قاضى القضاة يسمى «قاضى الجماعة» وكان «قاضى القضاة» أو «قاضى الجماعة» بمثابة وزير العدل فى زماننا يقيم فى حاضرة الدولة ويولى من قبله القضاة على الأقاليم .

(٣) ابن حجر ورقة ١٩٥

(٤) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ١٠ ص ٣٨٤ وما بعدها .

تحطمنا ريب الزمان كأننا زجاج ولكن لا يعاد له سبك

فقال لها المعز «من أنت أيتها المرأة» ، فقالت «أنا زوجة الأمير أبي بكر بن محمد بن طغج الاخشيدى صاحب مصر» ، فقام إليها المعز وقال «ما حاجتك» فقالت «إني قد أودعت «بغلطاقا» (قباء من لؤلؤ محلى بالذهب) عند صائغ يهودى ، فأقام عنده مدة ، ثم إني طلبته منه فأنكره ، فقلت له خذ منه ما تختار من جواهره واعطنى الباقى ، فأبى وامتنع من الإعطاء وأنكر ذلك أصلا ، فلما سمع المعز ذلك أرسل خلف اليهودى وسأله عن أمر «البغلطاق» الذى أودعته عنده زوجة الأمير أبى بكر الإخشيدى ، فأنكره ودفنه فى جرة ، ولم يعترف به ، فأمر بشنقه ، فلما تحقق ذلك ! اعترف به ، فأمره المعز بإحضاره ، فلما أحضره بين يديه تحير مما فيه من الجواهر واللآلىء ، ثم أنه وجد اليهودى قد سرق من صدر ذلك «البغلطاق» درتين ، فسأله عن ذلك فاعترف أنه باع الدرتين بألف وستمائة دينار (أى ٩٦٠ ج. م) فأخذ المعز ذلك «البغلطاق» إلى زوجة الاخشيدى ، فسألته أن يأخذه منها على سبيل الهدية ، فأبى قبول ذلك ، فأخذته وانصرفت وهى داعية له»[١].

ونحن وإن كنا نلحظ فى هذه القضية أن المعز لدين الله كان يحب العدل والإنصاف بين رعيته ، وينصف المظلوم من الظالم ، إلا أننا لا نقره على هذه الشدة التى حكم فيها بالشنق على من خان الأمانة ، لأن الشريعة الغراء نفسها إذا طبقت لا تدين الرجل بعقوبة شديدة كالتى حكم بها هذا الخليفة إذ كان أقصى ما يعاقب به لخيانة الأمانة أن يصادر فى أمواله ، أو يعزر تعزيراً يتناسب مع جريمته .

وكما تصدى الخليفة المعز لدين الله للقضاء وفصل فى القضايا ، كذلك تصدى غيره من الخلفاء الفاطميين ، فقد حدثتنا المصادر التاريخية[٢] بأن

---

(١) العينى «عقد الجمان» القسم الثانى من ج ١٩ ورقة ٢٦٨ والسيوطى «حسن المحاضرة» ج ٢ ص ١٢ وابن اياس «بدائع الزهور» ج ١ ص ٤٧

(٢) ابن اياس «بدائع الزهور» ج ١ ص ٥٤ و ٥٥

رجلا أودع عند آخر جراباً فيه ألف دينار ، وسافر إلى الحجاز ، فلما عاد طلب ذلك الجراب من الرجل فأنكره ، فشكا أمره إلى الحاكم بأمر الله فقال له الحاكم : « اقعد لى فى الشارع ، فإذا مررت بك فقم إلى وتحدث معى » فلما فعل ذلك ومر عليه الحاكم ، قام له وتحدث معه وأطال معه الحديث ، فمر به الذى عنده الجراب فرأى صاحبه يتحدث مع الحاكم حديثا طويلا ، فلما مر الحاكم ومضى أحضر ذلك الرجل الجراب ودفعه إلى صاحبه ، وقال له : « تذكرت وديعتك وها هى » فوجده الرجل بختمه لم يفتح » ، فمضى به إلى الحاكم وعرفه بما جرى له مع الرجل ، فقال له الحاكم : « خذ جرابك وامض إلى بيتك فلما أصبح رأى ذلك الرجل الذى عنده الجراب مشنوقا على باب داره والناس يتحدثون فى أمره .

وهذا مثل آخر يدل كسابقه على شدة الحكم فى هذا العصر الفاطمى ، وعلى ظهور شهوة الانتقام وتغلبها على القانون الشرعى ، فأين كان العلماء عند ما أصدر الخلفاء مثل هـذه الأحكام القاسية ، وأين هذا مما كان فى أيام الخليفة عمر بن الخطاب الذى كانت أمته تحاسبه على كل ما يصدر منه ؟

وكيف لجأ المجنى عليه مباشرة فى جريمة عارية كهذه إلى الخليفة رأساً ، ولم يلجأ إلى القاضى ؟ مع أنه كان من اختصاص القاضى إذ ذاك أن ينظر فى رد الوديعة وغيرها من أمور المعاملات ، ونرى أن هـذا العصر لم يميز بين المخالفات والجنح والجنايات ، بل اعتبرها كلها فى مستوى واحد من الجرم .

وكان الخليفة الفاطمى حريصا على كرامة أحكام قضاته ولو كانت تغاير مذهبه ، ولا غرو فقد كان يطلق عليه كنعت من نعوته « كافل قضاة المسلمين » وكان من عادته إذا أراد تعيين قاض ، أن يكتب له سجلا (مرسوما) يقرأه أحد أتباع القاضى على المحتشدين إحتفالا بالقاضى الجديد فى المسجد الجامع [١] ، ثم يسلمه سجل الخليفة ، وبذلك يتم تنصيبه فى القضاء ، ويصبح له

---

(١) ابن حجر ورقة ١٩٥ — ولمن أراد الاطلاع على نص لهذا السجل ، أن يقرأ السيوطى «حسن المحاضرة» ج ٢ ص ٩٤ و ٩٥

الحق فى الفصل فيما خصص للفصل فيه ، وقد تكون ولايته عامة مطلقة تشمل الفصل فى جميع المنازعات مدنية وجنائية ، كما تعطى صاحبها الحق فى اختيار النائبين عنه وعزلهم ، وقد تكون ولايته خاصة مقصورة على نصاب محدود أو على الفصل فى بعض المنازعات التى تعين للقاضى بالذات ما يفصل فيه [١] وقد يكون عام النظر خاص العمل ، فيقلد النظر فى جميع الأحكام فى أحد جانبى المدينة ، وقد يقلد النظر بين ساكنى هذا الجانب دون الغرباء وعندئذ لا يتعداهم ، فقد أمر المعز لدين الله المغاربة أن يسكنوا مواضع معينة كـ « عين شمس » وجعل لهم فيها والياً وقاضياً [٢] ، وقد يسند الخليفه قضاء العسكر إلى بعض القضاة إذا سافر ، كما حدث عندما سافر الخليفة المعز لدين الله لحرب القرامطة فقد اصطحب معه القاضى « على بن النعمان » الذى استخلف أخاه محمداً [٣] ، أما القاضى « ابن أبى ثوبان » فقد كان يحكم بين الجند أيام هذا الخليفه [٤] .

كذلك قد تكون ولاية القاضى مقصورة على منازعة معينة ، وقد تحدد سلطته بوقت معلوم ، أى قد يخصص القضاء بالزمان والمكان والحادثة .

وللخليفة أن يقلد القضاء شخصا أو أكثر لبلد واحد ، وله أن يقلدهما بتقليد واحد على أن ينفرد كل منهما بالقضاء [٥] .

والأصل أن الخليفه هو الذى كان يعين القاضى [٦] ، فاذا عينه شخص آخر كان على الخليفه أن يقره ، لأنه إذا لم يعينه الخليفة ولم يقره انعدمت صفته كقاض .

---

(١) الماوردى « الأحكام السلطانية » (طبعة ١٣٢٧ هـ) ص ٥٦ و٥٧

(٢) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٤٥ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٩٦

(٣) ابن حجر ورقة ٩١ و ١٩٥

(٤) النويرى « نهاية الأرب » ج ٢٦ ورقة ٤٥

(٥) الماوردى « الأحكام السلطانية » ص ٦٧ وابن عابدين « كتاب رد المحتار على الدر المختار » ج ٤ ص ٤٧٥ والسيوطى « حسن المحاضرة » ج ١ ص ١٨٨

(٦) كان عبد الله بن لهيعة الحضرمى الذى ولى قضاء مصر سنة ١٥٥ هـ (٧٧٢ م) أول قاض ولى بمصر من قبل الخليفة . الكندى ص ٣٦٨ ومتز « الحضارة الإسلامية » ص ٣٥٥

ومع أن الخليفة كان كما رأينا هو فى الغالب الذى يعين القاضى ، إلا أنه لم يكن على القضاة من سلطان فى قضائهم غير ضمائرهم ، فكانوا غير خاضعين للسلطة التى عيّنتهم فى قضائهم ، لا يصلت عليه سيف العزل ولا ينال منه تهديد أو وعيد ، بل كان فى صومعته المقدسة لا رقيب عليه سوى علام الغيوب ولسان حاله يقول : « ويل لقاضى الأرض من قاضى السماء ، إلا من عدل » و « طوبى لقاض لم يكن عبد هواه ، ولم يبع آخرته بدنياه » .

فاذا تحكمت النزوات والأهواء فى قضائه ، وقف الخليفة له بالمرصاد .

وكان لنائب الخليفة جوهر كذلك أن يعين القاضى بمصر أيام « المعز لدين الله » ولما استوزر الخلفاء الفاطميون وزراء مفوضين يسمون وزراء السيف وأصبحت كل شئون المملكة توكل إليهم ، أصبح القاضى مقلداً من « وزير السيف » ونائبا عنه ، لأنه هو الذى كان يعينه ، ومع ذلك كان للخليفة أمر عزل القضاة ، فيحدثنا مثلا ابن حجر [١] بأن المستنصر لما أصبح لا يخاطب وزيره إلا على لسان الحسن اليازورى ، ثقل ذلك على الوزير وأراد أن يبعده عن المستنصر بجعله قاضيا ، وكان اليازورى ملازماً للقصر لأنه كان كاتبا لأم المستنصر ، ولما كان على القضاء « قاسم بن عبد العزيز » فان الوزير ابتدأ يشنع على أحكام هذا القاضى ويعيبها ، ويمدح فى علو كعب اليازورى ومعرفته بالأحكام ، ليستبدل الخليفة اليازورى بالقاضى قاسم بن عبد العزيز ، حتى عزل الخليفة القاضى وعيّن بدله اليازورى .

وكان بدر الجمالى هو أول من ولى الوزارة والقضاء من ذوى السيوف ، فقد فوض إليه الخليفة المستنصر الأمور كلها ، فكان هو الذى يعين القضاة وكانوا نوابه ، فأصبح يعين القاضى ويخرج السجل بذلك ، ولكن الخليفة الحافظ لدين الله أعاد الأمر إلى ما كان عليه ، وفصل القضاء عن الوزارة عند ما ولى بهرام النصرانى ، وولى القاضى من قبله ، وبذلك بطلت تلك

---

(١) « رفع الاصر » ورقة ٨٣ و ٨٤

السنة[١] وأمثلة تعيين الوزراء للقضاة ليست بالقليلة فى العصر الفاطمى ، فقد عين مثلا الوزير ابن كاس محمد الطرابلسى على قضاء دمياط وبلبيس والفرما وغيرها عوضا عن « محمد بن النعمان » [٢] .

كذلك ولى بدر الجمالى القاضى « محمد بن أبى الفرج » ، كما ولى الأفضل ابن بدر الجمالى القاضى « أباالفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسى الاسماعيلى أيام الخليفة « المستعلى » وصرفه فى صفر سنة٤٩٥ هـ (١١٠١م) كما ولى أيضا « احمد بن الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى » أربع قضاة مختلفى المذهب (فكان أحدهم شافعيا والثانى مالكيا والثالث إماميا والرابع إسماعيليا) فأبطل الخليفة الحافظ ذلك ، وأعاد الاقتصار على قاض إسماعيلى [٣] .

وكما كان الخليفة « كافل قضاة المسلمين » كذلك كان نائبه ينعت بهذه الصفة ويحافظ مثله على احترام ما صدر من أحكام القاضى ، فلما تظلم رجل للوزير « يعقوب بن كلس » من القاضى على بن سعيد الجلجولى (الذى فوض إليه يعقوب بن كلس سنة ٣٦٩ هـ (٩٧٩ م) الشرطة السفلى والحكم أيام الخليفة العزيز بالله) ، لأنه نظر فى أمر وحكم فيه بما أنكره القاضى «على بن النعمان» واعترض عليه فيه ، وقع الوزير بن كلس العبارة الآتيه : « من حكم بحكم من سائر المستخلفين ، فليس للقاضى ولا لغيره الاعتراض فيما حكم فيه » ، وبذلك منع الوزير صاحب الشرطة والقاضى من أن يعترض أحدهما على الآخر فيما حكم به .

وبالرغم من أن القاضى كان يعين من قبل الوزير فانه استقل عنه ، وكان رائده الحق ، وهدفه العدل ، ومقصده رضى الله ، وغايته رعاية حقوق الناس

---

(١) ابن حجر ورقة ٥٦ و ٥٨ و ٨٧ والعينى « عقد الجمان » المجلد الثالث من جـ ١٧ ورقة ٤٧١

(٢) ابن حجر ورقة ٢٢٦

(٣) النويرى « نهاية الأرب » جـ ٢٦ ورقة ٨٨ وابن حجر « رفع الاصر عن قضاء مصر » ورقة ١٠٦ و ١١٠ و ٢٢٥ و ٢٥٦

فارتفع بقضائه عن الشبهات ، وسما عن الشهوات .

وكانت السلطة الثالثة لتعيين القاضى هى نفس القاضى أو قاضى القضاة فكان إذا ولى القاضى الأكبر القضاء بجميع الأقليم ، استناب من يشاء فى بلاده والأمثلة كثيرة على استخلاف القاضى لزميله القاضى الآخر فى العصر الفاطمى فمثلا لما امتنع « أبو الطاهر » السنى عن القضاء انبسطت يد « على بن النعمان » فى الحكم ، ففوّض إليه الحكم بجميع المملكة ، فاستخلف أخاه محمداً على تنيس ودمياط وغيرهما وأضاف إليه قضاء الاسكندرية ، واستخلف الحسين بن محمد ابن طاهر بمصر وبالقاهرة مالك بن سعيد الفارقى ، وأقام على الفروض احمد ابن محمد بن أبي العرمرم .

كذلك أرسل « محمد بن النعمان » ابن أخيه « الحسن بن على » إلى جامع الحاكم بأمر الله للحكم بين الناس ، كما أرسل ولده عبد العزيز بن النعمان إلى داره لينظر فى الأحكام ويسجل .

كذلك نجد القاضى « أبا محمد القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان » يستخلف القاضى « يحيى الشهاب »

كذلك نجد الحسن اليازورى ولى « محمداً » ابنه سنة ٤٤١ ﻫ (١٠٤٩م) القضاء نيابة عنه وأضاف إليه جميع أعمال مصر كما أضاف إلى أخيه جميع أعمال بلاد الشام ، وقد استقر أمرهما طوال ولاية أبيهما الوزارة[١] .

وكما كان لقاضى القضاة تعيين القضاة بالمدن والقرى لتعذر قضائه وحده بين جميع السكان ، كذلك كان له مراقبة أعمالهم وتعرف سيرهم وأحوالهم ، وكان له عزلهم عند الاقتضاء ، لأن الخليفة الفاطمى عهد إليه بالسلطة القضائية فكان بذلك يتصرف فى القضاء تقليداً وعزلا ، ويراعى أمورهم بين الناس وسيرهم ، ويتصفح أقضيتهم ، لأن مرجع الأحكام الشرعية[٢] إليه ، وكان

---

(١) ابن حجر ورقة ٢٢٦ و ٢٥٥ والسيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ٩١

(٢) السيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ٩١

سجله يصدر بتعيينه من الخليفة نفسه إذا كان الوزير من رجال القلم .

والألفاظ التى تنعقد بها الولاية للقضاء إما أن تكون صريحة ، وهى على سبيل الحصر أربعة : قلدتك وو ليتك واستخلفتك واستنبتك ، وإما أن تكون ضمنية ، كأن يقول له اعتمدت عليك ، أو عوّلت عليك ، أو رددت إليك أو جعلت إليك ، أو فوضت إليك ، أو وكلت إليك ، أو أسندت إليك [١]

وكان مستقلا عن القاضى الذى استخلفه ، لأن أموال الناس وشرفهم وحقوقهم وأرواحهم كانت بين يديه ، ولا تتحقق العدالة على أكمل وجه وأحسن صورة إلا بهذا الاستقلال .

(ح) ولاية القاضى : لايمكن لدولة من الدول أن تحقق سيادتها فى الوطن [٢] دون أن يكون لها سلطة التشريع Legislation ، والدولة بما لها من السيادة المطلقة على إقليمها تكون صاحبة القضاء عليه ، فيخضع لمحاكمها وتشريعها جميع ما يوجد فوق إقليمها من أشياء وأشخاص ، وبغير الحصول على حق القضاء Rights of jurisdiction لايمكن لدولة أن تحقق سيادتها فى الوطن [٣] (Territory, Territoire)

ومصر لا تخلو من إقامة غير المصريين من رعايا بعض الأمم الأخرى (أهل دار الحرب) دخلوا البلاد الإسلامية بأمان (فهم مستأمنون) وبمصر أيضاً أهل الذمة الذين بينهم وبين المسلمين عقد ذمة على أن يبقوا فى مصر متمتعين بحريتهم الدينية .

فهل تعطى الشريعة الغراء سلطة التشريع هذه لمصر ولكل بلاد المسلمين

---

(١) الماوردى « الأحكام السلطانية » (طبعة ١٣٢٧ هـ) ص ٥٦ و ٥٧

(٢) نظرية السيادة الأقليمية أظهرها لنا نظام الاقطاعات لأن الحاكم أصبح سيداً على أراضى رعاياه بعد أن كان سيداً عليهم ، فكانت هذه هى البذرة الأولى التى نمت منها نظرية السيادة الأقليمية

(٣) Laurence Principlels of International Law (7 th Edition) p. 22 Seq.
والدكتور محمود سامى جنينه بك « دروس القانون الدولى العام » ص ٤٦ و ٣٢٥ و ٣٤٨
ورفعة على باشا ماهر « القانون الدولى العام » ص ٢٠٣ و ٣٠٤

فتختص اختصاصاً إجباريا بالنظر فى أقضية رعايا الدولة وغيرهم من الأجانب المتوطنين فيها والمقيمين بها ؟ أو أن الشريعة الإسلامية للمسلمين وللمسلمين وحدهم ؟ وبمعنى آخر هل الشريعة الغراء « قانون شخصى » لا يطبق إلا على المسلمين ، وأن غيرهم فى دار الإسلام قد تركوا وما يدينون ، لافى معتقداتهم الدينية وعباداتهم فحسب ، بل فيها وفى معاملاتهم المدنية أيضا ؟ أو أن الشريعة الغراء « قانون إقليمى » واجب التطبيق فى الأحوال العينية والأحوال الشخصية فى دار الإسلام على جميع المقيمين فيها من مسلمين وغير مسلمين ؟ فتكون أحكام المعاملات جميعا (سواء ما تعلق منها بالمال والعقود وما تعلق بالمواريث والوصايا وما تعلق بالأهلية والحجر ، وما تعلق بالأنكحة والنفقات) يجب تطبيقها على كل المقيمين ، فى دار الإسلام مسلمين وغير مسلمين ، عدا استثناءات طفيفة سترد بعد ، وأنه كان الواجب تطبيقها أيضا فى دار الحرب (إذ يوجد ببلاد الحرب مسلمون وذميون دخلوا تلك البلاد بأمان ، أو مسلمون أصلهم من أهلها أسلموا هناك لكنهم لم يهاجروا إلينا) لولا التعذر لعدم الولاية .

انقسم العلماء إلى مذهبين : مذهب يقول بأن أحكام الشريعة الإسلامية شخصية [١] ، وأن الإسلام إذ ضمن حرية الدين للذميين فتركهم وما يدينون جاوز الدين إلى المعاملات ، فترك الذميين إلى قضائهم الدينى يترافعون إليه فى جميع المعاملات ، وهم يرون بناء على ذلك أن القضاء الإسلامى لا يختص

---

(١) انظر Des Privilèges Et Immunités dont Jouissent Les étrangers En Egypte vis a vis des autorités Locales (Paris 1913) p. 802 « الامتيازات والإعفاءات التى يتمتع بها الأجانب فى مصر » معالى الدكتور محمد بهى الدين بركات باشا و« البطركخانات » سعادة سيزوستريس سيداروس باشا Patriarcats (Parcats 1906) P. 271 Le regime des capitulations dans L'Empire Ottoman Par G. P. Du Rausas (Paris 1911) T. I. P. 19 « نظام الامتيازات فى الامبراطورية العثمانية » للاستاذ دى روزاس حيث يقول مانصه « القانون الدينى هو بالضرورة قانون شخصى للمسلمين وللمسلمين وحدهم » و« الامتيازات » الأستاذ المرحوم عمر لطفى بك (القاهرة سنة ١٣٢٢) ص ١٣ ومابعدها و« الأجانب والمحميون فى الامبراطورية العثمانية » الأستاذ ارمانجون (باريز سنة ١٩٠٣) ج ١ ص ٩ — ١١

بأقضيتهم إلا إذا تراضوا هم على ذلك ، إذ المأثور عن عمر رضى الله عنه قوله « أمرنا بتركهم وما يدينون » .

أما المذهب الآخر فيقول إن أحكام الشريعة الاسلامية اقليمية ، لأن الاسلام دين ودولة ، وهو خطاب لجميع الناس مسلمين وغير مسلمين ، وإنه جمع مالله وماللدنيا فخص المسلمين بما لله وجعل ماللدنيا عاماً واجب التطبيق على الكافة مسلمين وغير مسلمين ، إلا فى بعض استثناءات [١] . نحن فى حاجة للاستشهاد بمراجع الفقه المطولة والرجوع إليها ، وأن ندرس الفقه الاسلامى دراسة عميقة لنتبين المذهب الصحيح ، ولنعرف مدى سلطة القاضى أيام الخليفة الفاطمى ، وهل كان ينظر فى القضايا المدنية والجنائية والشرعية للمسلمين وحدهم أم للمسلمين وغير المسلمين ، ولما كانت الأقوال لاتلقى على عواهنها فى البحث العلمى ، فلنلجأ الى أمهات المصادر الاسلامية ومطولات الفقه والأصول الصحيحة المعتمدة ، علنا نصل إلى الرأى الصحيح فنكشف عن القضاء أيام هذه الدولة الشيعية ، وقد كانت مصادر تشريعها الكتاب وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قولا وفعلا ، وفتاوى أئمتهم ، لنعرف هل طبق هذا التشريع الاسلامى الشيعى على كل من تظله أرض مصر ، أم طبق على المسلمين وحدهم وبذلك نكشف عن شىء كان قبل ذلك غامضاً .

ولقد وجدنا فى كتب الأصول من النصوص مايؤيد أن أحكام الشريعة الغراء هى أحكام اقليمية ، فقد قال تعالى « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم

---

(١) المرحوم الأستاذ الشيخ محمد بخيت « ارشاد الأمة الى أحكام الحكم بين أهل الذمة » (طبعة مصر سنة ١٣٤٧ هـ) ص ١٩ و ٢٩ و ٣٠ ابن حزم « الاحكام فى أصول الأحكام » (طبعة الخانجى سنة ١٣٤٧ هـ) جـ ٥ ص ١٠٨ و ١٠٩ وابن قدامه « المغنى » (طبعة المنار سنة ١٣٤٧ هـ) جـ ٦ ص ١٩٨ — ٢٠٠

وأبو يوسف « الخراج » (طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ) ص ١٤٩ و ٢٢٤ و ٢٢٥

ومعالى الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا « وصية غير المسلم لاتجوز إلا فى الثلث ولغير وارث » مذكرة بدفاع عن حكم محكمة النقض الإبرام الصادرة فى ٢١ يونية سنة ١٩٣٤

عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث[١]، وقال سبحانه وتعالى أيضاً «وما أرسلناك إلا كافة للناس، بشيراً ونذيراً»[٢] وأمره تعالى أن يقول «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً»[٣] وقوله تعالى «وأن احكم بينهم بما أنزل الله[٤]» ناسخة لقوله تعالى «فان جاءوك فاحكم بينهم أو اعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين»[٥]. ويقول ابن حزم[٦]، إن هذه النصوص جلية واضحة على لزوم شرائع الاسلام كلها للذميين كلزومها للمؤمنين، إلا ان منها مالا يقبل منهم إلا بعد الاسلام: كالصلاة والصيام والحج، لذلك يجب أن يحدوا على الخمر والزنا، وتلزمهم كل الأحكام فى النكاح والمواريث والبيوع والحدود وغيرها مثل ماتلزم المسلمين، لافرق فى ذلك كله بين المسلمين وغيرهم، ولا يجوز غير ذلك.

ويؤيدنا فى الأخذ بهذا الرأى مارواه الكندى عن «خير بن نعيم» الذى تولى قضاء مصر فى أواخر أيام الدولة الأموية (١٢٠ — ١٢٧ هـ) حيث يقول: «إنه كان يقبل شهادة النصارى على النصارى، واليهود على اليهود ويسأل عن عدالتهم فى أهل دينهم» وقال أيضاً عنه: «إنه كان يقضى فى المسجد بين المسلمين، ثم يجلس على باب المسجد بعد العصر على المعارج، فيقضى بين النصارى»[٧] «وأنه كان يسمع كلام القبط بلغتهم ويخاطبهم بها، وكذلك

---

(١) الآية ١٥٧ من سورة الأعراف رقم ٧
(٢) « ٢٨ « « سبأ رقم ٣٤
(٣) « ١٥٨ « « الأعراف رقم ٧
(٤) « ٤٩ « « المائدة رقم ٥
(٥) « ٤٢ « « « «
(٦) ابن حزم «الاحكام فى أصول الأحكام» (طبعة ١٣٤٧ هـ) جـ ٥ ص ١٠٨ و ١٠٩ و ١١٧ و «شرح المنار وحواشيه» ص ٢٥٤ و «والتوضيح والتلويح» ص ٤٠٤ و «كشف الأسرار» جـ ٤ ص ١٣٦٢ و ١٣٦٣
(٧) الكندى «كتاب الولاة وكتاب القضاة» ص ٣٥١ وابن حجر «رفع الاصر» ورقة ١٠٣

شهادة الشهود منهم ويحكم بشهادتهم ».[١] . كذلك لما تولى قضاء مصر ، محمد ابن مسروق ، الكندى سنة ١٧٧ هـ (٧٩٣ م) من قبل الخليفة هارون الرشيد أدخل النصارى فى المسجد فى خصوماتهم[٢] فكان أول من أدخل النصارى المسجد الجامع فى خصوماتهم ، وكان يقبل شهادة النصارى واليهود بعضهم على بعض ، ويسأل عن عدالتهم فى أهل دينهم[٣] وهذا كله لا يتأتى إلا إذا كان القاضى مختصاً بالنظر فى قضايا غير المسلمين .

وكان على القاضى المسلم أن يجرى حكم الشرع فى كل دعوى رفعت إليه ويحكم فيها ، بصرف النظر عن ديانة الخصوم أو جنسيتهم ، أى سواء أكانوا مسلمين أم ذميين أم حربيين ، لذا يقول أبو يوسف فى المسلم الذى يسرق من الذمى « إنه يلزمه ما يلزم السارق من المسلم »[٤] ويقول فى موضع آخر من كتاب الخراج : « الذمى الذى استكره المرأة المسلمة على نفسها ، فعليه من الحد ما على المسلم »[٥] « ولكن إذا كان العقاب قد نص عليه لمعصية دينية لا تلحق أى أذى بأحد الأفراد ، فلا ينفذ هذا العقاب على غير المسلم »[٦] كذلك يقر « غير المسلم » فى الأنكحة ، ونفى المهر وبيع الخمر والخنزير ، وإن كانت فاسدة بحسب الشريعة الغراء ، ويقول الماوردى فى كتابه[٧] « يحد القاذف بالزنا ، الكافر كالمسلم »

والتاريخ مملوء بما يثبت ما نقول ، فان أبا لؤلؤة المجوسى قاتل الخليفة عمر ابن الخطاب أخذ القصاص منه ولو أنه غير مسلم ، ويقول الكندى فى

---

(١) ابن حجر ورقة ١٠٢

(٢) الكندى ص ٣٩٠ و٣٩١

(٣) الكندى ص ٣٥١ ومتز « الحضارة الاسلامية » ص ٧٤ نقلا عن مخطوط قدامة باريز ص ١٣ ب

(٤) أبو يوسف «الخراج» (طبعة ١٣٠٢ هـ) ص ١٠٨

(٥) « « « ص ١٠٩

(٦) « « « ص ١١٧

(٧) « الأحكام السلطانية » ص ٢٠٠

كتابه [١]، سب نصرانى النبى صلى الله عليه وسلم ، فكتب المفضل بن فضالة قاضى مصر سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) إلى مالك بن أنس يسأله عن قتله ، فكتب مالك يأمره بقتله ، قال وكان «على بن سليمان الهاشمى» والياً على مصر يومئذ فقتل ذلك النصرانى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) ، لأن حد من ادعى النبوة ، أو سب النبى أو أحد الأئمة ، هو القتل [٢]. وذكر أبو يوسف فى كتابه [٣] أن عقوبة المرتد القتل لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من بدل دينه فاقتلوه» [٤] ويحدثنا ابن حجر [٥] أنه ارتد رجل فى أيام القاضى «على بن النعمان المغربى القيروانى» ، فاستأذن الخليفة العزيز بالله وضرب عنقه [٦] ، ورفع إلى القاضى محمد بن النعمان (٣٤٥ - ٣٨٩ هـ و ٩٥٦ - ٩٩٨ م) أن نصرانيا أسلم ثم ارتد وقد جاوز الثمانين ، فاستتيب فأبى ، فأنهى أمره إلى العزيز بالله الذى سلمه إلى والى الشرطة ، ثم أرسل إلى القاضى أن يرسل إليه أربعة شهود ليستتيبوه فان تاب وعده القاضى باعطائه من الخليفة مائة دينار وإن أصر على النصرانية قتل ، فعرض عليه الإسلام فأبى ، فقتل [٧].

وجاء فى المبسوط [٨] أن النبى عليه السلام قال «بعثت إلى الأحمر والأسود ، وخطاب الواحد خطاب الجماعة» ، وجاء فى ابن عابدين [٩] «ولهم

---

(١) «الولاة والقضاة» ص ٣٨٢ و ٣٨٣

(٢) العلامة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء «كتاب أصل الشيعة وأصولها» ص ١٥٦

(٣) «الخراج» ص ٢١٢

(٤) كان قانون الدولة البيزنطية يقضى بقتل المسيحى إن غير دينه . متز «الحضارة الاسلامية» ص ٥٦

(٥) رفع الاصر ورقة ١٩٦ .

(٦) المرتد والمرتدة لاملة لهما فى الدين الاسلامى ، فلا يجوز لهما الزواج بأى انسان ، وميراثهما عند موتهما لورثتهما المسلمين فقط ، فان لم يكن لهما ورثة مسلمون فهو لبيت المال ، شأن جميع الأموال التى لا وارث لها فى دار الاسلام . المرحوم الشيخ أحمد ابراهيم بك «حكم الشريعة الاسلامية فى الزواج مع اتحاد الدين واختلافه وتغيره» بحث منشور فى مجلة القانون والاقتصاد السنة الأولى (يناير سنة ١٩٣١) .

(٧) الكندى ص ٥٩٣ ومتز ص ٥٦

(٨) السرخسى «المبسوط» جـ ٥ ص ٢٨

(٩) ابن عابدين جـ ٣ ص ٢٩٩

مالنا من الانصاف ، وعليهم ماعلينا من الانتصاف، فخرجت بذلك العبادات إذ الذميون لا يخاطبون بها عندنا ، وجاء فى الأشباه والنظائر[١] « الذمى حكمه حكم المسلمين ، إلا أنه لايؤمر بالعبادات » ، وجاء فى المغنى لابن قدامة[٢] « إذا تحاكم إلينا أهل الذمة حكمنا عليهم بحكم الله تعالى علينا . . . ومن امتنع منهما أجبره على قبول حكمه وأخذه به ، لأنه إنما دخل فى العهد بشرط التزام أحكام الإسلام» .ويكون تعليل أخذ الذميين بأحكام الإسلام أنهم دخلوا فى العهد على هذا الشرط ، أى أن عقد الذمة هو الذى يلزمهم هذه الأحكام وعقد الذمة هذا هو مايسميه الفقهاء بالأمان المؤبد ، وله أحكام ، منها عصمة النفس وعصمة المال .

وعن سيدنا على كرم الله وجهه ، أنه قال : « إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ، ودماؤهم كدمائنا »[٣] .

« ويترك أهل الذمة فى أمصار المسلمين يبيعون ويشترون ، لأن عقد الذمة شرع ليكون وسيلة إلى الإسلام ، وتمكينهم من المقام فى أمصار المسلمين أبلغ إلى هذا المقصود ، وفيه أيضا منفعة للمسلمين بالبيع والشراء فيمكنون من ذلك »[٤] .

ما الذى نستخلصه إذاً مما تقدم عن عقد الذمة ؟ نستخلص أنه عهد يرتب للذميين حقوقا فى مقابل جزية يدفعونها ، وأن المقصود منه تمكين الذميين من المقام فى أمصار المسلمين رجاء إسلامهم ، وتنظيما للصلات التجارية بينهم وبين المسلمين ، وأنه لا يصح للمسلمين نقض هذا العهد ، بل عليهم حماية الذميين فى أموالهم ودمائهم ، ورعاية مصالحهم والرفق بهم والتفقد لهم ،

---

(١) ص ١٧٨و١٧٩
(٢) ابن قدامه « المغنى » (طبعة مطبعة المنار سنة ١٣٤٧ هـ) جـ ٦ ص ١٩٨ — ٢٠٠
(٣) « البدائع » جـ ٧ ص ١١١
(٤) « جـ ٧ ص ١١٣

وعدم ظلمهم أو ايذائهم أو تكليفهم فوق طاقتهم . لذا يقول أبو يوسف [١] مخاطبا الخليفة هارون الرشيد : « وقد ينبغى يا أمير المؤمنين ، أيدك الله أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم والتفقد لهم حتى لا يظلموا ، ولا يؤذوا ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شىء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم ، فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فانا حجيجه » وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند وفاته : أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يكلفون فوق طاقتهم » .

ونرى أن عقد الذمة (الأمان المؤبد) هذا هو الذى يؤكد جانب حقوق الذميين ، أما التزامهم أحكام الإسلام فلا يأتى من عقد الذمة بل يأتى من عموم ولاية المسلمين فى دار الإسلام .

فمن أحكام الشريعة الغراء مثلا : أن الوصية بما زاد على الثلث ممن له وارث تقف على إجازة الورثة ، وإن لم يكن له وارث أصلا تصح من جميع المال ، فيجب التزام أحكام الإسلام فى هذه القاعدة على وصية « غير المسلم » من ذمى ومستأمن ، فلا تجوز إلا فى الثلث ولغير وارث ، لأنها مسألة تعامل وهم ملتزمون أحكام الإسلام فيما يرجع إلى المعاملات ، لذلك يجرى عليها حكم الإسلام ، كما يجرى على وصايا المسلمين [٢] .

وينقسم العالم فى نظر الإسلام قسمين : الأول « دار الاسلام » وهى بلاد العرب البلاد التى افتتحها المسلمون كمصر ، وكلها تشترك فى خضوعها وانقيادها لأحكام الإسلام فى المعاملات وغيرها ، الثانى « دار الحرب » وهى ما عدا

---

(١) أبو يوسف «الخراج» (طبعة القاهرة ١٣٤٦ هـ) ص ١٤٩

(٢) الكاسانى «البدائع» ج ٧ ص ٣٣٥ والسرخسى «المبسوط» ج٢٨ ص٩٣و٩٤ والشرح الكبير» على متن المقنع لابن قدامة المقدسي ج ٦ ص ٤٦٧ وقاضي زادة في تكملة « فتح القدير » ج ٨ ص ٤٨٨

الديار الأولى ، ولاسلطان للاسلام عليها ، فكل من لم يعاهدنا على السلم يعد محارباً ، سواء أكانوا معاهدين أم مستأمنين ، وهم أجانب لا عن دين الإسلام فحسب بل أيضاً عن دار الإسلام لأنهم من أهل دار الحرب ، والحربيون ممنوعون من دخول دار الإسلام إلا إذا أصبحوا معاهدين ، وحينئذ يتبع فى شأنهم نص المعاهدة أو نص الأمان إذا استأمن أحدهم بأمان خاص .

والذميون وإن كانوا أجانب عن الدين الإسلامى لعدم اعتناقهم إياه ، إلا أنهم ليسوا أجانب عن دار الإسلام ، لأنهم من أهلها الذين أقرهم المسلمون على دينهم عند فتح بلادهم ، وضمنوا لهم ذلك بعهد الذمة .

والحربى إذا دخل إلينا مستأمناً سنة أو أكثر ، ولم يعد إلى وطنه فهو ذمى ، والحربى إذا دخل إلينا مستأمناً واشترى أرض خراج ووضع عليه الخراج ، صار ذمياً ، كذلك الحربية إذا دخلت إلينا بأمان فتزوجت ذمياً أو مسلماً ، صارت ذمية ، لأن المرأة فى السكن تابعة للزوج ، أما إذا دخل الحربى دار الإسلام مستأمناً فتزوج امرأة ذمية لم يصر ذمياً لأن الرجل ليس بتابع لامرأته فى السكنى ، فهو لم يرض بالمقام فى دارنا على التأبيد وإنما استأمن إلينا للتجارة .

والتاجر قد يتزوج فى موضع لا يقصد التوطن فيه ، فلهذا يصير ذميا فان أطال المقام واستوطن ، فحينئذ توضع عليه الجزية ، ويجعل له أمد يخرج فيه ، فإن لم يخرج ، جعل ذمياً .

« والأصل أن الحربى إذا دخل دار الإسلام بأمان ينبغى للإمام أن يتقدم إليه فيضرب له مدة معلومة على حسب ما يقتضى رأيه ، ويقول له إذا جاوزت المدة جعلتك من أهل الذمة ، فإذا جاوزها صار ذمياً » ، « وإذا اشترى الحربى أرض خراج فزرعها ، يوضع عليه خراج الأرض والرأس وبالتزام خراج الأرض صار راضياً بالتزام أحكام دار الإسلام ، فيكون

بمنزلة الذمى لأن الذمى ملتزم أحكام الإسلام »[١] .

ولا تفرق الشيعة بين الذمى والمستأمن من حيث التزامهما أحكام المعاملات والعقوبات ، إذ جاء فى كتبهم الشيعية « الأمر بفروع الشريعة (وهى المتعلقة بالمعاملات والعبادات) . لا يتوقف على الإيمان ، لأنه عام فيدخل فيه الكافر »[٢] وهو رأى الحنفية أيضاً ، فأبو حنيفة يطبق أحكام الشريعة الغراء فى دار الإسلام حتى على المستأمن .

فمن هذا نرى أن للمسلمين ولاية عامة فى دارهم ، تجعل أحكام الإسلام ملزمة لكل من يقيم فيها .

وفى هذا يقول أبو يوسف « ولا ينبغى أن يبايع الرسول ولا الداخل معه بأمان بشىء من الخمر والخنزير ولا بالربا وما أشبه ذلك ، لأن حكمه حكم الإسلام وأهله ، ولا يحل أن يباع فى دار الإسلام ماحرم الله تعالى ، ولو أن هذا الداخل إلينا بأمان أو الرسول زنى أو سرق ، فإن بعض فقهائنا قال لا أقيم عليه الحد ، فإن كان استهلك المتاع فى السرقة ضمنته ، وقال إنه لم يدخل إلينا ليكون ذميا تجرى عليه أحكامنا ، قال ولو قذف رجلا حددته ، وكذلك لو شتم رجلا عزرته ، لأن هذا حق من حقوق الناس ، وقال بعضهم إن سرق قطعته ، وإن زنى حددته ، وكان أحسن ماسمعناه فى ذلك والله أعلم ، أن نأخذه بالحدود كلها حتى تقام عليه . . . وإن أقام هذا المستأمن فأطال المقام أمر بالخروج ، فإن أقام بعد ذلك حولا ، وضعت عليه الجزية »[٣]

---

(١) عزيز بك خانكى « اختلاف الدارين، ومتى يكون مانعا من الارث؟» بحث منشور بمجلة القانون والاقتصاد سنة ١٩٣٤ ص ٧٢٤ و٧٢٦و٧٢٧ نقلا عن « الفتاوى الهندية » ج ٢ فى « كتاب السير » ص ٢١٧ وكتاب « بدائع الصنائع » ج ٦ ص ١١٠ والمرحوم الدكتور على الزينى بك « القانون الدولى الخاص المصرى والمقارن » ج ١ ص ١٧٤ و ١٧٥ والسرخسى « المبسوط » ٨٤ »

(٢) الحسن بن مظهر الحلى « كتاب منية اللبيب فى شرح التهذيب » ص ١٣١

(٣) أبو يوسف « الخراج » ص ٢٢٤ و ٢٢٥

وفى المبسوط للسرخسى[١] « لايجوز للإمام أن يوادع أهل دار الحرب إذا اشترطوا ألا ينقادوا لأحكام الاسلام فيما يتعلق بالمعاملات » .

ونستخلص مما تقدم : أن الذميين يلتزمون أحكام الاسلام فى عقوباتهم ، وفى معاملاتهم ، بما فى ذلك أحوالهم الشخصية ، ولا يشترط تراضيهم على ذلك ويترك الذميون وما يدينون فى الأنكحة وغيرها مما سبق ذكره ، ولكنها لاتخرج عن ولاية القاضى الاسلامى ، بل يختص بالنظر فيها ، ولكن يحكم بدينهم على اعتبار أن الحكم بدينهم هو ذاته حكم من أحكام الإسلام[٢] وعليه فلا ترفع ولاية القضاء الإسلامى عن الذميين حتى فى الأنكحة مادام أحد الخصوم استعدى هذا القضاء على خصمه ، أما إذا تراضوا جميعاً على قضاء دينهم فهذا هو التحكيم ، وهو جائز للذميين جوازه للمسلمين ، ولا يعتبر هذا قضاء بل يعتبر تحكيما ، والأصل فى ذلك أن القضاء بمعناه الصحيح لايليه إلا المسلم فى الشرع الاسلامى ، فلا يجوز تقليد الذمى القضاء حتى على ذمى مثله فاذا حكم الذمى فى أقضية الذميين فانما يكون هذا تحكيما ، فهو « تقليد زعامة ورئاسة وليس بتقليد حكم وقضاء ، وإنما يلزمهم (أى الذميين) حكمه لالتزامهم له لا للزومه لهم »[٣] وفى هذا يقول الماوردى[٤] أيضاً وهو يعدد شروط القاضى « والشرط الرابع الاسلام » إلى أن قال ... ولا يقبل الامام قوله فيما حكم به بينهم ، وإذا امتنعوا عن محاكمتهم إليه لم يجبروا عليه وكان حكم الاســــلام عليهم أنفذ » .

فيتبين من هذا بجلاء أن القضاء الاسلامى مختص اختصاصاً اجبارياً بالنظر

---

(١) جـ ١٠ ص ٨٥ و ٨٦

(٢) هذا يماثل المعروف فى قواعد القانون الدولى الخاص من أن القاضى إذا طبق هذه القاعدة ، فانما هو يطبق قانون بلده ، لأنهـا جزء من هذا القانون . الدكتور حسن أحمد بغدادى « التميز مابين الأحوال الشخصية والأحوال العينية » الترجمة العربية ص ١٤٤ و ١٤٥ وانظر « البدائع » جـ ٢ ص ٣١١

(٣) و (٤) فى « الأحكام السلطانية » ص ٦٢ ومتن ص ٧٢

فى أقضية الذميين ، سواء تراضى الخصوم أو لم يتراضوا على الترافع إلى هذا القضاء وأنه إذا ترافع أحد الذميين إلى القضاء الاسلامى حتى فى مسائل الأنكحة نفسها ، أصبح هذا القضاء مختصا ، وطبق القاضى فى الخصومة أحكام الشريعة الاسلامية ، إلا فى الأنكحة فيقضى بينهم بما يدينون .

أما فى المواريث والوصية ، فلا نزاع فى أن القضاء الاسلامى هو المختص باقضيتها تراضى الخصوم أو لم يتراضوا ، وأنه يجرى فيها أحكام الشريعة الغراء بلا استثناء ، فلا يجيز الوصية مثلا لوارث كما لا يجيزها فيما يخرج من الثلث إلا باجازة الورثة .

كانت الشريعة الاسلامية اذاً هى الشريعة العامة Le Droit Commun بمصر منذ الفتح العربى سنة ٤٠ هـ (٦٤١ م) ، فجرفت أمامها القوانين الرومانية تدريجيا ، واستمرت تضبط علاقات الأفراد ، الخاصة بأحوالهم الشخصية Statut Personnel كما تضبط معاملاتهم Statut Reel إلى عهد المغفور له اسماعيل باشا[1] ، فلم يخرج عن ولايتها أحد على أرض الدولة المصرية أيام الدولة

---

(١) نعم رأى محمد الفاتح سلطان الدولة العثمانية عندما استولى على القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) أن مبدأ شخصية القوانين منتشر فى أوروبا ، ورأى من جهة أخرى قضاء الكنيسة باسطاً ظله على المسيحيين يتقاضون أمامه منذ العصور الوسطى ، فخشى أن يصدم رعاياه الجدد وكلهم من الروم فى تقاليدهم القضائية ومعتقداتهم الدينية ، فتنضم كنيستهم الشرقية فى القسطنطينية إلى الكنيسه الغربية ، وينفض ما كان بين الكنيستين من نزاع متأصل ، فجعله هذا الأعتبار يحتضن رعاياه المسيحيين فى الشرق ، ويتحالف بذلك مع الكنيسة الشرقية ضد الكنيسة الغربية ، فأقر كلا من بطرق الروم وبطرق الأرمن وربان اليهود على ما كان له من سلطات قضائية على أتباعه فى جميع المسائل المدنية والجنائية ، وبذلك خول المحاكم الكنائسية حق الفصل فى المسائل المدنية وبعض المسائل الجنائية مخالفاً فى ذلك أحكام الشريعة الاسلامية التى تلزم الذميين أن يترافعوا الى القضاء الاسلامى فى جميع مسائلهم المدنية والجنائية .

ثم انتشرت الروح التى ترمى إلى تضييق اختصاص المحاكم الكنائسية ، حتى أن الخط الهمايونى الذى أصدره السلطان عبد المجيد فى جمادى الآخرة سنة ١٢٧٢ هـ (فبراير سنة ١٨٥٦ م) لم يترك الحرية لغير المسلمين فى اتباع أحكامهم الدينية إلا فيما ارتبط بالدين ارتباطا شديداً ، أى فى الأحوال الشخصية البحتة كالزواج والطلاق ، أما مسائل الارث فلا تفصل فيها المحاكم الكنسية =

الفاطمية ، لاأهل الذمة المستوطنون فيها ولا غيرهم من المستأمنين المقيمين بها ، لأنهم جميعايتمتعون بحماية الدولة الفاطمية، فلا أقل من أن يعتبروا خاضعين لقضائها الاقليمى ، وكذلك خضع لقضاء الديار المصرية الأقليمى الأجانب المارون بالدولة إذا أتوا أمراً يخل بأمن الدولة ، أويعتبر جريمة بحسب قوانينها أو إذا عقدوا أثناءوجودهم بالبلاد المصرية عقوداً .ويحدثنا الذهبى فى مخطوطه[١] أنه عندما تهيأ الخليفة العزيز بالله لغزو الروم سنة ٣٨٦ ﻫ (٩٩٦م) أحرقت مراكبه ، فاتهم أناساًمن الروم ، فقتل منهم مائتين ، وبديهى أن أحكام الاسلام الدنيوية لانفاذ لها فى غير دار الاسلام ،أما أحكام الاسلام الدينية من أجزيتها الأخروية فالمسلم خاضع لهاحيثما حل[٢] . ويقسم علماء الشريعة الفقه الاسلامى المتعلق بأمور الدنيا إلى ثلاثة أنواع : الأحوال الشخصية ، والمعاملات والعقوبات ، وهو ترتيب منطقى .

فأما الأحوال الشخصية فهى علاقة الانسان بغيره من الناس بما له علاقة

= إلا عند اتفاق ذوى الشأن جميعا ، ومما ساعد على التجاء الذميين إلى القضاء الإسلامى أنه لايوجد نص عند المسيحيين يمنعهم من التوريث كما يرغبون .

ولما دخلت مصر مع باقى الدول المتمدينة فى وضع قوانين جديدة أيام اسماعيل باشا وضع القانون المختلط سنة ١٨٧٦ والاهلى سنة ١٨٨٣ ، وبذلك خضعت القوانين المصرية مرة أخرى لسلطان القانون الرومانى فيما عدا الأحوال الشخصية وبعض مسائل الإرث .

« رد المحتار على الدر المختار » (مطبعة الحلبى) ج ٣ ص ٣٠٣ والدكتور محمد صادق فهمى بك « شرح القانون المدنى » ج١ ص ١٦٣ — وأما اليهود من ذرية أبائنا ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام ، فقد نزلت التوراة على موسى عليه السلام بجبل الطور على لوحين بالوصايا العشر ، وفى التلمود أو الميشنا كتابهم الثانى بعد التوراة ، وكتاب موسى بن ميمون طبيب الملك العادل صلاح الدين الأيوبى ، وغيرها من الكتب المفسرة للتوراة ، نجد الفقه الشرعى والأحكام الدينية من عبادات ومعاملات . ابن شمعون « كتاب الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للاسرائيليين » ص ب ، ج ، و ، ز ، خ ، ن من المقدمة .

(١) « تاريخ الإسلام » ج ٣ ص ٢٢٠ ويحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكى « تاريخ الذيل » ص ٣٣ و ٣٤

(٢) المرحوم الشيخ أحمد ابراهيم بك « حكم الشريعة الإسلامية فى الزواج مع اتحاد الدين واختلافه وتغييره » بحث منشور بمجلة القانون والاقتصاد السنة الأولى (١٩٣١) ص ١١

بعقيدته الدينية كالزواج والطلاق والحقوق التي تنشأ عن النسب والولاية والوصاية وغيرها .

أما المعاملات فهي جميع العقود والتصرفات التي يتبادل بها الناس منافعهم وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام ما معناه « الدين المعاملة » .

أما العقوبات ومجالها المسائل الجنائية ، فكان يرفع كل شخص وقع عليه أو على ماله أي تعد الدعوى مباشرة أمام القاضي ، كما كان لكل إنسان في حالة حصول تعد على حق من حقوق الله (ولو كان هذا التعدى لم يلحق بالمدعى أي ضرر شخصي[1]) أن يرفع الدعوى أمام القاضي ، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان على الكافة عملا بقوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر »[2] .

ولقد جمعت الشريعة الغراء في يد القاضي الشرعي أيام الدولة الفاطمية من الزواجر مالا يتيسر لقاض اليوم ، لأنها أباحت لها التأديب فيما عظم وتفه من الجرائم ، ولما كانت الزواجر إما حدود أو تعازير ، وكانت الجرائم التي لها حدود معينة ستة جرائم فقط[3] فقد تركت معظم الجرائم لتقدير القاضي الشرعي يحكم فيها بالعقاب الذي يراه مناسباً لها ، وبذلك فاق القاضي الشرعي القاضي الجنائي اليوم ، لأن هذا الأخير لا يجد إلا عقوبات معينة[4] وإنما غلظ بعضها لظروف تقتضي التغليظ أو الغرامة ، فاذا خرجت مسألة معروضة عليه عن قانونه تعين عليه الحكم ببراءة المتهم ، أما القاضي الشرعي فقد منحه الشرع الشريف أكثر من ذلك وهو حق التعزير .

والشروع في الجرائم غير معاقب عليه إلا بالتعزير ، وهذا ما حكم به

---

(١) الدكتور حسن نشأت باشا « شرح قانون تحقيق الجنايات » ج ١ ص ٥٩

(٢) الآية ١١٠ من سورة آل عمران رقم ٣

(٣) مقررة في الكتاب والسنة، وهي : القتل، والجرح ، والسرقة ، وقطع الطريق ، والزنا ، والقذف بالزنا ، وشرب الخمر .

(٤) العقوبات في قانوننا الجنائي ، هي : الاعدام ، والأشغال الشاقة المؤبدة ، أو المؤقتة ، والسجن ، والحبس مع الشغل ، أو البسيط ، والغرامة .

الإمام على الذى كان يرى أنه ليس عليه قطع فى الشروع فى الجرائم ، وإنما عليه قطع إذا تمت الجريمة [١] .

أما التعزير فقد عرفه الماوردى فى كتابه الأحكام السلطانية [٢] ، بأنه تأديب على ذنوب لم تشرع فيها الحدود ، فالفرق بين الحد والتعزير أن الحد مقدر شرعاً ، والتعزير مفوض أمره ونوعه وتقديره إلى الحاكم ، وأن الحد يدرأ بالشبهات ، والتعزير لا يدرأ بها [٣] ، فيستحق التعزير كل من ارتكب منكراً لا حد فيه ، أو آذى مسلما أو غير مسلم بغير حق بقول أو فعل أو إشارة ، لذا يستحق التعزير مثلا كل من ضرب أو سب غيره ، ومن أكل ما حرم الله أكله بدون اضطرار كأكل لحم الخنزير ، ومن يخون الأمانة ويطفف فى المكيال والميزان ، ويغش الناس ، وشاهد الزور ، والمرتشى وغير ذلك ، من المعاصى التى لا حد لها .

ويكون التعزير بكل ما فيه إيلام لمن يستحقه ، فيكون بالتوبيخ ويكون بأن يعبث القاضى بمن يستحقه ، ويكون بالحبس ، والنفى ، والصفع وتحريك الأذن ، وحلق شعر الرأس ، وبالعزل من العمل بالنسبة لعمال الدولة ، وبالهجر للزوجة ، وبالتشهير لشاهد الزور ، وغير ذلك [٤] . وكان لا يعفو عن مرتكب جريرة إلا السلطان ، لأنها تعتبر اعتداء على الأمة لا على المجنى عليه فحسب ، فمن حق السلطان وحده أن ينظر فيها ، لأنه هو

---

(١) أبو يوسف « الخراج » ص ٢٠٤

(٢) « « « ص ٢٠٥

(٣) معنى يدرأ أى يدفع ، والشبهات جمع شبهة وهو ما أشبه الثابت وهو ليس بثابت ، مأخوذة من الاشتباه أى الالتباس ، وقوله عليه السلام « ادرأوا الحدود بالشبهات ... الخ يطابق نفس القانون الجنائى المصرى الذى يفسر الشك لصالح المتهم ، وقوله عليه السلام « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . السرخسى « المبسوط » ج ١٦ ص ٨٧

(٤) الشيخ احمد ابراهيم بك « أحكام المرأة فى الشريعة الإسلامية المرأة والأجزية » بحث منشور بمجلة القانون والاقتصاد فى ابريل سنة ١٩٣٦ ص ٥٣٤ ومايليها والماوردى « الأحكام السلطانية » ص ٢٠٨

الذى بيده حق الأمة [١] . ولقد حدثنا النعمان فى كتابه شرح الأخبار [٢] عن حق السلطان فى العقوبة ، فقال : « وعن ناحية عن عمه، قال: لطمنى رجل وأنا فى السوق فقلت واغوثاه ، وإذا أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ورائى فقال أتاك الغوث ، فالطمه كما لطمك ، ثم أمر به فضرب تسع درر ، وقال : هذا حق السلطان لتعديك » .

السجون : لم يكن السجن كما نراه الآن (وهو حبس المتهم فى مكان ضيق) موجوداً أيام النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا فى زمن خليفته أبى بكر الصديق إنما كان السجن أيامهما هو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه والاختلاط بغيره ، فكان يتوكل الخصم أو وكيله بملازمة هذا الشخص فى بيت أو مسجد ، ولهذا سماه النبى عليه السلام « أسيراً » ، لأن الشخص كان إما أن يبقى بمكان من الأمكنة أو يقام عليه حافظ ، وهو ما يسمى بالترسيم ليلازمه . ويعرّف الدكتور زيادة الترسيم بأنه « تعويق الشخص الواقع تحت الاتهام ومنعه من التصرف بنفسه رهن التحقيق الابتدائى فى التهمة الموجهة إليه أو الدعوى المقامة عليه » [٣] ، يلازمه حتى يحين موعد المحاكمة أمام القاضى .

ومعنى ذلك أن المتهم كان يعتبر مجرماً حتى تظهر براءته ، وبذلك يقيدون

---

(١) « أتى رسول الله صفوان بن أمية برجل سرق له رداء ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع يده ، فقال صفوان يارسول الله لم أعلم أن الأمر يبلغ به هذا : تقطع يده من أجل ردائى ؟ قد وهبته له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهلا فعلت هذا ولم ترفعه الى ! ان الحد إذا رفع إلى الامام لم يجب تركه ، وأمر بالسارق فقطعت يده » . ابن النعمان « المجالس والمسايرات » المجلد الثانى (١) جـ ١١ ص ١٦ و ١٧

(٢) ورقة ١٦٧ — ويحدثنا الأستاذ احمد بك أمين فى كتابه « ضحى الإسلام » جـ٣ ص ٨٥ « أن عمرو بن عبيد (المتوفى سنة ١٤٣ هـ أو ١٤٤ هـ) رأس المعتزلة كان يقول : « لايعفى عن السارق دون السلطان »

(٣) الدكتور محمد مصطفى زيادة « السجون فى مصر فى العصور الوسطى » بحث منشور فى الثقافة العدد ٢٦٠ ص ١٦ نقلا عن المقريزى .

حريته بأنواع التعويق والتضييق ، وهى نظرية تخالف نظرية مشروع اليوم الذى يعتبره بريئاً حتى تظهر إدانته .

ولقد أمر النبي عليه السلام بملازمة غريم الشخص له ، فقد روى أبو داود وابن ماجة عن الهرماس عن أبيه قال : « أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بغريم لى ، فقال لى الزمه ، ثم قال يا أخا بنى تميم ، ما تريد أن تفعل بأسيرك ؟ وفى رواية ابن ماجة ثم مر بى آخر النهار فقال ما فعل أسيرك يا أخا بنى تميم » ؟

أما السبايا ، فقد كن يحبسن فى حظيرة الجامع ، ولما انتشرت الرعية فى زمن الخليفة عمر بن الخطاب وجد الحبس ، الذى يحبس فيه المجرم ، إذ ابتاع عمر بمكة داراً من « صفوان بن أمية » بأربعة آلاف درهم وجعلها سجناً (سجن عارم) يحبس فيها المجرمين ، واستمر هذا بعده حتى أيام الفاطميين . والسجن « هو اعتقال الشخص المحكوم عليه بمكان حرج ضيق للتنكيل به وتعذيبه مدة معينة أو مؤبدة أو لتنفيذ عقوبة الإعدام فيه » وأول من أجرى من الخلفاء الراشدين على أهل السجون مايقوتهم فى طعامهم وأدمهم وكسوتهم شتاءاً وصيفاً هو الإمام على كرم الله وجهه ، فاذا كان للمجرم مال ، أنفق منه عليه فى الحبس ، وإن لم يكن له مال أنفق عليه من بيت مال المسلمين حتى يحبس عن الناس شره [1] .

وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز يأمر عماله ألا يقوا فى السجون أحداً من المسلمين فى وثاق ، حتى يستطيع أن يصلى قائماً ، وألا يقوا فى قيد إلا رجلا مطلوباً بدم .

ومعنى ذلك أن المسجون فى المسائل المدنية كان لا يقيد ، أما المجرم فى المسائل الجنائية فلا مانع من ابقائه فى قيد ، وكان يأمر أن يجرى على

---

(١) أبو يوسف « الخراج » ص ١٧٨ و١٧٩ — « ويؤثر عن الامام على أنه كان يدع من أراد شهود الجمعة من أهل السجن أن يأتوها ، ثم يعادون إلى السجن إذا قضيت الصلاة . ابن النعمان « المجالس والمسايرات » المجلد الثانى جـ ٢٠ ص ٣٩٨ و ٣٩٩

المحبوسين من الصدقة ما يصلحهم فى طعامهم وأدمهم [١] .

وجاء فى كتاب الخراج لأبى يوسف [٢] « فمر بالتقدير ما يقوتهم فى طعامهم وأدمهم ، وصير ذلك دراهم تجرى عليهم فى كل شهر يدفع ذلك إليهم ، « فإنك إن أجريت عليهم الخبز ، ذهب به ولاة السجن والقوام والجلاوزة (الشرطة) » .

« وول ذلك رجلا من أهل الخير والصلاح يثبت أسماء من فى السجن ممن تجرى عليهم الصدقة ، وتكون الأسماء عنده ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر يقعد ويدعو باسم رجل ويدفع ذلك إليه فى يده » « فمن كان منهم قد أطلق وخلى سبيله ، رد ما يجرى عليه » ، « ويكون للأجراء عشرة دراهم فى الشهر لكل واحد » ، « وليس كل من فى السجن يحتاج إلى أن يجرى عليه » ، « وكسوتهم فى الشتاء قميص وكساء وفى الصيف قميص وإزار » ، « ويجرى على النساء مثل ذلك وكسوتهن فى الشتاء قميص ومقنعة وكساء ، وفى الصيف قميص وإزار ومقنعة » ، واغنهم عن الخروج فى السلاسل يتصدق عليهم الناس » (أى لما هم فيه من جهد الجوع) « فانه عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا وأخطأوا وقضى الله عليهم ما هم فيه فحبسوا ، يخرجون فى السلاسل يتصدقون ، وما أظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين فى أيديهم ، فكيف ينبغى أن يفعل هذا بأهل الإسلام » ؟

ومعنى ذلك أن المساجين لم يكونوا يطعمون فى سجونهم البتة ، ويقول الدكتور زيادة « كانت العادة أن يخرج بهم أعوان السجان فى أغلال الحديد إلى عملهم اليومى ، فيسألون الناس فى الطريق ، فاذا وصل إلى أيديهم شىء من الصدقة استولى الأعوان على معظمه باسم توزيعه فيما بعد [٣] » .

---

(١) أبو يوسف « الخراج » ص ١٧٩

(٢) « « ص ١٧٩ و ١٨٠

(٣) الدكتور زيادة « السجون فى مصر فى العصور الوسطى » بحث منشور فى مجلة الثقافة فى العدد ٢٧٩ ص ١٦ و ١٧ نقلا عن المقريزى .

ويتابع أبو يوسف كلامه فيقول : « فتفقد أمرهم ومر بالإجراء عليهم مثل مافسرت لك » . « ومن مات منهم ولم يكن له ولى ولا قرابة ، غسل وكفن من بيت المال وصلى عليه ودفن » . « ومر ولاتك جميعا بالنظر فى أمر أهل الحبوس (المساجين) فى كل الأيام ، فن كان عليه أدب ، أدّب وأطلق ، ومن لم يكن له قضية ، خلى عنه ، وتقدم إليهم ألا يسرفوا فى الأدب ولا يتجاوزوا بذلك إلى ما لا يحل » ، وهو ما تأخذ به معظم القوانين الحديثة ، فالسجن إصلاح وتهذيب لا تعذيب ، فالسجين يجب أن يعامل بالحسنى إذ نهى عن غله إلا إذا خيف فراره ، وعن ضربه إلا إذا أقيم عليه حد ، وأذن له إذا كان مدينا أن يخرج ليخاصم [1] ، بل اعتبر من يحول بين المسجون وزوجه أنه آثم ، خصوصا وأن الدين الإسلامى لا يوجب الحبس إلا فى حالات التعزير .

ويحدثنا المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ عن السجن فى أيامه فيقول : « وأما الحبس الآن فانه لا يجوز عند أحد من المسلمين ، وذلك أنه يجمع الكثير فى موضع يضيق عنهم غير متمكنين من الوضوء والصلاة . . . . يؤذيهم الحر فى الصيف والبرد فى الشتاء . . . . يخرجون مع الأعوان فى الحديد . . . وهم يصرخون فى الطرقات من الجوع ..... وجميع ما يجمع لهم من صدقات الناس ، يأخذه السجان وأعوان الوالى . . . وبالغوا فى عقوبته ، وهم مع ذلك يستعملون فى الحفر وفى العمائر ونحو ذلك من الأعمال الشاقة ، والأعوان تستحثهم فاذا انقضى عملهم ردوا إلى السجن فى حديدهم ، من غير أن يطعموا شيئاً » [2] .

وهذه الألفاظ الصريحة تدل على ما كان يلقاه السجين من الإرهاق والعنت والجوع والعرى فى أيام الدولة الفاطمية أيضاً .

---

(١) النكدى « القضاء فى الإسلام » جـ ١ ص ١٠٩ و ١١٠ والدكتور زكى عبد المتعال « النظم » ص ٣١٢ و ٣١٣

(٢) المقريزى « الخطط » جـ ٢ ص ١٨٧

وكانت السجون فى هذا العصر كلها « شنيع المنظر والمخبر ، وكلها موحش قذر ضيق ، يشم المار بقربه رائحة كريهة ، ويسمع صراخ المساجين وشكواهم الجوع والعرى والقمل وشدة الظلام وكثرة الوطاويط ، أى أن الداخل لها مفقود والخارج منها مولود » .

وأقدم السجون المصرية « حبس المعونة » بالفسطاط جنوب شرق جامع عمرو ، ابتدأ كسكن للولاة ثم صار داراً للشرطة أيام العباسيين ، فلما كانت مصر دولة فاطمية اتخذه يانس الصقلى أحد ولاة الشرطة سجنا سنة ٣٧١هـ (٩٩١م) بعد أن نقلت الشرطة إلى مكان آخر .

واستمر أيام الدولة الفاطمية سجناحتى هدمها الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠م) وأقام بدله مدرسة الناصرية نسبة إليه يدرس فيها المذهب الشافعى [١] .

ويقول الدكتور زيادة إن حبس المعونة مكانه الآن « مجموعة الدكاكين التابعة لوكالة يعقوب بك بالتربيعة ، وليس يعرف من تاريخه سوى أنه كان سجناً لأرباب الجرائم من السراق وقطاع الطرق ونحوهم زمن الدولة الفاطمية وأنه كان سجنا ضيقاً حرجا شنيعا يشم المار بقربه رائحة كريهة » [٢] ، وحوالى سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م) أنشأ الخليفة المستنصر سجنا لأرباب الجرائم السياسية من الأعيان والأمراء والوزراء ، وجعل بخزانة البنود بعد حريقها ، عند نقلها ليلا بشمعة موقدة سقطت من أحد الفراشين فسببت حريقها فى سنة ٤٦١هـ وبذلك أطلق إسمها على هـذا السجن السياسى الذى حشر فيه الناس لأسباب سياسية ، أو لأنهم فقدوا عطف أولياء الأمور .

---

(١) الدكتور زيادة « السجون فى مصر فى العصور الوسطى » بحث منشور فى مجلة الثقافة العدد ٢٦٠ ص ١٦

(٢) المقريزى «الخطط» جـ ٢ ص ١٨٦ و ١٨٧ (طبعة بولاق ١٨٥٣ م) والدكتور زيادة البحث السالف الذكر ص ١٧

ويقول الدكتور زيادة إن موضعه الآن مكان « الدور الواقعة بين عطفة القزازين ودرب علم الدين بقسم الجمالية »[١]، ولما قبض الوزير « أبو منصور الفلاحى » على « ابن الأنبارى » وزير الحاكم بأمر الله اعتقل فيه مدة ثم قطعت رأسه ودفنت فيه ، كذلك قبض المستنصر بعد قليل على « أبي منصور الفلاحى » نفسه واعتقله فيه ثم أمر بقطع رأسه ٤٤٠هـ (١٠٤٨م) ودفنها فيه أيضا على رفات الوزير الأنبارى[٢]، وقد ظل هذان السجنان زمن الفاطميين وطيلة أيام الأيوبيين[٣].

ولما كانت السجون لا تخلو ممن يمرض فيها ، أعدت البيمارستانات[٤] وكانت عبارة عن مستشفيات مجهزة بجميع مايلزم المرضى من أدوات وأدوية وأطعمة وأشربة وملابس وأطباء وصيادلة وكل ماهو لازم للمرضى والعجزة من المسجونين ، فكان الأطباء يدخلون عليهم كل يوم حاملين الأدوية والأشربة وما يحتاجون إليه من المزورات (شربة الخضار وهى حساء بدون لحم ولا دسم) .

وكانت البيمارستانات منقسمة إلى قسمين منفصلين : قسم للذكور وقسم

---

(١) البحث السالف الذكر ص ١٧

(٢) ابن منجب « الاشارة » ص ٣٧

(٣) المقريزى « الخطط » جـ ١ص٣٥٥ و ٤٢٣ و ٤٢٥ وابن اياس « بدائع الزهور » جـ ١ ص ٦٠ وعلى مبارك باشا « الخطط التوفيقية » جـ ١ ص ١٣

(٤) يعبر عن المستشفى فى العهد الاسلامى إلى العصر الحاضر بالبيمارستان وهى كلمة فارسية مركبة من كلمتين « بيمار » بمعنى مريض أو عليل أو مصاب و « ستان » بمعنى مكان أو دار ، فهى إذن « دار المرضى » ، ثم اختصرت فى الاستعمال فصارت مارستان .

ابن أبى أصيبعة « طبقات الأطباء » جـ١ص ٣١٠ والدكتور احمد عيسى بك « تاريخ البيمارستانات فى الاسلام » ص ٣ و ٤ و ١٢ و ١٨ وكان البيمارستان فى عهد الدولة الفاطمية بالقشاشين ، التى سميت فيما بعد بالخراطين ، وتعرف اليوم بشارع الصنادقية ، وكان أول من أنشأ البيمارستان بالفسطاط هو احمد بن طولون سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ م) ، وأنفق عليه ٦٠ ألف دينار . القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٣٤٧ والمقريزى «الخطط» جـ ١ ص ٤٠٧ و ٤٣٥ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » جـ ٤ ص ١٠١

للأثاث ، وكان كل قسم مجهزاً بما يحتاج إليه من الآلات والعدة والقوام والمشرفين والخدم من الرجال والنساء [١] .

ولسنا ندرى أكان يباح للمسجونين أيام الدولة الفاطمية أن يصنعوا أشياء فى السجون لبيعها لحسابهم كما كان يحدث فى عصر احمد بن طولون أم لا ؟ وهل كان بعض الناس فى عصرهم يسجنون فى منازلهم كما كان يحدث فى العصر الطولونى أو . . لا ؟ .

(ء) **اختصاص القاضى النوعى والاقليمى وألقابه** : نريد بالاختصاص هنا شيئين : الأول المناصب التى كان يتقلدهاالقاضى زمن الخليفة الفاطمى (أى الاختصاص النوعى) ، والثانى البلاد التى كانت له سلطة القضاء فيها (أى الاختصاص الإقليمى) ، فلقد كان القاضى بجانب عمله القضائى وهو الفصل فى الخصومات المدنية والجنائية والحكم فى الفروج والأنكحة والطلاق والنفقات وتنصيب الأوصياء وصحة العقود وبطلانها (وهى من القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية والمعاملات) يجمع أحيانا بين ولاية القضاء هذه أعمالا أخرى ، بعضها اجتماعى ، وبعضها إدارى ، وبعضها مالى ، فوق عمله القضائى والدينى السالف الذكر ، فكان منصبه بذلك من أهم المناصب وأكثرها عملا وكانت سلطته متسعة .

وقد بين ابن خلدون [٢] لنا مدى اختصاص القاضى ، فقال : « استقر منصب القضاء آخر الأمر على أن يجمع مع الفصل فى الخصومة استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين ، فينظر فى أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه ، وفى وصايا المسلمين ، وأوقافهم ، وتزويج الأيامى عند فقد أوليائهم ، والنظر فى مصالح الطرقات والأبنية ، وتصفح

---

(١) ابن الداية « كتاب المكافأة » (طبعة Vollers) ص ٥٣ و Dr Zaki Moh. Hass., Les Tulunides -.p206'

(٢) ابن خلدون « المقدمة » (طبعة بيروت ١٨٧٩ م) ص ١٩٣

الشهود والأمناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ، ليحصل على الوثوق بهم ، وصارت هذه كلها من متعلقات وظيفته وتوابع ولايته ، وكان الخلفاء يجعلون للقاضى النظر فى المظالم » .

ومنه نرى تعدد أعمال القاضى وسعة سلطته واختصاصه ، إذ أصبح غير قاصر على الفصل فى الخصومات بين الناس ، بل اتسعت دائرة عمله فشملت حق النظر فى أمور عدة جعلت سلطته كبيرة ونفوذه عظيما ، فكان على القاضى أن يحضر مع الخليفه ويؤدى أعمالا وفقا لرسوم وتقاليد معينة أيام المواسم والحج والأعياد الرسمية ، فإذا جلس الخليفة فى المواكب « كان أول مائل للخدمة بالسلام هو قاضى القضاة والشهود المعروفون بالاستخدام فيجيز صاحب الباب القاضى دون من معه ، فيسلم القاضى على الخليفة بأدب الخلافة ، بأن يرفع يده اليمنى ويشير بالمسبحة ويقول بصوت مسموع « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، يتخصص بهذا الكلام القاضى دون غيره » [١] .

وفى ليالى الوقود الأربع (وهى ليلة أول رجب ونصفه ، وأول شعبان ونصفه) كان على القاضى أن يرد السلام على الخليفه عندما يظهر للناس ، ويبدأه بالسلام ويركب هو والشهود ، بمجرد حجب الخليفة بغلق الطاقتين وانفضاض الناس ، إلى دار الوزير ليسلموا عليه وليدعوا له .

ثم كان على القاضى بعد ذلك أن يحضر إلى الجامع العتيق (جامع عمرو) ويدخل فى باب الزيادة التى كان يحكم فيها ليصلى فى الجامع ركعتين ، وكان يوقد له التنور الفضة بالجامع ، فاذا خرج القاضى من الجامع وكان ساكنا بمصر صحبه « والى مصر » إلى منزله ، وإن كان ساكناً بالقاهرة كان على « والى القاهرة » أن يصحبه إلى داره .

وكان من رسوم القاضى فى ليلة النصف من رجب فوق ما تقدم أن يتوجه

---

(١) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٥٤ والقلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٥٠٠ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢١٩

بعد صلاته بجامع عمرو إلى القرافة ليصلى فى جامعها [١].

وكان من رسوم القاضى فى المولد النبوى (أى فى الثانى عشر من ربيع الأول) وفى مولد الإمام على كرم الله وجهه ، عندما يحضر ومعه الشهود إلى الجامع الأزهر ، أن يكون أول من تفرق عليه الحلوى من أرباب الرسوم [٢].

كذلك كانت وظيفة القاضى تتطلب منه أن يحضر ركوب الخليفة فى المواكب العظام ، ففى أيام الجمع الثلاث من رمضان (وهى الجمع الثانية والثالثة والرابعة) ، كان على القاضى أن يصعد المنبر وفى يده مدخنة لطيفة خيزران (يحضرها إليه صاحب بيت المال ، وفيها ند مثلث لا يشم مثله إلا هناك) قبل وصول الخليفه بقليل ، ويبخر المنبر والقبة التى يقف تحتها الخليفة وقت القاء الخطبة ، وكان إذا أذن للجمعة ، دخل قاضى القضاة على الخليفه وقال « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى الخطيب ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله » وكان على القاضى إذا لم يوجد وزير صاحب سيف أن يزر على الخليفة قبل الخطبة ويفك ذلك التزرير عنه بعدها ، عندما يصعد الخليفة تحت القبة المبخرة بالمنبر وينزل منها ليقف إماماً للناس ، فاذا سمّع الخليفة سمع القاضى المؤذنين فيسمّع المؤذنون الناس [٣]، ويحدثنا المقريزى بأن القاضى كان يبلغ التكبير عندما يركب الخليفة يوم عيد الفطر لصلاة العيد [٤].

أما فى ركوب الخليفة لصلاة عيد الفطر والأضحى فقد نيطت بالقاضى أعمال رسمية أخرى عند حضوره ، فكان يخرج من كمه درجا (ملفاً) من الورق مكتوباً ، أعده أحد كتاب ديوان الانشاء وعرض قبل ذلك على الخليفة والوزير ، ليعطيه للخليفة ليقرأه .

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٥٠١ و ٥٠٢

(٢) » » ج ٣ ص ٥٠٣

(٣) » » ج ٣ ص ٥٠٦ و ٥٠٩ — ٥١٢ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٤ ص ١٠٤

(٤) النويرى « نهاية الأرب » ج ٢٦ ورقة ٤٤ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٣٢٢ و « اتعاظ الحنفا » ص ٩١

وفى عيد الأضحى كان على القاضى أن يحضر إلى المنحر ، حتى إذا نحرت الأضحية بين يديه هو والخليفة ، قام القاضى بتوزيعها مع غيره على الطلبة وغيرهم بجوامع القاهرة [١].

وكان على القاضى أن يقبل رجل الخليفة التى بجانبه عند حضوره بالجامع الطولونى لفتح الخليج ، فى اليوم الثالث والرابع من يوم ركوبه لتخليق المقياس عند وفاء النيل ، ثم اكتفت المراسيم بأن يلثم القاضى قدم الخليفة فى الركاب القريب منه فقط ، لأن القاضى كان يعتبر حامى الشريعة الغراء [٢]، وجرت العادة أن يعطى قاضى القضاة والشهود بعد فتح الخليج أشياء من السماط المجلوب من القصر [٣].

وكما كان من رسوم القاضى أن يكون حاضراً فى مواسمهم وأعيادهم المفرحة كذلك كان عليه أن يحضر الاحتفالات الرسمية المحزنة ، كالاحتفال بيوم عاشوراء أو مأتم عاشوراء .

وكان يركب فيه قاضى القضاة والشهود مرتدين ثياب الحداد إلى الجامع الأزهر (والمشهد الحسينى فيما بعد) ، فاذا أتموا رثاء الحسن والحسين وبكوا ما شاء الله لهم البكاء ذهبوا مع الحاضرين لهذا المأتم إلى القصر ، وقد فرشت أروقته بالحصر بدل البسط ، وهناك يمد سماط الحزن ويقدم فيه العدس والملوحات والمخللات والأجبان والألبان وأعسال النحل والفطير والخبز المغير لونه قصداً لأجل الحزن ، وكان على القاضى أن يشارك من حضر من الناس فى الأكل من هذا السماط [٤] .

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٥١٢ — ٥١٦ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٣٢٩ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٤ ص ٩٥ و ٩٦ , ٩٩

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٥١٦ — ٥٢١ — ونرى أن هذا العمل مستنكر ويتنافى مع الاحترام الواجب للقاضى

(٣) المقريزى « الخطط » ج ١ ص ٤٧٧

(٤) المقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٨٩ — ٢٩١ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٥ ص ١٥٣ و ١٥٤

كذلك كان على قاضى القضاة أن يحضر أيضاً ليالى الجمع فى الأسمطة التى كانت تمد فى شهر رمضان توقيرا له[١] وكان أحيانا فى بعض الأعياد يرى ممتطيا جواداً متقدماً للموكب ونائباً عن الخليفة[٢]، وكان من رسوم وظيفة القاضى أن يصاحب الخليفة عندما يشرف على أسطوله فى المقس[٣]،وكما كانت وظيفته تتطلب كما رأينا أن يحرص على الحضور فى كل مناسبة يخرج لها الخليفة، فكذلك كان عليه أحيانا أن يحضر هو والفقهاء مجلس الوزير كحضوره أيام «يعقوب ابن كلس» فى كل ليلة جمعه ليقرأ الوزير عليهم مصنفاته[٤]

وكان يستشار قاضى القضاة فى الأمور الهامة، ويناط به القيام بالأعمال الجليلة، فمثلا عندما شعر الخليفة العزيز بالله بدنو أجله، استدعى القاضى «محمد بن النعمان» ليوصيه على ابنه الحاكم بأمر الله،[٥] وتولى غسله[٦]، ولما لم يعثر على الخليفة الحاكم بأمر الله، نيط بالقاضى الكشف عن سر موته[٧].

وأخذ قاضى القضاة «على بن نافع بن الكحال» مثلا والشهود البيعة على مقدمى الدولة ورؤسائها وأعيانها للخليفة المستعلى بالله[٨].

كذلك أرسل الخليفة المستنصر القاضى «أبا عبد الله القضاعى» برسالة

---

(١) القلقشندى «صبح الأعشى» جـ ٣ ص ٥٢٧ والمقريزى «الخطط» جـ ٢ ص ٢١٩

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن «الفاطميون فى مصر» ص ٢٧٢

(٣) المقريزى «اتعاظ الحنفا» ص ٩١

(٤) ابن خلكان «وفيات الأعيان» جـ ٣ ص ٣٩٢

(٥) ابن خلكان «وفيات الأعيان» جـ ٣ ص ٥٤ والعينى «عقد الجمان» القسم الثالث من جـ ١٩ ورقة ٤٦٨

(٦) ابن خلكان «وفيات الأعيان» جـ ٣ ص ٥٥ والعينى «عقد الجمان» القسم الثالث من جـ ١٩ ورقة ٤٦٩ — كذلك تولى تغسيل الخليفة «الظاهر لاعزاز دين الله» قاضى القضاة عبد الحاكم ومعه شيخ القرافة «ظاهر بن عبد الخالق بن احمد بن المهدى» ثم صلى عليه قاضى القضاة النويرى. «نهاية الأرب» جـ ٢٦ ورقة ٦١

(٧) ابن خلدون «العبر» جـ ٤ ص ٦١.

(٨) ابن ميسر «تاريخ مصر» جـ ٢ ص ٣٥ والنويرى «نهاية الأرب» جـ ٢٦ ص ٧٣ وأبو المحاسن «النجوم الزاهرة» جـ ٥ ص ١٤٣ و ١٥٣ و ١٥٤

إلى القسطنطينيه [١] ولما ولد للخليفة الآمر ولى عهده فى ربيع الأول سنة ٥٢٤ هـ (١١٢٩ م) وسمـــاه « أبا القاسم الطيب » زينت مصر والقاهرة وعملت الملاهى فى الأسواق وغيرها ، ولبست العساكر ، وزينت القصور وحضر المولود بمعية قاضى القضاة ، حيث نثرت الدنانير على رؤوس الناس وعملت الأسمطة [٢] ، كذلك كان يعهد للقاضى أحيانا بقراءة السجل المتضمن لوراثة الخليفة للملك ، فمثلا قرأ « محمد بن النعمان » بالجامع سجلا يتضمن وراثة الحاكم بأمر الله للخلافة بعد أبيه .

كما عهد اليه أيضاً بقراءة سجل ولاية كبار الدولة ، فقد قرأ « محمد بن النعمان » القاضى ، سجلا بالجامع يتضمن ولاية « الحسن بن عمار » الكتامى للوساطة [٣] كما قرأ قاضى القضاة سجل الوزير « أبى الفتح يانس » على المنبر بحضور الخليفة الحافظ [٤] .

ومن أعمال القاضى التى لها صفة ادارية أيضاً أن يجمع مع القضاء الوزارة ففى سنة ٤٤١ هـ (١٠٤٩ م) ولى القضاء « أبو محمد الحسن بن على بن عبد الرحمن اليازورى » ثم أضيفت إليه الوزارة فكان أول من جمع بينهما ، ولما صرف فى المحرم سنة ٤٤٥ هـ (١٠٥٣ م) ابتدأت الوزارة تضاف أحيانا للقاضى [٥] فمثلا أضيف إلى القاضى « احمد بن عبد الحاكم بن أبى سعيد بن سعيد الفارقى » سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) فى خلافة المستنصر ، الوزارة [٦] وإلى القاضى « الحسن ابن كدينة » سنه ٤٦٤ هـ (١٠٧١ م) الوزارة [٧] .

---

(١) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٧

(٢) » » ج ٢ ص ٧٢

(٣) » » ج ٢ ص ٥٤

(٤) أبو المحاسن « النجوم الزاهرة » المخطوط ورقة ٤

(٥) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٣ ص ١٩ والنويرى « نهاية الأرب » ج ٢٦ ورقة ٦٦ وابن حجر « رفع الأصر » ورقة ٨٣ و ٨٤ والسيوطى « حسن المحاضرة » ج٢ ورقة ٩١ و ٩٢ وابن اياس « بدائع الزهور » ج ١ ص ٥٩

(٦) ابن حجر « رفع الاصر » ورقة ٣٣

(٧) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٢١ و ٨٨

ويقول ابن حجر [١] : « إن الخلفاء عدلوا عن عادة اسناد الوزارة والقضاء لرجل واحد سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م) لما ولى قضاء مصر القاضى الحسن بن قاسم بن طاهر الرعينى »[٢] .

كذلك كان للقاضى الاشراف على دار الضرب أيام الخليفة الفاطمى لايتولاها إلا قاضى القضاة تعظيما لشأنها ، وتكتب فى عهده ضمن مايضاف إلى وظيفته ، وكان يقيم لمباشرتها من يختاره من نواب الحكم ، وبقى الأمر على ذلك زمنا بعد الدولة الفاطمية أيضا[٣] فقد ولى مثلا كل من « على ابن النعمان » و « محمد بن النعمان » علاوة على القضاء ، النظر فى ديوان الضرب لضبط عيار مايضرب من الدنانير والموازين والمكاييل ، كذلك أضيف إلى القاضى « العباس بن العوام » الحنبلى المذهب النظر فى العيار ودار الضرب[٤] كذلك عهد للقاضى الأشراف أحيانا على سجون البلاد التى يلى قضاءها فالقاضى « محمد بن أبى الفرج » المتولى القضاء فى ذى الحجة سنه ٥١١ هـ (١١١٧م) كان يستوضح أحوال المسجونين ، فأطلق منهم جمعا كثيراً كانوا قد يئسوا من الخلاص لطول السهد بتركهم فى السجن ، فطالع هذا القاضى الخليفة بأمرهم وسأل الأفراج عنهم ، فأذن له الخليفة الآمر بأمر الله ، فى ذلك[٥]

كذلك لما ولى القضاء ابن ميسر فى ذى الحجة سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) استوضح أحوال المعتقلين وطالع بها الخليفة « الآمر بأمر الله » أيضا ، وكان

---

(١) « رفع الأصر » ورقة ١٧٣

(٢) وأمثلة الجمع بين القضاء والوزارة فى العهد الفاطمى كثيرة . انظر ابن حجر « رفع الأصر »ورقة ٣٥ و ٣٦ والسيوطى «حسن المحاضرة» ج ٢ ص ٩١ و ٩٢ . هذا وقد كان بدر الجمالى أول من ولى الوزارة والقضاء من ذوى السيوف . « رفع الاصر » ورقة ٥٨ .

(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٦٦

(٤) الكندى ص ٥٨٥ والقلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص٤٨٦ و ٤٨٧ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٤٦ وابن حجر ورقة ٩١ و ١٩٥ و ٢٥٥ ب

(٥) ابن حجر ورقة ٢٥٦

فيهم جماعة قد يئسوا من الافراج عنهم ، فاستصدر هذا القاضى أمر الخليفة بالافراج عنهم[١] .

ومن الأعمال القضائية التى كان يتولاها القاضى أحياناً علاوة على عمله العادى ، ولاية المظالم ، فقد تولى مثلا « ابن أبى ثوبان » أيام الخليفة المعز لدين الله و « عبد العزيز بن محمد بن النعمان » سنة ٣٩٤ﻫ (١٠٠٣ م) و « عبد الحاكم بن وهب » سنة ٤٥٠ﻫ (١٠٥٨م) وابن العوام الحنفى سنة ٤٥٢ﻫ (١٠٦٠م) ومحمد بن أبى الفرج سنة ٥١١ ﻫ (١١١٧م) وابن ميسر سنة ٥٢٢ ﻫ (١١٢٨م) ولاية المظالم علاوة على القضاء[٢] .

كذلك نظر القاضى فى القصص (العرائض) ، فمثلا كان « عبد العزيز بن محمد بن النعمان » سنة ٣٩٤ﻫ (١٠٠٣م) متوليا للقصص علاوة على القضاء[٣] . كذلك نظر القاضى فى الجراح[٤] ، وفى الشرطة[٥] ، فنظر فى الجرائم وفى إقامة الحدود .

كذلك نظر القاضى فى قضايا الجند ، فأطلق عليه « قاضى العسكر » فكان « على بن الوليد » ينظر أيام الخليفة المعز لدين الله فى خصومات الجند ، ولما سافر هذا الخليفة لحرب القرامطة صحب معه القاضى « على بن النعمان[٦] » .
كذلك عهد للقاضى أحياناً ببعض المسائل الدينية ، فكانت تضاف إليه

---

(١) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٧٠

(٢) « « ج ٢ ص ٧٠ وابن حجر « رفع الاصر » ورقة ٤٦ و ١٣٢ و ١٦٥ و ٢٥٦

(٣) ابن حجر « رفع الاصر » ورقة ١٦٥

(٤) كان أول قاض نظر فى الجراح وحكم فيها هو سليم بن عتر التجيبى سنة ٣٩ﻫ (٦٥٩م) ولاه معاوية القضاء سنة ٤٠ ﻫ (٦٦٠ م) . الكندى ص ٣

(٥) كان أول من جمع له القضاء والشرطة القاضى « عابس بن سعيد » جمعهما له أمير مصر مسلم بن مخلد الأنصارى من قبل معاوية سنة ٦١ ﻫ (٦٨٠ م) . الكندى ص ٤٢٠

(٦) المقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٧٩ وابن حجر ورقة ١٩٥

الإمامة فى الصلاة والخطابة ، وبذلك يأم الناس للصلاة ويخطب فيهم[(١)] فمثلا عهد الخليفة العزيز بالله إلى القاضى «محمد بن النعمان» بالخطابة والإمامة[(٢)] وقبل موت هذا القاضى سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٨م) ولاه الخليفة الحاكم بأمر الله القضاء وأمره بالخروج إلى المصلى للصلاة بالناس وإقامة الدعوة له[(٣)].

كذلك عهد إلى القاضى «عبد الحاكم بن وهب بن عبد الرحمن بن المليجى الربعى» (ويكنى بأبى القاسم الاسماعيلى) سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) بالصلاة والخطابة[(٤)] ، وإلى القاضى «أبى العباس احمد بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن عبد الله بن محمد بن احمد بن على بن الحرث بن أبى العوام» الحنبلى ولابن عمه القاضى «أبى عبد الله احمد بن محمد بن أبى بكر زكريا يحيى بن أبى العوام» القاضى الحنفى سنة ٤٥٢هـ (١٠٦٠م) ، بالنظر فى الصلاة والخطابة[(٥)].

كذلك أناب الخليفة «الفائز بنصر الله» فى الخطابة فى الأعياد عنه القاضى «عبد الله بن هبة الله بن معالى بن كامل بن عبد الكريم المفضل بن ضياء الدين» سنة ٥٤٩ هـ[(٦)] (١١٥٤ م).

كذلك عهد للقاضى بالحسبة[(٧)] ، فكانت العادة قبل رمضان بثلاثة أيام أن يطوف القاضى على المساجد والمشاهد بمصر والقاهرة ليتفقد حصرها وقناديلها ، ليعلم ما تحتاج إليه من إصلاح ، فكان القاضى يبدأ بجامع المقس ثم بجامع القاهرة (الجامع الأزهر) ، ثم بالمشاهد ، ثم القرافة ، ثم جامع عمرو (جامع مصر) ، وقد بقى الأمر على ذلك حتى زالت الدولة الفاطمية .

---

(١) الكندى ص ٥٨٥ وابن حجر ورقة ٩١ و ١٩٥
(٢) ابن حجر ورقة ٢٥٥
(٣) ابن ميسر «تاريخ مصر» ج ٢ ص ٥٣
(٤) ابن حجر «رفع الأصر» ورقة ١٣٧ ومابعدها
(٥) « « « « ٤٣ و٤٦
(٦) « « « « ١٣٦
(٧) الماوردى «الأحكام السلطانية» (القاهرة سنة ١٢٩٨ هـ) ص ٦١ ـ ٧٢

وكان يساهم كبار الدولة وأغنياؤها فى عمارة المساجد ابتغاء الثواب وبذلك يجمع القاضى الشىء الكثير من الأموال[١] فكان « ابن العوام » القاضى الحنبلى ينظر مثلا فى الجوامع والمساجد[٢].

وكان القاضى يتلمس الهلال جريا على العادة المتبعة[٣] فوق سطح الجامع العتيق كما فعل القاضى أبو الطاهر.

كذلك عهد للقاضى أحيانا بأن ينظر فى المفاسد التى تحصل فى عهده ، فقد عقد قاضى القضاة « مالك بن سعيد الفارقى » التوبة للمنجمين والمطربين والمغنين فأعفوا من المطاردة والنفى سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) أيام الحاكم بأمر الله . كذلك أفتى القاضى الخليفة أحيانا بالعدول عن محاباة بعض أهل الذمة المفسدين فى الوظائف[٤].

وكثيراً ما كانوا يجمعون للقاضى الدعوة . فيكون «قاضى القضاة وداعى الدعاة» ، فكان الاشراف على مجالس الحكمة من شئون قاضى القضاة ، ولكن لما اتسعت الدعوة بقيام « دار الحكمة » عهد بها إلى زعيم دينى خاص كان يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيا بزيه فى اللباس ويتمتع برسومه وامتيازاته ويسمى « داعى الدعاة » ، وكان « على بن النعمان » أول قاض للقضاة فى زمن العبيديين أضيفت إليه الدعوة فلقب بـ « قاضى القضاة وداعى الدعاة » ، وبذلك جلس فى المسجد الجامع لقراءة علوم آل البيت[٥].

---

(١) المقريزى « الخطط » جـ ٤ ص ٨٤ وابن حجر « رفع الأصر » ورقة ٢٥٦ وعلى مبارك باشا « الخطط التوفيقية » ص ١١ والأستاذ عنان « الأزهر » ص ٧٠ و ٧١

(٢) ابن حجر « رفع الاصر » ورقة ٤٣

(٣) كان عبد الله بن لهيعة الحضرمى قاضى مصر من قبل أبى جعفر المنصورسنة ١٥٤ هـ (٧٧٠ م) أول قاض حضر فى طلب رؤية هلال شهر رمضان ، ثم كان القضاء على ذلك بالجيزة حتى كان ابن أبى الليث ، فطلبه فى أصل « المقطم » . الكندى ص ٣٧٠

(٤) العينى « عقد الجمان » القسم الرابع جـ ١٩ ورقة ٦٨٣ وابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٥٣ والأستاذ عنان « الحاكم بأمر الله » ص ٦٧

(٥) الكندى ص ٥٨٥ وابن خلدون « العبر » جـ ٤ ص ٥٦ وابن حجر ورقة ٩١

كذلك جلس « محمد بن النعمان » لقراءة علوم الشيعة [١] ، وأضيفت الدعوة إلى كل من القضاة « الحسن بن كدينه » سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧١م) [٢] و « عبد الله بن هبة الله بن معالى بن كامل بن عبد الكريم المفضل بن ضياء الدين » سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) [٣] و « نجم بن جعفر سراج الدين أبى الثريا » سنة ٥٢٦ هـ (١١٣١ م) ، وغيرهم [٤] .

وأحيانا كانوا يضيفون للقاضى نقابة الطالبيين [٥] فـ « الحسن بن محمد بن

---

(١) المقريزى « الخطط » جـ ٢ ص ٢٢٦

(٢) ابن ميسر « تاريخ مصر » جـ ٢ ص ٢١ و ٨٨

(٣) ابن حجر ورقة ١٣٦ وابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٨١ و ٨٢

(٤) ابن ميسر « تاريخ مصر » جـ ٢ ص ٧٦ وابن حجر ورقة ٢٦٤

(٥) نقابة الطالبيين نسبة إلى الامام على ، إذ قد اعترف الاسلام بشرف الدم للأب ، وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الاشراف بالدم حتى اليوم ، يأخذون راتباً من الحكومة دراهم معدودات شهريا ، وتحرم عليهم الصدقة ، وكان لهم قضاء مستقل بهم يتولاه نقيبهم الذى يعينه الخليفة ، ولهم نقيب فى جميع المدن الكبرى .

وتحدثنا المصادر التاريخية عن خضوع فرعى بنى هاشم (العباسيين والطالبيين) حتى أوائل القرن الرابع الهجرى لنقيب واحد ، ثم صار لكل فريق نقيب خاص به . وبجانب هذا الراتب البسيط الذى يعتبر شرفا أكثر منه راتبا ، فضل الشريف أيضا فى بعض المناصب كامامة بعض المساجد ، ليصيب منها بعض المال ، فكانت بمصر فى عهد الطولونيين للأشراف جرايات ، وكان إمام جامع عمرو غالباً منهم .

ومما يدل على علو منزلة الشريف ما يحكى عن كافور من أن امرأة اعترضته فى طريقه وصاحت به « ارحمنى يرحمك الله » فدفعها أحد رجاله دفعاً عنيفاً فسقطت فاغتاظ كافور وأمر بقطع يده فقامت تشفع له ، فتعجب من مكرمتها وقال : اسألوها عن أصلها فما تكون إلا من بيت عظيم فسئلت فاذا بها علوية ، فعظم الأمر على كافور وقال قد أغفلنا الشيطان عن نساء الأشراف وأحسن إليها ، وتفقد سائر نساء الأشراف وأدر عليهن الاحسان والجرايات . ومما يحكى عن كافور أيضا من أنه كان يوما فى موكب فسقط منه سوطه ، فناوله اياه أحد الأشراف (أبو جعفر مسلم العلوى) ، فقبل يده شكرا وقال « نعيت إلى والله نفسى فما بعد أن ناولنى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطى غاية يتشرف لها » . ونلاحظ أن الأشراف اتخذوا منذ القرن الثامن الهجرى اللون الأخضر شعاراً لهم .

وكان لايتولى نقابة الطالبيين إلا أحد أكابر الشيوخ وأجلهم ، فيهتم بأمورهم ، ويمنع من يدخل فيهم من الأدعياء ، ويهتم بصحة الأنساب وثبوتها ، ويمشى فى جنائزهم ، ويسعى فى حوائجهم ، ويعود مرضاهم ، ويمنع المعتدى منهم عليهم ، ويحل الوئام بينهم ، ويوثق عرى المحبة =

طاهر ، مثلا كان قاضيا ونقيبا للطالبيين [١] .

كذلك كان يسند للقاضي أحيانا «بيت المال» ، وهو ذلك الكائن المعنوى الذى تجمع فيه الأموال بمقتضى ما رسمته أحكام الشريعة الغراء لتصرف فى المصالح العامة .

كذلك عهد للقاضى أحياناً بأموال اليتامى ومراقبتها [٢] ، وتولى الأحباس [٣] (الأوقاف) ، وكان لها ديوان خاص [٤] ، وعهد إلى قاضى القضاة بتولى أحباس الجوامع والمساجد ، فكان إليه أمرها ، ولها ديوان مفرد وفى سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) جمعت أحباسها فبلغت مثلا فى زمن الخليفة المعز لدين الله فى السنة ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم (١,٥٠٠,٠٠٠ درهم) وكان مرتب كل مشهد خمسين درهما فى الشهر لرسم الماء لزوارها [٥] .

أما اختصاص القاضى الإقليمى فكان واسعاً ، إذ كان للقاضى قضاء الديار المصرية وأعمالها ، فيولى على قضاء القاهرة ومصر والاسكندرية والشام

= والمودة بين أفرادهم ، ولا يبت فى أمر من أمورهم إلا بعد استشارة مشايخهم ، وكان يكون هيئة خاصة من نفسه ومنهم للنظر فى شئون العلويين ، وهى باقية إلى اليوم وتعرف بـ « نقابة الأشراف » ، ويرأسها اليوم فضيلة الأستاذ الشيخ البيلاوى نقيب الأشراف بمصر . ابن سعيد « المغرب فى حلى المغرب » ص ٤٧ — ٤٩ والقلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٨٥ و ٤٨٦ والسيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ١١ ومتز « الحضارة الإسلامية » ص ٢٤٩-٢٦٠

هذا وكان أبو القاسم احمد بن محمد بن اسماعيل طباطبا يتولى نقابة الطالبيين بمصر فى سنة ٣٥١ (أى قبل استيلاء جوهر على مصر)

وفى أيام الدولة الفاطمية كان يقف نقيب الأشراف الطالبيين بخدمة الخليفة كثيرة فى صلاة العيد . المقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٣٢٩

(١) ابن حجر ورقة ٩٤

(٢) أول من راقب أموال اليتامى ونظر فى أموالهم عبد الرحمن بن معاوية بن حديج قاضى مصر من قبل والى مصر عبد العزيز بن مروان سنة ٨٦ هـ . الكندى ص ٣٢٥

(٣) أول من أدار الأحباس بمصر «توبة بن نمر الحضرمى» سنة ١١٨ هـ (٧٣٦ م) وهو قاضى مصر فى خلافة هشام بن عبد الملك ، ويعتبر عام ١١٨ هـ تاريخ انشاء ديوان الأوقاف بمصر . وإنما كانت الأحباس فى أيدى أهلها وأيدى أوصيائهم . الكندى ص ٣٤٦ وابن حجر ورقة ٧٠

(٤) المقريزى « الخطط » ج ٤ ص ٨٣

(٥) على مبارك باشا « الخطط التوفيقية » ص ١١

والحرمين والمغرب وأعمال ذلك ، فـ « على بن النعمان » مثلا قرئ عهده بولاية ذلك كله (١) .

ولما ولى القاضى « محمد بن النعمان » القضاء سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) امتد اختصاصه الاقليمى على الديار المصرية والاسكندرية والحرمين وأجناد الشام (٢) .

ولما ولى القاضى « عبد العزيز بن محمد بن النعمان » القضاء سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ م) ، عهد إليه بالقضاء على القاهرة المعزية ومصر والاسكندرية والحرمين وأجناد الشام والرحبة وبرقة والمغرب وأعمالها (٣) .

٢ — قاضى المظالم : « القضاء » وإن سبق « النظر فى المظالم » فى الظهور وكان هيكله مفتوحا على مصراعيه ليقصده كل ذى ظلامة ليخرج منه قرير العين ، إلا أن وظيفة النظر فى المظالم كانت وليدة عاطفة نبيلة أيضا فى الهيئة الاجتماعية ، تبغى تحقيق المساواة بين الخصوم وتمكين الضعيف من الوقوف فى نفس المستوى الذى يسهل على القوى الوصول إليه أمام منصة القضاء . كلاهما كان يرى أن القوى من الخصوم أمامهما ضعيف حتى يأخذ الحق منه والضعيف فيهم قوى حتى يأخذ الحق له ، كلاهما يقف أمامه الشاكى والمشكو منه فى مستوى واحد ، فيرد إلى المظلوم منهما ظلامته ، فاذا عجز القاضى العادل عن تنفيذ حكمه ، وإيقاف تعدى ذوى الجاه والحسب ، فهنا يظهر الاختلاف وتظهر الحكمة من إيجاد شخص قوى الشكيمة واسع النفوذ ليحكم وينفذ حكمه فيما عجز عنه القاضى فى قضايا الرجال من علية القوم ، ويمنع تعديهم على الرعية ، بزجر المعتدى ، والضرب بيد من حديد على الظالم الباغى ، فاذا كان القضاء يمتاز بنبيل المولد ، فقد امتاز النظر فى المظالم بشرف المطمح ، لا يتولاه

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٤٨٦ وابن حجر ورقة ٩١

(٢) ابن حجر ورقة ٢٥٤ و ٢٥٥

(٣) « « ورقة ١٦٥ و ١٦٦

إلا ذوو الأقدار الجليلة والأخطار الحفيلة [١] .

ولاية الظالم إذاً وظيفة قضائية نشأت لفساد الناس ، فكان كل حكم يعجز عنه القاضى أو المحتسب [٢] ينظر فيه من هو أقوى منهما يداً ، ليوقف كل من تحدثه نفسه من العمال الكبار والأمراء العظام بالطغيان على أفراد الرعية ، فهى سلطة قضائية جديدة ، روعى فى إنشائها أن تكون أوسع من السلطة العادية لكل من القاضى والمحتسب [٣] ، وهى فى الوقت نفسه وظيفة دينية . ويقول المقريزى [٤] إن أول من نظر فى المظالم من الخلفاء أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

وولاية المظالم داخلة حسب أصولها فى القضاء ، وهى من الوظائف التى تمتزج فيها سطوة السلطان بنصفة القضاء ويطلق على متوليها « صاحب المظالم » .

عاشت الوظيفتان جنباً لجنب ، ولم يبين لكل منهما اختصاصه ، ولم تحدد الأمور التى تدخل أو لا تدخل فى كل منهما تحديداً دقيقاً ، فكانت الأمور المتعلقة بالحدود ، ينظرها أيضا صاحب المظالم [٥] كما ينظر الخصومات .

وكانت ولاية المظالم تعقد برياسة الخليفة نفسه أو الوالى أو الأمير أو الوزير أو القاضى أو أحد كبار الموظفين ، بتفويض من الخليفة .

احتاجت هذه الوظيفة إلى علو يد وعظيم رهبة ، لتوقف المعتدى عند حده وتزجر الظالم من الخصمين ، فكان من يتولاها يمضى ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه ، وكانت له سلطة أوسع من سلطة القاضى . ويحدثنا الماوردى [٦] عن وظيفة النظر فى المظالم هذه فيقول : إنها وظيفة تقارب مهمة

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٢٧٧

(٢) الماوردى « الأحكام السلطانية » (طبعة ١٢٩٨ هـ) ص ٦١ — ٧٢

(٣) لعلها تشبه اليوم محكمة النقض المصرية فى عصرنا

(٤) « الخطط » ج ٢ ص ٢٠٧

(٥) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٥ ص ٤٥٢ ومتز « الحضارة الإسلامية » ص ٣٨١

(٦) الماوردى « الأحكام السلطانية » ص ٦٤ وابن خلدون (المطبعة الأميرية سنة ١٣٢٠ هـ) ص ٢٠٦ وما بعدها والقلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٢٧٧ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٠٧

القضاء ، وهى عبـــارة عن « قود المتظالمين إلى التناصف بالرهبة ، وزجر المتنازعين عن التجاهد بالهيبة ، فكان من شروط الناظر فيها أن يكون جليل القدر ، نافذ الأمر ، عظيم الهيبة ، ظاهر العفة ، قليل الطمع ، كثير الورع لأنه يحتاج فى نظره إلى سطوة الحماة وثبت القضاة ، فيحتاج إلى الجمع بين صفات الفريقين ، وأن يكون بجلالة القدر نافذ الأمر فى الجهتين » .

وكانت تنظر ظلامة المتظلم إثر حضوره وينصف ، ثم تبعاً لسنة التطور أفرد لهذا النظام القضائى بعد ذلك يوم خاص للنظر فى أحوال المتظلمين وتصفح قصصهم فى المسجد الجامع ، إذ عهد بها إلى من ينوب عن الخليفة من الموظفين ، حتى يتفرغ لأعماله الأخرى بقية الأسبوع ، أما إذا عهد بها لعامل يفرد بها ، فكان له النظر فى جميع الأيام .

أما اجراء رفع الدعوى أمام هذه الهيئة القضائية ، فكان بتقديم الظلامات مكتوبة [١]، وكان على صاحب ديوان المظالم أن يعمل بجميع القصص جامعا يعرض على الخليفة فى كل أسبوع [٢] ، وكانت الأحكام تصدر مكتوبة وكان يخصص فى دار الخلافة يوم أو أكثر فى الأسبوع لسماع المظالم [٣] ولم تنشأ ولاية المظالم بمصر إلا فى عهد أبى العباس احمد بن طولون ، وفى أيام الاخشيديين كان ينظر فى المظالم بمصر قاضى الاخشيد المعين سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٦ م) [٤]، ثم أفرد للنظر فى المظـــالم أيامهم سنة ٣٣١ هـ قاض خاص مستقل بنظرها [٥].

---

(١) الجهشيارى « كتاب الوزراء » ص ٥٢ و ص١٠٧

(٢) متز « الحضارة الإسلامية » ص ٣٨٣ نقلا عن كتاب الخراج » لقدامة مخطوط باريز رقم ٥٩٠٧ ص ٢٣ ب

(٣) الماوردى « الأحكام السلطانية » (طبعة انجر Enger) ص١٤٣ وابن سعيد « المغرب » ص ٣٩ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٤) السبكى « طبقات » ج ٢ ص ١١٣ و ١١٤

(٥) الـكندى ص ٥٧٢

وكان الوزير هو الذى يعين أصحاب المظالم فى البلاد ويجلس للمظالم بمصر كما كان « صاحب مصر » أبو المسك كافور الاخشيدى الأسود يجلس أيضا للنظر فى المظالم بنفسه فى كل يوم سبت ، وكان يحضر مجلسه الوزير « أبو الفضل » والقضاة والفقهاء والشهود ووجوه البلد [١] ، ولما أكثر كافور من الجلوس للمظالم أصبح القاضى كالمحجور عليه متعطلا [٢] عن العمل واستغنى الجمهور عنه ، ولجأوا فى كل شىء إلى الناظر فى المظالم [٣] واستمر كافور الاخشيدى ينظر فى المظالم مدة حياته بمصر إلى أن مات ، فلما قدم القائد أبو الحسين جوهر الصقلى بجيوش المعز لدين الله ، جلس جوهر فى المظالم ووقع على رقاع المتظلمين فى أيام السبت [٤] ، وحضر مجلسه أيضا الوزير والقاضى وكبار الفقهاء ، وأصدر أحكامه بنفسه [٥] ، وأقام جوهر مستقلا بتدبير الأمور بمملكة مصر قبل وصول المعز لدين الله إليها ، أربع سنين وعشرين يوما ، فكان تارة ينظر فى المظالم بنفسه وهو الغالب ، وتارة أخرى يردها إلى « أبى عيسى مرشد » [٦]

ولما قدم المعز لدين الله مصر ، أبقى النظر فى المظالم ، فكان أحيانا يتولاها بنفسه ، وأحيانا يعهد بها إلى غيره من عظماء الدولة . فيحدثنا ابن ميسر [٧] ، بأن أبا الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس وعسلوج بن حسن جلسا مثلا فى جامع ابن طولون ونظرا فى المظالم .

---

(١) الكندى ص ٥٧٧ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ١٠٧

(٢) « ص ٣ ٥٨ و ٥٨٤

(٣) « ص ٥١٢

(٤) فى جمادى الآخرة سنة ٣٦٠ هـ ، نقل جوهر مجلس المظالم إلى يوم الأحد بدل يوم السبت. المقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٧٦ و ٨٥

(٥) ابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ١ ص ٢١٢ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٠٧ والعينى « عقد الجمان » القسم الثالث من ج ١٩ ورقة ٤٣٦

(٦) ابن خلكان ج ١ ص ٢١٣ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٧٦ و ٨٥ والعينى « عقد الجمان » القسم الثالث من ج ١٩ ورقة ٤٣٧

(٧) « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٤٤ و ٤٥ وابن حجر ورقة ١٣٢

وأن « أبا سعيد عبد الله بن ثوبان » الذى صحب المعز لدين الله إلى مصر تقلد فى شوال سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) النظر فى المظالم الخاصة بالمغاربة ، ثم وسع اختصاصه فشمل المصريين أنفسهم واستمر كذلك حتى آخر سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) . كذلك رد المعز لدين الله وابنه العزيز بالله النظر فى الظلامات إلى الحسين بن عمار[١] ، وكانت الدولة إذا خلت من وزير صاحب سيف ، جلس صاحب الباب فى باب الذهب بالقصر[٢] وبين يديه النقباء والحجاب على حسب أقدارهم ومكانتهم ، فينادى المنـــادى بين يديه يا أرباب الظلامات فيحضرون ، فمن كانت ظلامته مشافهة ، أرسلت إلى الولاة والقضاة رسالة بكشفها ومن تظلم بمن ليس من أهل البلدين ، أحضر قصة بمسألته فيتسلمها الحاجب منه فاذا جمعها أحضرها إلى الموقع « بالقلم الدقيق » فيوقع عليهـا ، ثم تحمل إلى الموقع « بالقلم الجليل » فيبسط ما أشار إليه الموقع الأول ، ثم تحمل فى خريطة إلى الخليفة فيوقع عليها ، ثم تخرج فى الخريطة إلى الحاجب فيقف على باب القصر ويسلم كل توقيع لصاحبه .

ولما قدم بدر الجمالى القاهرة وولى الوزارة ، صار أمر الدولة كله راجعا إليه واقتدى به من تلاه من الوزراء .

وكان الوزير صاحب السيف يجلس للمظالم بنفسه يومين فى الأسبوع ويجلس أمامه قاضى القضاة وبجانبه شاهدان معتبران ، ويجلس بجانب الوزير كاتب يسمى « الموقع بالقلم الدقيق » يوقع بما يأمر به فى المظالم ، ويليه صاحب ديوان المال وبين يديه صاحب البـاب واسفهسلار العساكر وغيرهم من الموظفين ، وبين أيديهما النواب والحجاب على طبقاتهم .

وإذا كان الوزير « صاحب سيف » كان الخليفة يوقع على قصص المظالم عندما ترفع إليه بخطه وبيده على القصة ، « يعتمد ذلك إن شاء الله » ، ويوقع

---

(١) ابن خلدون « العبر » ج ٤ ص ٥٥ والسيوطى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٦

(٢) أحد أبواب القصر التسعة وهى : باب الذهب والبحر والزهومة والتربة والديلم وقصر الشوك والعيد والزمرد والريح . القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٣٥٠

من الجانب الأيمن منها ويخط بخطه «وزيرنا السيد الأجل – ويذكر نعته المعروف به – أمتعنا الله تعالى ببقائه ،يتقدم بنجاز ذلك إن شاء الله تعالى» (وهذه الصيغة هى بمثابة الصيغة التنفيذية عندنا اليوم) ولما تحمل إلى الوزير يكتب هذا الأخير تحت خط الخليفة «يمتثل أمر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، ويثبت فى الدواوين»[1].

وكان قاضى المظالم يولى غالبا بمرسوم من الخليفة ، ويقرأ سجله فى المسجد الجامع حيث كان يعقد جلساته عادة ، فيأتى الخصوم والشهود أمامه ، وبعد أن ينظر فى الخصومة ويسمع شهادة الشهود يصدر حكمه الذى تنفذه السلطة التنفيذية بعد ذلك[2].

ومن مآثر الفاطميين أنهم خصصوا موضعا فى دار الخلافة يعرف بالسقيفة يقف عنده المتظلمون ، وكانت عادة الخليفة أن يجلس هناك كل ليلة لمن يأتيه من المتظلمين ، وكان إذا ظلم أحد وقف تحت السقيفة وقال بصوت عال : «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، على ولى الله» وهى عبارة الشيعة ، فيسمعه الخليفة فيأمر باحضاره إليه أو يفوض أمره إلى الوزير أو القاضى أو أحد عظماء الدولة[3]. فمثلا لما ذهب «ضامن المعدية» إلى السقيفة وقال بصوت عال العبارة السالفة الذكر وسمعه الخليفة الحافظ ، أمر باحضاره ، ولما ثبت للخليفة إجرام النصرانى وأنه كان السبب فى بيع معدية الشاكى بعد اهانته وضربه بالمقارع لدفع خراج «أرض اللجام» زوراً وهى ليست له – لأن ضامن المعدية لم يشأ أن يعديه حسبة لوجه الله – عاقب «الحافظ» «النصرانى»[4].

ويقول ابن خلدون[5] فى الفرق بين نظر المظالم ونظر القضاة «ويكون

---

(١) القلقشندى «صبح الأعشى» جـ ٣ ص ٤٩١ و ٤٩٢ وص ٥٢٩ و ٥٣٠ والمقريزى «الخطط» جـ ٢ ص ٢٠٧ و ٢٠٨

(٢) الدكتوران حسن وعلى ابراهيم حسن «النظم الاسلامية» ص ٣٥٢

(٣) المقريزى «الخطط» جـ ١ ص ٤٠٥ وعلى مبارك باشا «الخطط التوفيقية» جـ ٢ ص ١٧

(٤) المقريزى «الخطط» جـ ٢ ص ٢٤٩

(٥) «المقدمة» (طبعة بيروت ١٨٧٩ م) ص ١٩٣

نظره (أى ناظر المظالم) فى البينات والتقرير واعتماد الأمارات والقرائن وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستخلاص الشهود ،أوسع من نظر القاضى » .ويحدثنا الماوردى [١]، عن ذلك فيقول : « لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ما ليس للقضاة فى كف الخصوم عن التجاحد ومنع الظلم » ، « وإن الناظر فى المظالم أوسع مقالا وأفسح مجالا » ، « وإنه يحق له لاظهار الحق ومعرفة المبطل من المحق استعمال الارهاب والتوسع بالأخذ بالأمارات وشواهد الأحوال بما ليس فى مقدور الحكام » ، « وأن يقابل من ظهر ظلمه بالتأديب ويأخذ عدوانه بالتقويم والتهذيب » ، « وإذا سأله أحد الخصوم فصل الحكم ،فلا يسوغ أن يؤخره الحاكم ويسوغ أن يؤخره والى المظالم عند اشتباه أمرهم ورغبته فى التأنى » ، « وإن له رد الخصوم إذا أعضلوا وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحا عن تراض ، وليس للقاضى ذلك إلا عن رضى الخصمين بالرد » .

والقاضى عند نظر الدعوى يكلف المدعى باثبات حقه أولا ثم يسمع الشهود ، أما قاضى المظالم فيصح له أن يبدأ أولا باستدعاء الشهود ليسألهم عن معلوماتهم فى المنازعة المعروضة عليه .

من هنا نقف على مبلغ أهمية هذه الوظيفة وما كان لصاحبها من القوة ونفاذ الكلمة وكيف كان لا يتقيد بتدقيقات الفقهاء ، وكيف كانت حريته عندما ينظر فى المظالم أوسع بمراحل من حرية القاضى .

وكان قاضى المظالم ينظر فى القضايا التى يرفعها الأفراد والجماعات على الولاة الذين ظلموهم ، أو لم يسلكوا طريق العدل معهم وعلى عمال الخراج إذا توسعوا فى جباية الضرائب منهم ، فاذا رفعوه إلى بيت المال ، أمر برده ، وإن أخذوه لأنفسهم ،استرجع منهم لأربابه ، وعلى كتاب الدواوين اذا أثبتوا فى دفاترهم عمداً أو خطأ ما يخالف الحقيقة من أموال المسلمين ، والنظر فى تظلم

---

(١) « الأحكام السلطانية » ص ٧٠ و ٧١

المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم ، أو تأخر ميعاد دفعها لهم ، فيرجع إلى ديوانه فى فرض العطاء العادل فيجريه عليهم ، وينظر فيما نقصوه أو منعوه من قبل، فان أخذه ولاة أمورهم ، استرجعه منهم ، وإن لم يأخذوه ، قضاه من بيت المال ورد الغصوب التى اغتصبها الولاة أو ذوو الأيدى القوية وتصرفوا فيها تصرف الملاك بالقهر والغلبة ، ومشارفة الوقوف ، فيبدأ بتصفحها ليجريها على سبيلها ويمضيها على شروط واقفها ، وتنفيذ ماوقف القضاة عن تنفيذه من أحكامها فينفذ الحكم على المعتدى ولو عظم خطره وعلت قدرته ، فينزع مافى يده ويلزمه خروجه من ذمته ، كذلك ينظر فيما عجز عنه متولى الحسبة فى المصالح العامة ، كالمجاهرة بمنكر ضعف عن دفعه ، والتعدى فى طريق عجز عن منعه ، والتحيف فى حق لم يقدر على رده ، فيأخذهم بحق الله فى جميعه ويأمرهم بحملهم على موجبه ومراعاة اقامة العبادات الظاهرة كالجمع والأعياد والحج والجهاد من تقصيرفيها واخلال بشروطها ، فان حقوق الله أولى أن تستوفى ، وفروضه أحق أن تؤدى ، كما ينظر فيما شجر بين المتشاجرين ، فيحكم بين المتنازعين فيحق الحق ويقيم العدل[1] . وكانت محكمة المظالم تنعقد فى المسجد وتتألف من خمس جماعات ، لايستغنى عنهم ولا ينتظم نظره إلا بهم :

الأولى : الحماة والأعوان للتغلب على كل من تحدثه نفسه بالالتجاء إلى القوة أو العنف أو الفرار اثناء القضاء.

الثانية : الحكام ليردوا الحقوق إلى أصحابها بعد الاحاطة بما يجرى بين الخصوم وما يصدر من الأحكام ، وقد استفادوا من حضورها لوقوفهم على كثير من المبادىء .

الثالثة : الفقهاء ليرجع إليهم عندما تشكل على صاحب المظالم مسألة من المسائل الشرعية .

---

(١) الماوردى « الأحكام السلطانية » ص ٦٧ — ٧٠

الرابعة : الكتّاب لتدوين مايحصل أثناء الجلسة من أقوال الخصوم ومالهم وما عليهم من الحقوق .

الخامسة : الشهود الذين يشهدون بأن ما أصدره القاضى من الأحكام لاينافى الحق والعدل ، وأنه ينطبق على الشريعة الاسلامية ، ومهمتهم اثبات مايعرفونه عن الخصوم ، وكانوا يختارون ممن برّوا غيرهم فى الفقه واشتهروا بالسمعة الطيبة . وبذلك نستطيع أن نقول بأن نظام المحلفين قد عرف بمصر ، لأنهم كانوا من هيئة المحكمة ويعمل القاضى برأيهم .

وبعد استشارة كبار رجال الدولة الجالسين معه ، يصدر قاضى المظالم حكمه فى النزاع المعروض عليه[١] وأحيانا عهد للقاضى العادى باختصاص قاضى المظالم ، فيكون هو القاضى وهو أيضاً الناظر فى المظالم[٢] انصافا للمظلومين واغاثة للمستضعفين ، فكان مثلا «احمد بن أبى طالب التونسى» القاضى بمصر هو الناظر فى المظالم بها وبأعمالها أيام الخليفة العزيز بالله[٣]

ولقد اهتم بعد انقضاء الدولة الفاطمية سلاطين الدولة الأيوبية وخلفاؤهم من المماليك بهذه الهيئة القضائية العالية ، فأنشأوا لها داراً أطلق عليها «دار العدل» لتنظر فى ظلامات الناس وشكاويهم التى يعجز القاضى العادى عن تنفيذ حكمه فيها .

٣ — **المحتسب** : القضاء وإن سبق الحسبة فى الظهور ، وكان منذ ولادته عظيم الشأن موفور الكرامة متمتعاً بجلال الملك ومظهره ، لأنه بيد صاحب التاج والصولجان ، إلا أن الحسبة كانت وليدة عاطفة نبيلة فى الهيئة الإجتماعية أيضاً ، لقد عاشا منذ ظهورهما سوياً ، وتوثقت الصلات المتينة والعلاقات الشريفة بينهما ، وتكونت منهما دعامة قوية لهيكل العدالة ، تضىء الطريق وتنشر الضياء للفرد لاتباع المثل العليا . نعم يحتاج القضاء بطبيعته إلى الأناة

---

(١) الكندى « كتاب الولاه وكتاب القضاء » ص ٤٢٣ و ٤٢٤ والماوردى «الأحكام السلطانية » ص ٦٧

(٢) ابن حجر « رفع الاصر عن قضاة مصر » ورقة ٤٢

(٣) » » » » » ورقة ٤٢

والتدقيق فى الحكم ، كما تحتاج الحسبة إلى السرعة ، ولكن كل هذا لا يقلل من قيمتهما إذا اجتمعا معاً فى يد واحدة ، كما كان يحدث أحياناً [١] .

ووظيفة الحسبة من الوظائف الدينيـــة الهامة ، لأن قوامها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وغرضها الإصلاح بين الناس ، الذى هو فرض على القائم بأمور المسلمين [٢] ، وهى مشتقة من قولك حسبك بمعنى اكفف فالمحتسب يكفى الناس مؤونة من يبخسهم حقوقهم ويبعد عنهم الظلم ، وهى تستند إلى الكتاب والسنة ، فقد قال الله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون» [٣]

وقال عز وجل أيضاً : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » [٤] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » [٥] ، وقال أيضا : « لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليعمنكم الله بعذاب من عنده » [٦] .

ولما كانت الحسبة كما رأينا أمراً بمعروف ، ونهيا عن منكر ، وإصلاحا بين الناس ، وجب أن يكون المحتسب فقيهاً عارفا بأحكام الشريعة الغراء التى سيأمر وينهى بتعاليمها ، عفيفا عن أموال الناس ، متصفا بالأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة ، لا يكون قوله مخالفاً لفعله ، لأن فى اتصافه بكل هذا

---

(١) الماوردى « الأحكام السلطانية » ص ٦١ وما بعدها

(٢) الغزالى « كتاب احياء علوم الدين » ج ٢ ص ٢٤٢ وما بعدها

(٣) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران رقم ٣

(٤) الآية ٢ من سورة المائدة رقم ٥

(٥) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى وغيرهم « تيسير الوصول » (المطبعة السلفية طبعة أولى) ج ١ ص ٣٣

(٦) أخرجه أبو داود والترمذى ، وورد فى « تيسير الوصول » و « الجامع الصغير » بلفظ متقارب

وبغيره من الصفات الحميدة، صونا لعرضه وأقوم لهيبته وبعداً له عن الشبهات، لذا كان المحتسب أيام الدولة الفاطمية من «وجوه المسلمين وأعيان المعدلين» فكان يراعى فى اختياره التقوى والصلاح والورع وحسن الإيمان بالله، حتى يملأ وظيفته الدينية الجليلة الشأن الرفيعة المنزلة، وأن يكون «مسلما حرا بالغا عاقلا عدلا قادرا»، «وشيمته الرفق ولين القول وطلاقة الوجه وسهولة الأخلاق»، وأن يكون مواظبا على سنن الرسول صلى الله عليه وسلم من «قص الشارب .. وتقليم الأظافر ونظافة الثياب وتقصيرها والتعطر بالمسك»[١].

وكان يقرأ سجله بمصر (الفسطاط) وبالقاهرة، ويخلع عليه فى المسجد الجامع على المنبر، وكان المحتسب إلى أول عهد الفاطميين سنياً فأقاله جوهر قائد المعز لدين الله على إثر الفتح، وعين مكانه رجلا من المغاربة فى ربيع الثانى سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٩م) هو سليمان بن عشرة[٢].

وكانت يد المحتسب مطلقة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا يحال بينه وبين مصلحة أداها يؤازره «السلطان» إذا احتاج إلى المؤازرة ويساعده «والى المظالم» إذا احتاج للمساعدة، وتقوم «الشرطة» بتنفيذ أحكامه إذا لجأ إليها، ولم يكن عمله حسبة لوجه الله، بل كان يتقاضى ثلاثين ديناراً شهريا[٣].

وكان ديوان المحتسب متصلا بديوان القاضى، ويجلس بجامعى عمرو والأزهر[٤].

ولما كانت الحسبة من قواعد الأمور الدينية، فقد تولاها فى العصر الفاطمى بعض الأئمة كالحاكم بأمر الله مثلا بأنفسهم «لعموم صلاحها وجزيل ثوابها».

ونحن نستنكر ونستبعد ما تحدثنا به المصادر التاريخية[٥] التى تقول إنه

---

(١) ابن الاخوة «معالم القربة فى أحكام الحسبة» الباب الأول

(٢) المقريزى «اتعاظ الحنفا» ص ٧٨

(٣) ابن خلدون «المقدمة» (طبعة بيروت ١٩٠٠ م) ص ٢٢٥ و ٢٢٦ والمقريزى «الخطط» جـ ٢ص ٣٤٢

(٤) القلقشندى «صبح الأعشى» جـ ٣ص ٤٨٧ والمقريزى «اتعاظ الحنفا» ص ٨٧

(٥) العينى «عقد الجمان» القسم الرابع من جـ ١٩ ورقة ٦٨١ والسيوطى «حسن =

كان مع الخليفة الحاكم بأمر الله (الذى كان يباشر الحسبة بنفسه) ، عبد أسود طويل عريض يمشى فى ركابه يقال له مسعود ، فان وجد أحداً غش فى بضاعة أمر ذلك العبد مسعوداً بأن يفعل به الفاحشة العظمى وهى اللواط ، فيفعل به على دكانه والناس ينظرون إليه حتى يفرغ من ذلك ، والحاكم واقف على رأسه ، ونؤكد أن أحد أعداء الخليفة قد دسّها عليه ، لأن الامام يجب أن يعلم قبل غيره أن الحسبة نهى عن منكر ، وأن المحتسب هو المحافظ على الآداب العامة ، خصوصاً وأن الامام على كرم الله وجهه قضى مرة فى قضية رجل ينكح فى دبره وقامت البيّنة عليه أنهم رأوا ذلك كالمرود فى المكحلة ، فأمر بضرب عنقه ثم أحرقه [1] إذ لا شىء من المعاصى والكبائر أفظع حداً وأشد عقوبة من حد اللواط ، حتى أن التعذيب بالاحراق بالنار لا يجوز بحال من الأحوال إلا فى هذه الفعلة الخبيثة [2]. ولقد تولى الحسبة الوزير بنفسه كما تولاها يعقوب ابن كلس سنة ٣٦٣ مثلا [3]، وأسندت أعمال الحسبة أحياناً إلى متولى الشرطة بمصر والقاهرة [4] وإلى القضاة معظم أيام الفاطميين بمصر ، وكان المحتسب يتخذ لكل أهل صنعة عريفاً ممن اشتهر بالتقوى والصلاح ، خبيراً بصنائعهم بصيراً بغشهم وتدليسهم ، مشهوراً بالثقة والأمانة ليخبره عن سلعهم وبضائعهم ومبلغ جودتها ورداءتها وأسعار أثمانها ليقف على كل صغيرة وكبيرة فيها [5]

= المحاضرة » ج ٢ ص ١٣ وابن اياس « بدائع الزهور ٢ ج ١ ص ٥٣ — ويزيد فى اعتقادنا أن هذه الرواية مدسوسة على الخليفة من أعدائه ، أن تلك المصادر لمؤلفين عاشوا بعد الفاطميين وأننا لم نقف عليها فى مصدر لمؤلف عاش فى الزمن الفاطمى

(١) النعمان « شرح الأخبار » ورقة ١٦٦

(٢) آل كاشف الغطاء « أصل الشيعة وأصولها » ص ١٥٥ — وحد اللائط القتل أو الرجم أو القاؤه من شاهق لتتكسر عظامه أو احراقه بالنار ، ويقتل المفعول به أيضا إن كان بالغاً مختاراً ، وإن كان صغيراً عزر ، ويثبت اللواط بما يثبت به الزنا .

(٣) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) ج ٢ ص ٥

(٤) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٥ ص ٤٥٢

(٥) السيزرى « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » ص ٥-٦ وابن الاخوة « معالم القربة فى أحكام الحسبة » الفصل الخامس والستون والمقريزى « اغاثة الأمة » ص ١٨

ولا غرو فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول مامعناه « استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها » ، ومع ذلك فقد اندس بين العرفاء بعض أصحاب الذمم الخربة والرءوس الخالية من الحكمة والتدبير ، فيحدثنا المقريزى[1] بأن عريفاً أحنق على خباز من أرباب صنعته ، ووكل بن عونين من الحسبة أغرماه عشرة دراهم ظلماً ، فلما مر قاضى القضاة استغاث الخباز به فأحضر المحتسب وأنكر عليه ما فعل بهذا الخباز ، فذكر أن العادة جرت باستخدام عرفاء فى الأسواق على أرباب البضائع ، وأنه يقبل قولهم فيما يذكرونه ، فأحضر قاضى القضاة عريف الخبازين المتسبب لهذا الضرر وصرفه عن العرافة بعد أن عوّض المجنى عليه نقوداً .

أى أن المتظلم من المحتسب كان يلجأ إلى « قاضى القضاة » ، الذى كان له أن يحضر المحتسب ليحاسبه على فعله مع الرعية .

كما نستنتج كذلك من هذا النص أن العقوبة التى كانت توقع من المحتسب على المخالف كانت إما عيناً ، سواء بالنهى أو الوعظ أو الانذار أو الردع والزجر والتعزير والتأديب بالسوط والدرة وغيرها من أنواع العقوبات أو نقداً بتوقيع الغرامات . وللمحتسب أيضاً مصادرة وإعدام الأشياء الفاسدة والمحرمة وغلق الحانوت ، فله أن يريق اللبن المغشوش ، وأن يحرق الطعام المحتكر بالنار ، وأن يكسر أوانى الخمر ، وأن يرمى الطعام الفاسد على المزابل خارج البلد أو يعدمه[2] .

وكان كصاحب الشرطة ينفذ العقوبة بنفسه ، فاذا عثر مثلا على شارب الخمر جلده بالسوط ثمانين جلدة موزعة على كتفيه وإليته ، وهكذا يفعل فى حدود الله الأخرى[3] ، وقد يأمر شاهد الزور بركوب دابة وهو مقلوب

---

(١) « كتاب اغاثة الأمة بكشف الغمة » ص ١٩.

(٢) محمد بن محمد بن احمد القرشى المعروف بابن الاخوة « كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة » . انظر الباب ٢١ و ٥٠

(٣) الماوردى « الأحكام السلطانية » (طبعة القاهرة ١٢٩٨ هـ) ص ٦١ — ٧٢ — وعلى ذلك فقد اشترك مع صاحب الشرطة فى ذلك ، كما كان عمله أحيانا خليطا من اختصاص « القاضى » « وقاضى المظالم » ، ولكن حكمه لايتوقف على رفع الدعوى إليه لأنه واجب على كل مسلم قادر ، ولأنه لاينظر إلا فى المسائل البسيطة الواضحة التى يظهر فيها الحق جلياً .

مسود الوجه [١] .

ويقيم المحتسب النواب عنه بالقاهرة ومصر وسائر الأقاليم [٢] ليقوموا نيابة عنه بكل هذه المهام ، فكان كالنائب العام فى زماننا يدفع بوكلائه فى الجهات المختلفة لينوبوا عنه فيما يعرض لهم من أعمال ، ويختارهم من أصحاب « العفة والصيانة والنهضة والشهامة » ، لأنهم عيونه الذين بهم يتمكن من معرفة الأخبار وأحوال السوق ، وكان له أن يؤدبهم إن أخطأوا [٣] .

وكانت أعمال المحتسب على ما ذكره الماوردى [٤] متعددة مختلفة ، فكان ينظر فى الدولة الفاطمية فى الأسواق ، فاذا عثر على من نقص المكيال أو بخس الميزان أو غش البضاعة بأى نوع من أنواع الغش ، وعظه وأنذره بالعقوبة والتعزير ، فان عاد إلى فعلته مرة أخرى عزره بحسب مقدار جرمه [٥] لذلك كان على المحتسب أن يكون عالماً بوزن القناطير والأرطال والمثاقيل والدراهم ، خبيراً بكميتها ومعرفتها المعرفة الجيدة حتى يؤدى عمله على أكمل وجه ، يتفقد عيار الصنج على حين غفلة من أصحابها فى الأسواق والدروب ويراقب صحة الموازين والمكاييل من وقت لآخر ، إذا وجد الموازين قذرة فعليه أن يأمر صاحبها بمسحها وتنظيفها من الأوساخ والأدهان ، خوفاً من أن يجمد فيها شىء فيضر بالميزان [٦] .

وكانت للموازين والمكاييل دار خاصة بها هى « دار العيار » ، تعاير فيها الموازين والصنج والمكاييل ،وقد ظلت هذه الدار طوال عهد الدولة الفاطمية

---

(١) احمد بن تيمية « الحسبة فى الإسلام » ص ٤٨

(٢) القلقشندى «صبح الأعشى» جـ ٣ ص ٤٨٧ والمقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠هـ) جـ ٢ ص ٤٦٣و٤٦٤

(٣) ابن الاخوة « كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة » الباب الثالث والخمسون

(٤) الماوردى « الأحكام السلطانية » (طبعة ١٢٩٨ هـ) ص ٢٢٧ — ٢٣٠

(٥) السيزرى « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » الورقة السادسة

(٦) « « « « « الورقة الثامنة

ثم الأيوبية (١) ، وكان ينفق عليها من بيت المال فيما تحتاج إليه من الأصناف كالنحاس والحديد والخشب والزجاج وغير ذلك من المواد ، وأجر الصناع والمشارفين ونحوهم ، فكان يحضر المحتسب أو نائبه إلى دار العيار هذه ليعير المعمول فيها بحضوره ، فان كان مضبوطاً أجازه وإلا أمر باعادة صنعه حتى يصبح مضبوطاً ، ولا تباع الصنج والموازين والأكيال إلا بهذه الدار (٢) .

ومن منكرات الأسواق التي نيط بالمحتسب تعهدها أن « يأمر أهل الأسواق بكنسها وتنظيفها من الأوساخ المجتمعة وغير ذلك مما يضر الناس ، وأن يمنع « ارسال الماء من المزاريب المخرجة من الحائط إلى الطرق الضيقة فإن ذلك ينجس الثياب ويضيق الطرق » ، وأن يمنع « ترك مياه المطر والأوحال فى الطرق من غير كسح » ، « أو رش الماء فى الطرق بحيث يخشى من التزلق والسقوط » (٣) ، وغير ذلك من المنكرات . وكان المحتسب أيام الدولة الفاطمية هو المحافظ على الآداب العامة ، فيمنع كل من تطلع من الجيران من السطوحات والمنافذ ، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من اطلع فى بيت قوم بغير اذنهم ففقأ عينه فلا دية له ولا قصاص » (٤) كما يمنع أن يجلس الرجال على أبواب بيوتهم فى طرقات النساء من غير حاجة ، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اياكم والجلوس فى الطرقات ، قالوا يا رسول الله مالنا بد من مجالسنا نتحدث فيها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا أبيتم إلا المجلس فاعطوا الطريق حقه ، قالوا وما حقه؟

---

(١) ابن خلدون « المقدمة » ص ٢٢٥ و ٢٢٦ والمقريزى « الخطط » ج ١ ص ٤٦٣ و ٤٦٤

(٢) المقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٣٤٣

(٣) ابن الأخوة « كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة » الباب الثامن

(٤) ابن قيم الجوزية « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » ص ٥٠ و « الترغيب والترهيب » (طبعة المطبعة الحلبية) ج ٤ ص ٢١٥

قال غض البصر وكف الأذى ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر »[١] .

وكذا يمنع المحتسب النساء من جلوسهن على أبواب بيوتهن فى طرقات الرجال ، أو أن يخلو رجل بامرأة غير جائز له شرعا الخلوة بها ، وكان عليه أن يتفقد الحمامات فى كل يوم ويعزر كل من رآه من المستحمين بلا مئزر وكان عليه أن يتفقد المواعظ فلا يدع الرجال يختلطون بالنساء بل يجعل بينهم ستارة ، فإذا انقضى المجلس خرج الرجال من طريق والنساء من طريق آخر[٢] فإذا وقف أحد من الشبان فى طريقهن عزّره .

ونحن فى حاجة قوية اليوم إلى محتسب يعزّر كل رجل لاهم له إلا الجلوس فى القهوة على قارعة الطريق ليغازل النساء أثناء سيرهن فى الشوارع ، واشباع نظره من كل مايثير الشهوة فى نفسه ، وكل امرأة لاعمل لها إلا معاكسة الرجال والتبرج بالزينة لتلفت إليها الأنظار ، وبذلك يغلق باب الشهوات فلا تنطلق منه الغرائز البشرية .

ويحدثنا المقريزى[٣] بأنه كان من واجبه أيضاً انذار معلمى السباحة وقد كانوا مصدر أضرار خلقية ، « بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس » ، فمن فعل من ذلك كله شيئاً عزّره[٤] .

وكان من واجب المحتسب أيام الدولة الفاطمية ايقاف مضايقة الجمهور

---

(١) صحيح مسلم ج ٦ ص ١٦٥

(٢) هذا النظام متبع الآن بالحجاز ، فلهن فى وقت الصلاة مكان منعزل فى الحرمين ، وتقول المادة ١٦ من قانون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالحجاز « ممنوع خروج النساء مزينات معطرات ، وكذلك مزاحمتهن للرجال وخروجهن ليلا إلا لضرورة مع محرم » وتنص المادة ١٨ منه على ما يأتى « يمنع النساء من زيارة القبور ماعـدا الحجرات النبوية الشريفة ، على ألا يمكثن عندها » . « النظام القضائى فى أرض الحجاز » للأستاذ محمود علام بك القاضى بالمحاكم الأهلية ، بحث منشور فى مجلة القانون والاقتصاد السنة العاشرة (١٩٤٠ م) ص ٥٥ و ٥٧

(٣) « الخطط » ج ١ ص ٤٦٤ .

(٤) السيزرى « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » ورقة ٨

كاحتشاد الحمالين بأثقالهم ، أو تجمع النوتية بقواربهم ، فكان يزيل كل مايعوق المرور كبروز المصاطب والحوانيت بالأسواق ، والزام أصحاب المنازل المتداعية إلى السقوط بازالتها[١] لما قد يتوقع من ضررها على السابلة .

وكان يناط بالمحتسب أيضا أيام الدولة الفاطمية أن يمنع الناس من احتكار الطعام ، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « بئس العبد المحتكر إن أرخص الله الأسعار حزن ، وإن أغلاها فرح » ، وقال أيضا : « الجالب مرزوق والمحتكر محروم ، ومن احتكر على المسلمين طعاما ضربه الله تعالى بالافلاس والجذام »[٢]، وقال أيضا : « ما من جالب يجلب طعاما إلى بلد من بلاد المسلمين فيبيعه بسعر يومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد » ، وقال أيضا : « من احتكر طعاما على أمتي أربعين يوما وتصدق به لم يقبل منه » ، وقال أيضا : « لا يحتكر إلا خاطىء »[٣]، والخاطىء المذنب العاصي ، وقال أيضا : « من دخل فى شىء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم كان حقاً على الله أن يقعده بعظيم من النار يوم القيامة »[٤]. والاحتكار هو احتباس الشىء إنتظاراً لغلائه ، وقد رأينا أن النصوص الشرعية تحرمه ، فكان المحتسب إذا وجد شخصا اشترى وقت الرخاء طعاما من سائر الأقوات يريد احتكاره لتربص الغلاء به وزيادة ثمنه ، ألزمه ببيعه ، لأن الاحتكار للأقوات حرام والمنع من فعل الحرام من أخص صفاته ، فقد لعن النبي عليه الصلاة والسلام المحتكر ، فكان يلزم المحتسب التجار ببيع بضاعتهم بأثمان محددة ، فقد ذكر المقريزى[٥]، أنه لما مات كافور كثرت الاضطرابات وارتفع السعر وتعذر وجود الأقوات ، فلما أتى جوهر كانت البلاد فى حالة تشبه المجاعة واستمر

---

(١) ابن مماتى « كتاب قوانين الدواوين » (طبعة القاهرة ١٢٩٩) ص ٢٦

(٢) « تيسير الوصول » (طبعة المطبعة السلفية الأولى) ج ١ ص ٧٩

(٣) أخرجهما أبو داود والترمذى وابن ماجة « الترغيب والترهيب » (طبعة المطبعة الحلبية) ج ٣ ص ٢٤٢

(٤) أخرجه احمد والطبرانى . « الترغيب والترهيب » (طبعة المطبعة الحلبية) ج ٣ ص ٢٤٥

(٥) « اغاثة الأمة بكشف الغمة » ص ١٤ — ٢٩

الغلاء بمصر إلى سنة ٣٦٠ هـ حيث اشتد فيها الوباء وفشت الأمراض وكثر عدد الموتى حتى عجز الناس عن تكفين الأموات ودفنهم ، فكان من مات منهم يطرح فى النيل .

كذلك وقع غلاء سنة ٣٨٧ هـ فى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله ، وبلغ ارتفاع الأسعار غايته سنة ٣٩٨ هـ ، أما ثالث مرة حصل فيها غلو الأسعار فكان أيام الخليفة المستنصر ، وكانت أشدها ، وفى سنة ٤٤٧هـ غلت الأسعار بمصر أيضا ، ثم ابتدأ غلاء سنة ٤٥٧ هـ الذى فحش أمره وشنع ذكره وطال أمره حتى استمر سبع سنوات ، وأعقبه الوباء وأكل الناس الكلاب والقطط وأكل بعضهم بعضا ، وسميت « الشدة العظمى » التى كانت تشبه إلى حد كبير أيام القحط التى استمرت سبع سنوات أيام يوسف عليه السلام وفرعونه « الريان بن الوليد » .

كذلك حصل الغلاء مرة أخرى أيام الخليفة الآمر بأحكام الله ، كذلك وقع غلاء آخر أيام الخليفة الحافظ لدين الله ، وأخيراً وقع غلاء سادس أيام الخليفة الفائز بنصر الله ، وكان سبب هذا الغلاء إما قصور النيل ، وإما اختلال أحوال المملكة وقيام الفتن وعدم وجود من يزرع الأرض .

فكانت سياسة الخلفاء فى الدولة الفاطمية أن يمنعوا الاحتكار ، فتتدخل الحكومة الفاطمية بنفسها وبمندوبها فى السوق وهو المحتسب لمقاومة الاحتكار وانهاء الأزمة بسلام ، فكان يضرب جماعة من الطحانين والخبازين بالسياط بعد أن يطاف بهم فى الأسواق للتشهير بهم ، ثم يسعر معظم الحاجات الضرورية ويجعل لها سعراً إجباريا ، ثم يسلم إلى الخبازين ما يبتاعونه لتموين الأسواق بالخبز ، وكثيراً ما لجأت الحكومة الفاطمية إلى طريقة ختم مخازن الغلال فاذا حضر أربابها خيرتهم فى أن تبقى غلاتهم تحت الختم الى أن تظهر الغلة الجديدة وتفسد أو أن تفرج عنها بشرط أن تباع بالسعر المحدد ، والى اخراج ما فى الأهراء (وهى أماكن خزن الغلال للخليفة) لتفريقها على الطحانين وارخاص سعرها ومنع

احتكارها ، وإلى جمع سماسرة الغلات بمكان واحد وأن لاتباع الغلات إلا هناك فيكون لها طريق واحد لايخرج منه قدح واحد من القمح إلا باذن المحتسب وتحت اشراف دقيق منه ومن أعوانه ، بل وإلى المصادرة وتنظيم بيع الغلال بالسعر المحدد ،[1] فسعرت الحكومة الفاطمية الحبوب وغيرها من الحاجات الضرورية وجعلت من أهم مشرفيها المحتسب ، مع أن أبا يوسف وهو من الكتاب الذين كان ينتقد تدخل الحكومة فى تحديد الأسعار « لأنه خاضع لإرادة الله وحده »[2] ولقد حدثنا ناصرو خسرو بأن التجار فى وقت زيارته لمصر ، كانوا يبيعون بأسعار محددة[3] وكانت الحكومة تهدد التجار بأشد العقوبات عند اختفاء الغلال وارتفاع أثمانها إذا لم يخرجوها للناس ، وبذلك كانت تعود المياه إلى مجاريها .

وكان إذا اشتط المحتسب وعامل الأهالى بالشدة ، صاحوا به « معاوية خال على بن أبى طالب » ، فقد حدث فى ربيع الأول سنة ٣٦٢ ﻫ أن عزر المحتسب « سليمان بن عشزة » جماعة من الصيارفة فشغبوا وصاحوا فى وجهه بهذه العبارة السالفة الذكر [4] .

وكان على المحتسب أن ينفذ أحكام الدين وأوامر السلطان الخاصة بالصحة العامة والمعاملات التجارية والصناعية تنفيذاً دقيقاً ، فمن كان يغش الناس فى المطاعم والمشارب والملابس وغيرها يركبه جملا ويضع فى يده جرساً يدقه ويطوف به البلد ويجعله يصيح بأعلى صوته « لقد كذبت وها أنا ذا ألقى جزاء كذبى »[4] .

---

(١) ابن تيمية « الحسبة فى الاسلام » ص ١٤ و ٣٨

(٢) أبو يوسف « الخراج » ص ٥٧

(٣) Nasiri khosrau, Sefer Nameh p.153

(٤) المقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٧٨ وهى صيحة أهل السنة بمصر حينما يريدون قتال الشيعة

(٥) Nasiri khosrau, Sefer Nameh p. 147

زار ناصرى خسرو الفارسى مصر فى السابع من صفر سنة ٤٣٩ (٧ أغسطس سنة ١٠٤٧) وأقام فيها الى يوم الثلاثاء ١٤ ذى الحجة سنة ٤٤١ ﻫ فى عهد المستنصر ، وذكر مالاقاه فى القاهرة ، ومنه هذه الواقعة .

وكان يأمر العجانين أن تكون أوعية الماء نظيفة ذات غطاء ، وكان يراقب غسل المعاجن ونظافتها ، ويجعل العجان ملثما حتى إذا عطس أو تكلم لا ينزل شيء من بصاقه أو مخاطه فى العجين ، ويأمره بشد عصابة بيضاء على جبينه لئلا يعرق فيقطر منه شيء ، ويأمره بحلق شعر ذراعيه حتى لا يسقط منه شيء فى العجين ، وأن يباشر نخل الدقيق جيداً ، ويكلف شخصا وقت عجنه أن يمسك بيده مذبّة ليطرد بها الذباب عنه ، وكان عليه أن يأمر الفرانين باصلاح المداخن وتنظيف بلاط الفرن بالكنس من وقت لآخر ، وإزالة اللباب المحترق والشرر والمتطاير والرماد المتناثر لئلا يلصق بالخبز الجديد منه شيء ، وأن يجبرهم على رفع سقائف أفرانهم ، وأن يجعلوا فى سقوفها منافس واسعة لتسرب الدخان ، وأن يكنسوا بيت النار فى كل تعميرة [1] .

وكان عليه أن يأمر الجزارين بعدم شد الحيوانات المعدة للذبح من رجلها جراً عنيفا وألا تذبح بسكين غير حاد ، ولا يشرع فى السلخ بعد الذبح ، حتى تبرد الشاه وتخرج منها الروح ، ، وألا تذبح البقر الحوامل ، [2] ، لأن فى ذلك تعذيبا لها ، وأن يمنع الناس من تحميل الدواب أو السفن أكثر من طاقتها كما يفعل رجال قلم المرور اليوم ، فقد نهى النبىّ عليه الصلاة والسلام عن ضرب البهائم بدون سبب ، وأن تحمل فوق طاقتها ، وقال : « رأيت صاحبة الكلب فى الجنة ، وهى امرأة مرت بكلب يتلمظ على بئر ، فلم تجد ما تستقى له فربطت خفها بخمارها واستقت له فسقته ، فغفر الله لها بذلك » وقال عليه الصلاة والسلام : « رأيت صاحبة الهرة فى النار ، وهى امرأة ربطت هرة لها وتركتها لا تطعمها ولا تدعها تأكل من حشاش الأرض حتى ماتت

---

(١) ابن الأخوة « كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة » الباب الثانى عشر وهو المختص بالحسبة على الفرانين والخبازين .

(٢) ابن الأخوة « كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة » الباب السادس عشر وهو المختص بالحسبة على الجزارين .

فعذبها الله بذلك [١]، وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه ضرب جمالا لأنه حمل جمله ما لا يطيق .

وأمر المحتسب فى الدولة الفاطمية الجزارين بوضع ذيول المعز معلقة فوق لحومها حتى تباع بأكملها ، ليرى المشترى أن ما يشتريه إنما هو لحم معز فلا يقع الغش فى المبيعات ، وأن يذبحوا الحيوانات فى المذبح لا على أبواب دكاكينهم لئلا يتلوث الطريق بالدم والروث .

وكان يأمر من يعدون الطعام بغسل مواعينهم ، ويأمرهم بنظافة أوانيهم وعدم الغش فيما يقدمونه للرعية ، لأن النبى عليه الصلاة والسلام يقول : « من غشنا فليس منا » [٢] ، فعلى الطحانين ألا يخلطوا ردىء الحنطة بجيدها ولا عتيقها بجديدها » ، لأن فى ذلك تدليسا على الناس ، وعليهم غربلة الغلة من التراب وتنقيتها وتنظيفها من الطين ومن الغبار قبل طبخها » ، وألا يخلطوا دقيق الغلة بدقيق الحمص أو الفول [٣] ، فمن وجده فعل شيئا من ذلك أنكر عليه فعله وأدبه . وكان يأمر الشوائين ألا يشووا إلا « البهائم اللطاف البلدية السمان الجذعان فى السن » ، وأن يغطوها بابلوجة (جرة) [٤] ، وكان يلزم المحتسب النقانقيين [٥] ، أن يدقوا اللحم على القرم النظيفة ، ويكون بجانب من يدقها رجل بيده مذبة يطرد الذباب عنها ، ويلاحظ عدم غشها بلحوم المعز أو الابل أو غيرها [٦] .

---

(١) ابن النعمان « الهمة فى آداب الأئمة » ورقة ١٩ « والترغيب والترهيب » (طبعة المطبعة الحلبية) جـ ٣ ص ٤١٣ والمقريزى « الخطط » جـ ١ ص ٤٦٤

(٢) مسلم جـ ١ ص ٦٩

(٣) ابن الأخوة « كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة » الباب الحادى عشر وهو المختص بالحسبة على العلافين والطحانين

(٤) ابن الأخوة « كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة » الباب الثالث عشر وهو يختص بالحسبة على الشوائين

(٥) النقانق سجق Sausages

(٦) ابن الأخوة « كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة » الباب الرابع عشر

وكان ياشر الكبوديين فلا يجعلهم يخلطون كبود (جمع كبد) المعيز أو البقر بكبود الضأن ، وألا يخلطوا البائت مع الطرى (الغض) ، فاذا بات عند أحد منهم شىء ، عرضه عليه فى الصباح ليراه ويأذن له ببيعه وحده .

وكان يؤدبهم إذا وجدهم يقلون بالزيت الحلو (زيت القرطم) ويوهمون الزبون أنه بسيرج »[1] . وكان العريف يتفقد بائع السمك ومقلاته كل ساعة عند غيبة المحتسب لئلا يقليه بالشحم المستخرج من بطون السمك »[2]

وكان المحتسب يأمر الطباخين « بتغطية أوانيهم وحفظها من الذباب ، وألا يخلطوا لحوم المعز بلحوم الضأن ، ولا لحوم الابل بلحوم البقر »[3]

وكان يأمر قلائى الزلابية بقليها فى اناء من النحاس الأحمر الجيد وبعد تخمير عجينها بزيت السيرج لا الحلو[4] .

وكان يلزم الحلوانيين أن تكون الحلوى تامة النضج غير نية ولا محترقة وأن يمنع عنها الذباب بالمذبة[5] ، كما يلزم الشرابيين أن يستعملوا الماء النظيف وأن تكون معهم المذبة دوامالطرد الذباب ، ويلزمهم بغسل مواعينهم فى كل يوم وتغطيتها[6] .

كذلك كان يلزم اللبانين بتغطية أوانيهم ، وأن لا يغشوا اللبن وأن يغسلوا القصارى والمواعين جيدا قبل استعمالها[7] .

---

(١) ابن الأخوة « كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة » الباب الخامس عشر . قال عليه الصلاة والسلام « أحلت لنا ميتتان ودمان ، أما الميتتان فالسمك والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال » . أخرجه الشافعى واحمد وابن ماجة والدارقطنى والبيهقى . بلوغ المرام — باب المياه — (طبعة المطبعة السلفية الأولى) ص ٢٥

(٢) السيزرى « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » ص ١٤

(٣) ابن الأخوة « كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة » الباب الثامن عشر والسيزرى « كتاب معالم القربة فى طلب الحسبة » ص ١٤

(٤) ابن الأخوة « كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة » الباب الثانى والعشرون

(٥) « « « الباب الثالث والعشرون

(٦) « « « الباب الرابع والعشرون

(٧) « « « الباب السابع والعشرون

وكان عليه أن ينهى البياعين عن خلط البضاعة الرديئة بالجيدة « إذا اشترى كل واحدة على انفراد بسعر » ، ويأمرهم بالا يستعملوا لمسح أوعيتهم إلا الخرق الطاهرة النظيفة » ، وأن تكون المذبة فى أيديهم يذبون بها على البضاعة طول النهار » ، وكان يأمرهم بنظافة أثوابهم وغسل أيديهم وآنيتهم ومسح موازينهم ومكاييلهم » (١).

وكان يأمر الزبالين بألا يمسوا الخبز أو شيئا من المأكولات بأيديهم وهى قذرة حتى يغسلوها غسلا جيداً (٢).

وكان يمنع الخياطين من أخذ بطانة شخص لاعطائها لآخر ، وكان عليه أن يمنع بيع النجش (وهو أن يزيد فى السلعة من لا يريد شراءها) وأن يمنع تصرية الدابة اللبون ، ويمنع العقود المحرمة مثل عقد الربا ، وعقد الميسر كبيع الغرر ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن بيع الغرر ، كبيع السمك فى الماء والطير فى السماء (٣) ، وبالجملة كان عليه منع كل أنواع التدليس (٤) ، وكان عليه أن يمنع الكيميائيين من غش الجواهر والعطر والطيب وغيرها ، وأن يأخذ على الأطباء والصيادلة عهد « أبقراط » الذى استحلف فيه متعلم صناعة الطب أن يكون ملازماً للفضيلة ، فلا يعطى أحداً سماً ، ولا يذكر للنساء الدواء الذى يسقط الأجنة ، ولا للرجال الدواء الذى يقطع النسل ، وأن يغض بصره عن المحارم عند دخوله على المرضى ، ولا يفشى الأسرار (٥).

وكان على المحتسب مراعاة أحكام الشرع ، فكان يتفقد المقابر فاذا سمع نائحة أو نادبة منعها وعزرها ، لأن النوح حرام إذ يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه لعن النائحة والمستمعة (٦) ، وكان على المحتسب أن يمنع النساء من

---

(١) ابن الأخوة « كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة » الباب السادس والعشرون
(٢) » » » » والسبعون
(٣) الترمذى ص ١٤٧
(٤) ابن قيم الجوزية « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » ص ٢٢٠
(٥) الدكتور احمد عيسى بك ص٥١ و٥٢ نقلا عن الشيزرى « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة »
(٦) أخرجه أبوداود . بلوغ المرام (طبعة المطبعة السلفية الأولى) ص١٢٣

زيارة القبور لأن النبي عليه السلام يقول « لعن الله زائرات القبور [١] .

وكان له أيضا حمل الماطلين فى دفع ديونهم على دفعها [٢]، وأن يأمر العامة بالصلوات الخمس فى مواقيتها ويعاقب من لم يصل بالضرب وبالحبس ، لأن من حفظها وحافظ عليها ، حفظ دينه ، ومن ضيعها كان لما سواها أضيع ، وكان يأمر الناس بصلاة الجمعة وأداء الأمانة وقول الصدق .

وكان يشرف على الجوامع والمساجد فيأمر بكنسها يوميا وتنظيفها من الأوساخ ، ونفض حصيرها من الغبار ، ومسح حيطانها ، وغسل قناديلها ووقيدها فى كل ليلة ، وكان يأمر بغلق أبوابها عقب كل صلاة ، وصيانتها من الصبيان والمجانين ، وممن يأكل أو ينام فيها ، وغير ذلك من الأشياء التى أتت الأحاديث النبوية بتنزيه المساجد عنها [٣]، وكان عليه أن ينبه الحكومة الفاطمية إلى الخطر الذى يحصل للمساجد من التصدع والانهيار بسبب عدم ترميمها [٤]، وحمايتها من غشيان الباعة والمتطفلين ، كذلك عهد إلى المحتسب بأن يأخذ من أهل الذمة الجزية [٥]، وأن يراعوا التزام أحكام المسلمين ، فلا يقاتلوا مسلما ولا يسبوه ، ولا يزنوا بمسلمة ، ولا يحاولوا تنصير مسلم أو يحولوا دون إسلام نصرانى ، ولا يدلوا أحداً على عورات المسلمين ، ولا

---

(١) أخرجه الترمذى وصححه ابن حبان . بلوغ المرام — (طبعة المطبعة السلفية الأولى) ص ٢٣ — ولوزارة الشئون الاجتماعية عندنا اليوم تشريع يوشك أن يصبح نافذا بمنع سير النساء فى مواكب الجنازات ومنع البدع المنافية للدين .

(٢) ابن خلدون « المقدمة » (بيروت سنة ١٨٧٩ م) ص ١٩٦

(٣) السيزرى « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » ورقة ٤٠ — وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن تقام الحدود فى المساجد وأن يرفع فيها الصوت أو أن يسل فيها السيف أو ان يرمى فيها بالنبل أو أن يباع فيها أو أن يشترى ... الخ « كتاب تربية المؤمنين » لابن النعمان ورقة ١٥٤

(٤) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٨٧ وج ١٠ ص ٤٦١ والمقريزى « الخطط » ج ١ ص ٤٦٤

(٥) السيزرى « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » ورقة ٤٨ — فكان يؤخذ من الفقير المعيل — — الطبقة الدنيا — ١٢ درهما فى السنة (أى دينار واحد) ومن المتوسط — الطبقة الوسطى — ٢٤

يشهروا الخمر والخنزير ، فاذا فعلوا شيئا من ذلك أو من غيره ، انتقصت ذمتهم وعززهم [١].

ونيط بالمحتسب ان يراعى العهد العمرى ، ويشرف على تنفيذ المراسيم الدينية والاجتماعية فى عهده ، فيأمر أهل الذمة باتخاذ أزياء خاصة ، (لبس العمائم السود والطيالسة العسلية والزنانير ، إلى غير ذلك) وأن يجعلوا فى أعناقهم الصلبان ، (وكان طولها ذراعاً وزنتها خمسة أرطال) ، وأن يحمل اليهود فى أعناقهم قدامى الخشب التى عبدوها سابقاً ووزنها كالصليب ، وفى أرجلهم الحلق حتى يتميزوا من المسلمين . ويمنعهم من ركوب الخيل والبغال والحمير فاذا ركبوا الحمير ركبوها بالأكف عرضا من جانب واحد ، وألا يركبوا شيئا من المراكب المحلاة ، وأن يكون ركوبهم الحمير والبغال بسرج من الخشب وسيور سود عاطلة من كل حلية ، وألا يركبوا حماراً لمكار مسلم ولا سفينة نوتيها مسلم ، وأن يكون فى أعناق النصارى إذا دخلوا الحمام الصلبان ، وفى أعناق اليهود الجلاجل ، ليتميزوا عن المسلمين ، فاذا أفردت الحمامات لليهود والنصارى ، وجب أن يكون على حمامات النصارى الصلبان وعلى حمامات اليهود صور القرمى ، وكان من واجبات المحتسب أن يمنع المجذوم والأبرص من دخول الحمام ، وأن يلزم الحمامى بغسل الحمام وكنسه وتنظيفه عدة مرات يومياً ، وأن يوجد للناس مآزر ليؤجرها لهم [٢]

ويمنع المحتسب أهل الذمة من حمل السلاح والتقلد بالسيوف ومن رفع بنيانهم على بناء المسلمين ، ويرغمهم على ألا يتصدروا المجالس ، ولا يزاحموا المسلمين فى الطرقات . وكان يلزمهم باللجوء إلى ضيق الطرق ، ويمنع تعليم أولادهم فى كتاتيب المسلمين ، ويمنع أن يعلمهم مسلم ، وأن يستخدموا او

= درهما (أى ديناران) ومن الغنى — الطبقة العليا — ٤٨ درهما (أى أربعة دنانير) . متز « الحضارة الاسلامية » ص ٧٤

(١) الشيزرى « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » ورقة ٤٨

(٢) ابن الأخوة « كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة » الباب الثانى والأربعون

يقتنوا عبداً مسلماً أو جارية مسلمة [١] .

فكان المحتسب هو المشرف على حرية أهل الذمة الدينية والمدنيـة وفق الأمان المعطى لهم ، وفق أمان جوهر للمصريين عند ما التمسوا كتاباً « يشمل أمانهم فى أنفسهم وأموالهم وجميع أحوالهم » « وإجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه » [٢] ، أى إلى ما كانوا عليه وفق أمان الخليفة عمر بن الخطاب لأهل إيلياء ، (حاضرة فلسطين الكبرى وفيها بيت المقدس) ونصه نقلا عن الطبرى [٣] « هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، إلى أن قال «لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من غيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم » إلى أن قال « لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم . وعلى مافى هـذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية».

ولقد كان هذا التشريع الذى أصدره الخليفة عمر هو أول تشريع من نوعه ، فكان يحظر عليهم بناء الكنائس والبيع الجديدة ، أو أن يرفعوا الصلبان فوق الكنائس ، أو يظهروا كتبهم المقدسة فى الطرق العامة ، أو يجهروا بقراءتها ، أو يرفعوا أصواتهم بالترتيل فى الكنائس ، أو يقيموا المظاهرات الدينيـة فى الشوارع ، وكان هـذا التشريع الذى ينظم حقوق الذميين وواجباتهم وفق سياسة تسامح الشريعة الغراء والذى لم يقصد به المطاردة الدينية منوطا بالمحتسب أن يرعاه ويشرف على تنفيذه هو ونوابه فى سائر الأقاليم

---

(١) ابن عبد الحكم « فتوح مصر » ص ١٥١ ويحيى بن سعيد الأنطاكى « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» ص١٩٦ وابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ٣ص٥ والخضرى بك « تاريخ الأمم الإسلامية » ص ٢٩١ والأستاذ عنان « الحاكم » ص ٦٩و٧٥ و « مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام » (الطبعة ثانية) ص ٣٢ و ٣٣

(٢) انظر الأمان فى الداودار « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » ورقة ١٠٤ والنويرى « نهاية الأرب » ورقة ٣٩ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٦٧ — ٧٠

(٣) الطبرى « تاريخ الأمم والملوك » ج ٢ ص١٥٩ والمقريزى «الخطط» ج ٢ ص ٤٩٢

لأن له تنفيذ السجلات الخاصة بالذميين فيما فرض عليهم ، وتأديب المخالفين وزجرهم ، ولهم القيام عنه بهذه الأعمال (١) .

حكم المعز لدين الله عند حضوره لمصر شعباً تدين أغلبيته بالمذهب السنى ولا يتبعه من الوجهة المذهبية ، فعمل هو ومن أتى بعده من الخلفاء الفاطميين على تدعيم صبغته المذهبية ، لأنه هدفهم ومنتهى آمالهم ، فصدرت الأوامر والقوانين والمراسيم فى هذه الدولة الشيعية متشبعة بهذا المذهب . وكان لها أغراض دينية وغايات سياسية وأهداف اجتماعية ، وكان على المحتسب ونوابه السهر على تطبيق تلك المراسيم (السجلات) ومعاقبة المخالفين ، إذ لما عين الخليفة الحاكم بأمر الله « غين » فى سنة ٤٠٢ هـ للشرطة والحسبة ، عهد إليه بتنفيذ المراسيم الدينية والاجتماعية (٢) .

ولقد جدت فى الدولة الفاطمية رذائل اجتماعية كثيرة ، فهدالخليفة الفاطمى لمكافحتها بقوانين نرجو أن نوفق فى الكشف عن بواعثها وحكمتها .

فلقد وجد أن المرأة غالبا أصل معظم الجرائم ومنبع كل شر لأنها من أشد عوامل الفتنة ، وقديماً قالوا « ابحثوا عن المرأة » "cherchez la femme" فأصدر الخليفة من القوانين ما باعد بها بين المرأة والرجل ، ليهدم الرذيلة ويحمى الأخلاق الفاضلة فى عصر يقول عنه المؤرخون إنه ظهر فيه الفساد فى المجتمع المصرى بكثرة ، واشتد فيه تيار الغواية والمجون ، فأسرف الناس فى اللهو والزينة ، ولبسوا فيه رداء التهتك والخلاعة .

كان الخليفة الفاطمى يعتقد اعتقاد الإمام على كرم الله وجهه فى المرأة وللامام على رأى قاس عنيف مدون فى نهج البلاغة عنها ، فهو يرى أن « المرأة شر كلها ، وشر ما فيها أنه لا بد منها » ، وقال فى موضع آخر « خيار خصال

---

(١) السيزرى « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » ورقة ٤٨ والقلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٨٧ و ج ١٠ ص ٤٦١

(٢) المقريزى « الخطط » ج ٤ ص ٨٨

النساء شرار خصال الرجال » ، ولعله يقصد منه أن ما يستحب فى النساء لا يستحب فى الرجال (٢) .

ونعتها فى موضع ثالث بأنها « عقرب حلوة اللبسة » ، وقال كرم الله وجهه « غيرة المرأة كفر ، وغيرة الرجل إيمان » ، وبرهن على أن النساء « نواقص الإيمان ، نواقص الحظوظ نواقص العقول » لأنهن يمتنعن عن الصلاة والصيام فى أيام مخصوصة ، ولأن شهادة امرأتين تعادل شهادة رجل واحد ، وميراث المرأة نصف ميراث الرجل ، ثم دعا النـــاس إلى أن يتقوا شرار النساء ويكونوا من خيارهن على حذر ، ولا يطيعوهن فى المعروف ، حتى يطمعن فى المنكر ، وبمثل هذا نهى فى موضع آخر عن التمكين لهن والسماح لهن بالتشفع والرجاء فى أمور الناس .

لسنا نؤمن بكل البراهين التى ساقها الإمام على كرم الله وجهه ضد المرأة فبرهنته على أنهن نواقص الإيمان لأنهن يقعدن عن الصلاة والصوم فى أيام خاصة ، ليس فى نظرنا البرهان القاطع ، إذ هن غير مخيرات فى ذلك لأنه حكم الطبيعة ، ومع ذلك فإنهن يستدركن بعد ذلك ما فاتهن من صوم .

كذلك لا نقره على البرهان على نقصهن فى الحظوظ والعقول بنقص ميراثهن وقيمة شهادتهن ، فذلك حكم القرآن الـكريم ، خصوصاً وأن المرأة غير مسئولة عن إعالة زوجها وتربية بنيها بعكس الرجل .

ولـكنا نرى رأيه فى أن العاطفة عندها قوية قد تلغى حكم العقل أحياناً ولذا نجـد الخليفة الفاطمى يحرم على النساء أن يكشفن وجوههن فى الطريق متبعا فى ذلك التقاليد ، لأن الشريعة الإسلامية قد أباحت للمرأة أن تظهر وجهها وكفيها فقـد قال عليه الصلاة والسـلام للمغيرة حين أخبره أنه خطب امرأة « انظر إليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما » .

فالحجاب فى اعتقادنا منشأه العادات لا الدين ، وظهر عندما انتشرت المفاسد وقوى عندما أصدر المتوكل والقادر بالله الخليفتان العباسيان

أوامرهما بمنع النساء من الصلاة فى المسجد ومخالطة الرجال فى الحفلات والإجتماعات (١) .

ونجد الخليفة الفاطمى يمنعهن من التزين والتبرج ، ويتخذ كل الإحتياطات الممكنة لمنع المفاسد إذا اجتمع الرجال والنساء على شاطىء النيل للتفرج مثلا ، وهـذا ما حدا بالخليفة الحاكم بأمر الله أن يمنع النساء بمرسوم سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣م) من مغادرة دورهن والخروج إلى الطرقات ليلا أو نهاراً وألا يسمح إلا لعدد نادر منهن ولظروف خاصة كغاسلات الموتى بالخروج وبشرط الحصول على رقاع خاصة ترفع إلى القصر وتصدر بها تصاريح يقوم بتنفيذها مدير الشرطة ، واستمرت هذه الشدة مع النساء سبعة أعوام حتى قتل الحاكم بأمر الله الذى سن منع صانعى الأحذية (الأساكفة) من صنع الأحذية الخاصة بهن (الخفاف) ، لأن الرذائل الإجتماعية كانت فى العصر الفاطمى على أشدها ، فاضطر لمطاردة المرأة والحجر عليها لأنها من أشد عوامل الفتنة والغواية ، فمحيت صورهن من الشوارع ومن الحمامات (٢) .

كذلك حرم الخليفة الفاطمى بأوامره البكاء والعويل والصياح وراء الموتى ، وحرم على النساء السير خلف الجنائز ، وقد بلغ هـذا المنع أقصاه زمن الحاكم بأمر الله حيث أصدر فى سنة ٤٠١ هـ مرسوماً يمنع النساء من زيارة القبور ، فلم تر فى الأعياد بالمقابر امرأة واحدة .

واتخذ الخليفة الفاطمى بعض الأوامر والقوانين والمراسيم (السجلات) لمقاومة الغلاء ، فأمر بألا يخزن أحد من المؤن أكثر من حاجته ، وحدد أسعار القمح والمواد الغذائية مثل ما تعمل أرقى الحكومات فى العصر الحاضر

---

(١) الأستاذ محمد كرد على « الاسلام والحضارة العربية » نقلا عن مقالة « الحجب والحجاب » للاستاذ الشرقاوى

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكى « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » ص ٢٠٨ وابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ٢ ص ١٦٧ و ج ٣ ص ٦ والمقريزى « الخطط » ج ٣ ص ٧٣

وجعل للمحتسب القدح المعلى فى مراقبة تنفيذ أوامره ومعاقبة المخالفين وعدم احتكار التجارة .

كذلك صدرت القوانين أيامهم بمحاربة البدع والمفاسد ، ولا غرو فالإمام على قائدهم حذر الناس من « تعلم النجوم إلا ما يهتدى به فى بر أو بحر لأنها تدعو إلى الكهانة ، والمنجم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر فى النار » .

فمثلا استصدر الخليفة الحاكم بأمر الله فى سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣م) مرسوماً بتحريم صناعة التنجيم والكلام فيها ، وعاقب المنجمين بالنفى من البلاد . فحضروا هم وأصحاب الغناء وتوسطوا لدى القاضى « مالك بن سعيد » ، فعقد لهم التوبة ، وأعفوا من النفى [١] .

كذلك صدرت المراسيم المحرمة لشرب الخمر من النبيذ وغيره ، فشدد المحتسب على الخمارين ، وطارد السكارى ، وعاقب المخالفين بشدة ، وقد بلغت هذه الشدة أنصاها فى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله ، فأصدر من القوانين فى سنة ٤٠٢ هـ (١٠١١ م) ما حظر به بيع الزبيب واستيراده ، وأحرق جميع ما كان موجوداً منه ، وحظر بيع العنب حتى لا يستعمل فى صنع النبيذ وحظر عصره وأتلف كثيراً منه ، وأغرقه فى النيل ، وأتلف حدائق الكروم وصودر المخزون منه ، وكسرت جرارة العسل وأريقت فى النيل [٢] .

وصدرت فى العصر الفاطمى من القوانين الصحية ما حذر به على التجار والباعة أن يتركوا بضاعتهم تعلوها القذارة أو يصيبها الغش .

وطوردت الكلاب لنجاستها أو لكثرة نباحها ليلا أو لغرض صحى ، كما نشاهده اليوم عند معظم الدول المتمدينة ، ومن الغريب أن أهل سجلماسة

---

(١) ابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ٣ س ٥ و ٦

(٢) ابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ٢ س ١٦٦ و ج ٣ ص ٥ وج ٤ ص ٧٢ والنويرى « نهاية الأرب » ج ٢٦ ورقة ٥٦

من البلاد التى تسمن الكلاب ليأكلوها [١] مع أن الخليفة الحاكم بأمر الله كان يأمر بقتل جميع الكلاب إلا كلاب الصيد [٢]، كذلك صدرت الأوامر بقتل الخنازير لأن أكلها محرم شرعا، وكما بالغ الحاكم فى سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ م) فى قتل الكلاب، كذلك بالغ فى قتل الخنازير حتى قتلت تقريباً عن آخرها [٣]

وكانت المراسيم تصدر فى العصر الفاطمى بوضع المصابيح على جميع الحوانيت وأبواب الدور والأسواق، وتسرج إلى الصباح فى جميع طرقات القاهرة والفسطاط، كما أمر العزيز بالله سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣ م). وقد بالغ الخليفة الحاكم بأمر الله حتى أصبحت كل الأعمال والمعاملات فى سنة ٣٩١ هـ (١٠٠٠ م) تجرى بالليل، ثم منع فى سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ م) أن يخرج أحد بعد العشاء أو يظهر لبيع أو شراء فامتنع الناس، ووضعت الفساقى المملوءة بالماء حتى يتجنبوا حدوث الحريق [٤].

وكان من رسم أرباب الحوانيت أن يعدوا أيضاً عند كل حانوت زيراً مملوءاً بالماء مخافة أن يحرق مكان فيطفأ [٥] بسرعة، وأعد المحتسب نفراً يقوم بكنس الأزبال والأتربة ونحوها ويقوم بالرش كل يوم، وكان المحتسب يراقب تنفيذ كل هذه القوانين وغيرها فيأمر بنظافة الأزيار وتغطيتها ودوام غسلها «بعد كل قليل من الوسخ المجتمع فيها»، و«ألا يسقى أحد من كوز الزير ولا يدخل يده فى الزير وهى زفرة، وكان يتفقد حوانيتهم على غفلة منهم ليلا ونهارا، فمن وجد عنده زيرا مكشوفا أو كيزانا وسخة أو وجده يخلط ماء البحر (نهر النيل) مع ماء البئر، أدبه وبدد ما عنده وغلق حانوته حتى يرتدع به غيره».

---

(١) البكرى «المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب» ص ١٤٨

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكى «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» ص ١١٩ ا

(٣) يحيى بن سعيد الأنطاكى التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» ص ١٨٧ وابن خلكان «وفيات الأعيان» جـ ٣ ص ٥ والمقريزى «الخطط» جـ ٢ ص ٦٩ و ٧٠

(٤) المقريزى «الخطط» (بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ٢ ص ١٠٨

(٥) القلقشندى «صبح الأعشى» جـ ٣ ص ٢٢ ٥ والمقريزى «الخطط» جـ ٢ ص ٢١٩

وكان المحتسب يعرف على أرباب الروايا [١] والقرب والدلاء رجلا أميناً، ليستعملوا « الآلات الحافظة للمياه » من الجلود المدبوغة جيداً والتي طال مكثها.

وكان يأمر السقائين وأصحاب الروايا والقرب بالدخول فى البحر ليبعدوا عن مواضع الأوساخ [٢].

أما اختصاص « داعى الدعاة » فهو اختصاص دينى مذهبى محض: « تقرأ عليه مذاهب أهل البيت بدار تعرف بدار العلم، ويأخذ العهد على من ينقل إلى مذهبهم » [٣] مهمته الأولى الاشراف على تنظيم دعوة آل البيت، وغزو العقول والعقائد بآرائهم الدينية حتى يقبلوا طائعين مخيرين على الدخول فى مذهب الاسماعيلية، لذلك اشترط فيه أن يكون من العلماء المتضلعين فى فقه الشيعة وفى أسرار الدعوة، وكانت وظيفته أشبه بما نسميه فى الوقت الحاضر « بوزير الدعاية »، وإن اختلفت الغاية بينهما: إذ مشرب الأول دينى، فى حين أن مشرب الثانى سياسى، يغزو الأول عقائد الناس الدينية ليحولها إلى مذهب الشيعة، كما يغزو الثانى أفكار الناس ليحولهم عن عقائدهم السياسية إلى العقيدة التى يريدها لهم، وكانت وسائله فى ذلك أن يجلس بالقصر ليقرأ علوم آل البيت، « يفرد للأولياء مجلسا، وللخاصة وشيوخ الدولة ومن يختص بالقصور من الخدم وغيرهم مجلسا، ولعوام الناس والطارئين على البلد مجلساً وللنساء فى جامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر مجلساً، وللحرم وخواص نساء القصور مجلساً » [٤].

يبرهن للناس على أن الفاطميين من أسرة النبى حقا، فيرد نسبهم إلى الإمام على والسيدة فاطمة رضى الله عنهما، ويسوق إمامتهم إلى اسماعيل بن جعفر الصادق

---

(١) جمع راوية، وهى كل دابة يستقى الماء عليها

(٢) ابن الأخوة « معالم القربة فى أحكام الحسبة » الباب السبعون

(٣) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٨٧ و ٥٢٦

(٤) المقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٢٦

من ولد الحسين بن على ، وكان يغير فى خطبة الجوامع وفى آذان المسلمين وفى غيرها بما يتفق والدعوة الفاطمية ، ويعمل على إيجـــاد الوسائل الفعالة فى تنظيمها ، وأن يألف الناس طريق التكبير الجديدة على موتاهم ، واحتفالهم بالأعياد الشيعية المستحدثة ، وبنشر كتبهم وشعائرهم الفاطمية ، يلين فى نشر تلك التعاليم أحيانا ويشتد أحيانا أخرى ، يبث الدعوة وعقائد المذهب الشيعى بالمساجد أحيانا وفى الدور أحيانا أخرى ، ويضع الكتب الشيعية فى المكتبات لتكون فى متناول كل إنسان مرة ثالثة ، يشير بوضعها بمكتبة القصر وبدار العلم وفى كل مكان يرى الناس يقبلون عليه ، حتى تفيد فى نشر عقائدهم بين الناس ، يأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه إلى مذهبهم ، ويستعين على رواج المذهب ومعاونته فى مهمته باثنى عشر نقيبا ، وجماعة كبيرة من النواب فى مختلف النواحى ، يشرفون معه على تنظيم الدعوة الفاطمية ، وأخذ العهود على الداخلين فيها ، وتنظيم مجالس الحكمة .

وكان يسيطر على فقهاء الدولة الذين كانوا يحضرون إليه بدار العلم — وهو مكان بالقصر — ويجلسون إليه لتلقى الأوامر ، ويقدمون إليه فى يومى الاثنين والخميس ما أعدوه للمحاضرة فى أصول المذهب ، فيأخذه منهم ويدخل به إلى الخليفة فى هذين اليومين ليتلوه عليه إن أمكن ويذيله بإمضائه .

وتسمى دار العلم أيضا بدار الحكمة ، وقد دعى إليها أساتذة المذهبين السنى والشيعى ، وقرئت بها فضائل الصحابة ، ثم أبعد عنها أهل السنة ، فكانت الجامعة المذهبية الفاطمية ، أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله فى جمادى الآخر سنة ٣٩٥ هـ (مارس سنة ١٠٠٥ م) . وبعد أن كان الاشراف على مجالس الحكمة من اختصاص قاضى القضاة ، عهد الحاكم عندما وجد اتساع نطاق تلك المجالس بقيام دار الحكمة هذه إلى زعيم دينى خاص يلى قاضى القضاة فى الرتبة يسمى « داعى الدعاة » ، فما كان ينظمه قاضى القضاة من مجالس الحكمة سواء فى القصر أو فى الأزهر ، ويقرأ فيها علوم آل البيت ويخصص فيها المجالس

للخاصة وللعامة وللنساء ، عهد به كله لداعي الدعاة بدار الحكمة ، لغزو الأفكار أكثر من تلك المجالس .

ونلاحظ أن « دار الحكمة » إذا كانت موئل الثقافة المدنية ، فان الأزهر الذي أنشىء قبلها بنحو خمسة وثلاثين عاماً كان موئل الثقافة الدينية ، ولقد أغلق « الأفضل » في أوائل القرن السادس الهجري أيام الخليفة الآمر « دار الحكمة » التي أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله ، لما ذاع من تدخلها في العقائد حيث كثرت فيها المناقشات الدينية التي سببت فتناً ، ثم أعادها « المأمون البطائحي » وزير الخليفة الآمر ، واستمرت معهداً عادياً لا يتمتع بالأهمية السالفة الذكر[١] .

وكان داعي الدعاة يجلس بالقصر لتلاوة مصنفاته على المؤمنين ، يجلس للرجال على كرسي الدعوة بالإيوان الكبير ، ويجلس للنساء لقراءة أصول المذهب الإسماعيلي في مجلس الداعي، وكانت الدعوة تسمى مجالس الحكمة[٢] وكان له « أخذ النجوى من المؤمنين بالقاهرة ومصر وأعمالها لا سيما الصعيد ومبلغها ثلاثة دراهم وثلث ، [٣] للانفاق منها على الدعوة والدعاة .

يأخذها في كل مجلس من مجالسه عينا وورقا (فضة) من الرجال والنساء ومن زاد عن القدر المقرر اصطفاه برقعة مذيلة بإمضاء الخليفة بها « بارك الله فيك وفي مالك وولدك ودينك » ليدخرها للزهو بها .

ولكن المرغبات التي اتخذت بالشدة أحياناً ، بسن القوانين لاعتناق المذهب الفاطمي أو منع إعطاء الوظائف من غير معتنق مذهبهم ، وباللين أحياناً ، بمكافأة من يقبل على دعوتهم ، لم تفدهم شيئاً لأننا نعتقد أن المصريين

---

(١) القلقشندي « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٣٦٦ والمقريزي « الخطط » ج ٢ ص ٢٢٦ و٢٢٧ و٣١٣ و٣٣٤ و٣٣٧ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٤ ص ٢٢٣ والسيوطي « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ١٦٨

(٢) « المقريزي » « الخطط » ج ٢ ص ٢٢٦

(٣) « « ج ٢ ص ٢٢٦

دانوا للفاطميين لأسباب سياسية فقط ، ولأن المصريين كانوا على درجة من العلم والثقافة تفوق ما كان عليه المغرب الذى أثمرت فيه تعاليمهم ، خصوصاً وأن دعوتهم السرية[١] وإن كانت لاتلقن إلا لمن كان موضع الثقة والحرص على كتم السر ، تؤدى إلى الانكار والإلحاد .

وكان داعى الدعاة يعين من الخليفة أحيانا ، ومن وزير السيف أحياناً أخرى[٢] ، ويتقاضى مرتباً قدره مائة دينار شهرياً ، ولقد ضعف نفوذه وصغرت أهميته فى أواخر الدولة الفاطمية .

---

(١) المقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٢٧ — ٢٣٣

(٢) فاذا كان الوزير صاحب القلم ، عين الخليفة « داعى الدعاة » وإذا كان الوزير صاحب سيف عينه هو بنفسه . المقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ والقلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٤٨٧

الخاتمة

كان عهد الفاطميين بمصر من أزهى العصور وأزهرها ، ودولتهم من أعظم دول الإسلام ملكا وأكثرها أمنا وأغناها ثروة ، وأشدها للعلم أزرا ارتقى الأدب وارتقت الحضارة فى أيامهم ، وتقدمت الصناعة فى زمانهم فاحتفظت مصر أيامهم بشهرتها القديمة فى كثير من الصناعات ، ومما ساعد على ازدهارها استقلالهم السياسى التـام ، واهتمام معظم الخلفاء الفاطميين بها باعتبارها عنصراً من عناصر الثروة الأهلية ، ووجود معظم المواد والمعدات اللازمة لها، واستتباب الأمن — حتى كان التجار والصناع والصيارفة لا يغلقون متاجرهم ومحالهم، وقد توطدت أركان الأمن أيام الخليفة الحاكم بأمر الله توطيداً لم يعهدله مثيل، حتى أن رجلا فى زمنه أضاع كيساً فيه ألف دينار عند جامع ابن طولون ، فكان يتباعد عنه كل من رآه ، حتى فطن صاحبه إلى ضياعه فعاد وأخذه [1] — وتشجيع معظم خلفائهم للصناع من أهل الذمة ولا سيما الأقباط منهم عماد الصناعة ، واستخدامهم لعدد وافر من مهرة الصناع الأجانب واجتذابهم بالرواتب المغرية والمعاملة الحسنة ، فأمنوا على أموالهم وأنفسهم والتفتوا إلى إجادة أعمالهم [2] ، فتقدمت الصناعة فى زمانهم تقدماً بقى أثره إلى الآن ، واتسع نطاقها حتى شمل البلاد الأجنبية ، وما زالت دور الآثار مملوءة بأحسن النماذج الدالة على تفوقهم فى ذلك .

وكان من أهم الصناعات عندهم صناعة النسيج من الكتان الرقيق والصفيق ومن الصوف ومن الحرير ، وبذلك نسجت المناسج المصرية غير الملابس أشياء كثيرة كالخيم والمضارب والبسط والستور والمخاد والفوط والخرائط للسيوف والبنود والرايات وغيرها، وكان جانب من إنتاج المناسج المصرية يصدر

---

(١) Nasiri Khosrau, Sefer Nemeh. p. 159

(٢) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ١ ص ٤٤٤ و ٤٧٨

للبلاد الأجنبية كالعراق وغيرها (١)، لتشيد بمركزهم الدينى ومهارتهم الفنية .

وأما المنسوجات التيلية فقد توفر الكتان مادتها فى معظم أنحاء البلاد ولا سيما بالدلتا والفيوم ، واختصت مصر الشمالية بصنع الأنواع الدقيقة من الشرب والدبيق والبوقلمون والسلاقطون وغيرها ، وكانت من أهم المراكز الصناعية فيها دبيق وشطا وتنيس والقيس والأسكندرية ودمياط وغيرها ، كما اشتهرت منطقة مصر الوسطى بصناعة الأقمشة التيلية السميكة ، فكانت تصنع مثلا فى البهنسا الستور المنسوبة إليها والمضارب والثياب المحبرة وغيرها (٢)، كما اشتهرت الأشمونين بصناعة القماش المنسوب إليها ، واشتهرت الفيوم وغيرها بالمنسوجات الكتانية والصوفية .

ولكثرة تربية الأغنام والماعز والابل كثرت المنسوجات الصوفية التى اتخذت من صوفها وشعرها ووبرها ، من ملابس وشيلان وأبسطة وغيرها فاشتهرت سمالوط مثلا بعمل المنسوجات من شعر الماعز (٣)، كما اشتهرت طحا بالثياب الصوفية الرفيعة (٤)، وقلدت أسيوط الأنسجة الصوفية التى اشتهرت بها أرمينية ، كما اشتهرت بصناعة الخيش .

وكان ينسج الحرير الوارد لمصر من شمال أفريقية والشام بمدينة الأسكندرية فيقال حرير اسكندرى نسبة إليها ، كذلك كانوا يعملون الحرير الديباج فى دار الديباج بالقاهرة (٥)، ويستعملون الخيوط الحريرية فى كثير من قطع النسيج .

ويكفى القارىء نظرة فيما كانت تحتويه خزائن البلاط الفاطمى من مقادير هائلة من تلك المنسوجات ، وما كان يتركه الوزراء ووجوه الدولة من قطع النسيج المختلفة الأنواع والأشكال ، ليتبين المقادير الهائلة التى أنتجتها مصانع

---

(١) Heyd, Histoire du Commerce T. I p. 49

(٢) المقريزى «الخطط» (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ١ ص ٢٣٧

(٣) المقدسى « أحسن التقاسيم » ص ٢٠٢

(٤) Abu Saleh, The churches & Monasteries of Egypt p. 63

(٥) المقريزى «الخطط» (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ١ ص ٤٦٤ .

مصر ، فمثلا خلف جوهر قائد المعز لدين الله من الثياب الديباج خمسة وسبعين ألفا [١]، واشتملت تركة السيدة رشيدة على ثلاثين ألف ثوب خز واثنى عشر ألف من الثياب ذات اللون الواحد [٢]، وخلفت ست الملك ثلاثين ألف قطعة من الحرير [٣]، ولما قتل برجوان وجد عنده ألف قميص حرير اسكندرى [٤]

أما صناعة الزجاج والخزف والفخار والبلور الصخرى، فقد ضربت مصر فيها أيامهم بسهم وافر ، إذ تقدمت صناعة الزجاج التى كان أكبر مراكزها الفسطاط والفيوم والأشمونين والشيخ عباده والأسكندرية [٥]، فنى الفسطاط كان سوق المصابيح والقناديل [٦]، وزخرفوا أحيانا الزجاج والخزف بالذهب ليكون له بريق معدنى ، واقتنى الخلفاء الفاطميون ورجال دولتهم فى حياتهم المنزلية القطع الثمينة المصنوعة من هذه المواد ، مما توفرت فيها دقة الصنعة وجمال الزخرفة ، والأمثلة كثيرة فى ذلك ، فقد خلف جوهر الصقلى «عشرة آلاف زبديه صينى وبلور وفضة » [٧]، كما خلفت السيدة رشيدة ابنة المعز لدين الله مائة قطرميز (قلة كبيرة من الزجاج) مملوءة كافوراً [٨].

وصنعوا الأزيار الكبار والأوانى المستعملة فى معيشتهم المنزلية كالأقداح للشرب والصحاف لغسل الأيدى بعد تناول الطعام ، والسكارج (مفردها سكروجة أى إناء) لحفظ العطور والبخور من الخزف والفخار ، كما صنعوا قوارير النفط [٩].

---

(١) ابن اياس « بدائع الزهور » ج ١ س ٥١

(٢) أبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٤ س ١٩٣

(٣) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) ج ١ س ٤٢٢

(٤) ابن اياس « بدائع الزهور » ج ١ س ٥١

(٥) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ٢ ج ١ س ٣٤٢ والدكتور زكى محمد حسن « كنوز الفاطميين » س ١٨١

(٦) الدكتور زكى محمد حسن « كنوز الفاطميين » س ١٨١

(٧) ابن اياس « بدائع الزهور » (طبعة ٩٣٠ هـ) ج ١ س ٥١

(٨) أبو المحاسن « النجوم الزاهرة » (طبعة ١٩١٩ م) ج ٤ س ١٩٣

(٩) الدكتور زكى محمد حسن « كنوز الفاطميين » س ١٧٣

وحدثنا ناصرى خاسرو عن كثرة الأوانى المصنوعة من الزجاج فى أيام الدولة الفاطمية [١] وأن الآنية التى رآها فى أسواق الفسطاط كانت شفافة حتى تمكن من أن يرى يديه واضحة من وراء ظهر الآنية [٢]، وأن الإنتاج كان وفيراً من الأوانى المصنوعة من الخزف ، حتى أن البقالين وغيرهم من التجار كانوا يضعون ما يبيعونه فى أوان من الخزف ، بدلا من الورق [٣]. ويحدثنا أبو صالح الأرمنى [٤] عن طين أسوان فينعته ، بطين الصناعة ، حيث صنعوا منه الأوانى لشراب الفقاع ، واستخدم المصريون البلور الصخرى فى عمل الكؤوس والأباريق والفناجيل والأطباق والقنانى وغيرها من التحف الثمينة وكثيراً ما نقش عليها اسم الخليفة [٥].

وكانت مواد الصباغة المحلية التى أهمها ثمرة شجرة السنط ثم نبات النيلة تساعد على ازدهار صناعة الأصباغ ، واشتهرت أسيوط بهذه الصناعة لسهولة الحصول على الشب والنيلة من الواحات المجاورة لها ، كما اعتمدت هذه الصناعة على ما تستورده البلاد من جزر الهند الشرقية .

وراجت صناعة الأسلحة أيضا أيام الفاطميين ، فأصبحت تمد الجيش والأسطول بما يلزمهما من سلاح وعتاد حربى .

وكان الذهب يستخرج من مناجم وادى العـــلاق على مسافة أيام من أسوان [٦] ، أما الزمرد فكان موطنه فى الصحراء الشرقية على بعد سبعة أيام

---

(١) Nasiri khosrau, Sefer Nemeh p.154

(٢) » » » » p.151

(٣) » » » » P.135

(٤) Abu Saleh , The ehurches & Monasteries of Egypt P. 65

(٥) الدكتور البراوى « حالة مصر الاقتصادية فى عهد الدولة الفاطمية » ص ١٤٣ وانظر
Wiet et Hautecoeur , Les moquées du Caire T. 1 P. 91
حيث يذكر أنه وجد بمدينة البندقية بإيطاليا ابريق من البلور الصخرى عليـه اسم الخليفة العزيز بالله كما وجد غيره بألمانيا فى نورمبرج منقوش عليه اسم الخليفة الظاهر، مما يدل على حسن سمعة مصنوعاتهم ومهارتها ودقتها .

(٦) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ١ ص ١٩٧

من قفط [١] ، ويوجد النطرون فى بحيرة النطرون [٢] وغيرها ، والشبة فى الصعيد[٣]،وكان اللؤلؤ يستخرج من مغاوصه ببحر القلزم بجوار جبل الطور[٤].

أما الحديد فقد استوردته مصر من دلماشيا وصقلية وشمال أفريقية ، وصنعت منه المقصات والسكاكين وغيرها بتنيس [٥].

وكانت لهم مهارة غريبة فى صناعة الحلى ، فصنعوا من الذهب الأساور والأقراط والخواتم وغيرها من أدوات الحلى ، كما استخدموا الذهب فى كثير من المصنوعات كتحلية السروج والسيوف والمصاحف ، وحتى الملابس الفاخرة أدخلوا فيها خيوط الذهب .

واستخدموا الأحجار الكريمة كالياقوت والزمرد فى كثير من التحف والأدوات، وكانت بخزائنهم الجوهرات والسكاكين ذات المقابض المحلاة بالجواهر المتنوعة [٦]، والسروج المرصعة بالجواهر [٧]، وصنعوا الأدوات المنزلية من النحاس والمباخر وصنابير الأوانى وغـــيرها من البرنز ، وعملوا من العاج المستخرج من سن الفيل قطع الشطرنج والمقابض الثمينة ، وطعموا به العلب الثمينة الفاخرة وغيرها من التحف ، وجلبوه من كردفان وزنجبار وغيرهما [٨].

وكانت صناعة السكر واسعة الانتشار فى المناطق التى اشتهرت بزراعة قصب السكر ، فيعصر القصب فى المعاصر بين أحجار خاصة ثم يرسل إلى المسابك أو المطابخ ليصنع منه السكر ، وانتشرت صناعة السكر فى معظم أنحاء

(١) المقريزى « الخطط » جـ ١ ص ٢٣٣

(٢) القلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٣ ص ٢٨٧ — وكانوا يحملون منه سنويا عشرة آلاف قنطار

(٣) المقريزى « الخطط » جـ ١ ص ١٠٩

(٤) الدكتور البراوى « حالة مصر الاقتصادية فى عهد الدولة الفاطمية » ص ١٠٢ نقلا عن ابن الأكفانى « نخب الذخائر فى أحوال الجواهر » ص ٣٢

(٥) Nasiri Khosrau, Sefer Nemeh P. 114

(٦) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ١ ص ٤١٤

(٧) « « جـ ١ ص ٤٧٠ — ٤٧٩

(٨) « « جـ ١ ص ٤١٥ وأنظر أيضا Nasiri. Khosrau, Sefer Nemeh. P149

البلاد المصرية كالفسطاط والمنيا والفيوم وأسيوط وقفط وأخميم وغيرها[١] لأن الخلفاء الفاطميين كانوا يعملون الأسمطة فى شهر رمضان وفى الأعياد والمواسم ، وتقدم فيها الحلوى والفطائر والكعك ، وكانت للحلوى أسواق كبيرة فى الفسطاط[٢]، واشتهرت الفسطاط والقاهرة والأسكندرية بصناعة النبيذ والخمر .

وقد أنتجت المعاصر المصرية الشيء الكثير من زيت السمسم والزيتون[٣] وكلاهما من غلات مصر ، وصنعوا الشمع من أحجام مختلفة بعضها صغير وبعضها كبير يزن سدس قنطار مصرى[٤]، واستخدموه فى إنارة بيوتهم وحوانيتهم وفى إحتفالاتهم القومية ، وكانت صناعة الصابون بالفسطاط[٥] وكان لهم فى الصناعات الخشبية مهارة طيبة ، وجلبوا الأخشاب الفاخرة من كرواتيا ودلماشيا[٦]، وخشب الأرز والصنوبر من أحراش الشام ولبنان وآسيا الصغرى ، والأبنوس من السودان ، والتك من شبه جزيرة الملايو والهند واستخدموا الأخشاب المحلية المغروسة فى معظم أنحاء البلاد والمجلوبة أيضا من بعض غاباتها ولا سيما البهنسا فى صنع بعض الأثاثات المنزلية وعمل السواقى وغيرها من الآلات الرافعة . وفى الطواحين والمحاريث والنوارج والمعاصر والأنوال والمغازل ، واستعملت الأخشاب المتينة الصلبة فى عمل السقوف

---

(١) ابن دقاق « الانتصار بواسطة عقد الأمصار » ج ٤ س ١٠٨ والمقريزى «الخطط» ج ١ س ٢٣٢ و ٣٤٢

(٢) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) ج ٢ س ٩٩ — وتعتبر الفسطاط من أكبر المراكز الصناعية بالبلاد المصرية ،فيها أيضا مطابخ السكر ومسابك الزجاج والفولاذ والنحاس ومطابخ الصابون والوراقات وصناعة السفن التجارية والحربية وغيرها .

(٣) المقدسى «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» س ١٩٧ وابن دقاق «الانتصار بواسطة عقد الأمصار » ج ٤ س ١٠٨

(٤) المقريزى «الخطط» (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) ج ١ س ٤٦٥ ـ ٤٦٧

(٥) الادريسى « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » (طبعة روما ١٥٩٢ م) س ١١٣

(٦) Heyd Histoire du Commerce T. I p. II 3

والأبواب والمنابر والمحاريب وغيرها ، وكانت التحف الخشبيـة تمتاز بدقة الصنعة وجمال الزخرفة .

كذلك وجدت بمصر صنـاعة الورق [١]، والتجليد ، فيقول أبو صالح الأرمنى [٢] ، بوجود المطابخ التى كان يصنع بها الورق المنصورى ، وكانت بالفسطاط أهم مراكز صناعة الورق الأبيض، واشتغل الوراقون بعمل الورق وتجارته وبالنسخ والتجليد وبيع الأقلام والحبر [٣]، واختلفت أسعار الورق بحسب صنعته ونوعه ، وبانتشار صنـاعة الورق انتشر فن التجليد ، وكانت صناعة التجليد القبطية هى النواة التى تطورت منها صناعة التجليد فى الإسلام فاستعملت جلود العجول والحرير والديباج والأطلس فى تجليد المصاحف وكتب الأحاديث والعلوم الشرعية ، كذلك تقدمت صناعة الخطاطين وهى صناعة بديعة دقيقة .

أما صناعة الأدوات الجلدية فقد برعوا فيها أيضاً ، فكانت خزانة السروج بالقصر مليئة بأنواع السروج المصنوعة من الجلد والمحلاة بالذهب والفضة ، كما صنعوا من الجلود المحلية بعد دبغها الروايا لحمل الماء إلى البيوت ،واستخدموها فى مقاعد الكراسى والأرائك وغيرها ، كذلك صنعوا من الجلود الواردة من الحبشة والنوبة أنواعاً فاخرة من الخرائط والنعال ، وكانت القاهرة من أشهر المراكز الصناعية لصنع الأدوات الجلدية .

وكانت حركة بناء القصور والجوامع والمشاهد والمتاجر والحمامات والمناظر وغيرها من المنشآت الدينية والدينوية كثيرة ، ولا سيما بالقاهرة والفسطاط

---

(١) انقطعت صناعة البردى حوالى سنة ٣٣٩ هـ و ٩٥٠ م ، واتخذ من نبات البردى ورقاً يسمى أبا القرطاس المصرى . وانظر Arnold & Groham, The Islamic Book p. 35

(٢) وانظر ابن دقاق « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » جـ ٤ ص ١٠٨ والمقريزى « الخطط » جـ ١ ص ٣٦٧ Churches & Monasteres of Egypt p. 65

(٣) Arnold & Groham, The Islam'c Book p. 33

وبنوا مبانيهم باللبن (١) والآجر والأحجار المقطعة من المقطم وغيره. ووجدت بمصر العمارات الشاهقة التى بلغ عدد طبقات أحدها أربع عشر طابقاً (٢)، وكذا الفنادق والخانات والوكالات (٣)، وتمتاز مبانيهم ولا سيما الأزهر بأن منظرها مشعر بعظم القوة وضخامة السلطان وسعة العلم ودقة الصنع.

ولقد نقل العرب أكثر فن العمارة من مبانى البيزنطيين والفرس، ثم غيروا فيها تغييراً امتازوا به، فنجد الأبواب العالية مع صغر المدخل والقباب الشامخة المزينة والمنارات الشاهقة وغير ذلك من المبانى التى تدل دلالة واضحة على نبوغ المصريين أيام الفاطميين فى فن البناء، وساعد حب التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة فى الإكثار من المبانى ذات الطابع الدينى والخيرى.

ولا شك فى أن حياة الخلفاء الفاطميين المترفة، ساعدت على نمو الفنون الجميلة، فاستعان المصريون أيامهم بالزخرفة واستعمال الأصباغ الزاهية إلى إبداع رسوم جميلة، وكان لهم ذوق سليم فى الرسم وفى كتابة آى الذكر الحكيم بالخطوط الكوفية (٤)، والثلثية المختلفة الأشكال، فمن آنية مرصعة بالدرر والجوهر، إلى تماثيل تزين مجالسهم، كمجلس شراب الأفضل. فقد كان به ثمانية تماثيل جوار متقابلات، منهن أربع من الكافور وأربع سود من عنبر مرتديات أفخر الثياب ومتزينات بأثمن الحلى وبأيديهن أحسن الأحجار الكريمة (٥)، إلى تحف تثير الدهشة فى النفوس وأنواع من الملابس والأمتعة والمصنوعات الدقيقة ذات الطابع الفنى الممتاز، إلى زخارف أنيقة نضيرة

---

(١) بنى جوهر سور القاهرة من اللبن، وكانت اللبنة الواحدة قدر ذراع فى ثلثى ذراع، وعرض جدار السور عدة أذرع. المقريزى «الخطط» (بولاق ١٢٧٠ هـ) جـ ١ ص ٣٧٧

(٢) Nasiri Khosrau, Sefer Nemeh P. 153

(٣) » » » » P. 145

(٤) سادا الخط الكوفى المزهر (Fleuri) أيام الفاطميين ثم حل محله الخط النسخ فى الدولة الأيوبية. أنظر Corpus Inscriptorum Arabicarum Première partie, Tome I P. 26

(٥) ابن ميسر «تاريخ مصر» جـ ٢ ص ٤٥٨

وكانت بعض المخطوطات مزينة بالصور والرسومات الدقيقة ، وفى هذا يبدو التأثر بالصناعة الفارسية [١] .

وكانت أرضية البلاط الفاطمى مرصوفة بأنواع من الرخام متعددالألوان وفيها تذهيب يهيج بنضارته وبهائه ، وبالسقوف ألواح تزينها الزخارف الذهبية الجميلة ، ونافورة تجرى الماء الصافى فى أنابيب من الذهب والفضة [٢] وأراض وقنوات مرصوفة بالرخام ، ودروع وأسلحة تلمع بالذهب والفضة ، كذلك وجدت دقة الصنعة وجمال الزخرفة على الأونى والقطع المصنوعة من الزجاج والخزف وغيرها .

أما التجارة فقد راجت فى زمانهم أيضاً ، ولا غرو فقد تعود المصريون التجارة من أقدم أزمانهم ، فكانت البحار والنيل والترع غاصة بالقوارب والسفن التى تحمل الحاصلات المختلفة من أسوان إلى الفسطاط والقاهرة ومنها إلى الموانى الواقعة على الساحل الشمالى . ونظموا سير القوافل وأقبلوا على التجارة لأنها عامل من عوامل الثروة ، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما أفلس تاجر صدوق » ، ومدح عليه السلام التجارة والكسب الحلال فقال « بيعوا وابتاعوا فان لم تربحوا ، بورك لكم » ، وقال أيضاً « البركة فى التجارة ، وتسعة أعشار الرزق فى التجارة » ، واتجروا فى أكثر المواد فكانوا ينقلون المواد الغذائية كالحبوب والفواكه وغيرها ، والمواد الأولية مثل الكتان إلى المراكز الصناعية ، وفتحوا موانيهم للتجار الغربيين وسمحوا لهم بنقل ما شاءوا من المتاجر والسلع ، ونظموا سير القوافل إلى الحجاز والشام وبلاد المغرب ، فوصلت التجارة لمصر من أوربا وآسيا وأفريقية

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن « كنوز الفاطميين » ص ٢٨

(٢) انظر وصف غليوم رئيس أساقفة صور للبلاط الفاطمى سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) عندما زاره رسولا الملك أملريك ، وترجمة الدكتور زكى محمد حسن للعبارة فى كتابه « كنوز الفاطميين » ص ١٦٢ و ١٦٣

وكانوا يوجدون حاميات على طرق التجارة [١] بالمراكز الهامة والطرق الرئيسية لحفظ النظام وحماية القوافل وما فيها من بضائع من اعتداء الأشرار وقطاع الطرق ، واعتمدت مصر على الشام وشمالى أفريقية للحصول على الحرير وعلى أحراش الشام وسواحل بحر الادرياتيك لتمدها بالأخشاب ، وعلى جزر الهند الشرقية لتصدر إليها الصباغة ، أما خشب الساج فقد استوردته مصر من شبه جزيرة الملايو ، لصنع المحاريب والأبواب فى المساجد والقصور وخشب اللبخ والسنديان من البندقية ، واستوردت الفواكه الطازجة من الشام ، وحصلت مصر على اللوز والجوز والفستق وغيرها من الهند والشام والمغرب [٢] .

وجلبوا الثلج للخليفة وللوزير ولعلية القوم ولمن يحتاجه من غيرهم فى حالة المرض ، من الشام [٣] ، وصدروا إلى الممالك المجاورة مصنوعاتهم من خزف وزجاج ومنسوجات وغيرها ، واتجروا مع عدة ممالك مثل جنوا وبيزا والبندقية والدولة البيزنطية وجزر بحر الروم كصقلية [٤] وقبرص وإقريطش وبلاد المغرب وبرقة وأسبانيا ، والشام [٥] والعراق والشرق الأوسط وأرمينية وبلاد العرب والنوبة والسودان ، والحبشة والصين .

فكانت تصل الغلات ولا سيما بخور اليمن وعطور شبه الجزيرة العربية من الحبشة واليمن وشرق آسيا والهند مثلا إلى « عدن » ، ومنها تنقل إلى عيذاب أو جدة ، فالساحل المصرى .

---

(١) Mann J, The Jews in Egypt & Palestine Under The Fatimid Caliph p.32

(٢) البكرى « المغرب فى ذكر افريقية والمغرب » ص ٤٧

(٣) Nasiri Khosrau, Sefer Nemeh p. 158

(٤) N.K,S.N. p. 122 — وبيعت أنسجة صقلية الدقيقة المتخذة من الكتان والحرير بمصر

(٥) » » p. 116, 152 — ووجدت أنسجة شامية ولا سيما من بعلبك كما وجدت أسلحة وأدوات نحاسية من انتاج الشام بالفسطاط

كما كانت تصل غلات الشام وفلسطين إما بطريق البر أو البحر ، وعن طريق الشام تصل القوافل إلى بغداد ، وتصل غلات أوروبا وجزر بحر الروم عن طريق الموانى المصرية،ومن المراكز التجارية الهامة الأقصر وقفط وقوص واشتهرت قوص بأنها ملتقى القوافل من الحبشة وبلاد العرب ، وكان بها عدد من الفنادق والمنازل (١).

وأرسل ملوك النوبة الهدايا للخليفه الفاطمى ، وعقدوا معه المعاهدات التى تمنع إعتداء الجيوش المصرية على بلادهم (٢)، وحمل تجار مصر للنوبة الكثير من أدوات الزينة (٣).

واستوردت مصر من الحبشة الرقيق وجلود الجاموس (٤)، وكان التجار الذين يصلون إلى « عيذاب » (٥)، من الساحل الشرقى لأفريقية ومن بلاد الحبشة ، يحملون إلى مصر مقادير وافرة من سن الفيل (٦).

وكانت تنيس من المراكز التجارية الهامة،إذ كانت مرسى المراكب الواردة من الشام والمغرب (٧).

واشتهرت الإسكندرية بتصدير غلات الشرق أكثر من غلات مصر ، إذ اشتهرت بتصدير المنتجات الأسيوية والمحلية ، فكانت حلقة اتصال بين الشرق والغرب ، وكانت تربطها بداخل البلاد قناة عرفت فى العصور الوسطى

---

(١) ابن جبير « كتاب الرحلة » ص ٦٥ وانظر Quatremére mèmoires Geographiques et Historiques T. I p. 194

(٢) Nasiri khosrau, Sefer Nemeh p. 175

(٣) » » » » p. 116

(٤) » » » pp. 149 - 150

(٥) كانت مسلكا للتجار والحجاج تجبى بها الرسوم على البضائع الواردة لها من الهند واليمن والحبشة والحجاز. اليعقوبى « كتاب البلدان » ص ٣٣٥ وانظر Nasiri Khosrau, Sefer Nemeh p. 178

(٦) » » » » p. 149

(٧) اليعقوبى « كتاب البلدان » ص ٣٣٥

بخليج الاسكندرية ، واتصلت دمياط وتنيس غالباً تجارياً بالشام والقسطنطينية كما اتصلت الفرما بالقلزم ، واشتهرت رشيد أيضاً بأنها من المراكز التجارية .

ولم يكتف المصريون بما تخرجه مناسج بلادهم، فاشترى الخليفة المعز لدين الله مثلا من فارس ستارة من الديباج [١]، وكانت التوابل والعطور والأفاويه والبخور من أهم واردات مصر ، بعضها تستهلكه وبعضها تصدره إلى الأسواق الافريقية والأوروبية ، وكانت هذه التجارة مصدر ربح كبير للمشتغلين بها وموردا هاما لبيت المال بسبب الرسوم المفروضة عليها ، لأهميتها فى البيوت والجوامع والمشاهد بمصر ، وأهمية البخور أيضاً بأوروبا فى الطقوس الدينية ولا سيما بروما فى كنائسها الكاثوليكية .

ويحدثنا ابن حوقل [٢] عن وجود فنادق وهى أبنية تعد ليقيم بها التجار الغريبون وتحفظ فيها بضائعهم ، ويحدثنا المقريزى [٣] أيضا عن وجود الوكالات والخانات والقياسر للتجارة ولأعمال الخير كإيواء أبناء السبيل والمسافرين .

أما الملكية العقارية : فقد وضعت الدولة الفاطمية على أهل الذمة الجزية وتركت الأرض فى أيدى أهلها ليؤدوا خراجها جريا على سياسة من قبلهم من خلفاء المسلمين .

وكما كتب عمرو بن العاص للمصريين عهداً ، أنهم آمنون على أموالهم ودمائهم ونسائهم وأولادهم ، [٤] كذلك كتب جوهر للمصريين عهداً وبذلك تركوا الأرض بأيدى أصحابها لهم ملكيتها التامة المطلقة ، رقبة

---

(١) Stanely Lane Poole, The Story of Cairo p. 132

(٢) ابن حوقل « كتاب المسالك والممالك » ص ٨٩ — ٩١

(٣) المقريزى « الخطط » (طبعة بولاق ١٢٧٠هـ) ج ٢ ص ٩٣ و ص ٢٧٤

(٤) البلاذرى « فتوح البلدان » (طبعة القاهرة ١٣٥٠ هـ) ص ٢١٦ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » (طبعة القاهرة ١٩١٩ — ١٩٣٥ م) ج ١ ص ٢٤

ومنفعة [١] وكانت الزراعة كما كانت من قبلهم مهنة السواد الأعظم من المصريين ووسيلتهم الطبيعية للمعيشة ، فحفروا القنوات والترع واهتموا بتعميقها وصيانتها وصيانة الجسور السلطانية ، وعهدوا إلى الملاك والمتقبلين باقامة وصيانة وتقوية الجسور المحلية بشرط أن يخصموا ما دفعوه عليها من الخراج المقرر عليهم [٢] . أما تطهير الترع من الطمى وعمارة السواقى وحفر الآبار فكانت من أخص أعمال الفلاح المصرى [٣].

وباشرت الحكومة الفاطمية العوامل المؤدية لطيب الزرع وخصوبة التربة والاشراف على الزراع ورصدوا ثلث الخراج لعمارة جسور أراضى مصر [٤] وخصصوا موظفا بمرتب للاشراف على مقياس النيل [٥] فإذا بلغ النيل حد الوفاء فى «مسرى» غالباً أى ستة عشر ذراعا ، أمر الخليفه بالنداء [٦].

ويحدثنا ناصرو خسرو عن العجلات المائية التى كان يستخدمها الفلاح فى رفع الماء لرى أرضه فيقول إنها السواقى والقادوس وغيرها كالطنبور والشادوف ، وهى طرق لا تختلف كثيراً عما هى عليه الآن [٧].

واهتم الفلاح بتربية الماشية والدواجن ، وكانت الابل والبقر والجاموس والخيل والحمير من أنفع الحيوانات له ، يتخذها مطية له وينقل عليها السباخ

---

(١) الدكتور البراوى « حالة مصر الاقتصادية فى العصر الفاطمى » ص ٤٤ و ٤٥ نقلا عن المقريزى «الخطط» ج ١ ص ٨٤ و٨٥ — لأن عمر جعل مصر بيد أهلها مملوكة لهم ملكية مطلقة ، فيتصرف مالكها فيها بالرهن والبيع والهبة والوصية وغيرها من الحقوق العينية وتورث عنهم ، فاذا انقرض نسلهم انتقلت ملكيتها لبيت المال . ابن عابدين «رد المحتار على الدر المختار» (١٣٢٣ — ١٣٢٦ هـ) ج ٣ ص ٣٩٣ والزيلعى « تبيين الحقائق فى شرح كنز الدقائق » (طبعة بولاق ١٣١٣ هـ) ج ٣ ص ٢٧١ و ٢٧٢

(٢) ابن مماتى «قوانين الدواوين» ص ٩٥ والمقريزى «الخطط» ج ١ ص ١٠١

(٣) المقريزى « الخطط » ج ١ ص ٢٧١

(٤) « « ج ١ ص ٦١

(٥) « « ج ١ ص ٦١

(٦) المقريزى « اغاثة الأمة » ص ٢٠ و ٢١

(٧) Nasiri khosrau, Sefer Nemeh. p. 118

ويستعملها فى الأعمال المتصلة بالزراعة كالحرث ورفع الماء ودراسة الحبوب ونقل الحاصلات من الحقول إلى الأجران والأسواق ، واهتم بالثروة الحيوانية فعنى بتربية الغنم والمعز والأوز والدجاج والأرانب والبط والخراف والنعاج والنحل وغيرها .

واشتمل الحقل على الفلاح والوكيل والخولى والأجير والكرام والسائس والحارس والجمال والجنايني وغيرهم من الأعوان ، وكان الفلاح أيامهم حراً غير رقيق ينتقل من أرض لأخرى حسب رغبته واختياره .

وحاربوا الاحتكار وسعروا ضرورات المعيشة ، وكافحوا الأزمات الاقتصادية ، ولو بطرق شاذة ، كما حصل أيام الخليفه المستنصر بالله عندما هدد وتوعد « الوالى » بضرب عنقه ونهب ماله إن لم يظهر الخبز فى الأسواق ويرخص ثمنه ، فلجأ الوالى إلى حيلة جريئة [1] بأن أخرج أناساً من السجن ألبسهم العمائم المدورة والطيالس ليظهروا بمظهر التجار ، ثم استدعى تجار الغلة والخبازين والطحانين فى مجلس عظيم عام ، وأمر بإدخال أحدهؤلاء المساجين عليهم وقال له : ويلك أما كفاك أنك خنت السلطان واستوليت على مال الديوان ... فأدى ذلك إلى اختلال الدولة وهلاك الرعية . اضرب عنقه » ! « فضربت فى الحال ، وأمر غيره من المسجونين وقال له « كيف جسرت على مخالفة الأمر لما نهى عن احتكار الغلة وتماديت على ارتكاب ما نهيت عنه إلى أن تشبه بك سواك فهلك الناس . اضرب عنقه » ! فضربت فى الحال أمامهم ثم فعل هكذا بعدد آخر من المسجونين ، حتى علم تجار الغلة وغيرهم أنه جاد فى قتلهم فصاحوا « فى بعض ما جرى كفاية ونحن نخرج الغلة وندير الطواحين ونعمر الأسواق بالخبز ونرخص الأسعار على الناس ونبيع الخبز رطلا بدرهم » ، فلم يرض بتركهم إلا بعد أن تعهدوا ببيع الخبز رطلين بدرهم ، وبذلك انتهت هذه الشدة العظمى التى كانت تشبه إلى حد كبير أيام القحط التى استمرت سبع

---

(١) المقريزى « اغاثة الأمة » ص ١٤ — ٢٩

سنوات أيام يوسف عليه السلام وفرعونه الريان بن الوليد .

ويمكننا أن نقول على وجه الاجمال إن الحالة الاقتصادية أيام الدولة الفاطمية كانت حسنة ، بدليل الانتعاش الذى شمل الدولة فى زمن كبير من وجودها ومظاهر البذخ والترف والنعيم التى سادت جل عصرهم ، فمثلا ماتت الأميرة « عبدة » إحدى بنات الخليفة المعز لدين الله سنة ٤٤٢ هـ (١٠٥٠ م) وتركت وراءها ثروة طائلة وتحفا لا تحصى وكثيراً من خزائن الحلى والذخائر .

كذلك لما ماتت الأميرة « رشيدة » ابنة المعز لدين الله سنة ٤٤٣ هـ تركت وراءها خمسة أكياس من الزمرد ومقادير وافرة من الأحجار الكريمة الأخرى علاوة على ثلاثة آلاف إناء فضى مطعم [١] ، فكانت ثروتها ما يقرب من مليون ونصف من العملة الذهبية .

واشتملت ثروة جوهر على « أربعة صناديق من اللؤلؤ الكبار وألف قصبة من القصب الزمرد ودواة من الذهب طولها ذراع مرصعة بالدر والياقوت وسبعمائة خاتم بفصوص من الياقوت والزمرد والماس ، وستمائة ألف ألف دينار ذهباً وأربعة آلاف ألف درهم ومائة مسمار من الذهب وثلاثة آلاف معلقة من الذهب والفضة وأربعة قدور من الذهب وزن كل قدر مائة رطل ذهب ليطبخ بها السلوقة » [٢] .

ولما أمر المعز لدين الله بعمل الكسوة ، عطروها بالمسك ووضعوا فى حافتها « اثنى عشر هلالا ذهبيا ، وفى كل هلال إترجة ذهبية ، وفى داخل كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام فى الكبر ، كما كان فيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق » [٣] .

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن « كنوز الفاطميين » ص ٤٦ و Lane-Poole و The Story of Cairo. p. 133 & Quatremére, Mémoires Sur L' Egypte T.IIP.311

(٢) ابن اياس « بدائع الزهور » حـ ١ ص ٥١

(٣) ابن ميسر « تاريخ مصر » ص ٤٤

وجعل ابن كلس فى قصره موائد كبيرة له ولأضيافه [١] ولا سيما برمضان سواء من الفقراء وعامة الناس أو من الفقهاء ومشاهير الرجال ، ويحدثنا ابن منجب [٢] أنه ترك من الجواهر الثمينة ما قدرت قيمته بأربعمائة ألف دينار ومن المصوغات ما بلغت قيمته خمسمائة ألف دينار ، «وأن ثروته بلغت أربعة آلاف ألف دينار» ، ووجدت فى تركة سيدة الملك ثلاثمائة صندوق من الذهب عينا ، ولما قتل الحاكم بأمر الله «برجوان» وجد عنده مائتى ألف ألف دينار ومائة وخمسين أردبا من الدراهم الفضية [٣] . ووجد للأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٧ — ٥١٥هـ و١٠٩٤ — ١١٢١م) ستة آلاف ألف دينار عينا ، وفى بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار ، وفى البيت البرّانى ثلاثة آلاف ألف ومائتين وخمسين ألف دينار ، وخمسين أردبا دراهم ورق ، ومائة مسمار ذهب وزن كل مسمار مائة دينار كانت تستعمل مشاجب لتوضع عليها العمائم المختلفة الألوان ، وسبعمائة ألف ثوب ديباج أطلس ، وخمسمائة صندوق من دق دميــاط وتنيس برسم كسوة بدنه ، ودواة ذهب يكتب منها مرصعة بالجواهر قوّم جوهرها باثنى عشر ألف دينار ، وخمسمائة ألف مجلد من الكتب ، وسبعمائة من أطباق الذهب والفضة ، إلى غير ذلك من الذخائر النفيسة [٤] ، ولما مات المأمون البطائحى مقتولا من الخليفة الحافظ كانت ثروته مائة صندوق ما بين ذهب عينا ودراهم فضة وجواهر فاخرة [٥] .

ولقد أحدثت الدولة الفاطمية بمصر الكثير من المواسم والأعياد

---

(١) ابن اياس « بدائع الزهور » ج ١ س ٤٧

(٢) ابن منجب « الاشارة إلى من نال الوزارة » (طبعة القاهرة ١٩٢٤ م) س ٢٣

(٣) ابن اياس « بدائع الزهور » ج ١ س ٥١

(٤) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ س ٥٧ و ٥٨ والنويرى « نهاية الأرب » ج ٢٦ ورقة ٨٣ وابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٧٧ والسيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ س ١١٧

(٥) ابن اياس « بدائع الزهور » ج ١ س ٦٣

والحفلات الوطنية [١]، فابتدعوا عادة الاحتفال بموالد أهل البيت وأحياء بعض الليالى المباركة، وقد امتازت هذه الاحتفالات بالروعة والبذخ، فرقت فيها الكساوى والدراهم والدنانير ومقادير كبيرة من الطعام والحلوى خصوصا فى رمضان والعيدين حيث كانت تمد على الأسمطة المأكولات والأطعمة الفاخرة على موائد مزخرفة بالذهب والفضة والعاج، توضع عليها الأزهار لفتح الشهية لجميع المصريين. واحتفلت الدولة الفاطمية ببعض أعياد القبط كيوم عيد ميلاد المسيح سيدنا عيسى عليه السلام فى ٢٩ كيهك حيث فرقت الدولة الحلاوة والزلابية والسمك البورى وغيرها على الأساتذة المحنكين والأمراء المطوقين والكتاب وغيرهم، وفى خميس العهد (العدس) الذى يعمل قبل الفصح بثلاثة أيام، كانت تضرب الدولة خمسمائة دينار تعمل خراريب وتفرق على موظفى الدولة، وكان يوزع البيض المصبوغ بعدة ألوان.

واحتفل بعض الخلفاء من الدولة الفاطمية كما احتفل الإخشيديون من قبلهم بعيد الغطاس، فكانوا يشعلون بالجزيرة والفسطاط ألف مشعل ثم يغطسون فى النيل معتقدين أن غطسهم فى هذه الليلة أمان لهم من المرض [٢] كذلك احتفلت الدولة بعيد النوروز.

ولم تمنع الدولة الفاطمية سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) أهل السنة من الاحتفال بعيد اتخذوه بعد عيد الغدير عند الشيعة مضاهاة ونكاية بالفاطميين، وهو اليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الغار ومعه أبو بكر الصديق، ففيه أظهروا السرور وأقاموا الزينات وسمحوا لهم بإيقاد النيران [٣].

---

(١) أما مواسم الشيعة وأعيادهم، فهى: موسم رأس السنة، وأول العام، ويوم عاشوراء ومولد النبى عليه السلام، ومولد الامام على كرم الله وجهه، ومولدا ولديه الحسن والحسين ومولد فاطمة الزهراء، وليلة أول رجب ونصفه وليلة أول شعبان ونصفه وليلة رمضان وعيد الغدير (والغدير مكان يقع بين مكة والمدينة) الذى جعل فيه النبى عليه السلام علياً ولى عهده فى ١٨ ذى الحجة سنة ١٠ هـ عندما رجع من حجة الوداع، وموسم فتح الخليج وغيرها. «القلقشندى» ج ٢ ص ٤٠٧ وج ١٣ ص ٢٤١ والمقريزى «الخطط» ج ٢ ص ٣٨٤ و ٣٩١

(٢) القلقشندى «صبح الأعشى» ج ٣ ص ٥٢٧ والمقريزى «الخطط» ج ٢ ص ٢٤ — ٢٧

(٣) متز «الحضارة الاسلامية» ص ١٠٩ نقلا عن المقريزى «الخطط» ج ١ ص ٣٨٩ — ٣٩٠

وفيما ذكرناه الكفاية لنبين للقارىء كيف كانت الحياة الاجتماعية الفاطمية من ثروة وبذخ، وما كان عليه الخلفاء والوزراء وأصحاب المراكز الكبيرة من ثراء وترف.

أما الادارة المالية والادارية: فقد نظمت بالدواوين التى أنشأتها الدولة ووضعت لها أدق الأنظمة، ولا أدل على استقلال الوزير من الرواية الآتية وهى أنه حدث مرة أن كتب والى الشام خطابا إلى الخليفة المعز لدين الله مباشرة متخطيا من دونه، فأعاد الخليفة الكتاب إلى الوالى من غير أن يفض أختامه [1].

ولكننا نأخذ على الدولة الفاطمية أموراً، منها:

أن كثيرا من خلفائهم صدقت عليه كلمة لويس الرابع عشر «الدولة هى أنا» فكانوا يجمعون فى أيديهم السلطتين الدينية والزمنية، فكان الخليفة الفاطمى يعين ويعزل، ينعم وينقم، يحارب ويسالم، ولا معقب لمشيئته وكان اماماً مشرعا وقاضيا للخصومات أحيانا [2].

كذلك نأخذ على بعضهم مصادرتهم لبعض أموال من يسخطون عليه من الأمراء والوزراء والقواد وغيرهم من كبار الدولة، فيستولون على أملاكهم بعد موتهم أو قتلهم، وكان ذلك يحصل غالباً لسببين: إما لاضعاف شوكتهم أو للانتقام منهم إن كانوا من أهل الذمة وارضاء المسلمين، ولقد ضرب خليفتهم الحاكم بأمر الله بسهم وافر فى انتهاك حرمة بعض الناس أيامه.

كذلك نأخذ على الدولة الفاطمية أنها أبقت نظام الالتزام فى جباية

---

(١) متز «الحضارة الاسلامية» ص ٢٣

(٢) بالرغم من أن الخليفة الفاطمى لم يتنبه الى أن العدالة تضار من تجمع السلطات الثلاث فى يده فاننا نرى أن مبدأ الفصل بين السلطات الذى عرفه أرسطو وحدده منتسكيه كان المصريون القدماء أول من قال به إذ لما أريد اغتيال الملك رمسيس الثالث حوالى سنة ١١٦٧ ق.م ولما اتهمت ملكة بالخيانة فى الأسرة السادسة عهد الملك للقضاء بالفصل فى الدعوى ولو أنه بحكم سلطانه الالهى كان له الحق فى الحكم بالاعدام دون الرجوع الى القضاء، وما ذلك فى رأينا إلا احتراماً لمبدأ الفصل بين السلطات «بحاث من الدراسات المصرية القديمة» للدكتور باهور لبيب (طبعة المقتطف ١٩٤٨) ص ١٠٢ ومؤلفنا «القضاء فى الاسلام» ص ١٢٩

الضرائب ، وسمحت به أيضا فى غيره بتضمين بعض أبواب الايرادات

كذلك نأخذ على خلفاء الدولة الفاطمية أنهم لم يفرقوا بين أموالهم الخاصة وأموال الدولة ، ومما ساعدهم على ذلك أن الدكاكين والفنادق والحمامات وغيرها من المنشآت العامة كلها كانت ملكا خاصاً للخليفة .

كذلك نأخذ على عصرهم تجاهر الناس أيام الحاكم والظاهر والمستنصر والآمر والظافر بشرب الخمر واسرافهم فى اللهو والمجون والطرب واحتسائهم النبيذ والفقاع [١] .

كذلك نأخذ على العصر الفاطمى أنه وجدت فيه موجات من اضطراب الأمن فى الحالة الداخلية فى بعض الأوقات ، فقد انزعج الأمن أيام المعز لدين الله مثلا بأنصار الاخشيدية والكافورية كما ناوأ ملكه حملات القرامطة بزعامة الحسن بن الأعصم ، كما كان البيزنطيون (الروم) مصدر قلق له ولغيره من الخلفاء الفاطميين ، فمثلا فى سنة ٣٦١ هـ حدثت فتن واضطرابات عندما ثار عبد العزيز بن هيج الكلابى بالصعيد ودعا للعباسيين .

كذلك خرج « أبو ركوة » [٢] على الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٦ هـ (١٠٠٥ م) كما خرج « سكين » سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٣ م) إذ اغتنم الشبه العجيب فى الصورة للحاكم بأمر الله واعتقاد أكثر الناس برجوعه بعد موته وادعى أنه نفس الحاكم بأمر الله وأنه عاد إلى ملكه لاستلام منصبه فتبعه عدد كثير ، ثم اتضح كذبه فقبض عليه وقتل ، كذلك لاختلاف جند الفاطميين فى الأجناس واللغات مما سبب للدولة المتاعب ، وكثيرا ما استعمل المغاربة الشدة

---

(١) ابن اياس « بدائع الزهور » جـ ١ ص ٥٨ و٥٩ و٦٤ و٦٥

(٢) لقبوه أبا ركوة لركوة كان يحملها فى أسفاره سنة الصوفية ، كان يزعم أنه الوليد بن هشام ابن عبد الملك بن عبد الرحمن الداخل فى الاندلس ، واستمال إليه قبيلة بنى قرة (قبيلة عربية بالبحيرة كرهت تصرفات الخليفة الحاكم بأمر الله لأنه أمعن فيهم بالقتل) وغيرها من القبائل ولكنه هزم على يد أبى الفتوح الفضل بن صالح وقطعت رأسه سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٦ م) وصلب ، وكان قيام هذا الرجل آخر مجهود بذله بنو أمية لاعادة عرشهم .

ابن منجب « الاشارة » ص ٤٣ وانظر O,Leary, A Short History. PP.147—149,152

والعنف ضد الأهلين ، ونهبوا بعض أحياء مدينة القاهرة ، فكان يصبح بذلك حبل الأمن مقطوعا ، خصوصاً عند الاحتفال بعيد غدير خم فى ١٨ ذى الحجة أو غيره من الأعياد والرسوم الشيعية ، كذكرى مقتل الحسين بكربلاء فى ١٠ محرم ، إذ كان يغلق المصريون فى هذه المناسبات حوانيتهم خوفا مما قد يحدث من القلاقل بين أهل الشيعة وأهل السنة .

ولكنهم كانوا بعد قليل يقبضون على ناصية الحال بيد من حديد ، بعد أن ينتقموا من مثيرى الفتن والقلاقل ، فمثلا قبضوا على عبد العزيز بن هيج الكلابى عندما ثار سنة ٣٦١ ﻫ مكبلا فى قفص وسلخوا جلده ثم صلبوه ، مع أن النبى عليه السلام يقول ما معناه « لا تعذبوا الناس ، فان الذين يعذبون الناس فى الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة » (١)

وكان علاجهم فيما تعلق بالمغاربة عند تعديهم على المصريين أن يفصل بينهم فى السكنى ، فكان جوهر لا يبيح للمغاربة سكنى القاهرة ولا المبيت فيها ، وكان مناديه ينادى كل عشية : « لا يبيتن فى المدينة أحد من المغاربة » ، خصوصا عندما أخرجوا الناس من دورهم وشرعوا فى سكنى القاهرة ، فاستغاث الناس بالخليفة المعز لدين الله فأجبرهم على السكنى بنواحى عين شمس ، ثم سمح للمغاربة رويداً رويدا بسكنى المدينة ومخالطة أهل مصر ، بعد أن كان ذلك محرماً عليهم أيام جوهر ، وبذلك خرج المغاربة أيام المعز وبأمره وسكنوا القاهرة ، (٢) بعد أن كانوا ممنوعين من البقاء فى المدينة بعد الغروب اجتنابا لما عساه أن يحدث من الهياج .

أما عقيدتهم فلم ترق يوماً فى أعين السواد الأعظم من السنيين المصريين خصوصاً وأنهم كانوا رافضه ويسبون الصحابة على المنابر أيام الجمع ، ولعلهم كانوا يرون فى تقبيل الأرض بين يدى الخليفة الفاطمى ، وتقبيل يده والارتماء بالسجود له ، والتعبير فى كلامهم عنه بمولانا ، بحيث يضع الواحد

(١) أبو يوسف « الخراج » ص ١٥٠ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٨٧ و ٩٤ و ٥٦

(٢) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج٢ ص ٤٥ و ٤٦ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٩٦

منهم نفسه من الخليفة موضع المولى ، اجتراء على حقوق الله سبحانه وتعالى ولاشك أنهم سخطوا عليهم سخطاً عميقا عندما ادعى بعضهم الربوبية ، ليقول لشعبه إنه بصفته رب الكون والهه ، يملك حق التصرف المطلق فى أعمار خلائقه وأجسادهم وأعراضهم ، وإنه لايناقش الحساب فيما يفعل .

وبذلك استمرت الدولة المصرية سنية أكثر منها شيعيه بالرغم من بذل الحكم الفاطمى أقصى مجهوده لجعلها تشعر بشعوره .

فقد وضعت البذرة الأولى للمذهب الشيعى قبل استقرار الخلافة الفاطمية بمصر فى الغزوات التى لم تقو فيها جيوش العبيديين على غزو البلاد المصرية فقام بعض أنصارهم بنشر الدعوة الشيعية بمصر ووجدوا من المصريين من يعطف عليهم ويعتنق مبادئهم ويميل لمعتقداتهم ، ولما رأى « ذُكا الرومى » والى مصر سنة (٣٠٣ — ٣٠٧ هـ و ٩١٥ — ٩١٩ م) شغف بعض المصريين بهذا المذهب الجديد ، وازدياد أتباعه يوماً بعد يوم ، وما قد يؤدى إليه ذلك فى المستقبل ، عزم على اضطهاد رجاله فسجن عدداً كبيراً منهم ونكّل بهم .

ولكن هذا الاضطهاد لم يفّت فى عضد أنصار المذهب الشيعى ، بل داوموا على نشره وتحبيبه إلى المصريين .

ولما فتح جوهر مصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) واستقل بها عن الدولة العباسية وعن الخليفة العباسى ، طبع سياسة الدولة الجديدة بصبغة دينية عميقة من مفتتح عهدها ، ونشر الدعوة للخليفة المعز لدين الله الفاطمى خاصة ولأهل بيته من العلويين عامة ، وكما منع المهدى « عبيد الله أبو محمد » الفقهاء من أن يفتوا إلا بمذهب اسماعيل بن جعفر الصادق ، بعد أن كان المذهب السائد بأفريقية والقيروان هو المذهب المالكى [١] ، كذلك نجد العبيديين منذ استقرت أقدامهم فى مصر عنوا بتنظيم دعوتهم المذهبية وبثها فى كل مكان ، فكانت تلقى فى الجامع الأزهر أحيانا ، وأحيانا أخرى فى مجالس الحكمة بالقصر ، واحتضنها

(١) ابن عذارى المراكشى « البيان المغرب فى أخبار المغرب » ص ١٥٩

وليدة قاضى قضاتهم ، فنماها وسهر على تربيتها وتعهدها وغذاها «داعى الدعاة» ومعاونوه ، ولكى يضمن العبيديون نجاح تغلب عقيدتهم على المذهب السنى السائد بالبلاد المصرية قبيل قدومهم ، جلب الخليفة المعز لدين الله معه ، مع ما حمل ، عند رحيله لمصر من مكتبته الخاصة بالقيروان عدداً عظيما من الكتب التى تتناول الكلام على المذهب الشيعى ، واستصحب جمعا وافراً من فقهاء الشيعة وأعلامها مثل قاضى القيروان «أبى حنيفة النعمان بن أبى عبد الله محمد بن منصور بن احمد بن حيون» الاسماعيلى المغربى[١] ، هذا الرجل المنتج الذى تحدثنا المخطوطات عنه بأنه كتب كتبا كثيرة فى فقه الشيعة مثل «دعائم الاسلام فى الحلال والحرام»[٢] كتبه فى سبعة أجزاء.[٣] وقال فى مقدمته عن سبب تأليفه له «الحمد لله استفتاحا بحمده ، وصلى الله على محمد رسوله وعبده وعلى الأئمة الطاهرين من أهل بيته أجمعين، أما بعد: فإنه لما كثرت الدعاوى والآراء واختلفت المذاهب والأهواء ، واخترعت الأقاويل اختراعا ، وصارت الأمة شيعا وأفراعا ، ودثر أكثر السنن فانقطع ، ونجم حادث البدع فارتفع ، واتخذت كل فرقة من فرق الضلال رئيسا لها من الجهال ، فاستحلت بقوله الحرام وحرمت به الحلال ، تقليداً له وإتباعا لأمره ، بغير برهان من كتاب ولا سنة ولا باجماع جاء عن الأئمة ... وقد رأينا ... أن نبسط كتابا جامعا مختصراً ليسهل حفظه ، ويقرب مأخذه ، ويغنى ما فيه من جمل الأقاويل عن الإسهاب والتطويل ، نقصر فيه على الثابت الصحيح مما جاء من الأئمة من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من جملة ما اختلف فية الرواة عنهم من دعائم

---

(١) كان من قيروان وكان عالماً فقيهاً متبحراً فى اللغة والشعر ، مات فى مستهل رجب سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) بمصر وصلى عليه المعز لدين الله الفاطمى وهو زعيم اسرة بنى النعمان التى كانت بالمغرب وبمصر دعامة الدولة الفاطمية الروحية . ابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٤٧

(٢) مصور مخطوط بدار الكتب الملكية برقم ١٩٦٦٥ ب

(٣) الجزء الأول فى الولاية من اللوحة ٤ — ٦٥ والثانى فى الطهارة من اللوحة ٦٥ — ٨٤
والثالث فى الصلاة من اللوحة ٨٤ — ١٥٨ والرابع فى الزكاة من اللوحة ١٥٨ — ١٧٦
والخامس فى الصوم « « ١٧٦ — ١٨٩ والسادس فى الحج « « ١٨٩ — ٢٢٠
والسابع فى الجهاد « « ٢٢٠ — ٢٥٦

الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام ، فقد روينا عن جعفر ابن محمد صلوات الله عليه أنه قال : بنى الإسلام على سبع دعائم : الولاية وهى أفضلها ، والطهارة ، والصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والجهاد ، فهذه دعائم الإسلام »[١] .

كذلك كتب النعمان كتاب « الهمة فى اتباع الأئمة » يتضمن طاعة الأئمة أهل البيت ، عليهم السلام ، وله عدة كتب أخرى مما يدل على علو كعبه فى الفقه والدين وعلى توقد قريحته فى التأليف والتصنيف . هذه الكتب الكثيرة المؤلفة فى مذهبهم كانت ثروة لنشر دعوتهم لأنها منشورة سهلة المنال .

كذلك صحب المعز لدين الله معه لمصر « على بن النعمان » الذى جلس سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) بالجامع الأزهر وقرأ مختصر أبيه « شرح الأخبار »[٢] فى فقه آل البيت .

كذلك صحب المعز لدين الله معه لمصر « محمد بن النعمان » شقيق على وغيره من بنى النعمان ، ممن صحبوا المعز عن طيب خاطر وقدموا معه من المغرب لمصر ، وكانوا من أكبر العوامل لنشر مذهب الشيعة بمصر .

ويحدثنا المقريزى[٣] أن الاقبال على حلقات بنى النعمان بالأزهر التى قرأوا فيها علوم البيت ، كان عظيماً ، حتى أن المسبحى مؤرخ الدولة الفاطمية يقول : « إنه فى ربيع الأول سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) جلس القاضى « محمد بن النعمان » بالقصر لقراءة علوم آل البيت على الرسم المعتاد ، فمات فى الزحام أحد عشر رجلا ، فكفنهم العزيز بالله » كذلك تولت تلك الأسرة المغربية النابهة وهى أسرة بنى النعمان ، القضاء بمصر أكثر من نصف قرن .

كذلك صنف « يعقوب بن كلس » كتابا فى الفقه الشيعى يعرف بالرسالة الوزيرية ، تناول فيه الكلام على العقائد الفاطمية ، وكان يجلس فى داره وفى

---

(١) ابن النعمان « دعائم الاسلام فى الحلال والحرام » ورقة ١ و ٢

(٢) مخطوط فوتوغرافى بدار الكتب الملكية رقم ح ٧٠٦٢

(٣) « الخطط » نقلا عن المسبحى ج ٢ ص ٢٢٦ و ج ٤ ص ١٥٦

الجامع الأزهر ويقرأ فقرات منه على الناس خاصتهم وعامتهم ، فهرع لسماعه الفقهاء والقضاة ليفتوا بما فيه [١] .

كما كانت هـــذه « الرسالة الوزيرية » تدرس بالجامع العتيق للطلبة والأساتذة [٢] ، وبذلك كان « ابن كلس » فى رأينا هو أول من فكر فى تحويل الأزهر إلى جامعة ، وإن كان الخليفة العزيز بالله هو أول من ابتنى بجوار الأزهر المساكن لسكنى الطلبة ، فكان ابن كلس يجمع عنده وجوه الدولة وعلماءها يوم الخميس وليلة الجمعة ليقرألهم مؤلفاته [٣] ، وكما عنيت الدولة الفاطمية فى شرح علوم آل البيت وقراءتها للكافة على اختلاف طبقاتهم بفقهاء كان رائدهم بث الدعوة فى المكاتب والمساجد ، وديدنهم غزو الأذهان بطرق منظمة وهى الدعاية العلمية ، كذلك استعانت على بث عقائد المذهب الاسماعيلى بين الناس بالدعاية الأدبية بتشجيع الكتاب والشعراء والعلماء لنشر مذهبهم بالصلات والمناصب وبسلاح التشريع ، هذا السلاح الذى كان فى اعتقادنا أحدّ غزواً وأكثر نفعاً لنشر المذهب الشيعى بمصر ، فكما فضل البطالمة بنى جنسهم الأغريق على المصريين فى الوظائف العامة الهامة ، وكما كتب معاوية إلى واليه بمصر « مسلمة بن مخلد » أن لا يولىّ أحداً بمصر عملا إلا إذا كان أزديا أو حضرميا لأنهم كانوا فى نظره أهل أمانة [٤] ، وكما أسند العباسيون مناصب الدولة الهامة إلى الخراسانيين أنصارهم ومؤسسى دولتهم ، كذلك نجد أن جوهرا الصقلى اتخذ سياسة ترمى إلى احلال المغاربة الشيعيين محل المصريين السنيين فى جميع المناصب الهامة ، لأن المغاربة أنصارهم وأعوانهم الذين قامت

---

(١) ابن منجب الصيرفى « الاشارة إلى من نال الوزارة » ص ٢٢ وابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ٢ ص ٤٤١ والمقريزى « الخطط » ج ٤ ص ٥٧ وعلى مبارك باشا « الخطط التوفيقية » ج ١ ص ١١ — ويقال إنه جمع فى عملها أربعين فقيهاً . ابن منجب « الاشارة » ص ٢٣

(٢) يحيي بن سعيد الأنطاكى « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » ص ١٧٢ و١٧٣

(٣) ابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ٣ ص ٣٩٢

(٤) الكندى ص ٤٢٦

الدولة الفاطمية على أكتافهم حتى قال المقريزى « إن جوهراً لم يدع عملا إلا جعل فيه مغربيا شريكا لمن فيه »[١].

كذلك حتم الفاطميون على موظفى الدواوين بمصر من المصريين أن يعتنقوا المذهب الفاطمى ، كما ألزموا القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب ، ولاشك فى أن من الناس من اعتنقوا المذهب الجديد رغبة فى التقرب من أصحاب السلطة الجدد ، حتى يحفظوا مراكزهم القديمة وثروتهم المجموعة من أجيال ! — ولكن هل قضت هذه الطرق التى قصد بها التهديد والوعيد أحيانا ، عندما أمر مثلا الخليفة « الظاهر على أبو الحسن » فى سنة ٤١٦ هـ (١٠٢٥ م) باخراج الفقهاء المالكية وغيرهم من مصر ، فأخرجوا[٢] ، والتى أريد بها التشجيع والترغيب أحيانا أخرى ، عندما أمر هذا الخليفة الظاهر مثلا الدعاة أن يحفظوا الناس كتاب « دعائم الإسلام » و « الرسالة الوزيرية » وجعل لمن حفظ ذلك مالا[٣] ، نقول هل أفادت هذه الطرق المختلفة فى القضاء على مذهب أهل السنة بمصر ؟ أو بمعنى آخر هل تمكن جوهر ، رجل النزاهة والتضحية ، الذى عرف فيه المغاربة الرجولة الحقة والوطنية المتقدة فأولوه بذلك ثقتهم ، والمعز ذلك الخليفة الحريص كل الحرص على صفته الدينية وعلى مظاهر الامامة ، المعروف بكياسته ولباقته وفكره الصائب ونظره البعيد فتركزت فيه سجايا الشيعة من فطنة وأريحية وهمة شماء ، هل تمكن هذان الزعيمان الخبيران بالسياسة والناس وهما فى الدور الإنشائى المحفوف بالمصاعب والمخاطر لوجودهما فى بيئة سنية قدم عليها العهد فسادت فيه ، من قطع دابر المذهب السنى وابادته من مصر واحلال المذهب الاسماعيلى محله ؟ أم أنهما هما ومن جاء بعدهما من الخلفاء الفاطميين تركوا ذلك للزمن ، واعتقدوا أنه الكفيل

---

(١) الدوادار « زبدة الفكرة » جـ ٥ ص ١٠٧ والنويرى « نهاية الأرب » جـ ٢٦ ورقة ٤١ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٧٨

(٢) المقريزى « الخطط » جـ ٢ ص ١٦٩

(٣) « « جـ ٢ ص ١٦٩

بمعالجة هذا الاشكال ، لأنه يتصل بالاعتقاد الذى لا سبيل للوعظ والإرشاد ولا للوعد والوعيد فيه !

نرجح أنه بقدر ما كانت الظروف مواتية لهم، وبالرغم من أنه كانت بين الشيعة صلة متينة من العطف والتعاون حتى كان التآلف بينهم مضرب الأمثال(١) وبرغم ما كان بين منافسيهم من أصحاب المذاهب السنية من تقاطع وتنابذ فقد ساد المذهب الفاطمى على مذاهب أهل السنة ـ التى كانت منتشرة فى مصر ولها الأغلبية الكبرى قبل الفتح الفاطمى(٢) ـ وصار فقه الطائفة الاسماعيلية

---

(١) كتب أبو محمد العلوى إلى أبى بكر الخوارزمى يقول « إن اعتداده به اعتداد العلوى بالشيعى والمعتزلى بالمعتزلى » . احمد أمين بك « ضحى الاسلام » ج ٣ ص ٩٣ نقلا عن رسائل الخوارزمى ص ٦١

(٢) كان مذهب مالك هو أكثر المذاهب الاسلامية السنية انتشاراً بمصر من فجر الاسلام حتى كاد يصبح المذهب السائد فيها ، اشتهر بمصر لقربها من المدينة ولوجود فريق من الصحابة والتابعين من رواة الحديث فيها ، وكان أول من نشره فيها فى حياة الامام مالك « عثمان بن الحكم الجذامى » المتوفى سنة ١٦٣ هـ (٧٧٩ م) باسكندرية ، والظاهر أن له شريكا قدم معه لمصر هو « عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى » تتلمذ أيضاً على الامام مالك ونشر مذهبه بها ، ثم نشره من بعده بمصر « عبد الرحمن بن القاسم » المتوفى سنة ١٩١ هـ (٨٠٦ م) وهو فقيه مصرى صاحب « مالكا » عشرين سنة ثم « أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسى » المتوفى سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م الذى انتهت إليه الرياسة بمصر بعد « ابن القاسم » وهما بالنسبة للامام مالك كمحمد بن الحسن وأبى يوسف بالنسبة لأبى حنيفة . كما اشتهر من المالكية « روح ابن الفرج أبو الزنباع الزبيرى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) واحمد بن الحارث بن مسكين » المتوفى سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) و« أبو بكر بن الحداد » المتوفى سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) وغيرهم، وبذلك استمر المذهب المالكى معمولا به بمصر مع غيره من المذاهب السنية إلى أن قدم جوهر، فشاع مذهب الشيعة بمصر فى القضاء والفتيا، فلما زالت الدولة الفاطمية وحكمت مصر الدولة الأيوبية عاد المذهب المالكى إلى الانتعاش بمصر مرة أخرى . أما مذهب أبى حنيفة النعمان فلم يتمكن من أن يفوز بالقبول من المصريين إلا قبيل الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩١ هـ و ٨٦٨ — ٩٠٤ م) وإن كانوا قد عرفوه من عهد الخليفة المهدى العباسى (١٥٨ — ١٦٩ هـ و ٧٧٥ — ٧٨٥ م) إذ ولى القضاء من قبله على مصر « اسماعيل بن اليسع » سنة ١٦٤ هـ وكان كوفيا وبذلك فهو أول قاض حنفى بمصر وأول من أدخل إليها مذهب أبى حنيفة، فلما قام هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ و ٧٨٦ — ٨٠٩ م) بالخلافة وولى القضاء أبا يوسف (١١٣ — ١٨٢ هـ و ٧٣١ — ٧٩٨ م) أحد أصحاب أبى حنيفة ، لم يعد يقلد بلاد مصر وغيرها إلا من أشار به القاضى أبو يوسف وبذلك انتشر مذهب أبى حنيفة فى مصر وكان « ابو جعفر الطحاوى » =

ومذهبهم هو المذهب الرسمى المعمول به فى القضاء والفتيا مدة طويلة فى أيام العبيديين ، نقول ساد مذهبهم وعمل به رسمياً مدة طويلة من حكمهم للبلاد المصرية ولا نذهب مع ابن خلدون[1] حيث يقول « انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضة » ، ولا مع السيوطى حينما يقول « فى القرن الرابع الهجرى ملك العبيديون مصر وأفنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاث قتلا ونفياً وتشريداً ، وأقاموا مذهب الرفض والشيعة ، ولم يزولوا منها إلا فى أواخر القرن السادس الهجرى ، فتراجعت إليها الأئمة من سائر المذاهب »[2] لأننا سنبرهن بالبرهان القاطع فيما يلى من السيوطى نفسه على أن مذاهب السنة أيام الفاطميين عاشت جنبا لجنب مع مذهب الفاتحين ، ولكن لا بالسيادة ولا بالوضوح والرسمية التى كان يتمتع بها مذهب العبيديين ، ولكنها عاشت ، وكفى !

= نسبة لبلده طهامن أعمال المنيا بالوجه القبلى) (٢٢٩ — ٣٢١ هـ و ٨٤٣ـ٩٣٣ م) إمام الحنفية بمصر ، واستمر هذا المذهب أيضاً متبعا فى القضاء والفتيا بمصر حتى استولى عليها الفاطميون وعندئذ فشا مذهب الشيعة الاسماعيلى ولكنه عاد إلى الانتعاش بقيام الدولة الأيوبية بمصر .

ولما نزل الامام الشافعى بالفسطاط سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ م) على بنى عبد الحكم ، أخذ عنه جماعة من بنى الحكم واشهب وابن القاسم وابن المواز وغيرهم ثم الحارث بن مسكين وابنيه ذاع مذهبه بها أيضا وعمل على أن يخلق الأتباع لينصروه ويحببوه إلى المصريين ، فكان « الربيع ابن سليمان المرادى » (١٧٤ — ٢٧٠ هـ و ٧٩٠ — ٨٨٣ م) امام الشافعية بمصر كما كان « أبو زرعة محمد بن عثمان » الدمشقى المتوفى سنة ٣٠٢ هـ (٩١٤ م) أول من ولى القضاء بمصر من الشافعية واستمر المذهب معمولا به حتى حكم الفاطميون مصر ، فساد مذهبهم الاسماعيلى ، فلما ذهبت دولتهم فشا الفقه الشافعى لأن بنى أيوب كانوا شافعية .

أما مذهب ابن حنبل فانه لم يظهر بمصر ظهورا واضحا إلا فى القرن السابع الهجرى ، ومع ذلك وجد بمصر فقهاء على المذهب الحنبلى كالفقيه « عبد العزيز ابن احمد بن جعفر (٢٨٢ـ ٣٦٣ هـ و ٨٩٥ — ٩٧٣ م) الذى صنف كثيراً من المصنفات مثل كتاب المقنع فى مائة جزء والثانى فى ثمانين جزءاً ، وغيرها .

(١) ابن خلدون « المقدمة » (طبعة المطبعة الأميرية سنة ١٣٢٠) ص ٤٢٤

(٢) السيوطى « حسن المحاضرة » ج ١ ص ٢٠٥

وعاش فقهاؤها من الأئمة زمناً فى كنفهم وتحت رعايتهم .

وإن يكن منحى الفقه السنى يشبه منحى الفقه الشيعى فى إعتماد كل على القرآن الكريم — عماد التشريع الأول فى الإسلام وأساس الأصول التى يرجع إليها فقهاء الأمة الإسلامية فى استنباط الأحكام الشرعية — وعلى السنة الشريفة (١) — عماد التشريع الإسلامى الثانى وهى كل ما صدر عن النبى عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير — لكن هناك خلافاً فى الأصول والفروع إذا كانت لاتتمشى مع العقائد الشيعية ، فقد أنكر الشيعة « الاجماع العام » كأصل من أصول التشريع حتى لا يأخذوا باقوال غيرهم ، فى حين أخذ أهل السنة به ، واعتقدوا بأن المجتهدين من الأئمة معصومون من الخطأ إذا اتفقت كلمتهم على حكم مستفاد من القرآن الكريم أو السنة الشريفة أوالقياس ، ولأن الأمة الإسلامية لا تجمع فى اعتقادهم على ضلالة كما شهد لها النبى عليه السلام بذلك (٢) .

أما الأمامية السبعية (الاسماعيلية) والأمامية الاثنا عشرية فهم يعتبرون أقوال أئمتهم نصوصا شرعية ، ولا يعترفون بأن الاجماع والقياس من أدلة التشريع ، بل عندهم أن الأحكام لا توضع بالاجتهاد والرأى وإنما تتلقى من قبل الإمام المعصوم ، لذلك كانت أقوال الأئمة عند الشيعة بمثابة نص الشارع وعلى ذلك تكون مصادر تشريعهم مستمدة من الكتاب الكريم (آيات الأحكام) والسنة الشريفة (أحاديث الأحكام) وفتاوى أئمتهم .

وكما أنكر الشيعة « الاجماع العام » أنكروا أيضا كما رأينا « القياس » لأنه رأى والدين عندهم لايؤخذ بالرأى ، وإنما يؤخذ من الله عز وجل ومن

---

(١) التى تصح لهم من طرق أهل البيت عن جدهم ، يعنى ماوراه الصادق عن أبيه الباقر عن أبيه زين العابدين عن الحسين السبط عن أبيه أمير المؤمنين عن رسول الله سلام الله عليهم جميعا ، أما ما يرويه مثل أبى هريرة وغيره فليس لهم عند الشيعة من الاعتبار مقدار جناح بعوضة . العلامه الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء « كتاب أصل الشيعة وأصولها » ص ٩٣ و ٩٤

(٢) الشهرستانى « الملل والنحل » ص ٣٧

نبيه صلى الله عليه وسلم ومن الأئمة المعصومين ، وقد تواتر عن أئمتهم أن الشريعة إذا قيست محى الدين (١) فى حين أخذ به أهل السنة لأن النبى صلى الله عليه وسلم أرشد الناس إليه فى حياته بأقواله وأفعاله ، ولأنه فى أكثر حالاته مستمد من القرآن والسنة ومقتبس من الأصول والأحكام والمبادىء الواردة فيها .

كذلك اختلفت الشيعة وأهل السنة فى فهم القرآن ، فكان للشيعة تأويلات فى بعض الآيات خاصة بهم لا يقرها عليهم أهل السنة ، كذلك اختلفا فى الحديث فروى الشيعة بعض أحاديث عن أئمتهم أنكرها عليهم أهل السنة فضل الشيعة عليا ونسب الغلاة منهم إلى النبى صلى الله عليه وسلم أحاديث تشهد بما لآل على من حرمة وبما لعلى من حق فى الامامة بعد الرسول ، وفضل أهل السنة أبا بكر وعمر ، وابتدأ كل فريق يعدد الفضائل بالحق والباطل لرفعة صاحبه .

وكان فى مصر والشام كثير من الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية يستنكرون التشيع فى تحفظ أيام الدولة الفاطمية ، لأن الدولة للتشيع ، فيحدثنا

---

(١) العلامة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء « كتاب أصل الشيعة وأصولها » ص٩٣ — ولا ننسى الحوار المشهور الذى وقع بين جعفر الصادق وأبى حنيفة ، فقد سأل الأول الثانى: « ما الذى تعتمد عليه فى الفتيا ؟ قال : كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم » قال فاما لم تجد له نصا فى ذلك ؟ قال أقتبسه على ماوجدته ، قال ويحك يانعمان إن أول من قاس ابليس فأخطأ ، قال خلقتنى من نار وخلقته من طين ، فرأى أن النار أشرف من الطين ، وان من خلق من الفاضل لايسجد للمفضول ، ثم قال يانعمان : « أيهما أطهر عندك البول أو المنى ، قال المنى ، قال فكيف جعل الله عز وجل فى البول الوضوء وفى المنى الغسل وهو الأطهر ؟ قال : أيهما أعظم الزنا أم القتل قال : القتل ، قال فقد جعل الله عز وجل فى قتل النفس شاهدين إذا شهدا بالقتل على انسان قتل إذا طلب ولى الدم ولا يحد من شهد عليه بالزنا إلا أن يشهد عليه أربعة ، ولو كان الدين جاريا على القياس لكان القتل أقوى ، الذى هو أعظم يكون الشهود فيه أكثر ، وأيهما أعظم الصلاة أم الصوم ؟ قال الصلاة ، قال فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الحائض أن تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ، ولو كان على القياس لكان الذى هو أعظم وأحق أن تقضى ، فسكت أبو حنيفة ولم يحر جوابا

وأوجب الزكاة فى خمس من الأبل وأسقطها عن عدة آلاف من الخيل ، وقطع يد السارق ولم يقطع مثلا لسان القاذف ، وأباح للرجل أن يتزوج أربعا ولم يبح المرأة إلا رجلا واحداً ، وهكذا . ابن النعمان « شرح الأخبار » ج ١٣ ورقة ٤٢ و ٤٣

السيوطى (١) أن « أبا بكر محمد النعالى ، المتوفى سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) كان إمام المالكية بمصر فى عهده ، وكانت حلقته فى جامع الفسطاط تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها ، بعد أن كان للمالكيين فى سنة ٣٢٦ هـ (٩٣٨ م) فى المسجد الجامع خمسة عشر حلقة ، وللشافعيين مثلها ، ولأصحاب أبى حنيفة ثلاث حلقات فقط (٢) . قلنا إن المذهب السنى لم يمت فى مصر فى العصر الفاطمى حتى فى أيام قوة خلفائهم وازدهار مملكتهم ، يؤيدنا فى ذلك أن الفاطميين أنفسهم لما قدموا لمصر تألفوا أهل السنة والجماعة ، فبنى « الحاكم بأمر الله » مثلا داراً للعلم ونقل إليها كتب السنة ، وأجلس فيها الفقهاء ليقرأوا فضائل الصحابة (٣) ، وسمح الفاطميون لأهل السنة أن تكون لهم حلقات فى المسجد الجامع ، وزوايا يدرس بها الفقه على مختلف مذاهبهم ، وكانت لكل فقيه منهم زاوية يجرى عليه الرزق فيها ، حتى بلغت حلقاتهم العدد الكثير (٤) . ويحدثنا القلقشندى (٥) بـ « أن مذاهب مالك والشافعى واحمد كانت ظاهرة فى مملكتهم (أى مملكة الفاطميين) ، وأن من سألهم الحكم بمذهب مالك أجابوه » ، ويؤيدنا فى رأينا السالف الذكر أمان جوهر للمصريين (٦) ، الذى يعتبر بحق وثيقة هامة للكشف عن غايات السياسة الفاطمية وأصولها المذهبية ، وفيه يقول للمصريين إن أمير المؤمنين أى (المعز لدين الله) يطلب « ... أن أجيزكم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم » ... يقول فى موضع آخر فيه « إن الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهى إقامتكم على مذهبكم

---

(١) « حسن المحاضرة » ج ١ ص ٢١٢

(٢) متز ص ٣٥١ نقلا عن ابن سعيد « المغرب » ص ٢٤

(٣) السيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ١٥١

(٤) وانظر O, Leary, A Short History, pp: 139—140

(٥) « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٥٢٤ والمقريزى « الخطط » ج ٤ ص ٢٠ و ٢١

(٦) انظر الأمان فى الدوادار « زبدة الفكرة » ج ٤ ص ١٠٤ والنويرى « نهاية الأرب » ورقة ٣٩

وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم وفقهاء الأنصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم » [1] وهذا يتفق واستشهادهم بالآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون » [2].

كل هذا لأن المصريين حرصوا من أول الأمر على سنيتهم ، فاشترطوا عند مفاوضة جوهر لتسليم بلادهم حرية العقيدة بحيث لا يجبرون على التشيع . لا شك أيضاً فى أن المذهب الاسماعيلى غزا تلك المذاهب السنية فى عقر دارها وقلب لها ظهر المجن ، وكانت مقاومته لها تشتد حينا وتضعف حينا آخر ، ففى سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) قبض جوهر على عجوز عمياء تنشد فى الطريق مديحا للصحابة لحبسها ، ثم اضطر لإطلاق سراحها عندما قامت المظاهرات السنية العدائية من أجلها هاتفة بأن « معاوية خال على » [3].

كذلك نرى أنها لم تشتد على تلك المذاهب السنية بدرجة واحدة ، فبينما كانت الدولة الفاطمية تشتد فى محاربة المالكية إشتداداً عنيفاً حتى أنه مثلا فى سنة ٣٨١ هـ (٩٨٩ م) أيام الخليفة العزيز بالله ضرب رجل بمصر وطيف به فى المدينة ، لأنه وجد عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس [4]، نجد أن مذهب الحنفية بفضل مرونته كان أكثر المذاهب السنية ملاءمة للحكومة الفاطمية ولعل المقدسى خير من يشرح لنا ذلك ، فقد سئل عن سبب تفقهه لأبى حنيفة مع أنه شامى وأهل ناحيته أصحاب حديث يتفقهون على مذهب الشافعى

---

(١) ابن خلدون « العبر » ج ٤ ص ٥٦ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٦٩

(٢) الآية ١٠٥ من سورة المائدة رقم ٥ — وقد استشهد بها الحاكم بأمر الله مثلا فى سجل رمضان سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٢ م)

(٣) المقريزى « اتعاظ الحنفا » (طبعة ١٩٠٨ م) ص ٨٧

(٤) المقريزى « الخطط » ج ٤ ص ١٥٧

فأجاب بأنه « استحسن مذهب أبي حنيفة لخلال، منها اعتماد أبي حنيفة على قول علي رضى الله عنه الذى قال عنه النبي عليه السلام أنا مدينة العلم وعلى بابها فمن أراد العلم فليأت بابه [١] » .

وكذلك كان أبو حنيفة أقدم الأئمة وأقربهم إلى الصحابة وأورعهم وأعبدهم، وقد رويت التوصية بالعتيق [٢]، ولعلهم اشتدوا أحيانا على غير أصحاب أبي حنيفة لأن مذهبي كل من مالك والشافعى كانا قد حلا من قلب الجمهور المصرى المكان الأول، فأريد عمل إجراء حاسم فى إبطالهما أو إضعافهما، ويظهر لنا أن غض الفاطميين عن المذهب الحنفى لم يكن إلا لأنه مذهب الدولة العباسية المناوئة لهم فى المشرق.

وكانت مقاومة الشيعة تشتد وتلين على السنيين بمصر بحيث لا يتكدر صفو الأمن بالبلاد، فقد سمحوا للسنيين أحيانا يتولى منصب القضاء بشرط خضوعهم للمذهب الاسماعيلى، أحد مذاهب الشيعة الذى عمل به رسمياً من سنة ٣٥٨ إلى سنة ٥٢٧ هـ (٩٦٨ — ١١٣٢ م)، فقد ذكر ابن حجر [٣] أنه لما قتل القاضى « مالك بن سعيد الفارقى » لأربع بقين من شهر ربيع الأول سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م)، وخلا منصب القضاء ثلاثة أشهر وثلاثة وعشرين يوما أى إلى العشرين من شهر شعبان، تقلده أبو العباس بن العوام الحنبلى المذهب [٤] .

---

(١) ابن الأثير « أسد الغابة » ج ٤ ص ٢٢ وأبو الفدا « البداية والنهاية فى التاريخ » ص ٣٥٨ .

(٢) المقدسى ص ١٢٧ — ولعل ميل الشيعة إلى مذهب أبي حنيفة يرجع الى أن أبا حنيفة كان أميل فى الفتنة التى قامت بين العلويين والعباسيين إلى محمد بن عبد الله (النفس الزكية) وأخيه ابراهيم بن عبد الله العلوى، وكان يرى أن محمدا أحق بالخلافة، وأنه كان ناقما على العباسيين سطوتهم وشدتهم . ابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ١ ص ١٤٦

(٣) « رفع الأصر عن قضاة مصر » ورقة ٢١٤ ب

(٤) هو احمد بن محمد بن أبي العوام الحنبلى ولد بمصر سنة ٣٤٩ هـ (٩٦٠م) ومات فى ربيع الأول سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) وقد ولى القضاء فى سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) أيام الحاكم بأمر الله بعد مقتل مالك بن سعيد الفارقى القاضى بشهرين أو ثلاثة. الكندى ص ٦١٠ و ٦١١

وحدثنا الدكتور حسن إبراهيم حسن [١] نقلا عن ابن حجر [٢] عن الظروف التى تقلد فيها ابن العوام الحنبلى ، فقال : « وكان قد قدم مصر رجل مكفوف يقال له أبو الفضل جعفر من أهل العلم بالنحو واللغة ، قدم على الحاكم بأمر الله فأعجب به وخلع عليه وأقطعه أقطاعاً ولقبه عالم العلماء وجعله يجلس فى دار العلم التى أنشأها ليدرس للناس اللغة والنحو ، فخلا به الحاكم فجمل يسأله عن الناس واحداً واحداً من يصلح منهم للقضاء وكان الحاكم بأمر الله عارفاً بهم . . فلم يزل يذكر حتى وقع الاختيار على أبى العباس بن العوام الحنبلى » فقيل للحاكم بأمر الله ليس هو على مذهبك ولا على مذهب من سلف من آبائك فقال : هو فقيه مأمون مصرى « عارف بالقضاء وبأهل البلد ، وما فى المصريين من يصلح لهذا الأمر غيره » .

ويزيدنا ابن حجر [٣] بابن العوام معرفة بقوله إنه تقلد القضاء بمصر وخلع عليه وجعل له النظر فى العيار ودار الضرب والصلاة والموازين والمساجد ، وأضيفت إليه فى الأحكام بمصر برقة وصقلية والشام والحرمان ما عدا فلسطين ، فان الحاكم بأمر الله قد ولاها أبا طالب بن بنت الزيدى الحسينى ، ولما كان أبو العباس بن العوام حنبلياً على غير المذهب الشيعى فقد اشتمل سجله الذى قرىء فى القصر وعلى منبر الجامع العتيق على فقرة شرط فيها عليه أن يصدر أحكامه طبقا لقانون الشيعة ، وأن يكون معه فى مجلس القضاء أربعة من القضاة (لاشك فى أنهم كانوا من الشيعة) ، عينوا من قبل الخليفة ليراقبوا أنه يقضى بمذهب الاسماعيلية ، وقد استمر أبو العباس ابن العوام قاضيا بالبلاد المصرية حتى مات [٤] فى عهد الخليفة الظاهر « على أبى الحسن » .

---

(١) « الفاطميون فى مصر » ص ١٩١
(٢) « رفع الأصر » ورقة ٤٣ ب وما بعدها
(٣) « « ورقة ٤٤ ب
(٤) الكندى ص ٦١٠ — ٦١٢

كذلك ترك الشيعة لعلماء السنة حلقات التدريس التى كانت لهم قبل قدومهم لمصر بالجامع العتيق [١]، ولقد حدثنا السيوطى [٢] عمن كان بمصر من فقهاء المالكية فى أيام العبيديين ، وأن منهم من حدث وتفقه عليه خلق عظيم ومنهم من ألف فى فضائل مالك ، ومنهم من شرح المدونة وهو جالس فى حلقة المالكية بالجامع .

وأن أبا الطاهر محمد بن عبد الله البغدادى المالكى المذهب المتوفى سنة ٣٦٧ ﻫ (٩٧٧ م) ولى قضاء الديار المصرية واستناب على دمشق ، وكانت له تصانيف [٣] .

وأن « أبا القاسم الجوهرى عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد الغافقى » المصرى الفقيه المالكي صنف مسند الموطأ ، وتوفى سنة ٣٨١ ﻫ (٩٩١ م) [٤]

وأن « عبد الجليل بن مخلوف » الفقيه المالكى قال ابن ميسر عنه إنه أفتى بمصر أربعين سنة ومات بها سنة ٤٥٩ ﻫ (١٦٦١ م) [٥] .

وأن « أبا القاسم بن مخلوف» الاسكندرى المتوفى سنة٥٣٣ ﻫ (١١٣٨م) كان من أئمة كبار المالكية ، وتفقه عليه أهل الثغر زماناً [٦] .

وأن صدر الإسلام « أبا الطاهر إسماعيل بن مكس بن عيسى بن عوف الزهرى » الإسكندرانى المتوفى سنة ٥٨١ ﻫ (١١٨١ م) قصده صلاح الدين وسمع منه الموطأ ، وله مصنفات [٧] .

فهذه الأمثلة تدل دلالة قاطعة على أن الفاطميين لم يستأصلوا شأفة المالكيين بمصر ، بل سمحوا بوجودهم وعملوا على استفادة أهل مذهبهم منهم ، بتركهم

---

(١) المرحوم محمد الخضرى بك « تاريخ التشريع » ص ٣٥٣ نقلا عن المقريزى

(٢) « حسن المحاضرة » ج ١ ص ١٩١—١٩٣

(٣) « « ج ١ ص ١٩٢

(٤) السيوطى « حسن المحاضرة » ج ١ ص ١٩١

(٥) « « « « ١٩٢

(٦) « « « « ١٩٢

(٧) « « « « ١٩٢

أحراراً يعملون فى بيئتهم الشيعية ، فلم يستتروا ولم يتظاهروا بالمذهب الشيعى بل تمسكوا جهراً بمذهبهم السنى ، واعتزوا به حتى لدى أهل الشيعة أنفسهم فقد ذكر السيوطى [١] أن «أبا العباس احمد عبد الله بن احمد بن هشام بن الحطيئة» الفاسى اللخمى المتوفى سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م) ، [٢] عرض عليه القضاء لما شغرت مصر من قاض ثلاثة أشهر فى سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) أيام الخليفة الحافظ ، فاشترط ألا يقضى بمذهب الدولة ، فأبوا وتولى غيره القضاء .

أما ما ذكره السيوطى [٣] من أن الخليفة الفاطمى امتحن القاضى المالكى «أبا بكر الطرطوشى محمد بن الوليد» المتوفى سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) والذى كانت له تصانيف كثيرة فى المذهب المالكى ، وأخرجه من الإسكندرية ومنع الناس من الأخذ عنه ، وأن الأفضل وزير هذا الخليفة أنزله فى موضع لا يبرحه ، فانما كان ولا شك لدفع خطر عن مذهبهم الاسماعيلى .

كذلك حدثنا السيوطى [٤] عن فقهاء الحنفية بمصر فاستلفت نظرنا أن «عبد الله بن سعد الله الجريرى» المعروف بابن الشاعر الحنفى المذهب والمولود ببغداد سنة ٥١٣ هـ (١١١٩ م) والذى صحب صلاح الدين بن أيوب عند قدومه لمصر ، أقام يفتى ويدرس بالمدرسة السيوفية إلى أن مات سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨) [٥] .

وحدثنا السيوطى [٦] أيضا من عدد كبير من قضاة وفقهاء شافعيين بمصر أيام الفاطميين ، منهم من ناظر تحت سمع الدولة الشيعية وبصرها ، ومنهم

---

(١) السيوطى «حسن المحاضرة» ج ١ ص ١٩٢ و ١٩٣

(٢) ولد هذا القاضى فى جمادى الآخرة سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) وانتقل الى الديار المصرية وسكن مصر ومات بها سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م)

(٣) « حسن المحاضرة » ج ١ ص ١٩٢

(٤) » » ج ١ ص ١٩٧

(٥) » » ج ١ ص ١٩٧

(٦) » » ج ١ ص ١٦٨ — ١٧٠

من كانت له مصنفات ، ومنهم من كان يقرأ عليه نفر كثير ، بل منهم من ولى القضاء زمن الفاطميين دون أن ينص صراحة على أنهم اشترطوا عليه أن يحكم بمذهبهم الاسماعيلى ، فقد تولى القاضى الشافعى «أبو الحسين يحيى اللخمى» [١] المعروف بالمقدسى [٢] قضاء الاسكندرية ومات سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) .

كذلك تولى القاضى «أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى» [٣] الشافعى المذهب ، وصاحب الشهاب والخطط ، وغيرهما قضاء الديار المصرية وقد توفى سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) .

كذلك تولى القاضى «أبو الحسن على بن الحسين» [٤] المعروف بالخلعى [٥] الشافعى المذهب [٦] ، المولود سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) والمتوفى بها سنة ٤٩٣ هـ (١٠٩٨ م) ، قضاء الديار المصرية يوماً واحداً ثم استعفى .

وتولى أيضا القاضى «أبو المعالى مجلى بن جميع بن نجا» [٧] الشافعى المذهب ومؤلف كتاب «أدب القضاء» وكتاب «الذخيرة فى الثقة» قضاء الديار المصرية سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) وعزل سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤م) ومات سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) .

كما تولى القاضى «أبو محمد عبد الله بن رفاعة بن غدير» الشافعى [٨] المذهب المولود سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) والمتوفى سنة ٥٦١ هـ (١١٦٥ م) قضاء الجيزة .

---

(١) «حسن المحاضرة» جـ ١ ص ١٧٠

(٢) سمى بذلك لأنه تفقه على الشيخ نصر المقدسى وحدث عنه

(٣) السيوطى «حسن المحاضرة» جـ ١ ص ١٦٩

(٤) « « جـ ١ ص ١٦٩ و ١٧٠

(٥) سمى بذلك لأنه كان يبيع الخلع لخلفاء مصر

(٦) كان من فقهاء الشافعية بمصر هو ووالده المتوفى سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦ م)

(٧) ابن ميسر «أخبار مصر» جـ ٢ ص ٩١ و ٩٢ والسيوطى «حسن المحاضرة» جـ ١ ص ١٧٠ والقلقشندى «صبح الأعشى» (طبعة ١٣٣١ هـ) جـ ١١ ص ٧٣

(٨) السيوطى «حسن المحاضرة» جـ ١ ص ١٧٠

قلنا إن الفاطميين جذبوا المصريين إلى اعتناق مذهبهم الإسماعيلي ومهدوا لنشره بينهم بكل الطرق الممكنة وغير الممكنة ، فألفوا من أجل ذلك عدة كتب فيه ، وأذنوا لعلمائهم أن يقوموا بتدريسه فى الجامع الأزهر الذى أنشأوه ، وشجعوا العلماء والطلاب على الإقبال على دراسته بمنحهم موظفات شهرية ، وعمل قاضى القضاة[١] وبذل داعى الدعاة كل مافى وسعهما على نشره بكافة الطرق ، ومع ذلك فقد عاشت المذاهب السنية فى ظل الدولة الفاطمية كما رأينا ، وتبوأت منصب القضاء فى الدولة الشيعية ، واشترط عليهم الفاطميون أحيانا ألا يقضوا إلا بالمذهب الإسماعيلى (مذهب الدولة الشيعية الرسمى) ، وأحيانا كان يغفل ذكر هذا الشرط صراحة كما ذكرنا ، فإذا ذكر لهم ذلك صراحة كان لهم الخيار إما أن يهملوا القضاء بمذهبهم السنى ليقضوا فيما يعرض عليهم من المسائل والأقضية بمذهب الدولة الرسمى ، وإما أن يتخلوا عن القضاء ويعتزلوه كما فعل « أبو العباس ، أيام الخليفة الحافظ[٢] .

ولقد رأينا أن المذهب الشيعى كان رفيقا أحيانا بمعاملة من حوله من أصحاب المذاهب السنية الأخرى أيام الفاطميين ، وكان إذا نشب بينهم وبينه نزاع طائفى لايلبث أن يزول ، إذ كانوا يعتقدون أن منبع فقههما واحد ألا وهو الكتاب الكريم والسنة الشريفة ، ولذا كان يجامل بعضهم بعضا ، فلقد ذكر السيوطى مثلا أن « أبا العباس أحمد ابن محمد الديبلى » الفقيه الشافعى عندما توفى بمصر فى رمضان سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م) أيام العزيز بالله « لم يبق بمصر أحد إلا حضر جنازته »[٣] وأن القاضى « عبد الوهاب بن على بن نصر بن محمد البغدادى » المالكى المتوفى سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣٠ م) تولى القضاء ببغداد وما حولها ، ثم تحول لضيق ذات يده إلى مصر الفاطمية الشيعية ، « فأكرمت

---

(١) أدخل الفاطميون هذه الوظيفة بمصر بعد أن كانت قاصرة على القاضى الأكبر ببغداد (دار الخلافة الفاطمية) . المقريزى « الخطط » ج ١ ص ٤٠٣ و ج ٢ ص ٣٣٤

(٢) ابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٨١ و ٨٢

(٣) السيوطى « حسن المحاضرة » ج ١ ص ١٦٩

وفادته أيام الخليفة الظاهر حتى تبدل عسره يسرا ، ونعم بحياة هادئة سعيدة[١]

كل هذا يؤيد رأينا فى أن الفاطميين لم يفنوا من كان بمصر من أئمة المذاهب نفياً وتشريداً وقتلا ، ولم يقطعوا دابر تلك المذاهب السنية ، لأنهم علموا (وقد تمسك الجمهور المصرى بها ولا سيما بمذهبى مالك والشافعى) ، أن من حسن السياسة أن يتحببوا إليهم ويعطفوا على أئمتهم وقضاتهم ويشجعوهم .

وتحدثنا المصادر التاريخية المخطوطة[٢] أن جوهراً عندما أمر القاضى السنى أن يورث البنت على مذهب الشيعة ، قال له « لا أفعل » ، وطبق قانونه السنى ، ورأينا هذا يمكن أن نبرهن عليه بوقائع حدثت فى أول حكم الفاطميين وأواخر حكمهم ، إذ لما وصل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر وجد جوهراً مولاه وقائده قد استخلف على القضاء « أبا الطاهر محمد بن احمد بن عبد الله الذهلى »[٣]، القاضى السنى المالكى على أيام كافور — فأقره[٤] وسمح له أن يصدر حكما يغاير مذهبه الاسماعيلى فى حمام ، بالرغم من تظلم المدعى بعد رفض دعواه للخليفة المعز لدين الله واحتجاجه لديه بأن القاضى حكم بمذهب يغاير مذهب الدولة الرسمى ، فقد وقع المعز لدين الله بخطه هذه العبارة التى لم أجد أقوى منها فى تأييد رأينا هذا حيث قال : « يمضى فى الحمام ما حكم به محمد بن احمد »[٥] (أى أبو الطاهر الذهلى) وهذا مثل ظاهر ناطق بأن الفاطميين سمحوا فى أول عهد حكمهم بأن يحكم القاضى السنى أحيانا بمذهبه السنى[٦].

---

(١) السيوطى « حسن المحاضرة » ج ١ ص ١٢٦

(٢) الدوادار « زبدة الفكرة » ج ٥ ورقة ١٠٧ و ١٠٨

(٣) ولد فى شعبان سنة ٢٨٠ هـ (٨٩٣ م) واستقضاه الخليفة العباسى المتقى لله سنة ٣٢٩هـ (٩٤٠م) ، ولم يزل على القضاء ينظر حتى قدم جوهر فأقره ، ولما وصل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى لمصر خلع عليه وأقره ، وقد صرف هذا القاضى السنى فى ٢ صفر سنة ٣٦٦هـ (٩٧٦ م) ومات فى ذى القعدة سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) . الكندى ص ٥٨١ و ٥٨٤ والنويرى « نهاية الأرب » ج ٢٦ ورقة ٤٥ و ٤٦

(٤) ابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٤٧

(٥) الكندى ص ٥٨٧ و ٥٨٨ وابن حجر « رفع الأصر » ورقة ١٣٣

(٦) لكنه الزم فى أواخر عهده أن يصدر أحكامه وفق المذهب الشيعى . الكندى ٤ ص ٥٨

ولما ازدادت الدولة الفاطمية ضعفا فى أواخر حكمها، تولى القضاء سنيون وحكموا بمذهبهم السنى دون مذهب الدولة الرسمى الاسماعيلى ، فقد ذكر ابن ميسر (١) ان « أبا على احمد بن الأفضل ، (٢) ابن أمير الجيوش بدر الجمالى رتب أيام الخليفة الحافظ لدين الله فى سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) فى الحكم أربع قضاة يحكم كل قاض بمذهبه ويورث بمذهبه ، وكان المالكية « الفقيه الليثى » وللشافعية « الفقيه سلطان » ، وللاسماعيلية « الفقيه أبو الفضل ابن الأزرق » وللامامية « الفقيه ابن أبى كامل » ، لتشبث المصريين بمذهبي مالك والشافعى وعدم انتحال معظمهم المذهب الاسماعيلى ، وهى أول مرة يتعدد فيها القضاة فى الإسلام وفى مصر (٣) ، وأسقط ذكر اسماعيل بن جعفر الصادق المنسوبة

---

(١) « تاريخ مصر » ج ٢ س ٧٤ والمقريزى « الخطط » ج ٢ س ٣٤٣

(٢) وزير يدين بمذهب الامامية الاثنا عشرية عين قاضيا أماميا ، وفى « النجوم الزاهرة » لأبى المحاسن أنه كان سنيا ، لذا أسقط من الآذان « حى على خير العمل » ٠ النسخة الفوتوغرافية القسم الأول من ج ٣ ورقة ٣ و ٤

(٣) أوجد هذا التعدد الفوضى فى الأحكام ، خصوصا وقد تعددت الأقوال فى المذهب الواحد إذ منها الأقوى والقوى والضعيف والأرجح والراجح ، فقد يعقد المتبايعان عقد البيع ويصعب أن يعقداه مستوفياً جميع شرائط الصحة على جميع هذه المذاهب مع تعددها فى ذاتها وتعدد الأقوال فى المذهب الواحد ، فمتى وجد عند أحدهما ما يبعث على فسخ العقد رفع الأمر إلى القاضى الذى يرى فساده ، (إذ للمدعى الخيار فى أن يذهب إلى أى قاض أراد جريا على بعض الأقوال من أن الخيار للمدعى) فيفسخه لأن كل قاض يحكم بمذهبه ٠

وما قيل فى عقد البيع يقال فى غيره من باقى العقود ، فقد كان الرجل يغيب عن زوجته شهراً وشهرين فترفع الزوجة أمرها إلى القاضى الذى يرى فسخ الزواج لغيبة الرجل مسافة القصر عن زوجته بلا نفقة ولا منفق ، ولا تعدم شاهدين يشهدان لها بذلك ، وربما كانت شهادتهما مخالفة للواقع ، فيفرق القاضى بين الزوجة وزوجها والزوج لا يعلم بشىء من ذلك كله ، فيعود فيجد زوجته عند غيره ، فتتولد فى القلوب الشحناء والبغضاء ، ويشتد الحقد وربما وقعت بسبب ذلك فتن جسيمة الضرر .

انظر أمثلة لذلك للخضرى بك « تاريخ التشريع الاسلامى » ص ٢٨٧ وما بعدها والشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية سابقا « تخصيص القضاء » بحث منشور فى مجلة الأحكام الشرعية السنة الثالثة عشر س ٤٢

إليه الاسماعيلية ، وعبارتهم «حي على خير العمل» لأنه كان سنياً كأبيه [١].

ولقد رأينا فيما سبق أنه لما قلد «أبو المعالي مجلي بن جميع بن نجا» سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) قضاء القضاة عمل بمذهبه الشافعي وحده ، وأهمل مذهب الدولة الاسماعيلي الرسمي [٢].

ولما ولي صلاح الدين يوسف بن أيوب الملقب بالملك الناصر ، وزارة العاضد «عبدالله أبي محمد» آخر خلفاء الفاطميين ، أزال مظاهر الدولة الاسماعيلية ومحى دولة الرفض والشيعة ، فهدم في سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) دار المعونة بمصر وعمرها مدرسة للشافعية بجانب المشهد الحسيني ، وأنشأ مدرسة أخرى للمالكية عرفت بالقمحية ، وحول دار عباس الوزير الفاطمي إلى مدرسة سيف الدين ، لتدريس المذهب الحنفي وعزل قضاة مصر الشيعيين في ٢٢ جمادى الثانية سنة ٥٦٦ هـ ، وقلد «صدر الدين بن عبد الملك بن درباس» الكردى الشافعي سنة ٥٦٦ هـ قضاء القضاة بالقاهرة ، وجعل له الحكم في اقليم مصر كله بعد أن صرف ابن كامل وعين بدل الشيعة قضاة من السنيين الشافعية الذين كان يدين بمذهبهم ، بعد أن صرف قضاة الشيعة كلهم وأبطل الخطبة والتدريس من الجامع الأزهر رغبة في إزالة كل أثر للفاطميين ، وبذلك أخذ المصريون يرجعون إلى المذهب السني الذى كانت له السيادة قبل الدولة الفاطمية ، وأصبح الشيعة يتظاهرون بمذهبي مالك والشافعي المحببين للمصريين ليبعدوا عنهم الانتقام [٣]

---

(١) ابن ميسر «أخبار مصر» ج ٢ ص ٧٥ وابن طاهر «أخبار الدول المنقطعة» ورقة ٧٨ والنويرى «نهاية الأرب» ج ٢٦ ورقة ٨٨ وأبو المحاسن «النجوم الزاهرة» المخطوط ورقة ٤ والسيوطي «حسن المحاضرة» ج ٢ ص ١١٧ و ١١٨

(٢) ابن ميسر «تاريخ مصر» ج ٢ ص ٩١ و ٩٥ والقلقشندى «صبح الأعشى» (طبعة ١٣٣١ هـ) ج ١١ ص ٧٣ والسيوطي «حسن المحاضره في أخبار مصر والقاهرة» ج ١ ص ١٧٠ و ج ٢ ص ٩٣

(٣) أبو شامة «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين» (طبعة القاهرة) ج ١ ص ١٩١ وأبو الفدا «المختصر في أخبار البشر» ج ٣ ص ٥٠ و ٥١ والمقريزى «الخطط» ج ٢ =

ولما تم لصلاح الدين الأيوبي الأمر ، وأسس الدولة الأيوبية ، وهي من الأكراد الشافعية ، زاد فى محاربة المذهب الاسماعيلى ، حتى لم يبق له أثر وقطع الصلة بيننا وبين الفاطميين ، حتى لا نكاد نطلع على شيء من كتبهم فى الفقه أو غيره ، وفى هذا يقول الدكتور حسن ابراهيم حسن : «إن ضياع هذه المجاميع جعل من الصعب إن لم يكن من المستحيل على الباحثين فى تاريخ الفاطميين فى مصر أن يقفوا وقوفا تاما على تاريخ الامبراطورية الفاطمية العظيمة ، فالأيوبيون السنيون الغلاة الذين كانوا أعداء ألداء للشيعة لم يحاولوا القضاء على الشعائر الشيعية فحسب ، بل عملوا على إزالة كل معالم الحضارة الفاطمية وثقافتها » [١] ، ويقول الأستاذ مصطفى بيرم «لم يبق من أثر بالأزهر إلا الجراية من الخبز التى كانت تعطى لمن هو متمذهب بالمذهب الشيعى » [٢] .

وبزوال الحكم الفاطمى رجع قضاء مصر للشافعية [٣] وكان رسم قاضى القضاة الشافعى الطراحة وبه يمتاز [٤] واستمر قاضى القضاة بمصر من الشافعية حتى عهد الملك الظاهر بيبرس [٥] .

= ص ١٧٥ والسيوطى «حسن المحاضرة» ج ٢ ص ٩٣ وعلى مبارك باشا «الخطط التوفيقية» ج ١ ص ٢٠

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن « الفاطميون فى مصر » ص ١٤٢ .

(٢) الأستاذ مصطفى بيرم « الجامع الأزهر » ص ٢٣ و ٢٤

(٣) كان المغرب قبل دخوله فى يد الفاطميين يقتسمه « المالكية والحنفية » ، كما كانت مصر قبل دخولهم إليها يقتسمها «المالكية والشافعية والحنفية» ، فلما خرجت المغرب من يدهم سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) رجع مذهب مالك إليها أما الشام فكان آخر قاض للفاطميين بدمشق « الشريف جلال الدولة أبو الحسين بن احمد أبى القاسم » الذى مات سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ م) . الكندى ص ٤٧١ وما يليها والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٣٣٤ ومتز « الحضارة الاسلامية » ص ٣٥١ و ٣٥٢

(٤) السيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ١٧٠

(٥) وفى سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٤ م) سأل الملك الظاهر بيبرس البندقدارى القاضى « تاج الدين عبد الوهاب » الشافعى أمراً فامتنع ، فضم إليه ثلاثة قضاة حنفيا ومالكيا وحنبليا فأصبح القضاء مقسما إلى أربعة مذاهب لكل قاض منهم الحكم بما يقتضيه مذهبه ، ولكل منهم =

كذلك سادت الشعائر الشيعية على الشعائر السنية بمصر ، فكما أمر أبو عبد الله الشيعى عامله على مدينة القيروان « الحسن بن احمد » بأن يزيد فى الأذان بعد « حى على الصلاة » عبارة « حى على خير العمل » ، وأن يسقط من آذان الفجر « الصلاة خير من النوم » ، وأن يصلى الناس على الإمام على بعد صلاتهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى « فاطمة والحسن والحسين » ، إلى غير ذلك من العقائد الشيعية [1] ، كذلك نجد جوهراً يساهم بنصيب الأسد فى نشر شعائر المذهب الإسماعيلى بمصر بعد أن وضع الدعاة منهم قبله بسنوات عدة ، البذور الأولى التى أثمرت وأينعت وجعلت المصريين يقبلون عليه اقبالا ظاهراً ، وبعد أن ملك أجداد الخليفة المعز لدين الله جميع المغرب وطرابلس وبرقة وجزيرة صقلية ، وكان عمالهم على ذلك كله [2] .

فابتدأ جهاد بين عواطف متنافرة ونزعات متضاربة ، بين أغلبية تدين بالمذهب السنى أخذوا على جوهر العهد بالمحافظة على شعائرهم ، وبين إرضاء مولاه فى العمل على نشر مذهبه الشيعى ما استطاع إلى ذلك سبيلا . ألم يقابله وجوه المصريين عندما دخل الاسكندرية فيخاطبه أحدهم وهو أبو الطيب العباسى بن احمد الهاشمى بقوله : « إن للعامة شروطا نريد تبليغها إليك ، فهم يقولون : « قاضينا لا يغير علينا » ، « ولا تعاوض فى فتاوينا » ، « ولا تعاوض فى حرامنا وحلالنا » ، « ولا تعاوض فى أذاننا » ، « ولا يظهر عندنا سب السلف

= حق تولية النواب عنه فى البلاد المصرية ، وفى سنة ٩٢٧ هـ أى بعد الفتح العثمانى لمصر ساد المذهب الحنفى ولا يزال إلى الآن هو المذهب الرسمى فى القضاء الشرعى . ابن ميسر « تاريخ مصر » جـ ٢ ص ٢٤ والقلقشندى « صبح الأعشى » جـ ٤ ص ٣٥ والمقريزى « الخطط » جـ ٢ ص ٣٣٤ — ٣٤٤ والخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٣١

(١) ابن عذارى المراكشى « البيان المغرب فى أخبار المغرب » ص ١٤٨ والنويرى « نهاية الأرب » جـ ٢٦ ورقة ٣١

(٢) ابن عذارى « البيان المغرب » ص ٢١٥

الصالح ، فيجيبهم جوهر « ذلك لهم »[١] .

ثم ألم يخط جوهر بيده الأمان ويجدده لهم وفيه يعد المصريين جميعاً بأن يلزم نفسه المحافظة على عقائدهم السنية ؟ ! ولكن جوهراً عمل على تدعيم الصبغة المذهبية بمجرد أن تم له الأمر بمصر ، فمنع الناس من قراءة «سبح اسم ربك» فى صلاة الجمعة ، وأزال التكبير بعد صلاة الجمعة[٢] .

وأمر أن يقال « اللهم صل على عبدك ووليك ثمرة النبوة وسليل العزة الهادية المهدية عبد الله الامام معد أبى تميم المعز لدين الله ، أمير المؤمنين كما صليت على آبائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين ، اللهم ارفع درجته وأعل كلمته وأوضح حجته واجمع الأمة على طاعته والقلوب على موالاته ومحبته واجعل الرشاد فى موافقته ، وورثه مشارق الأرض ومغاربها واحمده مبادىء الأمور وعواقبها ، فانك تقول وقولك الحق « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » فقد امتعض لدينك ولما انتهك من حرمتك ودرس من الجهاد فى سبيلك ، وانقطع من الحج إلى بيتك وزيارة قبر رسولك صلى الله عليه وسلم ، فأعد للجهاد عدته ، وأخذ لكل خطب أهبته فسير الجيوش لنصرتك وأنفق الأموال فى طاعتك ، وبذل المجهود فى رضاك فارتدع الجاهل ، وقصر المتطاول ، وظهر الحق وزهق الباطل ، فانصر اللهم جيوشه التى سيرها وسراياه التى انتدبها لقتال المشركين وجهاد الملحدين والذب عن المسلمين وعمارة الثغور والحرم وإزالة الظلم والتهم والنهم وبسط العدل فى الأمم ، اللهم اجعل راياته عاليـــة مشهورة ، وعساكره غالبة

---

(١) العينى « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » القسم الثانى ج ١٩ ورقة ٢٣٤ — وكان من أعضاء هذا الوفد القاضى أبو الطاهر اسماعيل وأبو جعفر محمد بن عبد الله بن طاهر العلوى وأبو اسماعيل ابراهيم بن احمد الوتينى والوزير أبو الفضل بن الفرات . النويرى « نهاية الأرب » ورقة ٣٩ و ٤٠ وأبو الطيب العباسى بن احمد الهاشمى ، وغيرهم .

(٢) المقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٧٨

منصورة ، وأصلح به وعلى يديه ، واجعل لنا منك واقيه عليه » (١).

كذلك أمر أن يقال « اللهم صل على محمد النبي المصطفى وعلى على المرتضى وعلى فاطمـــة البتول وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول ، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً ، وصل على الأئمة الطاهرين الراشدين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله الهادين المهتدين » (٢).

كذلك أمر جوهر بتغيير الأذان وأن يؤذن المؤذنون بعبارة « حى على خير العمل » بدل « حى على الصلاة ، حى على الفلاح » ففى يوم الجمعة لثمان خلون من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠م) صلى جوهر بجامع ابن طولون بعسكر كثير وخطب « عبد السميع بن عمر العباس » (٣)، فى حضرته وختم خطبته بدعاء قال فيه « اللهم صل على عبدك ووليك ثمرة النبوة ومعدن الفضل والإمامة عبد الله معد أبى تميم الامام المعز لدين الله ، كما صليت على آبائه الطاهرين وأسلافه المنتخبين من قبله ، اللهم أعنه على ما وليته وأنجز له ما وعدته وملكه مشارق الأرض ومغاربها ، واشدد اللهم أزره وأعز نصره بالأمير نزار أبى منصور ، ولى عهد المسلمين الذى جعلته القائم بدعوته والناطق بحجته

---

(١) أبو شامة « كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين » ج ١ ص ٢٠١ والنويرى «نهاية الأرب » ج ٢٦ ورقة ٤١ والمقريزى «اتعاظ الحنفا» ص ٧٥ و٧٦ — إذ ركب جوهر يوم الجمعة لعشر بقين من شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٩ يولية سنة ٩٦٩ م) الى جامع عمرو لصلاة الجمعة واقامة الدعوة فى عسكر كثير ، وأمر جوهر الخطيب هبة الله بن احمد خليفة عبد السميع ابن عمر العباس لغيبته بأن يقول ذلك ، وعليه البياض

(٢) ابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ١ ص ٢١٢ والمقريزى « اتعاظ الحنفا» ص ٧٧ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٤ ص ٣٢

(٣) صرف المعز لدين الله بنى عبد السميع عن الخطابة بعد أن تقلدوها زهاء ٦٠ سنة وأسندها الى جعفر بن الحسن بن الحسنى بجامع عمرو ، وعهد الى أخيه باقامة الخطبة فى الأزهر سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) وكان مرتب الخطيب من عشرة الى عشرين ديناراً شهرياً . ابن دقاق ج ٤ ص ٦٤ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٩٩ و٢٤٣ وانظر O' Leary, A Short History, p. 104

اللهم أصلح به العباد ، ومهد لديه البلاد ، وأنجز له ما وعدته ، إنك لا تخلف الميعاد ،[1]، وبعد أن ذكر أهل البيت وفضائلهم ودعا للقائد جوهر أذن بالعبارة الشيعية « حي على خير العمل » ، وقرأ البسملة بصوت مرتفع ، فكان بذلك أول مؤذن بهذه العبارة الشيعية بمسجد ابن طولون ، بعد أن كان أذن بها قبل ذلك بمدة يسيرة بجامع عمرو .

ثم انتقلت هذه العبارة الشيعية إلى جامع العسكر ، وأمر أن يزاد فى صلاة الجمعة القنوت فى الركعة الثانية ، وأكبر الظن أن جوهراً كان يتهيب الطفرة فى بث تعاليم الشيعة بين جمهرة السنيين ، فنراه منذ البداية يحاول أن يخلع التحيز وينكره لينشد العدل ويؤثره ، فأنشأ جامع القاهرة (الأزهر) ليكون مسجداً رسميا للدولة الفاطمية فى حاضرتها الجديدة ، ومنبراً لدعوتها الشيعية ، ورمزاً لسيادتها الروحية ، ولا بأس بعد ذلك أن يكون جامعة أو معهداً لحلقات يعقدها الفقهاء فيه ليقرأوا فيها دروسهم ومصنفاتهم الدينية الشيعية ، فابتدأ فى انشائه فى ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ ﻫ (٢٢ يونيه سنة ٩٧٢م) ، فكان بذلك أول جامع أقامته الشيعة بمصر لينافس جامع عمرو وغيره من مساجد أهل السنة [2]، فكان يجلس الأستاذ ليقرأ دروسه فى حلقة من تلاميذه فى جو من البساطة حيث يتسع مجال النقاش ، وبقى الأزهر مركز الفقه الفاطمى إلى أن بنى الامام الحاكم جامعه ، فتحلق فيه الفقهاء أيضاً .

ويظهر أن جوهراً حسب حساباً كبيراً لشعور السنيين بمصر وما قد تؤديه مفاجأته لهم من اعلان شعائر الشيعة بجوامعهم ، فتهيب الطفرة وخاف الثورة فلم يحاول أن يغير الأذان بمساجد أهل السنة إلا بعد مضى مدة من استقراره بمصر . نعم جرت العادة عند إنشاء العاصمة الإسلامية أن يكون قرين انشائها مسجد جامع وسطها ، يحمل طابعاً رسميا وتقام حوله خطط

---

(١) الدوادار « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » ج ٥ ورقة ١٠٧ وابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٤٧ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٧٩

(٢) المقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٧٣ وابن اياس « بدائع الزهور » ج ص ٤٦

القبائل المختلفة ، ودار للامارة [١] ، ولكن بجامع عمرو لم يفرض لون الدولة الشيعية فى الأذان إلا فى أربع بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٢م) إذ فى هذا التاريخ أذن المؤذنون فى جامع مصر بعبارة «حى على خير العمل» [٢] وجهر فيه بالبسملة فى الصلاة أيضا فلم يحتج المسلمون السنيون ، ونقشت جدرانه باللون الأخضر فى نفس السنة ، فكانت هذا بشرى للمعز بنجاح تعاليم بيته [٣] ، ولا شك فى أن الناس شق عليهم ذلك ولكنهم ما استطاعوا له رداً وصبروا لحكم الله [٤].

وبعد أن كان أذانهم «الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن

---

(١) أول العواصم الاسلامية « فسطاط مصر » التى أنشئت سنة ٢١ هـ (٦٤١م) عقب الفتح الاسلامى ، فكان جامع عمرو (أو مسجد أهل الراية أو جامع مصر أو الجامع العتيق أو تاج الجوامع أو المسجد الجامع) المبنى سنة ٢١ هـ منبر دينها ورسالتها كما كان يقوم بمهمة علم دينية وفقهية ، وثانيها مدينة العسكر التى أنشأها صالح بن على بن عبد الله بن العباس الى جانب الفسطاط عقب انتزاعهم مصر من الأمويين سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) فكان مسجدها الرسمى جامع العسكر الذى بناه الفضل بن صالح سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) على الجبل المعروف بجبل يشكر الذى قيل ان موسى عليه السلام ناجى ربه عليه ، وثالثها مدينة القطائع التى أنشأها أحمد بن طولون فى سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) وكان جامع ابن طولون الذى بدأ فى بنائه سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦ م) مسجدها الجامع أو جامعها الرسمى ، وبنى العزيز بالله جامع الحاكم سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) ويقال له الجامع الأنور وأكمله ابنه الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٢ م) ثم بنى الحاكم بأمر الله جامعى راشدة والمقس وزودهما بالمصاحف والحصر السامانية والستور والآلات الفضية ، وبنى الآمر جامع الأقمر ، وبنى الظافر جامع الأظفر ، كما بنى الملك الصالح طلائع بن رزيك جامع الصالح — ابن عبد الحكم « فتوح مصر » ص ٩١ و ٩٦ وابن دقاق « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » (بولاق ١٣١٤ هـ) ج ٤ ص ٥٩ و ١٢١ و ١٢٢ ، والقلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٣٤٦ والمقريزى « الخطط » ج ١ ص ٣٠٤ والسيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ١٣٣ و ١٣٦ و ١٣٨ و ١٣٩ وابن اياس « بدائع الزهور » ج ١ ص ٦٣

(٢) ابن الأثير « الكامل » ج ٢ ص ٢١٢ وابن طاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٤٥ وابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ١ ص ٢١٢ والنويرى « نهاية الأرب » ورقة ٤١ وابن خلدون « العبر » ج ٤ ص ٤٨ و ص ٣١٥ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٧٩ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٤ ص ٣٢

(٣) ابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ١ ص ٢١٢

(٤) السيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ١٢

لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفلاح ، قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله » أضيفت عبارة « حى على خير العمل » بعد « حى على الفلاح »(١)

كذلك أبطلت عادة السنيين فى التكبير على الميت أربع مرات فجعلت بحسب أهمية الميت ومكانته ، وهى طريقة الامام على كرم الله وجهه .

فمثلا عندما توفى ابن عم الخليفة المعز لدين الله فى صفر سنة ٣٦٣ هـ كبر المعز لدين الله عليه سبعاً وكبر على غيره خمساً ، بأن كان يرفع يديه فى التكبير ويحمد الله ويثنى عليه بما هو أهله ويعظمه ، ثم يكبر ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يكبر ويدعو للميت المؤمن ، ثم يكبر ويدعو للمؤمنين والمؤمنات ، ثم يكبر ويصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يقول جعفر ابن محمد « من يجمع كل هذا فى كل تكبيره فأحسن »(٢) .

وكان إظهار الجزع عندهم لفقد الميت فى حضرة الخليفة إذا جلس للتعزية أن يدخل الناس عليه بغير عمائم(٣) .

وكانوا يصلون على موتاهم بالمسجد الجامع(٤) ، وكانوا يغالون فى تكفين موتاهم وتعطيرهم وما يتصدقون به على الناس ، فمثلا لما ماتت السيدة العزيزية وكانت أم ولد الخليفة العزيز بالله ، كفنت بعشرة آلاف دينار وأخذت الغاسلة

---

(١) ابن النعمان « كتاب تربية المؤمنين » ورقة ١٤١

(٢) ابن النعمان « دعائم الاسلام » ورقة ١٥١ وابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٤٥ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ١٦٧ و « اتعاظ الحنفا » ص ٩٧

(٣) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٤٦ — كما هى عادة الأجانب اليوم عند رفع القبعات

(٤) أول من صلى على الموتى داخل جامع عمرو كان مسلمة بن مخلد الأنصارى سنة ٥٣ هـ (٦٧٢ م) أمير مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان ، وعادة التكبير بحسب أهمية الميت لم يبتدعها المعز لدين الله بمصر ، فقد كبر بكار (الذى كان إذا حضر جنازة مع احمد بن طولون لا يصلى أحد عليها سواه) على يحيى بن العثم العلوى خمسا . ابن حجر العسقلانى « رفع الأصر » ورقة ٦٤ و ٧٩ والقلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٣٤١

ما كان تحتها من الفراش وما عليهامن ثياب ، فكان مبلغ ذلك كلّه ستة آلاف دينار ، ودفع إلى الفقراء فى سبعة أيام ألفا دينـار وأعطى للقراء على قبرها ثلاثة آلاف دينار وأعطى من رثاها من الشعراء خمسمائة دينار [١] ولما مات ابن كلس سنة ٣٨٠ هـ (٩٩١ م) كفن فى خمسين ثوباً ، ويقال إنه كفن وحنط بما مبلغه عشرة آلاف دينار [٢] .

كذلك لما مات الأفضل كان على قبره ٤٢٠ شخصاً من القراء والوعاظ والمنشدين ، فأمر الخليفة الآمر لكل منهم بثمانين ديناراً أخذت من بيت المال [٣] وصرف فى العطر الذى استعمل لتجهيز جسم ابن كلس مثلا عشرة آلاف دينار [٤] .

وكان صيام شهر رمضان عند السنيين ينتهى بمجرد ظهور القمر عملا بقوله عليه السلام « صوموا لرؤيته (أى لرؤية هلال رمضان) ، وافطروا لرؤيته (أى لرؤية هـلال شوال) فإن غُمّ عليكم (أى إذا حجبته السحب الكثيفة فى السماء من الظهور) فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما » ، ولكن هذه الطريقة لا تتفق مع مذهب الفاطميين ، لذا أبطل جوهر فى سنة ٣٥٨ هـ الصوم بعد اليوم التاسع والعشرين من رمضان ، وصلى العيد قبل رؤية الهلال بعد أن خطب له « على بن الوليد الاشبيلى » فاعترض عليه أهل مصر ، لأن قاضيهم السنى تلمس الهلال جريا على عادته فوق سطح جامع عمرو فلم يظهر له ، فصام وصاموا اليوم الثلاثين من رمضان ، وأفطروا فى الغد ، وصلوا العيد فى الجامع العتيق ، وخطب لهم رجل هاشمى ، فما كان من جوهر إلا أن أنكر على قاضيهم أبى الطاهر ذلك وتهدده [٥] ، وبذلك انقطع طلب الهلال من

---

(١) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٥٠

(٢) ابن منجب « الاشارة إلى من نال الوزارة » ص ٢٠

(٣) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٦٠

(٤) ابن خلـكان « وفيات الأعيان » ج ٥ ص ٤٤٣

(٥) الـكندى ص ٥٨٤ والمقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٧٦

مصر وانقطع ما يحدث أحيانا من أن نصف الأمة الإسلامية يصبح صائما ونصفها مفطراً أو نصفها معيّداً ونصفها غير معيد وممسك .

ونقض جوهر عهده أيضا عند ما كتب الشيعيون على أبواب الجوامع والمساجد (ولا سيما فى ظاهر وباطن جامع عمرو) وفى سائر الأماكن والدور المعرضة للأنظار سبأ لعائشة رضى الله عنها وللصحابة أمثال أبى بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير ومعاوية وغيرهم ، وسبهم رضى الله عنهم فى كل جمعة على المنابر [1] .

ولقد حمل المعز لدين الله شعار الدعوة لآل البيت ولواء الشيعة بمجرد ما وطئت قدمه مصر ، فسأل أبا الطاهر الذهلى القاضى السنى عندما جلس بجانبه : « هل رأيت خليفة أفضل منى » ؟ فأجابه بأنه لم ير أحداً من الخلفاء سواه ، ولعله أراد أن يتبين مبلغ نجاح الدعوة الفاطمية بمصر ويتأكد بنفسه عن مدى ما أسفرت عنه معاركها فى الخفاء وفى الظهور فقال للقاضى السنى [2] الجالس بجانبه « أحججت » ؟ قال « نعم » ، قال « وزرت قبر رسول الله عليه السلام » قال « نعم » قال « وقبر أبى بكر وعمر » ؟ « قال فتحيرت ماذا أقول ثم نظرت فاذا ابنه قائم مع كبار الأمراء فقلت شغلنى عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما شغلنى أمير المؤمنين عن السلام على ولى العهد ، فنهضت إليه وسلمت عليه ورجعت فانفسح المجلس إلى غيره » ، فخلع المعز على القاضى وأجازه [3] .

---

(١) ابن ظاهر « أخبار الدول المنقطعة » ورقة ٥٤ « وذخيرة الأعلام » ورقة ١١٣ وابن خلكان « وفيات الأعيان » ج ٣ ص ٤ وأبو المحاسن « النجوم الزاهرة » ج ٤ ص ١٧٥ وابن اياس « بدائع الزهور » ج ٢ ص ٦٧ — وقد لعنوهم لاعتقادهم بخروجهم على الدين ولأن بعضهم قاتل عليا بعد قتل عثمان

(٢) العينى « عقد الجمان » ج ١٩ ورقة ٢٦٥ و ٢٦٦ والسيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ١٢ — ولقد ذهب الدكتوران حسن وعلى ابراهيم حسن الى أن هذا السؤال كان لابن الفرات للايقاع به « الفاطميون فى مصر » ص ١٨٤ و « النظم الاسلامية » ص ١٧٠ و « تاريخ جوهر الصقلى » ص ٧٧

(٣) المقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٨٨و٨٩

ثم إن المعز لدين الله بمجرد وصوله ، ابتدأ بتعظيم الدعوة الاسماعيلية على يده هو كخليفة ، فظهر للناس إماماً دينياً ، وأمر أئمة المساجد والمؤذنين أن يقولوا فى الأذان « حى على خير العمل » ، وأن يكبروا على الجنائز خمساً وأن يقولوا « خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب عليه السلام » ، « وإن محمداً وعليا خير البشر » ، وتبعه فى ذلك أشباله ، فنجد مثلا أنه فى سنة ٣٩٣ هـ (١٠٠٢ م) قبض الخليفة الحاكم مثلا على ثلاثة عشر رجلا من أهل مصر صلوا صلاة التراويح ، وأشهروا على الجمال وحبسوا ثلاثة أيام ، وصدرت الأوامر بأن يؤذن لصلاة الظهر فى الساعة السابعة (عربى) ولصلاة العصر فى أول الساعة التاسعة (عربى) ، إلى غير ذلك من الدعوات المذهبية [١] .

كما احتفل الفاطميون بأعياد الشيعة كعيد غدير خم فى ١٨ ذى الحجة سنة ٣٦٢ هـ (٨٥٠ م) [٢] ، وهو أبدأ يوم ١٨ من ذى الحجة .

والخلاصة أن الأمة المصرية استمرت فى صميمها سنية أكثر منها شيعية بالرغم من بذل الحكم الفاطمى أقصى مجهوده لجعلها تشعر بشعوره وتنتمى لمذهبه ، وبالرغم من أنهم نشطوا فى إيجاد المكاتب ومجالس الدعاة فى القصر والمساجد وبيوت العظماء وتأليف الكتب وتنظيم الدعوة ، إلى غير ذلك ، وما ذلك إلا لأن الفاطميين عمدوا إلى اضطهادات سخيفة لحمل الناس على معتقدهم غير منتبهين ، إلى أن مصر منذ دخلها العرب سنة ٢٠ هـ (٦٤٠ م) مكثت تحت الحكم السنى حتى قدوم جوهر ، وأنها اعترفت بخلافتين كان كره العلويين وشيعتهم من أعظم مبادئهما ، ولكن ليس معنى ذلك أن الشعائر السنية قدماتت

---

(١) ابن عذارى المراكشى « البيان المغرب فى أخبار المغرب » ص ٢٣١ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ١٦٧ و « اتعاظ الحنفا » ص ٩٠

(٢) أول ما اتخذ غدير خم عيداً هو معز الدولة البويهى سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) ، وكان الشيعة يحيون ليلة هذا العيد بالصلاة ، وفى صبيحته يصلون ركعتين قبل الزوال ويلبسون فيه الجديد ويعتقون الرقاب ويكثرون من عمل البر ومن الذبائح . ابن منجب « الاشارة » ص ٥٩ والمقريزى « الخطط » ج ٢ ص ٢٢٢ و « اتعاظ الحنفا » ص ٦٤

بمصر فى العصر الفاطمى حتى فى أيام قوتهم ، يؤيدنا فى ذلك أن الفاطميين أنفسهم لما قدموا لمصر مكنوا أهل السنة من اظهار شعائرهم ، فلم يمنعوهم من إقامة صلاة التراويح[1] فى الجوامع والمساجد معظم أيامهم ، مع ما فى هذا من مخالفة لمعتقدهم . وكثيراً ما نقرأ فى السجلات التى كانت تقرأ على المنابر بمصر «لا إكراه فى الدين» ، و «صلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم عنها، ولا هم عنها يدفعون» ، و «يخمس فى التكبير على الجنائز المخمسون ، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون» ، و «يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون ، ولا يؤذن من بها لا يؤمنون» ، و «يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون، ولا يعارض من أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون» ، و «لا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمده» ، و «لا يسب أحد من السلف» ، و «لا يستعلى مسلم على مسلم بما اعتقده» [2].

واحتفظ جامع عمرو مثلا بقسط من نشاطه القديم بأنه ملاذ السنة . فلقد أدى فيه الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٠ هـ صلاة الضحى ، وأسقط فيه شعار الأذان الفاطمى «حى على خير العمل» [3] ، وأرجع عبارة «الصلاة خير من النوم» مدة قليلة من الزمان .

وبجانب هذه الصورة القاتمة التى تمثل الصراع بين الدعوتين الخصيمتين والتى برهن فيها المجتمع المصرى على أنه من التمدين بحيث يعجز الزمن على تغيير عقيدته السنية ، توجد صفحة ناصعة تذكر فتشكر للفاطميين ، فقد عطفوا على

---

(١) جمع ترويحة كان يؤديها النبى عليه السلام فى رمضان بعد صلاة العشاء ثم أبطلها بعد ذلك حتى لا تكون فرضا ، ولما أتى عمر أحياها ، ومن هنا اعتقد الشيعة أن الخليفة عمر هو أول من سنها ، وفى العهد الفاطمى كانت تباح أحيانا وتحذر أخرى ، فأبطلها مثلا المعز لدين الله فى رمضان سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) كما أبطلها ابنه العزيز بالله سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) . المقريزى « الخطط » جـ ٢ ص ٣٤٠ والذهبى « تاريخ الاسلام » ورقة ١٠٥

(٢) سجل رمضان سنة ٣٩٣ هـ مثلا . انظر ابن خلدون «العبر» جـ ٤ ص ٥٦ و ٦٠ والمقريزى « الخطط » جـ ٢ ص ٢٨٧

(٣) المقريزى « الخطط » جـ ٢ ص ١٤٨

شعبهم جميعا سنيين وشيعة ، مما خلد لهم الذكر الحسن ، وعطفوا على المشتغلين بصناعة النسيج والزخرفة والطب وغيرها ولو كان أغلبهم من أهل الذمة وبذلك برهنوا على ذكائهم وبعد نظرهم وحنكتهم فى السياسة ، مما لاينكره إلا كل مكابر جاهل أو متعصب ذميم ، ويكفيهم فخراً أنهم أوجدوا لنا القاهرة المعزية ، والجامع الأزهر ، وغيرهما من الآثار الباقية إلى اليوم ، وأنهم بسطوا نفوذهم على كثير من الممالك ، وكانت لهم عطايا جزيلة وصلات واسعة تعدتهم إلى وزرائهم ، فقد كان جوهر يرسل « على بن الوليد » قاضى عسكره وبين يديه أحمال المال ، وبجانبه مناد ينادى « من أراد الصدقة فليصر الى دار أبى جعفر » ، فاذا اجتمع له خلق من المستورين والفقراء ، ذهب بهم إلى الجامع العتيق حيث يفرق عليهم الأموال[1]، كذلك كان الوزير « الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى (٤٨٧ — ٥١٥ هـ و ١٠٩٤ - ١١٢١ م) إذا جلس فى مجلس العطاء بداره التى بناها سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) أعطى ديناراً لكل من يأتيه مستجديا [٢] ، أما الخليفة نفسه فقد كان يمنح عماله كثيرا من الهدايا والأطعمة فى الأعياد والمواسم . ويكسيهم هم وأولادهم وأزواجهم وأتباعهم من بيت المال شتاء وصيفا [٣] ويأمر بعطاء يفرق على أهل الجامع إذا صلى[٤] وبطعام يوزع فى الجامع العتيق لمن يحضر فى المواسم [٥] .

---

(١) المقريزى « اتعاظ الحنفا » ص ٧٥

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن « الفاطميون فى مصر » ص ٢٤٠

(٣) « « ص ٢٦٣

(٤) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ٣ ص ٥٢١ و ٥٢٢

(٥) ابن ميسر « تاريخ مصر » ج ٢ ص ٥٢

مستندات فاطمية

(١)

أمان جوهر للمصريين :[1]

«بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من جوهر الكاتب ، عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه، لجماعة أهل مصر الساكنين بها من أهلها ومن غيرهم: إنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معي وهم «أبو جعفر مسلم الشريف» أطال الله بقاه و«أبو اسماعيل الرس» أيده الله ، و «أبو الطيب الهاشمي» ، أيده الله ، و«أبو جعفر أحمد بن نصر» أعزه الله ، والقاضي أعزه الله ، وذكروا عنكم أنكم التمستم كتاباً يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ، فعرفتهم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وحسن نظره لكم ، فلتحمدوا الله على ما أولاكم وتشكروه على ما حماكم وتدأبوا فيما يلزمكم ، وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم ، العايدة بالسعادة عليكم ، وبالسلامة لكم ، وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن اخراجه للعساكر المنصورة ، والجيوش المظفرة إلا لما فيه اعزازكم وحمايتكم ، والجهاد عنكم إذ قد تخطفتكم الأيدى ، واستطال عليكم المستذل ، وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم في هذه السنة والتغلب عليه وأسر من فيه ، والاحتواء على نعمكم وأموالكم ، حسب ما فعله في غيركم من أهل بلدان المشرق وتأكد عزمه واشتد كلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، باخراج العساكر المنصورة ، وبادره بانفاذ الجيوش المظفرة دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين عمهم الخزى وشملتهم الذلة ، واكتنفهم المصايب وتتابعت الرزايا ، واتصل عندهم الخوف وكثرت استغاثتهم وعظم

---

(١) الدوادار « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة » ج ٥ ورقة ١٠٤ والنويري « نهاية الأرب » ورقة ٣٩ والمقريزي « اتعاظ الحنفا » ص ٦٧ — ٧٠

ضجيجهم وعــلا صراخهم ، فلم يغثهم إلا من أرمضه أمرهم ، ومضه حالهم
وأبكى عينه ما نالهم وأسهرها ما حـل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير
المؤمنين صلوات الله عليه ، فرجا بفضل الله عليـه ، وإحسانه لديه وما
عوده وأرجاه عليه ، استنقاذ من أصبح منهم فى ذل مقيم ، وعذاب أليم
وأن يؤمن من استولى عليه المهل ، ويفرخ روع من لم يزل فى خوف ووجل
وآثر إقامة الحج الذى تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولى
عليهم ، وإذ لا يؤمنون على أنفسهم ولا على أموالهم ، وإذ قد أوقع بهم
مرة بعد أخرى ، فسفكت دماؤهم وابتزت أموالهم على اعتماد ما جرت به
عادته من صلاح الطرقات ، وقطع عبث العابثين فيها ، ليطرق الناس آمنين
ويسيروا مطمئنين ، ويتحفوا بالأطعمة والأقوات إذ كان قد انتهى إليه
صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها ، إذ لا زاجر للمعتدين ، ولا
دافع للظالمين ، ثم تجويد السكة وصرفها إلى العيار الذى عليه السكة الميمونة
المنصورية المباركة وقطع الغش منها ، إذ كانت هذه الثلاث خصال هى التى
لا يتسع لمن ينظر فى أمور المسلمين إلا إصلاحها ، واستفراغ الوسع فيما يلزمه
منها ، وما أوعز به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، إلى عبده
من نشر العدل ، وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفى الأذى
ورفع المؤن ، والقيام فى الحق ، واعانة المظلوم ، مع الشفقة والاحسان
وجميل النظر ، وكرم الصحبة ، ولطف العشرة ، وافتقاد الأموال ، وحياطة
أهل البلد ، فى ليلهم ونهارهم ، وحين تصرفهم فى أوان ابتغاء معاشهم ، حتى
لا تجرى أمورهم إلا على ما لمّ شعثهم ، وأقام أودهم وأصلح بالهم وجمع قلوبهم
وألف كلمتهم على طاعة وليه مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه
وما أمره به مولاه من اسقاط الرسوم الجايرة التى لا يرتضى صلوات الله
عليه باثباتها عليكم ، وأن أجزكم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى
الله عليه ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية

من المتوفى بها فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال ، وأن أتقدم فى رم مساجدكم وتزيينها بالفرش والإيقاد ، وأن أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم وأدرّها عليهم ، ولا أقطعها عنهم ، ولا أدفعها إلا من بيت المال لا باحالة على من يقبض منهم ، وغير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، مما ضمنه كتابه هـذا من ترسل عنكم أيدهم الله وصانكم أجمعين بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، من أنكم ذكرتم وجوهاً التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم وتطميناً لأنفسكم فلم يكن لذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة ، إذ كان الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة وهى إقامتكم على مذاهبكم ، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه ونصه نبيه صلى الله عليه فى سنته ، وإجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه ، ولكم علىّ أمان الله التام العام الدايم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام ، فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وربا عكم وقليلكم وكثيركم ، وعلى أنه لا يعترض عليكم معترض ولا يتجنى عليكم متجن ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ، ويذب عنكم ويمنع منكم ، فلا يتعرض إلى أذاكم ولا يسارع أحد فى الاعتداء عليكم ، ولا فى الاستطالة على قويكم ، فضلا عن ضعيفكم ، وعلى أن لا أزال مجتهداً فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ويصل إليكم خيره ، وتتعرفون بركته ، وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، ولكم على الوفا بما التزمته ، وأعطيكم إياه عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله وذمة الأئمة موالينا أمراء

المؤمنين قدس الله أرواحهم ، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه ، فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف إليها ، وتخرجون إلى وتسلمون على وتكونون بين يدى إلى أن أعبر الجسر وأنزل من المناخ المبارك ، وتحافظون من بعد على الطاعة وتثابرون عليها وتسارعون إلى فروضها ، ولا تخذلون ولياً لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وتلزمون ما أمرتم به ، وفقكم الله وأرشدكم أجمعين ».

كتبه جوهر بخطه فى شعبان سنة ٣٥٨ هـ وأشهد جوهر على نفسه جماعة الحاضرين .

(٢)

سجل (مرسوم) بتولية خليفة :[1]

من عبد الله ووليه أبي على الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين ابن الإمام المستعلى بالله إلى كافة أولياء الدولة وأمرائها وقوادها وأجنادها ورعاياها شريفهم ومشروفهم وآمرهم ومأمورهم مغربيهم ومشرقيهم أحمرهم وأسودهم كبيرهم وصغيرهم ، بارك الله فيهم : سلام عليكم ، فان أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين وسلم تسليما .

أما بعد : فالحمدلله المنفرد بالثبات والدوام ، الباقى على تصرم الليالى والأيام القاضى على أعمار خلقه بالتقضى والانصرام ، الجاعل نقض الأمور معقوداً بكلام الانتمام ، جاعل الموت حكما يستوى فيه جميع الأنام ومنهلا لا يعتصم من ورده كرامة نبي ولا امام ، والقائل معزيا لنبيه ولكافة أمته « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » ، الذى استرعى الأئمة لهذه الأمة ولم تخل الأرض من أنوارهم لطفا بعباده ونعمة ، وجعلهم مصابيح الشبه إذا غدت داجية مدلهمة لتضىء للمؤمنين سبل الهداية ولا يكون أمرهم عليهم غمة ، يحمده أمير المؤمنين حمد شاكر على ما نقله فيه من درج الإنافة ونقله إليه من ميراث الخلافة ، صابر على الرزية التى أطار هجومها الألباب والفجيعة التى أثار[2] طروقها الأسف والاكتئاب ، ويسأله أن يصلى على جده محمد خاتم أنبيائه وسيد رسله وأمنائه ومجلى غياهب الكفر ومكشف عمائه ، الذى قام بما استودعه الله من

---

(١) السيوطى « حسن المحاضرة » ج ٢ ص ١٦ (طبع مصر) وابن الصيرفى « الاشارة الى من نال الوزارة » ص ١٣ — ١٥ . وكان يصدر كل سجل من « ديوان الانشاء والمكاتبات »

(٢) فى الأصل اطار وقد تكررت فاستبدلناها بما يدانيها

أمانته ، وحمله من أعباء رسالته ، ولم يزل هاديا إلى الإيمان داعيا إلى الرحمن حتى أذعن المعاندون وأقر الجاحدون وجاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون فحينئذ أنزل الله عليه اتماماً لحكمته التى لا يعترضها المعترضون ، ثم انكم بعد ذلك لميتون ، ثم انكم يوم القيامة تبعثون ، صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى أكرمه الله بالمنزلة العلية وانتخبه للإمامة رأفة بالبرية وخصه بغوامض علم التنزيل وجعل له مبرة التعظيم ومزية التفضيل وقطع بسيفه دابر من زل عن القصـد وضل سواء السبيل ، وعلى الأئمة من ذريتهما العترة الهادية من سلالتهما آبائنا الأبرار المصطفين الأخيار ما تصرفت الأقدار وتوالى الليل والنهار ، وإن الامام المستعلى بالله أمير المؤمنين قدس الله روحه كان ممن أكرمه الله بالإصطفا وخصه بشرف الإجتبا ومكن له فى بلاده فامتدت أفياء عدله واستخلفه فى أرضه كما استخلف أباه من قبـله وأيده بما استرعاه إياه بهدايته وإرشاده وأمده بما استحفظه عليه بمواد توفيقه وإسعاده ذلك هدى الله يهدى من يشاء من عباده ، فلم يزل لأعلام الدين رافعا ولشبه المضلين دافعا ولراية العدل ناشراً وبالندى غامراً وللعدو قاهراً ، إلى أن استوفى المدة المحسوبة وبلغ الغاية الموهوبة ، فلو كانت الفضائل تزيد فى الأعمار أو تحمى من ضروب الأقدار أو تؤخر ما سبق تقديمه فى علم الواحد القهار ، لحمى نفسه النفيسة كريم مجدها وشريف سمتها وكفاها خطير منصبها وعظيم هيبتها ، ووقتها أفعالها التى تستق من منبع الرسالة وصانتها خلالها التى ترتق إلى مطلع الجلالة لكن الأعمار محررة مقسومة والآجال مقدرة معلومـــة والله تعالى يقول وبقوله يهتدى المهتدون ، ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، فأمير المؤمنين يحتسب عند الله هذه الرزية التى عظم أمرها وفدح وحرج خطبها وقدح وغدت لها القلوب واجفة والآمال كاسفة ومضاجع السكون منقضة ومدامع العيون مرقضة ، فإنا إليه راجعون . صبراً على بلائه وتسليما لأمره وقضائه واقتداء بمن أثنى عليه فى الكتاب ، إنا وجدناه صابراً

نعم العبد إنه أواب، وقد كان الامام المستعلى بالله قدس الله روحه عند نقلته جعل لى عقد الخلافة من بعده وأودعنى ما حازه من أبيه عن جده وعهد إلى أن أخلفه فى العالم وأجرى الكافة فى العدل والإحسان على منهجه المتعالم وأطلعنى من العلوم على السر المكنون، وأفضى إلى من الحكمة بالغامض المصون، وأوصانى بالعطف على البرية والعمل فيهم بسيرتهم المرضية، على علمى بما جبلنى الله عليه من الفضل وخصنى به من إيثار العدل، وأننى فيما استرعيته مالك منهاجه، عامل بموجب الشرف الذى عصب الله فى تاجه، وكان مما ألقاه إلى وأوجبه على أن أعلى محل السيد الأجل الأفضل من قلبه الكريم ومايجب له من التبجيل والتكريم، وأن الامام المستنصر بالله كان عندما عهد إليه ونص بالخلافة عليه، أوصاه أن يتخذ هذا السيد الأجل خليفة وخليلا ويجعله للامامة زعيما وكفيلا، ويغدق به أمر النظر والتقرير ويفوض إليه تدبير ماوراء السرير وأنه عمل بهذه الوصية وحذا على تلك الأمثلة النبوية وأسند إليه أحوال العساكر والرعية وناط أمر الكافة بعزمته الماضية وهمته العلية، فكان قلبه بالسداد يرجف ولا يجف وسيفه من دماء ذوى العناد يكف[1] ولا يكف، ورأيه فى جسم مواد الفساد يرجح ولا يخف، فأوصانى أن أجعله لى كما كان له صفيا وأن لا أستر عنه فى الأمور صغيراً ولا كبيراً، وأن أقتدى به فى رد الأحوال إلى تكلفه وإسناد الأسباب إلى تدبيره الناهط[2] مايط[3] الخطب ومنتقله إلى غير ذلك مما استودعنى إياه وألقاه إلى من النص الذى يتضوع نشره ورياه نعمة من الله قضت لى بالسعد العميم ومنه شهدت بالفضل المتين والحظ الجسيم والله يؤتى ملكه من يشاء، والله واسع عليم.

فتعزوا معاشر الأولياء والأمراء والقواد والأجناد والرعايا والخدام

---

(١) يقطر

(٢) نهطه بالرمح طعنه

(٣) المايط الجائر

حاضركم وغائبكم ودانيكم وقاصيكم عن الإمام المنقــول إلى جنات الخلود واستبشروا بإمامكم هذا الإمام الحاضر الموجود ، وابتهجوا بكريم نظره المطلع لكم كواكب السعود ، ولكم من أمير المؤمنين أن لا يغمض جفناً عن مصالحكم (١) وأن يتوخى ما عاد بيامنكم ومناجحكم ، وأن يحسن السيرة فيكم ويرفع أذى من يعاديكم ، ويتفقد مصلحة حاضركم وباديكم ، ولأمير المؤمنين عليكم أن تعتقدوا موالاته بخالص الطوية وتجمعوا له فى الطاعة بين العمل والنية ، وتدخلوا فى البيعة بصدور منشرحة وآمال منفسحة وضمائر يقينيّة وبصائر فى الولاء قوية وأن تقدموا بشروط بيعته ، وتنهضوا بفروض نعمته ، وتبذلوا الطارف والتالد فى حقوق خدمته ، وتتقربوا إلى الله سبحانه بالمناصحة لدولته ، وأمير المؤمنين يسأل الله أن تكون خلافته كاملة بالإقبال، ضامنة ببلوغ الأمانى ، والآمال ، وأن يجعل ديمها دائمة بالخيرات ، وقسمتها نامية على الأوقات ، إن شاء الله تعالى » .

---

(١) فى الأصل مصابكم

(٣)

سجل بتولية قاضى القضاة :[١]

هذا ما عهد عبد الله ووليه . . . (يذكر اسم الخليفة الفاطمى ولقبه) للقاضى . . . (وهنا يذكر اسم القاضى واختصاصه الإقليمى والنوعى) ، مع ما اعتمده أمير المؤمنين وانتحاه وقصده وتوخاه ؛ ومن اقتنائه لآثاره وانتهائه إلى إيثاره ، فى كل علية للدولة ينشرها ويحييها ، ودنية من أهل القبلة يدثرها ويعفيها ، وما التوفيق إلا بالله ولى أمير المؤمنين ، عليه توكله فى الخيرة له ولسائر المسلمين فيما قلده إياه من أمورهم وولاه .

أمره أن يتق الله عز وجل حق التقوى ، فى السر والنجوى ، ويعتصم بالثبات واليقين والنهى ، وينفصم من الشبهات والشكوك والهوى ، فان تقوى الله تبارك وتعالى موئل لمن وئل إليها ، حصين ؛ ومعقل لمن اقتفاها ، أمين ومعول لمن عول عليها ، مكين ، ووصية الله التى أشاد بفضلها ، وزاد فى سناها بما عهد أنه من أهلها ، فقال تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، اتقوا الله وكونوا مع الصادقين »[٢] .

وأمره ألا ينزل ما ولاه أمير المؤمنين إياه من الأحكام فى الدماء والأشعار والأبشار والفروج والأموال ، عن منزلته العظمى من حقوق الله المحرمة ، وحرماته المعظمة ، ونبياته المبينة فى آياته المحكمة ، وأن يجعل كتاب الله عز وجل وسنة جدنا محمد خاتم الأنبياء والمأثور عن أبينا علىّ سيد الأوصياء وآبائنا الأئمة النجباء صلى الله على رسوله وعليهم ، قبلة لوجهه

---

(١) صدر هذا السجل أيام الخليفة الحاكم بأمر الله . القلقشندى «صبح الأعشى» ج ١٠ ص ٣٨٥ — ٣٨٨

(٢) الآية ١١٨ من سورة التوبة رقم ٩

إليها يتوجه ، وعليها يكون المتجه ، فيحكم بالحق ، ويقضى بالقسط ولا يحكم الهوى على العقل ولا القسط على العدل ، إيثاراً لأمر الله عز وجل حيث يقول « فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »[1] « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون »[2] .

وأمره أن يقابل ما رسمه أمير المؤمنين وحده . . . . والقصر من عنان كل متطاول على الحكم والقبض من شكائمه ، بالحق المفترض لله جل وعز ولأمير المؤمنين عليه ، من ترك المجاملة فيه ، والمحاباة لذى رحم وقربى ، وولى للدولة أو مولى ، فالحكم لله ولخليفته فى أرضه ، والمستكين له لحكم الله وحكم وليه يستكين ، والمتطاول عليه ، والمباين للاجابة إليه ، حقيق بالاذالة والنهوض فليتق الله أن يستحى من أحد فى حق له « والله لا يستحى من الحق »[3] .

وأمره أن يجعل جلوسه للحكم فى المواضع الضاحية للمتحاكمين ، ويرفع عنهم حجابه ، ويفتح لهم أبوابه ، ويحسن لهم انتصابه ، ويقسم بينهم لحظه ولفظه ، قسمة لا يحابى فيها قويا لقوته ولا يردى فيها ضعيفا لضعفه ، بل يميل مع الحق ويجنح إلى جهته ، ولا يكون إلا مع الحق وفى كفته ، ويذكر بموقف الخصوم ومحاباتهم بين يديه موقفه ومحاباته بين يدى الحكم العدل الديان « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه »[4]

وأمره أن ينعم النظر فى الشهود الذين إليهم يرجع وبهم يقطع فى منافذ القضايا ومقاطع الأحكام ، ويستشف أحوالهم استشفافاً شافياً ، ويتعرف

---

(١) الآية ٢٥ من سورة ص رقم ٣٨

(٢) الآية ٧ من سورة المائدة رقم ٥

(٣) « ٥٢ « الأحزاب « ٣٣

(٤) الآية ٣٠ من سورة آل عمران رقم ٣

دخائلهم تعرفاً كافيا ، ويسأل عن مذاهبهم وتقلبهم فى سرهم وجهرهم ، والجلى والخفى من أمورهم ، فمن وجده منهم فى العدالة والأمانة والنزاهة والصيانة وتحرى الصدق والشهادة بالحق ، على الشيمة الحسنى والطريقة المثلى أبقاه وإلا كان بالاسقاط للشهادة أولى ، وأن يطالع حضرة أمير المؤمنين بما يبدو له فيمن يعدله أو يرد شهادته ولا يقبله ، ليكون فى الأمرين على ما يحد له ويمثله ، ويأمن فيما هذه سبيله كل خلل يدخله ، إذا كانت الشهادة أسس الأحكام وإليها يرجع الحكام ، والنظر فيمن يؤهل لها أحق شىء بالأحكام ، قال الله تقدست أسماؤه « يا أيها الذين آمنوا ، كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين »[1] وقال تعالى « والذين لايشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً »[2] وأمره أن يعمل بأمثلة أمير المؤمنين له فيمن يلى أموال الأيتام والوصايا وأولى الخلل فى عقولهم والعجز عن القيام بأموالهم ، حتى يحوز أمرها على ما يرضى الله ووليه من حياطتها وصيانتها من الأمناء عليها ، وحفظهم لها ، ولفظهم لما يحرم ولا يحل أكله منها ، فيتبوأ عند الله بعداً ومقتاً آكل الحرام والموكل له سحتاً ، قال الله تعالى « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ، إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً »[3]

وأمره أن يشارف أئمة المساجد والقومة عليها ، والخطباء بها والمؤذنين فيها ، وسائر المتصرفين فى مصالحها ، مشارفة لايدخـــل معها خلل فى شىء يلزم مثله ، من تطهير ساحتها وأفنيتها ، والاستبدال بما تبذل من حصرها فى أحيانها ، وعمارتها بالمصابيح فى أوقاتها ، والإنذار بالصلوات فى ساعاتها وإقامتها لأوقاتها ، وتوفيتها حق ركوعها وسجودها مع المحافظة على رسومها وحدودها ، من غير اختراع ولا اختلاع لشىء منها « إن الصلاة كانت على

---

(١) الآية ١٣٣ من سورة النساء رقم ٤

(٢) « ٧١ « « الفرقان رقم ٢٥

(٣) الآية ٩ من سورة النساء رقم ٤

المؤمنين كتابا موقوتا،(١) وأمره أن يرعى دار الضرب وعيار الذهب والفضة بثقات يحتاطون عليها من كل لبس ، ولا يمكنون المتصرفين فيها من سبب يدخل على المعاملين بهما شيئاً من الوكس ، إذ كان بالعين والورق تتناول الرباع والضياع والمتاع ويبتاع الرقيق ، وتنعقد المناكح وتتقاضى الحقوق فدخول الغش والدخل فيما هذه سبيله جرحه للدين ، وضرر على المسلمين يتبرأ إلى الله منهما أمير المؤمنين ، وامره أن يستعين على أعمال الأمصار التى لا يمكنه أن يشاهدها بأفضل وأعلم وأرشد وأحمد من تمكنه الاستعانة به على ما طوقه أمير المؤمنين فى استعماله ، قال الله عز وجل « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان، إنه كان ظلوما جهولا » (٢) .

أمرها لك فاعمل بها وحاسب نفسك قبل حسابها ، ولا تدع من عاجل النظر لها أن تنظر لمآبها « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ، وتوفى كل نفس ما عملت ، وهم لا يظلمون » (٣) .

كتب فى . . . . (وهنا يذكر اليوم والشهر والسنة) .

---

(١) الآية ٢ من سورة النساء رقم ٤

(٢) « ٧١ « الأحزاب « ٣٣

(٣) « ١١٠ « النحل « ١٦

(٤)

سجل بتقليد داعى الدعاة : (١)

« الحمد لله خالق ما وقع تحت القياس والحواس ، والمتعالى عن أن تدركه البصائر بالاستدلال والأبصار بالأنباس ، الذى اختار الاسلام فأظهره وعظمه واستخلص الإيمان فأعزه وأكرمه ، وأوجب بهما الحجة على الخلائق ، وهداهم بأنوارهما إلى أقصر الطرائق ، وحاطهما بأوليائه الراشدين ، شموس الحقائق الذين نصبهم فى أرضه أعلاما ، وجعلهم بين عباده حكاما ، فقال تعالى : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين » (٢)

يحمده أمير المؤمنين أن اصطفاه لخلافته وخصه بلطائف حكمته ، وأقامه دليلا على مناهج هدايته ، وداعياً إلى سبيل رحمته ، ويسأله الصلاة على سيدنا محمد نبيه الذى ابتعثه رحمة للعالمين ، فأوضح معالم الدين ، وشرع ظواهره للمسلمين ، وأودع بواطنه لوصيه سيّد الوصيين ، على بن أبى طالب أمير المؤمنين وفوض إليه هداية المستجيبين والتأليف بين قلوب المؤمنين ، ففجر ينابيع الرشاد ، وغور ضلالات الإلحاد ، وقاتل على التأويل كما قاتل على الرسل ، حتى أنار وأوضح السبل ، وحسر نقاب البيان ، وأطلع شمس البرهان ، صلى الله عليهما وعلى الأئمة من ذريتهما ، مصابيح الأديان وأعلام الإيمان ، وخلفاء الرحمن ، وسلم عليهم ما تعاقب الملوان ، وترادف الجديدان ، وأن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة ، وأورثه من منصب الإمامة ، وفوض اليه من التوقيف على حدود الدين ، وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين ، وتنوير بصائر

---

(١) القلقشندى « صبح الأعشى » ج ١٠ ص ٤٣٤ — ٤٣٩

(٢) الآية ٧٢ من سورة الأنبياء رقم ٢١

من استمسك بعروته من المستجيبين — يعلن بإقامة الدعوة الهادية بين أوليائه ، وسبوغ ظلها على أشياعه وخلصائه ، وتغذية أفهامهم بلبانها ، وارهاف عقولهم ببيانها ، وتهذيب أفكارهم بلطائفها ، وإنقاذهم من حيرة الشكوك بمعارفها ، وتوقيفهم من علومها على ما يجلب لهم سبل الرضوان ، ويفضى بهم إلى روح الجنان وريح الحنان ، والخلود السرمدى فى جوار الجوّاد المنان — ما يزال نظره مصروفاً إلى نوطها بناشىء فى حجرها ، مغتذ بدرها سار فى نورها ، عالم بسرائرها المدفونة . وغوامضها المكنونة ، موفراً على ذلك اختياره ، وقاصيته انتقاده ، حتى أداه الاجتهاد إليك ووقفه الارتياد عليك فأسندها منك إلى كفئها وكافيها ، ومدرهها المبرز فيها ، ولسانها المترجم عن حقائقها الخفية ودقائقها المطوية ، ثقة بوثاقة دينك وصحة يقينك وشهود هديك وهداك ، وفضل سيرتك فى كل ما ولاك ، ومحض اخلاصك وقديم اختصاصك ، وأجراك على رسم هذه الخدمة فى التشريف والحملان والتنويه ومضاعفة الاحسان ، فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين مستشعراً للتقوى عادلا عن الهوى ، سالكا سبيل الهدى ، فإن التقوى أحصن الجنن وأزين الزين ، و « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » [1] فان الله تعالى يقول « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً [2] وحض على ذلك فقال سبحانه « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » [3].

وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشد العقد على كل متعاد ظاهر ممن يظهر لك اخلاصه ويقينه ، ويصح عندك عفافه ودينه ، وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه ، فإن الله تعالى يقول « وأوفوا بالعهد ، إن العهد كان مسئولا » [4].

---

(١) الآية ١٢٤ من سورة النحل رقم ١٦

(٢) الآية ١٦٨ من سورة البقرة رقم ٢

(٣) « ٣٢ « « فصلت « ٤١

(٤) « ١٣ « « الاسراء « ١٧

ويقول جل من قائل « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله، يدالله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه »[١] وكف كافة أهل الخلافة والعناد وجادلهم باللطف والسداد ، واقبل منهم من أقبل إليك بالطوع والانقياد ولا تكره أحداً على متابعتك والدخول فى بيعتك ، وإن حملتك على ذلك الشفقة والرأفة والحنان والعاطفة ، فإن الله تعالى يقول لمن بعثه داعيا إليه بإذنه ، محمد صلى الله عليه وسلم « وما أكثر الناس لو حرصت بمؤمنين »[٢]

ولا تلق الوديعة إلا لحفاظ الودائع ، ولا تلق الحب إلا فى مزرعة لا تكدى على الزارع، وتوخ لفرسك أجل المغارس ، وتوردهم مشارع ماء الحياة المعين وتقربهم بقربان المخلصين، وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات إلى نور البراهين والآيات ، واتل مجالس الحكم التى تخرج إليك فى الحضرة على المؤمنين والمؤمنات والمستجيبين والمستجيبات فى قصور الخلافة الزاهرة والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة ، وصن أسرار الحكم إلا على أهلها ولا تبذلها إلا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين مايعجزون عن تحمله، ولا تستقل أفهامهم بتقبله ، واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول ، ودل على اتصال المثل بالممنون ، فإن الظواهر أجسام والبواطن أشباحها ، والبواطن أنفس والظواهر أرواحها، وأنه لا قوام للأشباح إلا بالأرواح ، ولا قوام للأرواح فى هذه الدار إلا بالأشباح ، ولو افترقا لفسد النظام ، وانتسخ الإيجاد بالاعدام واقتصر من البيان على مايحرس فى النفوس صور الإيمان ويصون المستضعفين من الافتتان ، وانههم عن الاثم ظاهره وباطنه وكافه وعالنه ، فإن الله تعالى يقول « وذروا ظاهر الاثم وباطنه »[٣] واتخذ كتاب الله مصباحا تقتبس أنواره ، ودليلا تقتفى آثاره ، واتله متبصرا ، وردده متذكراً ، وتأمله متفكراً

---

(١) الآية ٩ من سورة الفتح رقم ٤٨
(٢) « ١٠٢ « « يوسف « ١٢
(٣) « ١١٩ « « الأنعام « ٦

وتدبر غوامض معانيه ، وانشر ما طوى من الحكم فيه ، وتصرف مع ماحلله وحرمه ، ونقضه وأبرمه ، فقد فصله الله وأحكمه ، واجعل شرعه التقويم الذى خص به ذوى الألباب وأودعه جوامع الصلوات ومحاسن الآداب سبيأ تتبع جادته وتبلغ فى الاحتجاج محجته ، وتمسك بظاهره وتأويله ومثله ولا تعدل عن منهجه وسبله ، واضمم نشر المؤمنين واجمع شمل المستجيبين وأرشدهم إلى طاعة أمير المؤمنين ، وسو بينهم فى الوعظ والارشاد ، والله تعالى يقول فى بيته الحرام « سواء العاكف فيه والباد » [(١)] وزد لهم من الفوائد والمواد على حسب قواهم من القبول ، وما يظهر لك من وجوه المحصول به ودرجهم بالعلم ، ووف المؤمن حقه من الاحترام ، ولا تعدل الجاهل عندك قولا سلاماً كما علم رب السلام ، وتوخ رعاية المؤمنين وحماية المعاهدين وميزهم من العامة بما ميزهم الله من فضل الإيمان والدين ، وألن لهم جانبك واحن عليهم والطف ، وابسط لهم وجهك واقبل إليهم واعطف فقد سمعت قول الله تعالى لسيد المرسلين « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » [(٢)] ولا تفسح لأحد منهم فى التطاول بالدين ، ولا الاضرار بأحد من المعاصرين والذميين ، وميزهم بالتواضع الذى هو حلية المؤمنين ، وإذا ألبس عليك أو أشكل ، وصعب لديك مرام وأعضل ، فانهه إلى حضرة الامامة متبعا قول الله تعالى « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » [(٣)] وقوله : فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » [(٤)] ، ليخرج إليك من بصائر توقيفها ، ومراشد تعريفها ما يقفك على مناهج الحقيقة ، ويذهب بك فى لاحب الطريقة ، واقبض ما يحمله المؤمنون لك من الزكاة والجزى والأخماس والقربات وما يجرى هذا

---

(١) الآية ٢٤ من سورة الحج رقم ٢٢
(٢) « ٢١٤ « « الشعراء « ٢٦
(٣) « ٦ « « الأنبياء « ٢١
(٤) « ٥٨ « « النساء « ٤

الجرى ، وتتقدم إلى كاتب الدعوة باثبات أسماء أربابه ، واحمله إلى أمير المؤمنين لينتفع مخرجوه بتنقيله له ووصوله إليه ، وتبرأ ذممهم عند الله منه ، واستنب عنك فى أعمال الدعوة من شيوخ علم الحكمة ومن تثق بديانته وتسكن فيه إلى وفور صناعته ، واعهد إليهم كما عهد إليك ، وخذ عليهم كما أخذ عليك واستطلق لهم من فضل أمير المؤمنين ما يعينهم على خدمته ، ويحمل ثقلهم عن أهل دعوته ، واستخدم كاتباً ديناً أميناً مؤمناً بصيراً عارفاً ، حقيقاً بالاطلاع على أسرار الحكمة التى أمر الله بصيانتها وكتمانها من غير أهلها ، نقياً حصيفاً لطيفاً ، ينزلهم فى مجلسك بحسب مراتبهم من العلم والدين والفضل .

هذا عهد أمير المؤمنين اليك فتدبره متبصراً وراجعه متدبراً ، وبه الوصايا تهدى وتسدد وتوفق وترشد ، واستعن بالله يمدك بمعونته ، ويدم حظك من هدايته ، إن شاء الله تعالى ، [1] .

(١) فيه الارشادات الكثيرة التى تبين له طريقة بث الدعوة .

(٥)

وقفية الحاكم بأمر الله على الجامع الأزهر ودار الحكمة : (١)

هذا كتاب أشهد قاضى القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقى على جميع مانسب إليه مما ذكر ووصف فيه من حضر من الشهود فى مجلس حكمه وقضائه بفسطاط مصر فى شهر رمضان سنة أربعمائة ، أشهدهم وهو يومئذ قاضى عبد الله ووليه المنصور أبي على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين بن الإمام العزيز بالله صلوات الله عليهما ، على القاهرة المعزية ومصر والإسكندرية والحرمين حرسهما الله وأجناد الشام والرقة والرحبة ونواحى المغرب وسائر أعمالهن وما فتحه الله ويفتحه لأمير المؤمنين ، من بلاد الشرق والغرب بمحضر رجل متكلم ، أنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والحصص الشائعة ، التى يذكر جميع ذلك ويحددها هذا الكتاب ، وأنها كانت من أملاك الحاكم إلى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة والجامع بالمقس اللذين أمر بإنشائهما وتأسيس بنائهما ، وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة التى وقفها والكتب التى فيها قبل تاريخ هذا الكتاب ، منها ما يخص الجامع الأزهر والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة مشاعا ، جميع ذلك غير مقسوم ومنها مايخص الجامع بالمقس على شرائط يجرى ذكرها ؛ فمن ذلك ماتصدق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة ، جميع الدار المعروفة بدار الضرب وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة ، الذى كله بفسطاط مصر ، ومن ذلك ماتصدق به على جامع المقس أربعة الحوانيت والمنازل التى علوها والمخزنين ، الذى ذلك كله بفسطاط مصر

---

(١) المقريزى « الخطط » (الطبعة الأهلية) ج ٤ ص ٤٩ — ٥١ .

بالراية ، فى جانب الغرب من الدار المعروفة بدار الخرق ، وهاتان الداران المعروفتان بدار الخرق فى الموضع المعروف بحمام الفار ، ومن ذلك جميع الحصص الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التى بفسطاط مصر بالراية أيضاً بالموضع المعروف بحمام الفار ، وتعرف هذه الحوانيت بحصص القيس بحدود ذلك كله وأرضه وبنائه وسفله وعلوه وغرفه ومرتفقاته وحوانيته وساحاته وطرقه وممراته ومجارى مياهه وكل حق هو له داخل فيه وخارج عنه ، وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة محبسة بتة تبلة لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تمليكها باقية على شروطها جارية على سبيلها المعروفة فى هذا الكتاب لا يوهنها تقادم السنين ولا تغير بحدوث حدث ، ولا يستثنى فيها ولا يتأول ولا يستفتى بتجدد تحبيسها مدى الأوقات ، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات حتى يرث الله الأرض والسموات ، على أن يؤجر ذلك فى كل عصر من ينتهى إليه ولايتها ويرجع إليه أمرها، بعد مراقبة الله واجتلاب ما يوفر منفعتها ، من اشهارها عند ذوى الرغبة فى إجارة أمثالها ، فيبتدىء من ذلك بعمارة ذلك على حسب المصلحة وبقاء العين ومرمته من غير اجحاف بما حبس ذلك عليه ، وما فضل كان مقسوماً على ستين سهما ، فمن ذلك للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة المذكور فى هذا الإشهاد الخمس والثمن ونصف السدس ونصف التسع ، يصرف ذلك فيما فيه عمارة له ومصلحة وهو من العين المعزى الوازن ألف دينار واحدة وسبعة وستون دينارا ونصف دينار وثمن دينار ، من ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة وثمانون ديناراً ومن ذلك لثمن ألف ذراع حصر عبدانية تكون عدة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة إلى ذلك ، ومن ذلك لثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة لكسوة هذا الجامع فى كل سنة عند الحاجة إليها مائة دينار واحدة وثمانية دنانير ، ومن ذلك لثمن ثلاثة قناطير زجاج وفراخها اثنا عشر ديناراً ونصف وربع دينار ، ومن ذلك لثمن عود هندى للبخور فى شهر رمضان

وأيام الجمع من ثمن الكافور والمسك وأجرة الصانع خمسة عشر ديناراً ، ومن ذلك لنصف قنطار شمع بالفلفلى سبعة دنانير ، ومن ذلك لكنس هذا الجامع ونقل التراب وخياطة الحصر وثمن الخيط وأجرة الخياطة خمسة دنانير ، ومن ذلك لثمن مشاقة لسرج القناديل عن خمسة وعشرين رطلا بالرطل الفلفلى دينار واحد ، ومن ذلك لثمن فحم للبخور عن قنطار واحد بالفلفلى نصف دينار ومن ذلك لثمن أردبين ملحاً للقناديل ربع دينار ، ومن ذلك ما قدر لمؤنة الناس والسلاسل والتنانير والقباب التى فوق سطح الجامع أربعة وعشرون ديناراً ومن ذلك لثمن سلب ليف وأربعة أحبل وست دلاء أدم نصف دينار ، ومن ذلك لثمن قنطارين خرقا لمسح القناديل نصف دينار ، ومن ذلك لثمن عشر قفاف للخدمة وعشرة أرطال قنب لتعليق القناديل ولثمن مائتى مكنسة لكنس هذا الجامع دينار وربع دينار ، ومن ذلك لثمن أزيار فخار تنصب على المصنع ويصب فيها الماء مع أجرة حملها ثلاثة دنانير ، ومن ذلك لثمن زيت وقود هذا الجامع راتب السنة ألف رطل ومائتا رطل من أجرة الحمل سبعة وثلاثون ديناراً ونصف ، ومن ذلك لأرزاق المصلين يعنى الأئمة وهم ثلاثة وأربعة قومة وخمسة عشر مؤذناً خمسمائة دينار وستة وخمسون ديناراً ونصف ، منها للمصلين ولكل رجل منهم ديناراً وثلثا دينار فى كل شهر من شهور السنة والمؤذنون والقومة لكل رجل منهم ديناران فى كل شهر ومع ذلك للمشرف على هذا الجامع فى كل سنة أربعة وعشرون ديناراً ، ومن ذلك لكنس المصنع بهذا الجامع ونقل مايخرج منه الطين والوسخ دينار واحد ، ومن ذلك لمرمة ما يحتاج إليه فى هذا الجامع فى سطحه وأترابه وحياطته وغير ذلك مما قدر لكل سنة ستون دينارا ، ومن ذلك لثمن مائة وثمانين حمل تبن ونصف حمل جارية لعلف رأس بقر للمصنع الذى لهذا الجامع ثمانية دنانير ونصف وثلث دينار ، ومن ذلك للتبن لمخزن يوضع فيه بالقاهرة أربعة دنانير ، ومن ذلك لثمن فدانين قرط لتربيع رأس البقر المذكورين فى السنة سبعة دنانير

ومن ذلك لأجرة متولى العلف وأجرة السقاء والحبال والقواديس ومايجرى مجرى ذلك خمسة عشر دينار اونصف ، ومن ذلك لأجرة قيم الميضأة إن عملت بهذا الجامع إثنا عشر ديناراً . وإلى هذا انقضى حديث الجامع الأزهر وأخذ فى ذكر جامع راشدة ودار العلم وجامع المقس ثم ذكر أن تنانير الفضة ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثين قنديلا فضة . فللجامع الأزهر تنوران وسبعة وعشرون قنديلا ومنها لجامع راشدة تنور واثنى عشر قنديلا وشرط أن تعلق فى شهر رمضان وتعاد إلى مكان جرت عادتها أن تحفظ به ، وشرط شروطاً كثيرة فى الأوقاف منها أنه إذا فضل شىء اجتمع يشترى به ملك فان عاز شيئاً واستهدم ولم يف الريع بعمارة بيع وعمر به وأشياء كثيرة وحبس فيه أيضاً عدة آدر وقياسر لا فائدة من ذكرها فانها مما خربت بمصر .

(٦)

قسم الاسماعيلية[١] :

« جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنبيائه وملائكته ورسله وما أخذه على النبيين من عهد وميثاق أنك تستر جميع ما تسمعه وسمعته ، وعلمته وتعلمه ، وعرفته وتعرفه من أمرى وأمر المقيم بهذا البلد لصاحب الحق الامام الذى عرفت اقرارى له ونصحى لمن عقد ذمته ، وأمور اخوانه وأصحابه وولده وأهل بيته المطيعين له على هذا الدين، ومخالصته له من الذكور والإناث والصغار والكبار ، فلا تظهر من ذلك قليلا ولا كثيراً ولا بشىء يدل عليه إلا ما أطلقت لك أنك تتكلم به وأطلقه صاحب الأمر المقيم بهذا البلد ، فتعلم فى ذلك بأمرنا ولا تتعداه ولا تزيد عليه وليكن ما يعمل عليه قبل العهد وبعده بقولك وفعلك أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وتشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وتشهد أن الجنة حق وأن النار حق وأن الموت حق وأن البعث حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة بحقها وتصوم شهر رمضان وتحج البيت الحرام وتجاهد فى الله حق جهاده على ما أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم وتوالى أولياء الله ، وتعادى أعداء الله وتقول بفرائض الله وسنته وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى آله الطاهرين ، ظاهراً وباطناً وعلانية وسراً وجهراً ، فان ذلك يؤكد هذا العهد ولا يهدمه ويثبته ولا يزيله ويقربه ولا يباعده ، ويشده ولا يضعفه ، ويوجب ذلك ولا يبطله ، ويوضحه ولا يعميه ، كذلك هو فى الظاهر والباطن وسائر ما جاء به النبيون من ربهم

---

(١) انظر القسم الذى كان يوجهه الداعى لمن وقف على أسرار الاسماعيلية فى النويرى « نهاية الأرب » ج ٢٣ ص ٦٥ و ٦٦

صلوات الله عليهم أجمعين ، على الشرائط المبينة فى هذا العهد على ألا تظهر شيئا أخذ عليك فى هذا العهد ، (فى) حياتنا ولا بعد وفاتنا ولا على غضب ولا على حال رضى ولا على حال رغبة ولا على حال رهبة ولا على حال شدة ولا على حال رضا ولا على حال طمع ولا على حال حرمان ، تلقى الله على الستر لذلك والصيانة له على الشرائط المبينة فى هذا العهد ، وجعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، وأن تمنعني وجميع من أسميه معى لك وأثبته عندك بما تمنع منه نفسك وتنصح لنا ولوليك ولى الله ، نصحاً ظاهراً وباطناً ، فلا تخن الله ووليه ولا تخنا ولا أحداً من إخواننا وأوليائنا ومن تعلم أنه منا بسبب فى أهل ولا مال ولا رأى ولا عهد ولا عقد تتأول عليه بما تبطله ، فان فعلت شيئا من ذلك وأنت تعلم أنك قد خالفته وأنت على ذكر منه فأنت برىء من الله خالق السموات والأرض الذى سوى خلقتك وألف تركيبك وأحسن إليك فى دينك ودنياك وآخرتك وتبرأ من رسله الأولين والآخرين وملائكته المقربين الكروبيين [1] الروحانيين والكلمات التامات والسبع المثانى والقرآن العظيم ، وتبرأ من التوراة والإنجيل والزبور والذكر الحكيم ، ومن كل دين ارتضاه الله فى مقدم الدار الآخرة ومن كل عبد رضى الله عنه . وأنت خارج من ضرب الله وضرب أوليائه ، وخذلك الله خذلاناً بينا فعجل لك بذلك النقمة والعقوبة والمصير إلى نار جهنم التى ليس فيها رحمة ، وأنت برىء من حول الله وقوته ملجأ إلى حول نفسك وقوتها ، وعليك لعنة الله التى لعن بها إبليس فحرّم عليه بها الجنة وخلده فى النار ، إن خالفت شيئا من ذلك . لقيت الله يوم تلقاه وهو عليك غضبان ، وعليك أن تحج إلى بيته الحرام ثلاثين حجة نذرا واجبا ماشيا حافيا لا يقبل الله منك إلا الوفاء بذلك .

وإن خالفت ذلك فكل ما تملكه فى الوقت الذى تخالفه فيه فهو صدقة على الفقراء والمساكين الذى لا رحم بينك وبينهم ولا يأجرك الله عليه ولا يدخل

(١) وأحدها كروب وهم سادة الملائكة والمقربون منهم

عليك بذلك منفعة ، وكل مملوك لك من ذكر وأنثى فى ملكك وتستعبده إلى وقت وفاتك ، إن خالفت شيئا من ذلك ، فهم أحرار لوجه الله عز وجل ، وكل امرأة لك وتتزوجها إلى وقت وفاتك إن خالفت شيئا من ذلك ، فهى طالق ثلاثا الحرج[1] لا مثوبة لك فيها ولا اختيار ولا رجعة ولا مشيئة ، وكل ما كان لك من أهل ومال وغيرهما فهو عليك حرام وكل ظهار [2] فهو لازم لك .

وأنا المستحلف لك ولإمامك وحجتك وأنت الحالف لهما ، وإن نويت أو عقدت أو أضمرت خلاف ما أحملك عليه وأحلفك به ، فهذه المعين من أولها إلى آخرها محددة عليك لازمة لك ، لا يقبل الله منك إلا الوفاء بها والقيام على ما عاهدت بينى وبينك » .

---

(١) الحرج المحرج الذى اجبر على التطليق وينفذ عينه

(٢) نوع من الطلاق نافذ

ثبت المصادر

مرتبة حسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين

أولا — مصادر عربية مخطوطة

١ — ابن الأخوة : محمد بن احمد القرشي المعروف بابن الأخوة (+ ٧٢٩هـ و ١٣٢٩م)
، معالم القربة فى أحكام الحسبة ، مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة برقم ٦٧٩٠ ى وقد نشرة فى سنة ١٩٣٨ المستشرق الانجليزى . Reuben Levi فى مجموعة Gibb, Memorial Series

٢ — البراوى : الدكتور ابراهيم راشد مصطفى
، حالة مصر الاقتصادية فى العصر الفاطمى ، رسالة للدكتوراه سنة ١٩٤٤ م

٣ — بيبرس الدوادار (+ ٧٢٥هـ و ١٣٢٥م)
، زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول برقمى ٢٤٠٢٦ و ٢٤٠٢٧

٤ — ، تاريخ جبل لبنان ، لمؤلف مجهول مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة برقم ١٦ م تاريخ

٥ — ابن الجوزى (+ ٦٥٤هـ و ١٢٥٧م) : أبو المظفر بن قيزوغلى سبط ابن الجوزى .
، مرآة الزمان ، مخطوط فوتوغرافى بدار الكتب الملكية بالقاهرة برقم ٥٥١ تاريخ

٦ — ابن حجر العسقلانى (+ ٨٥٣هـ و ١٤٤٩م) : شهاب الدين بن على

«رفع الأصر عن قضاة مصر» مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة برقم ١٠٥ تاريخ

٧ — الخالدى (+ ٩٣٧هـ و ١٥٣٠م) : بهاء الدين محمد بن لطف الله ابن عبد الله بن عبيد الله العمرى

«كتاب المقصد الرفيع المنشا الهادى لديوان الإنشا» مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول برقم ٢٤٠٤٥

٨ — الخشاب : الأستاذ الدكتور يحيى

«رحلة ناصر خسرو فى مصر» مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول برقم ٩٣٩٣

٩ — الخولى : الأستاذ الشيخ أمين

«الجندية فى الإسلام» رسالة مخطوطة أعارنى إياها حضرة مؤلفها

١٠ — الذهبى (+ ٧٤٨هـ و ١٣٤٧م) : شمس الدين محمد بن احمد

«تاريخ الإسلام» مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة برقم ٢٩٦ تاريخ

١١ — «رسائل الحاكم بأمر الله» كتبها كثير من الدعاة الفاطميين فى سنة ٤٠٨هـ (١٠١٧م) مخطوطة بدار الكتب الملكية بالقاهرة برقم ٢٠ علم كلام الشيعة

١٢ — ابن زولاق (+ ٣٨٧هـ و ٩٩٧م) : أبو محمد الحسن بن ابراهيم

«كتاب فضائل مصر وأخبارها وخواصها» مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة برقم ٣٥٩١ تاريخ

١٣ — زين الدين بن نجيم الدين (+ ٩٧٠هـ و ١٥٦٢م) العلامه الحنفى المذهب

«الإشباه والنظائر» مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة برقم ٢٠٦٩ فقه حنفى

١٤ — السيوطى (+ ٩١١هـ و ١٥٠٥م) : عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين

«السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة» مخطوط بدار الكتب

الملكية بالقاهرة برقم ٣٩ م تاريخ

١٥ — الشرقاوى (+ ١٢٢٧هـ و ١٨١٢م) : العلامة الشيخ عبد الله شيخ الأزهر سابقاً

، تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول برقم ٢١٤٣٢

١٦ — السيزرى (+ ٥٨٩هـ و ١١٩٣م) : الإمام العالم عبد الرحمن بن نصر الدين عبدالله

، نهاية الرُّتبة فى طلب الحسبة ، مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول برقم ٢٤٠٥٤

وقد نشره فى سنة ١٩٤٦ الأستاذ السيد الباز العرينى فى القاهرة

١٧ — ابن طاهر (+ ٦٢٣هـ و ١٢٢٦م): العلامة جمال الدين أبو الحسن على

، أخبار الدول المنقطعة ، مخطوط فوتوغرافى بدار الكتب الملكية بالقاهرة برقم ٨٩٠ تاريخ

١٨ — الطوسى (+ ٤٦٠هـ و ١٠٦٧م) . محمد بن الحسن

، فهرست كتب الشيعة ، مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة برقم ١٦ نحل اسلامية

وقد طبع فى كلكتا سنة ١٧٥٣ م على يد sprenger

١٩ — أبو العباس احمد الغمرى العثمانى : الامام المحقق ابن سعد الدين من علماء أوائل القرن الـ ١١ هـ

، كتاب ذخيرة الأعلام ، مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة برقم ١٠٤ تاريخ وبمكتبة الأزهر برقم ٦٦٢٥

٢٠ — العينى (+ ٨٥٥هـ و ١٤٥١م) : بدر الدين محمود

، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، ٢٣٠ جزءا فى ٦٩ مجلداً مخطوط مصور بدار الكتب الملكية بالقاهرة برقم ١٥٨٤ تاريخ

٢١ - القضاعي (+ ٤٥٤هـ و ١٠٦٢م) : القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة بن خضر الشافعي المذهب
« عيون المعارف وفنون أخبار الخلايف » مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة برقم ١٧٧٩ تاريخ .

٢٢ - الكندي (+ ٣٥٠هـ و ٩٦١م : أبو عمر محمد بن يوسف
« فضائل مصر » مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة برقم ٧٥٣ تاريخ

٢٣ - ابن مظهر : العلامة حسن بن يوسف المشهور بالحلى .
« مختلف الشيعة فى أحكام الشريعة » مخطوط بمكتبة جامعة فواد الأول برقم ٢١٥٣٧ .

٢٤ - النعمان (+ ٣٦٣ هـ و ٩٧٤ م) : أبو حنيفة محمد بن حيون المغربى
(ا) أساس التأويل الباطن ، مخظوط بمدرسة الدراسات الشرقية بلندن برقم ٢٥٧٣٤ .

٢٥ - (ب) «إفتتاح الدعوة» مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول برقم ٢٤٠٨٨ وقد أعارنى إياه بلندن جناب الأستاذ الدكتور B. Lewis المستشرق بجامعة لندن (بمدرسة الدراسات الشرقية) .

٢٦ - (ح) « المجالس والمسايرات » مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول برقم ٢٦٠٦٠ (ثلاث مجلدات) .
وبمدرسة الدراسات الشرقية بلندن برقم ٢٥٧٣٧ وبه الأجزاء من ١١ إلى ٢٨

٢٧ - (د) « تربية المؤمنين » مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول برقم ٢٤٠٨٨ وبمدرسة الدراسات الشرقية بلندن برقم ٢٥٧٣٦ .

٢٨ - (هـ) « دعائم الإسلام فى الحلال والحرام والقضايا والأحكام من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله » مخطوط بدار الكتب

الملكية بالقاهرة برقم ب ١٩٦٦٥ وبمدرسة الدراسات الشرقية بلندن برقم ٢٥٧٣٥ .

٢٩ - (و) « شرح الأخبار » مخطوط بدار الكتب الملكية بالقاهرة برقم ٧٠٦٢ ح .وبمدرسة الدراسات الشرقية بلندن برقم ٢٥٧٣٢ .

٣٠ - (ز) « كتاب الهمة فى آداب الأئمة » مخطوط أعارنى أياه صديق الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين .

٣١ - النويرى (٧٣٢ هـ و١٣٣٢ م) : شهاب الدين احمد بن عبد الرحمن « نهاية الأرب فى فنون الأدب » مخطوط مصور بدار الكتب الملكية بالقاهرة برقم ٥٤٩ معارف عامة جـ ١٦

ثانيا — مصادر عربية مطبوعة

٣٢ - الأبشيهى : العلامة الشيخ شهاب الدين أحمد . عاش حوالى القرن التاسع الهجرى .
« المستطرف فى كل فن مستظرف » مطبوع بدار الكتب الملكية برقم ٢٨٠ أدب (جزءان فى مجلد)

٣٣ - ابن الأثير (+ ٦٣٠ هـ و ١٢٣٨ م) : على بن احمد بن أبى الكرم
(ا) « الكامل فى التاريخ » (بولاق ١٢٧٤ هـ) ١٢ جزءا

٣٤ - (ب) « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » (بولاق ١٢٧٤هـ) ٥أجزاء

٣٥ - أحمد أبو الفتح بك : صاحب العزة فضيلة الأستاذ المرحوم الشيخ
(ا) « المختارات الفتحية فى تاريخ التشريع والفقه» (القاهرة١٩٢٤م)

٣٦ - (ب) « كتاب المعاملات فى الشريعة الإسلامية والقوانين المصرية » (القاهرة ١٩٢٣ م)

٣٧ - أحمد أمين بك : صاحب العزة الأستاذ
(ا) « ضحى الاسلام » (القاهرة ١٩٣٣ م)

٣٨ - (ب) « ظهر الاسلام » (القاهرة ١٩٤٥ م)

٣٩ - (ح) «فجر الاسلام» (القاهرة ١٩٢٨ م).

٤٠ - أحمد بن تيميه (+ ٧٢٨ هـ و ١٣٢٧ م): الأستاذ العلامة
«الحسبة فى الاسلام أو وظيفة الحكومة الاسلامية» (القاهرة ١٣١٨ هـ)

٤١ - أحمد عيسى بك: الأستاذ الدكتور
«تاريخ البيمارستانات فى الاسلام» (دمشق ١٣٥٧ هـ)

٤٢ - ابن اياس (+ ٩٣٠ هـ و ١٥٢٣ م): ابو البركات محمد بن أحمد
«كتاب تاريخ مصر» المعروف «ببدائع الزهور» (بولاق ١٣١١ هـ — ١٣١٢ هـ) ٣ أجزاء

٤٣ - الأيوبى: الأستاذ المرحوم الياس
(ا) «الفاطميون» مطبوعة على الآلة الكاتبة اعارتنى اياها حضرة السيدة ابنته الدكتورة نعيمة الايوبى (جزءان)

٤٤ - البخارى (+ ٢٥٦ هـ و ٨٦٩ م): الامام المحقق
«صحيح مسلم» (الطبعة الأولى سنة ١٣٥١ هـ) ٤ أجزاء

٤٥ - بخيت: الأستاذ المرحوم الشيخ محمد
«ارشاد الأمة فى أحكام الحكم بين أهل الذمة» (مصر ١٣٤٧ هـ)

٤٦ - بدوى: الأستاذ الدكتور على بك
«الأحكام العامة فى القانون الجنائى» (القاهرة ١٩٣٨ م)

٤٧ - البغدادى (+ ٤٢٩ هـ و ١٠٣٧ م): ابو منصور عبد القاهر بن طاهر
«الفَرْق بين الفِرَق» (القاهرة ١٩١٠)

٤٨ - البكرى (+ ٤٨٧ هـ و ١٠٩٧ م): ابو عبيد عبد الله بن عبد العزيز
«كتاب المُغْرب فى ذكر بلاد أفريقة والمغرب» طبعة دى سلين De Slane (الجزائر ١٨٥٧ م)

٤٩ - البلاذرى (+ ٢٧٩ هـ و ٨٩٢ م): أحمد بن يحيى بن جابر
«فتوح البلدان» (القاهرة ١٣١٩ هـ)

٥٠ - بيرم : الأستاذ مصطفى
«الجامع الأزهر» (القاهرة ١٣٢١ هـ)

٥١ - الترمذى : الامام المحقق (+ ٢٧٣ هـ و ٨٨٣ م)
«جامع الترمذى أو الجامع الصحيح» (دلهى ١٣٠٨ هـ) جزءان فى مجلد واحد

٥٢ - التنوخى (+ ٣٨٤هـ و ٩٩٤م) : أبو على المحسن بن على بن محمد بن أبى الفهم
«كتاب جامع التواريخ، المسمى «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة» (طبعة أمين هندية بمصر)

٥٣ - تيمور : حضرة صاحب السعادة أحمد باشا
«نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة» (القاهرة ١٣٥١ هـ)

٥٤ - ابن تيمية الجد (+ ٦٥١ هـ و ١٢٥٤ م) : العلامة مجد الدين
«كتاب المنتقى من الأحكام» (دلهى ١٣٣٧ هـ)

٥٥ - الجهشيارى (+ ٣٣١ هـ و ٩٤٢ م) : أبو عبد الله محمد بن عبدوس
«كتاب الوزراء والكتاب» (فينا ١٩٢٦ م)

٥٦ - جورجى زيدان : الأستاذ (+ ١٣٣٢ هـ و ١٩١٤ م)
«تاريخ التمدن الاسلامى» (القاهرة ١٩٠٢ - ١٩٠٦ م) خمسة اجزاء

٥٧ - ابن حجر العسقلانى (+ ٨٥٣ هـ و ١٤٤٩ م) : شهاب الدين بن على
«الإصابة فى تمييز الصحابة» (القاهرة ١٣٢٣ هـ) ٨ أجزاء فى أربع مجلدات

٥٨ - ابن حزم (+ ٤٥٦ هـ و ١٠٦٤ م) : ابو محمد على بن أحمد
(ا) «الأحكام فى أصول الأحكام» (مطبعه الخانجى ١٣٤٧ هـ) ٨ أجزاء فى مجلدين

٥٩ - (ب) «الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل» (القاهرة ١٣١٧ هـ) ٥ أجزاء فى مجلدين

٦٠ – ابن حوقل (نبغ فى ٣٦٧ هـ و ٩٧٧ م) : أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادى الموصلى الجغرافى
« المسالك والممالك » (ليدن ١٨٧٣ م)

٦١ – حسن ابراهيم حسن : الأستاذ الدكتور
(ا) « الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » (القاهرة ١٩٣٢ م)

٦٢ – (ب) « النظم الاسلامية » (القاهرة ١٩٣٩ م)

٦٣ – (حـ) « تاريخ الاسلام السياسى » (القاهرة ١٩٤٥ م) الجزء الثانى

٦٤ – الحِلّى : العلامة الحسن بن مظهر
« مُنْيَة اللبيب فى شرح التهذيب » (لكنو ١٣١٥ هـ) بدار الكتب الملكية بالقاهرة برقم ٢٧ أصول فقه الشيعة

٦٥ – ابن خرداذبه (ولد حوالى سنة ٣٠٠ هـ و ٩١٢ م) : أبو القاسم عبيد القاسم بن عبد الله
« المسالك والممالك » (ليدن ١٣٠٦ هـ)

٦٦ – ابن خلدون (+ ٨٠٨ هـ و ١٤٠٥ م) : عبد الرحمن بن محمد
(ا) « مقدمة ابن خلدون » (بيروت ١٨٧٩ م)

٦٧ – (ب) « العبر وديوان المبتدأ والخبر » (القاهرة ١٢٨٤ هـ) ٧ أجزاء

٦٨ – الخضرى (+ ١٣٤٥ هـ و ١٩٢٧ م) : صاحب الفضيلة الأستاذ المرحوم الشيخ محمد بك
(ا) « أصول الفقه » (القاهرة ١٣٢٩ هـ)

٦٩ – (ب) « تاريخ التشريع الاسلامى » (القاهرة ١٩٢٦ م)

٧٠ – ابن خلكان (+ ٦٨١ هـ و ١٢٨١ م) : شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر الشافعى
« وفيات الأعيان » (بولاق ١٢٨٣ هـ) جزءان

٧١ — أبو داود (+ ٢٧٣ هـ و ٨٨٦ م) : الإمام المحقق .
« سنن أبي داود » (لكنو ١٣٠٥ هـ) جزءان .

٧٢ — ابن دقماق (+ ٧٠٩ هـ و ١٤٠٦ م) : ابراهيم بن محمد المصرى .
« الانتصار لواسطة عقد الأمصار » (القاهرة ١٣٠٩ هـ) الأجزاء ٤ و ٥

٧٣ — رانسون : الأستاذ ج .
« فن القضاء » L'Art de Juger (باريز ١٩١٢ م) وترجمه حضرة صاحب العزة الأستاذ محمد رشدى بك مستشار سابق .

٧٤ — زغلول : الأستاذ أحمد فتحى باشا .
« المحاماة » (القاهرة ١٩٠٠ م) .

٧٥ — زكى عبد المتعال : الأستاذ الدكتور .
« تاريخ النظم السياسية والقانونية والاقتصادية » (القاهرة ١٩٣٥ م)

٧٦ — زكى محمد حسن : الأستاذ الدكتور .
(ا) « فى مصر الإسلامية » ومعه غيره (مطبعة المقتطف ١٩٣٧م)

٧٧ — (ب) « كنوز الفاطميين » (القاهرة ١٩٣٧) .

٧٨ — الزينى : المرحوم الأستاذ الدكتور على بك
« القانون الدولى الخاص المصرى والمقارن » (القاهرة ١٩٢٨م) .

٧٩ — السرخسى (+ ٤٨٣ هـ وقيل ٤٨٦ هـ و ١٠٩٠ م وقيل ١٠٩٣م) . الإمام شمس الدين .
« المبسوط » (القاهرة ١٣٢٤ هـ) ٣٠ جزءاً .

٨٠ — ابن سعيد (+ ٦٧٣ هـ و ١٢٧٥ م) : على بن موسى المغربى .
« كتاب المغرب فى حلى المغرب » (ليدن ١٨٩٨ — ١٨٩٩ م) .

٨١ — سكاكينى : الأستاذ خليل مترجم كتاب
« من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام » الجزء الأول « من تاريخ الحركات الاجتماعية » لمؤلفه بندلى جوزى Pendelli josé .

٨٢ — السلاوى (من علماء أول القرن الـ ١٤ هـ والـ ١٩ م) : العلامة أحمد ابن خالد الناصرى
« الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى » (القاهرة ١٣١٢هـ) جزءان .

٨٣ — السنهورى : صاحب المعالى الأستاذ الدكتور عبد الرزاق أحمد باشا
« وصية غير المسلم لا تجوز إلا فى الثلث ولغير وارث » مذكرة بدفاع مقدمة عن حكم لمحكمة النقض والإبرام المصرية فى ٢١ يونية سنة ١٩٢٤ م .

٨٤ — السيوطى (+ ٩١١هـ و ١٥٠٥ م) : العلامة عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين .
(ا) « الجامع الصغير فى حديث البشير النذير » (مصر ١٣٢١هـ) جزءان فى مجلد واحد .

٨٥ — (ب) « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » (طبعة حسين شرف) جزءان فى مجلد واحد .

٨٦ — أبو شامة (+ ٦٦٥ هـ و ١٢٦٧ م) : عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبى شامة
« كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين » (القاهرة ١٢٨٧ هـ) .

٨٧ — شمعون : الأستاذ م . حاى بن
« الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للإسرائيليين » (القاهرة ١٩١٢ م) جزءان فى مجلد واحد .

٨٨ — الشهرستانى (+ ٥٤٨ هـ و ١١٥٣م) : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم
« الملل والنحل » (القاهرة ١٣١٧ هـ) ٥ أجزاء فى مجلدين وهو بهامش كتاب « الفِصَل فى الملل والنحل » لابن حزم .

٨٩ — ابن أبى أصَيْبعة (٦٦٧ هـ و ١٢٧٠ م) . أبو العباس بن القاسم ابن خليفة موفق الدين

« كتاب عيون الأنباء فى أخبار الأطباء » (القاهرة ١٢٩٩ - ١٣٠٠ هـ) جزءان .

٩٠ - ابن الصيرفى (+ ٥٤٢ وقيل ٥٥٠ هـ و ١١٤٧ م وقيل ١١٥٥م) :
أبو القاسم على بن منجب الشهير بابن الصيرفى المصرى
« الاشارة إلى من نال الوزارة » (القاهرة ١٩٢٤ م) .

٩١ - ابن طباطبا (ولد ٦٦٠هـ و ١٢٦١م) وأتم كتابه سنة ٧٠١هـ و ١٣٠١م
«الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية» (الرحمانية بمصر)

٩٣ - الطبرى (+ ٣١٠ هـ و ٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير .
(ا) « تاريخ الأمم والملوك » (الحسينية بمصر) .

٩٣ - (ب) « جامع البيان فى تفسير القرآن » (المطبعة الأميرية) ٣٠ جزءاً

٩٤ - طوسون : سمو الأمير المرحوم عمر .
«كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن» (الإسكندرية ١٩٣١م)

٩٥ - ابن عابدين (+ ١٢٥٢ هـ و ١٨٣٦ م) : محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز بن أحمد بن عبد الرحيم بن نجم الدين بن صلاح الدين .
« رد المحتار على الدر المختار شرح الأبصار » (طبعة القاهرة) .

٩٦ - ابن عبد ربه (+ ٣٤٩ هـ و ٩٤٠م) : شهاب الدين أحمد
« العقد الفريد » (القاهرة ١٩١٨ م) أربعة أجزاء فى مجلدين .

٩٧ - ابن عذارى المراكشى (نبغ فى أواخر القرن الـ ٧ هـ و الـ ١٣ م) :
العلامة أبو عبد الله محمد
« البيان المغرب فى أخبار المغرب » طبعة دوزى Dozy (ليدن سنة ١٨٤٨ م) .

٩٨ - على إبراهيم حسن : الأستاذ الدكتور .
(ا) « تاريخ جوهر الصقلى » (القاهرة ١٩٣٣ م) .

٩٩ - (ب) « دراسات فى عصر المماليك الناصر محمد سيرته ونظم الحكم فى عهده » رسالة للدكتوراه سنة ١٩٤٤ .

١٠٠ — ابن عرنوس : الأستاذ الشيخ محمود بن محمد .
« تاريخ القضاء فى الإسلام » (القاهرة ١٩٣٤ م) .

١٠١ — على مبارك باشا : حضرة صاحب السعادة المرحوم
« الخطط التوفيقية » (بولاق ١٣٠٦ ﻫ) ٢٠ جزءاً .

١٠٢ — عنان : الأستاذ محمد عبد الله
(ا) « الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية » (القاهرة ١٩٣٧م)

١٠٣ — (ب) « تاريخ الجامع الأزهر فى العصر الفاطمى » (القاهرة ١٩٤٢م)

١٠٤ - (ح) « مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية » (القاهرة ١٩٣١م)

١٠٥ — الغزالى (+ ٥٠٥ ﻫ و ١١١١م) : الأستاذ العلامة
« كتاب احياء علوم الدين » (المطبعة الأميرية ١٢٨٩ ﻫ) ٤ أجزاء
فى ٤ مجلدات

١٠٦ — أبو الفدا (+ ١٣٣١ﻫ٧٣٢م) : اسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه
« المختصر فى أخبار البشر » (الطبعة الأولى — الحسينية بمصر) ٤
أجزاء فى مجلد واحد

١٠٧ — قاضى زاده (+ ٩٨٨ ﻫ و ١٥٨٠ م) : العلامة شمس الدين احمد بن
قرده المعروف بقاضى زاده الحنفى المذهب
« فتح القدير » (مصر ١٣١٩ ﻫ)

١٠٨ — ابن قدامه (+ ٦٢٠ ﻫ و ١٢٢٣ م) : العالم الكبير موفق الدين
« المغنى » (المنار ١٣٤٧ ﻫ) ١٢٠ جزءاً فى ١٢ مجلد

١٠٩ — القرطبى (+ ٦٧١ﻫ و ١٢٧٢ م) : أبو عبدالله محمد بن احمد الانصارى
« الجامع لأحكام القرآن » (دار الكتب ١٩٣٣ — ١٩٣٤) جزءان

١١٠ — القلقشندى (+ ٨٢١ ﻫ و ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد
« صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » (القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٧ م)
١٤ جزءاً

١١١ — ابن القيم الجوزية (+ ٢٥١ هـ و ٨٦٥ م) : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعى الحنبلى المذهب

(ا) « أعلام الموقعين عن رب العالمين » (دلهى ١٣١٣ هـ) جزءآن

١١٢ — (ب) « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية (القاهرة ١٣١٧ هـ)

١١٣ — الكاسانى (+ ٥٨٧ هـ و ١١٩١ م) : أبو بكر بن مسعود بن احمد ويعرف أيضا بالكاشانى

« بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع » (مصر ١٣٢٨هـ) ٧ أجزاء فى ٧ مجلدات

١١٤ — آل كاشف الغطاء : العلامة الشيخ محمد الحسين

« كتاب أصل الشيعة وأصولها » (الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٤٤ م)

١١٥ — ابن كثير : العلامة أبو الفدا اسماعيل بن عمر القرشى (+ ٧٧٤هـ)

« البداية والنهاية فى التاريخ »

١١٦ — كرد على : الأستاذ العلامة محمد

« الإسلام والحضارة العربية » (القاهرة ١٩٣٤ م)

١١٧ — الكليتى (+ ٣٢٨ هـ و ٩٣٩ م) : العلامة محمد بن يعقوب وهو عند الشيعة كالبخارى عند أهل السنة

« كتاب الكافى » (فارس ١٢٨١ هـ) ٣ أجزاء الأول فى الأصول والثانى والثالث فى الفروع

١١٨ — الكندى (+ ٣٥٠ هـ و ٩٦١ م) : أبو عمر محمد بن يوسف

« كتاب الولاة والقضاة » به ذيل مأخوذ معظمه من كتاب رفع الإصر لابن حجر العسقلانى طبعة جست guest (بيروت ١٩٠٨م)

١١٩ — مالك (+ ١٧٩ هـ و ٧٩٥ م) : الامام المحقق

« الموطأ » (دلهى ١٣٠٧ هـ)

١٢٠ — ماهر : حضرة صاحب المقام الرفيع الأستاذ الدكتور على باشا

« القانون الدولى العام » (القاهرة ١٩٢٤ م)

١٢١ – الماوردى (+ ٤٥٠ هـ و١٠٥٨ م) : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب المصرى
« الأحكام السلطانية » (القاهرة ١٩٠٩)
١٢٢ – أبو المحاسن (+ ٨٧٤ هـ و ١٤٦٩ م) : جمال الدين بن يوسف بن تغرى بردى
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » (القاهرة ١٩٢٩ م)
١٢٣ – متز : الأستاذ آدم
« الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » ترجمة الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده (القاهرة ١٩٤٠ م)
١٢٤ – محمد كامل مرسى باشا : حضرة صاحب السعادة الأستاذ الدكتور
« الملكية العقارية فى مصر وتطورها التاريخى من عهد الفراعنة حتى الآن » (القاهرة ١٩٣٦) .
١٢٥ – مسكويه (+ ٤٢١ هـ و ١٠٣٠ م) : أبو على أحمد بن محمد .
« كتاب تجارب الأمم » (القاهرة ١٩١٥ م) .
١٢٦ – مشرفة : الأستاذ الدكتور عطية مصطفى .
« القضاء فى الإسلام » (القاهرة ١٩٣٩ م) .
١٢٧ – مصلحة البريد : وضعته بمناسبة انعقاد مؤتمر البريد العالمى العاشر بالقاهرة .
« تاريخ البريد فى مصر » (القاهرة ١٩٣٤ م) .
١٢٨ – المقريزى (+ ٨٤٥ هـ و ١٤٤١ م) : تقى الدين أحمد بن على .
(ا) « اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا » (بيت المقدس ١٩٠٨ م) .
١٢٩ – (ب) « إغاثة الأمة بكشف الغمة » (القاهرة ١٩٤٠ م) صححها ووضع حواشيها الأستاذان زيادة والشيال .
١٣٠ – (حـ) « السلوك فى معرفة دول الملوك » (دار الكتب المصرية) صححها ووضع حواشيها الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة .

١٣١ – المقدسى (+ ٣٨٧ هـ و ٩٩٧ م) : شمس الدين ابو عبد الله محمد
«أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» (ليدن ١٩٠٦ م)

١٣٢ – ابن مماتى (+ ٦٠٦ هـ و ١٢٠٩ م) : شرف الدين أبى المكارم بن أبى سعيد
كتاب قوانين الدواوين» (مطبعة الوطن ١٢٩٩ هـ)

١٣٣ – ابن ميسر (+ ٦٧٧ هـ و ١٢٧٨ م) محمد بن على بن يوسف بن جلب
«تاريخ مصر» طبعة هنرى ماسيه Henri Massé (القاهرة ١٩١٩م)

١٣٤ – نظام : الشيخ العلامة وجماعة من العلماء آخرين بالهند برياسته
«الفتاوى الهندية» (بولاق ١٣١٠ – ١٣١١ هـ) ٦ أجزاء فى ٦ مجلدات

١٣٥ – النعمانى : الأستاذ شبلى
«كتاب الجزية» (القاهرة ١٣١٢ هـ)

١٣٦ – النكدى : الأستاذ عارف
«القضاء فى الإسلام» محاضرة ألقاها فى نادى المجمع العلمى العربى
(دمشق ١٩٢٢ م)

١٣٧ النسفى : ابو البركات عبد الله بن احمد المعروف بحافظ الدين النسفى
(ا) «التوضيح مع التلويح» (القاهرة ١٣٠١ هـ)

١٣٨ – (ب) «شرح المنار وحواشيه» (بولاق ١٣١٦ هـ)

١٣٩ – ابن هشام (+ ٢١٨ هـ و ٨٣٣ م) : أبو محمد عبد الله
«كتاب سيرة رسول الله» (طبعة وستنفلد Wüstenfeld ١٨٥٨ – ١٨٦٠م)

١٤٠ – يحيى بن سعيد الانطاكى (+ ٤٥٨ هـ و ١٠٦٦ م)
«تاريخ الذيل» الذى صنفه يحيى بن سعيد بن يحيى الانطاكى تبعاً
لتاريخ سعيد بن بطريق (طبعة R. Basilius)

١٤١ – اليعقوبى (+ ٢٨٢ هـ و ٨٩٥ م) : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر
ابن وهب بن واضح
(ا) تاريخ اليعقوبى طبعة هوتسما Houtama (ليدن ١٨٨٣ م)

١٤٢ — (ب) «كتاب البلدان» طبعة دى غويه De Goeje (ليدن ١٨٩١ م)

١٤٣ — أبو يوسف (+ ١٩٢ هـ و ٨٠٧ م) : يعقوب بن ابراهيم الانصارى صاحب الإمام أبى حنيفة

«كتاب الخراج» (بولاق ١٣٠٢ هـ)

ثالثا — مصادر أفرنجية مطبوعة

144. Abu Saleh,
The Churches & Monasteries of Egypt & Some Neighbouring.
Countries (Edited & Translated by Evetts, Oxford 1895).

145. Ameer Ali Sayed,
A Short History of Saracens (London 1934).

146. Arminjon (Pierre),
La Situation Economique et Financière de L'Egypte (Paris 1911).

147. Arnold : Prof. Sir Th. W.,
(A) The Caliphate (Oxford 1924).

148. (B) The Preaching of Islam (Westminister 1896).

149. Barakat, Son Excellence Dr. Mohamed Bahy El Din Pacha,
Des Privilèges et Immunités dont Jouissent les Etrangers en Egypte vis a vis des autorités Locales (Paris 1913).

150. Boghdadi Dr. H ,
Origine et Technique de la Distination des staxtus personnel et Reel en Egypte (Caire 1937).

151. De Lacy, S.,
Exposé de la Religion des Druzes. 2 Vols (Paris 1838).

152. Dussaud,
Histoire et Religion des Nosairis (Paris 1900).

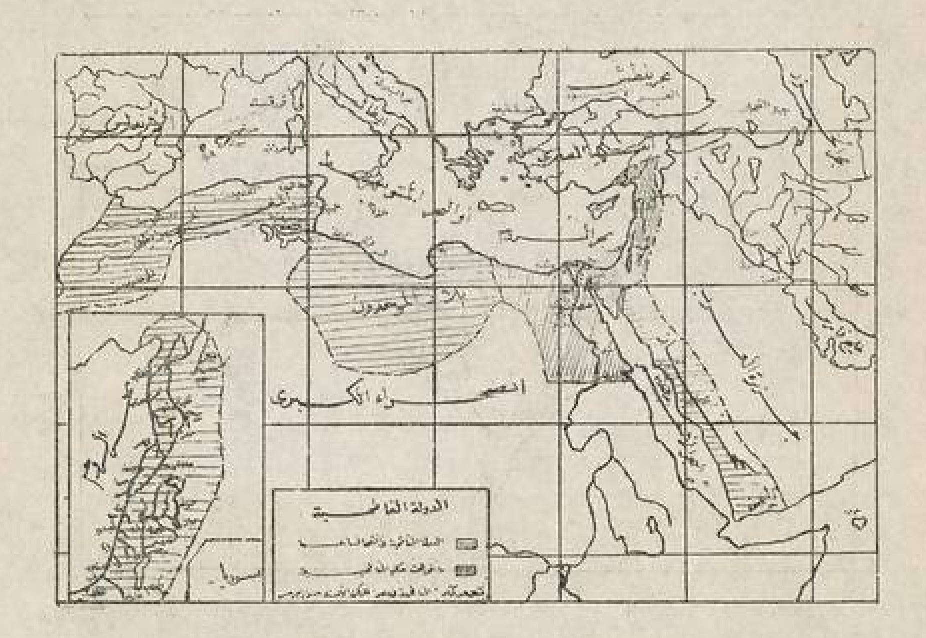
153. Fischel W. J.,
Jews in the Economic & Political life of Mediaeval Islam (London 1937).

154. Graetz H.,
History of the Jews from the earliest times to the present day 5 vols (London 1892).

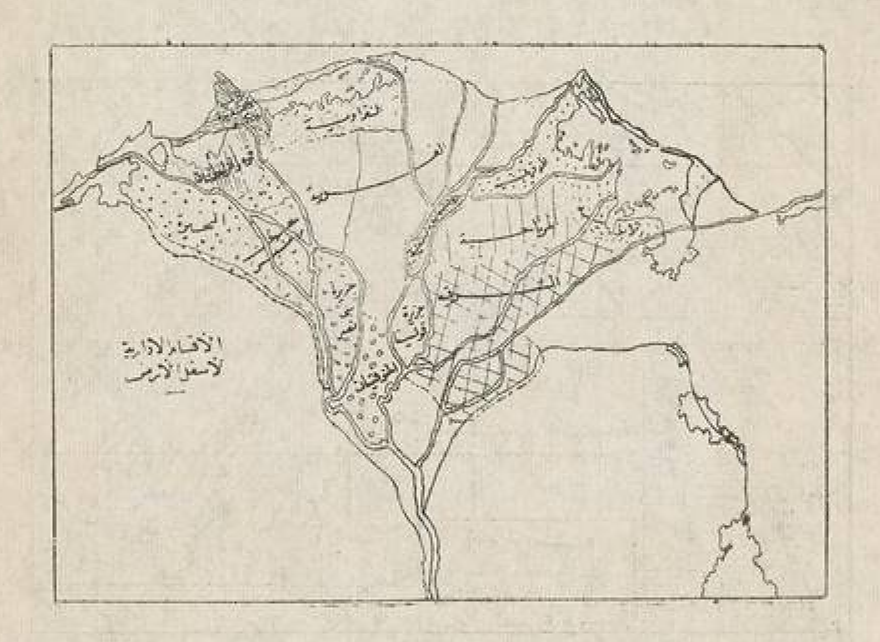
155. Heyd (W. Von),
Histoire du Commerce du Levant (Leipzig 1923).

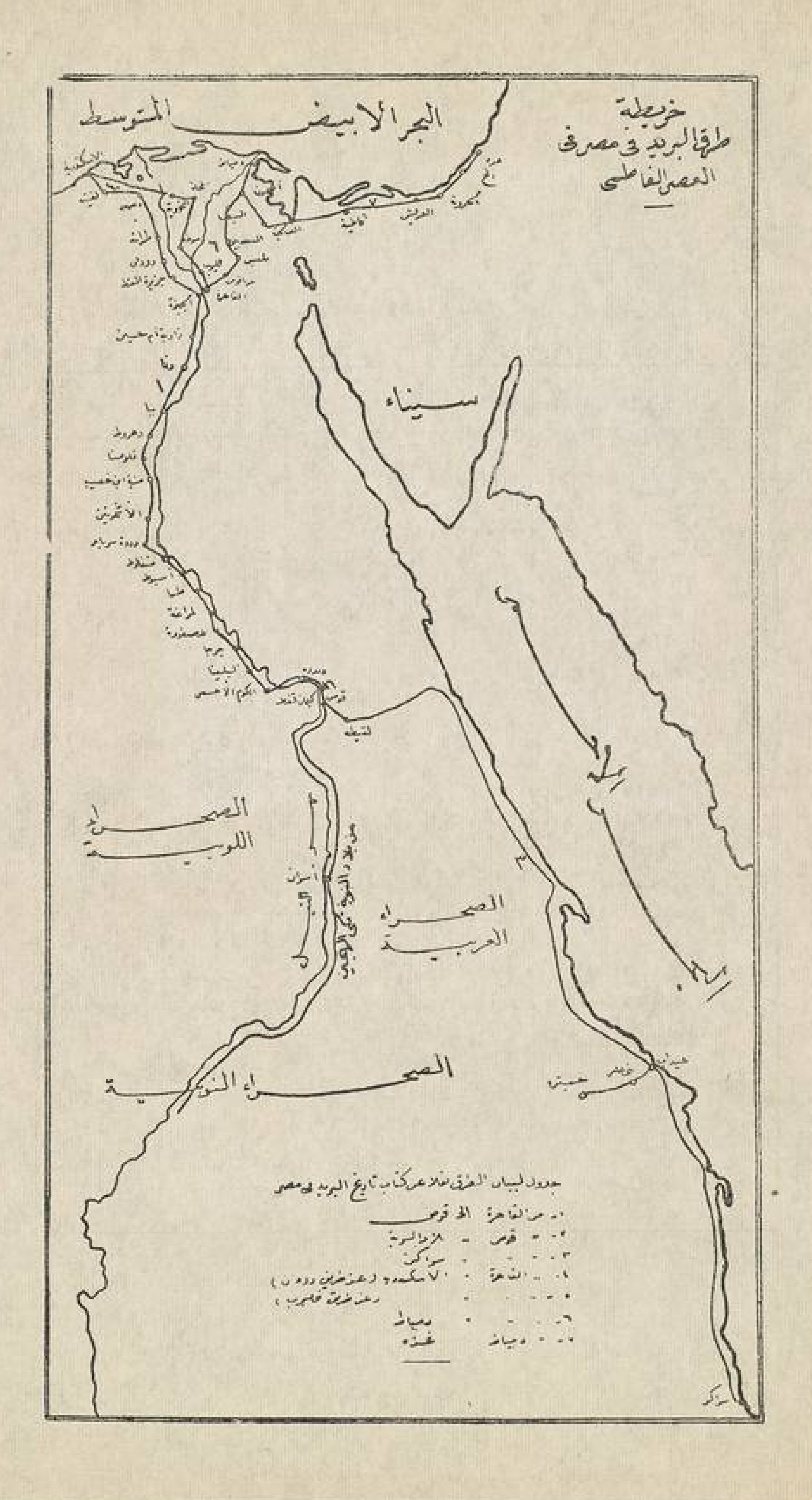
156. Hitti (Ph. K.),
The History of the Arabs (London 1940).

157. Ivanow W.,
(A) A Creed of the Fatimids (Bombay 1936).
158. (B) A Guide to Ismaili Literature (London 1933).
(C) Ismaili Tradition concerning the Rise of the Fatimids (London 1942).
160. (D) Nasiri Khusraw & Ismailism (Bombay 1948).
161. Lane-Pool : Prof. Stanley,
(A) A History of Egypt in the Middle Ages (London 1901).
162. (B) The story of Cairo (London 1924).
163. Mamour P. H.
Polemics on the Origin of the Fatimid Caliphs (London 1934).
164. Mann (J.),
The Jews in Egypt & in Palestine Under the Fatimid Caliphs (Oxford 1920).
165. Metz (Adam),
The Renaissance of Islam. Trans, into English by Salahudin Khuda Bukhsh & D. S. margoliouth (London 1939).
166 Muir (Sir W.),
The Caliphate, its Rise, Decline & Fall From Original Sources (Edinburgh 1915)
167. Nasiri Khosru (+ 459, 1066),
Relation du Voyage de Nasiri Khosru en Syrie, en Palestine, en Egypte, en Arabie, et en Perse, Pendant les années de L'Hégire 437 - 444, (1035—1042) publié, traduit et annote par charles Schafer (Paris 1881).
168. Nizam Al-Mulk,
Siyasat-Name. Ed. and Trans. C. Schéfer (Paris 1891—7).
169. O Leary (De Lacy),
A Short History of the Fatimid Khalifate (London 1923).
170. Sadighi, G. H.
Les Mouvements Réligieux Iranians (Paris 1938).
171. Quatremère (Et.)
Mémoires Geographiques et Historique sur l'Egypte, et sur quelques contrées voisines (Paris 1811) Vols 1 & 2.
172. Sanhoury, Son Excellence Dr. A. A. Pacha
Le Califat (Paris 1926).
173. Van Berchem,
Corpus Inscriptorum Arabicarum, Egypte. T. I.
174. Wiet (Gaston),
Corpus Incriptorum Arabicarum Egypte. T. II.
175. Zaki (Dr. Mohammed Hassan)
Les Tulunides (Paris 1933).



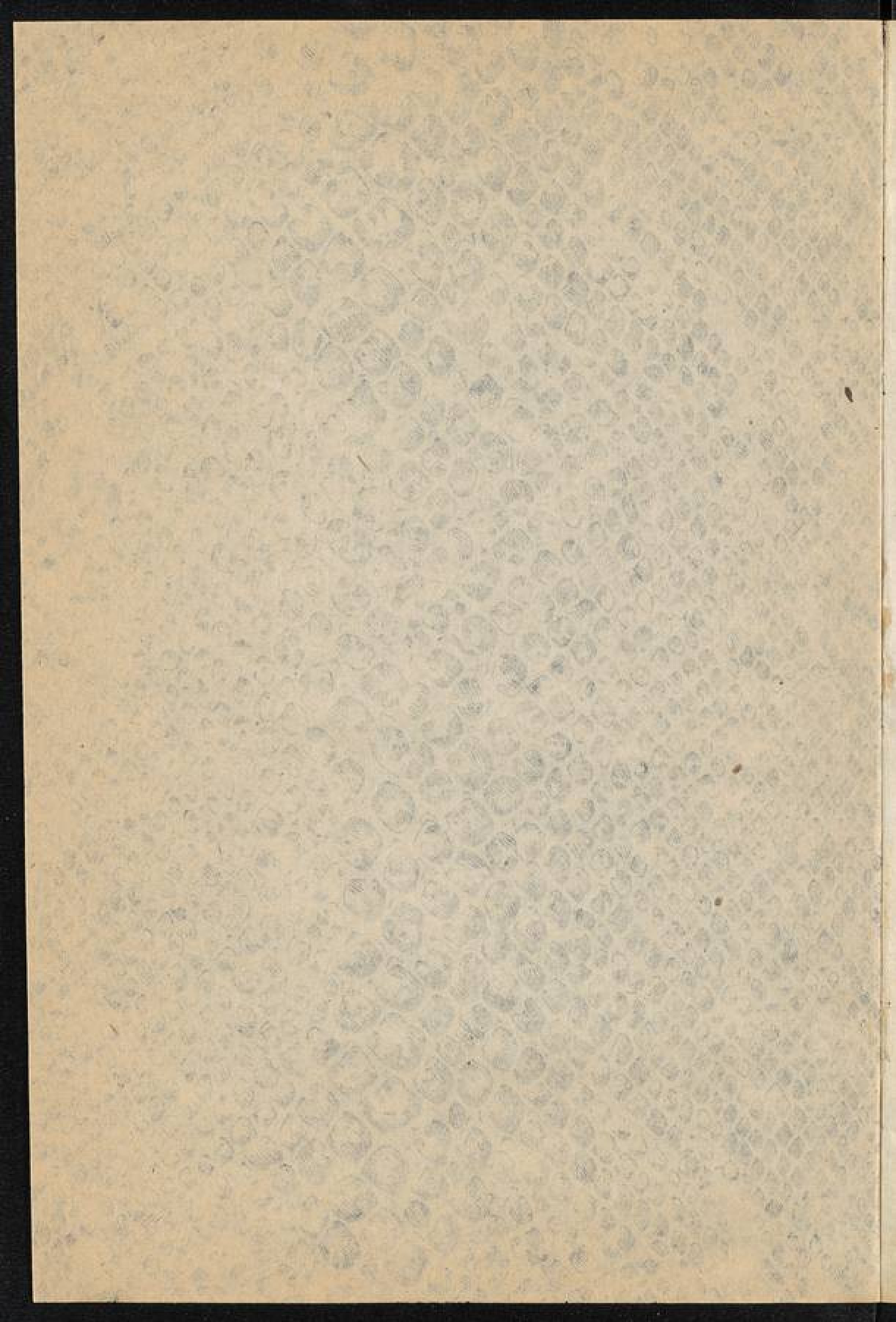
الدولة الفاطمية
الصحراء الكبرى

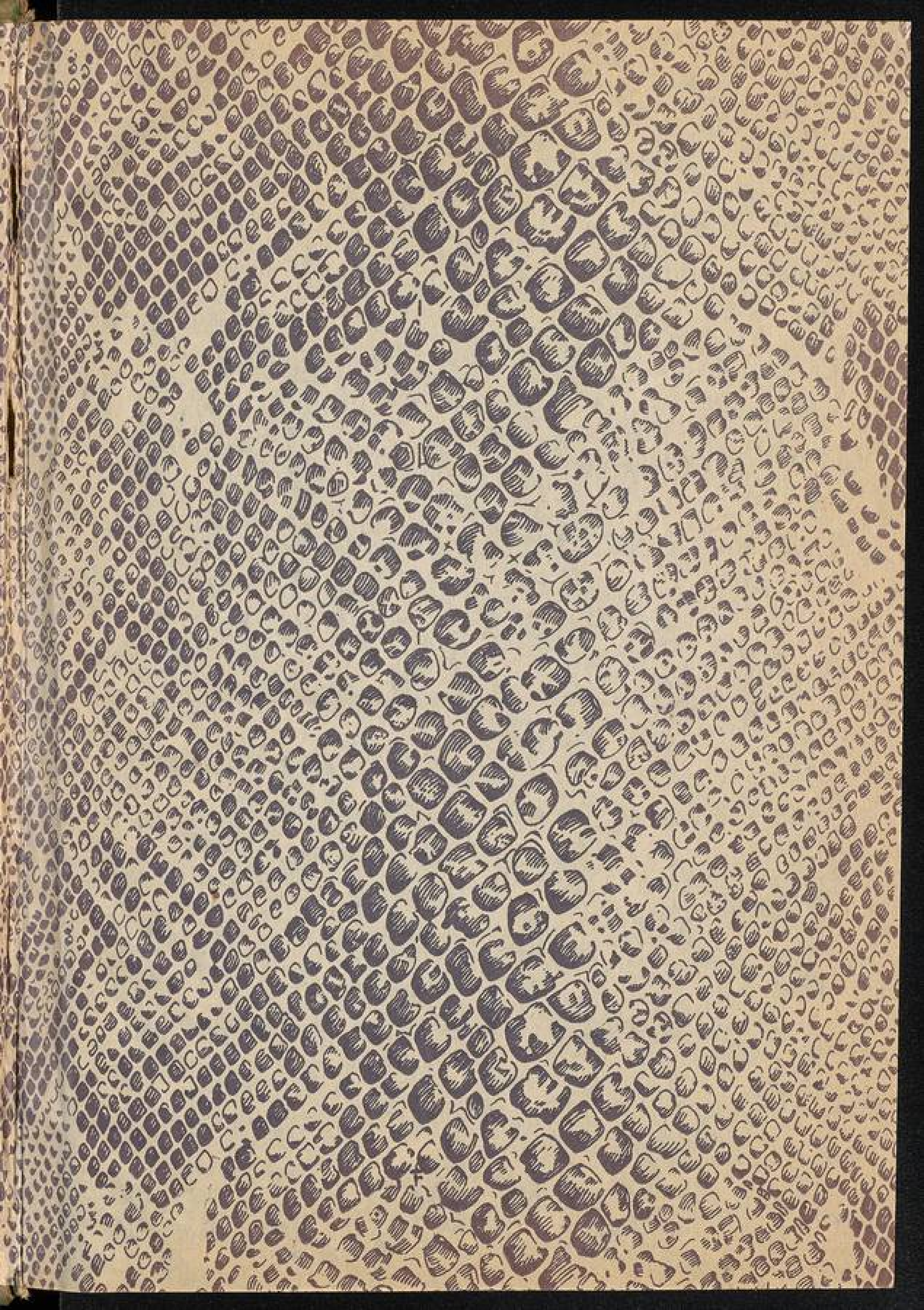

الأقسام الإدارية
لأسفل الأرض

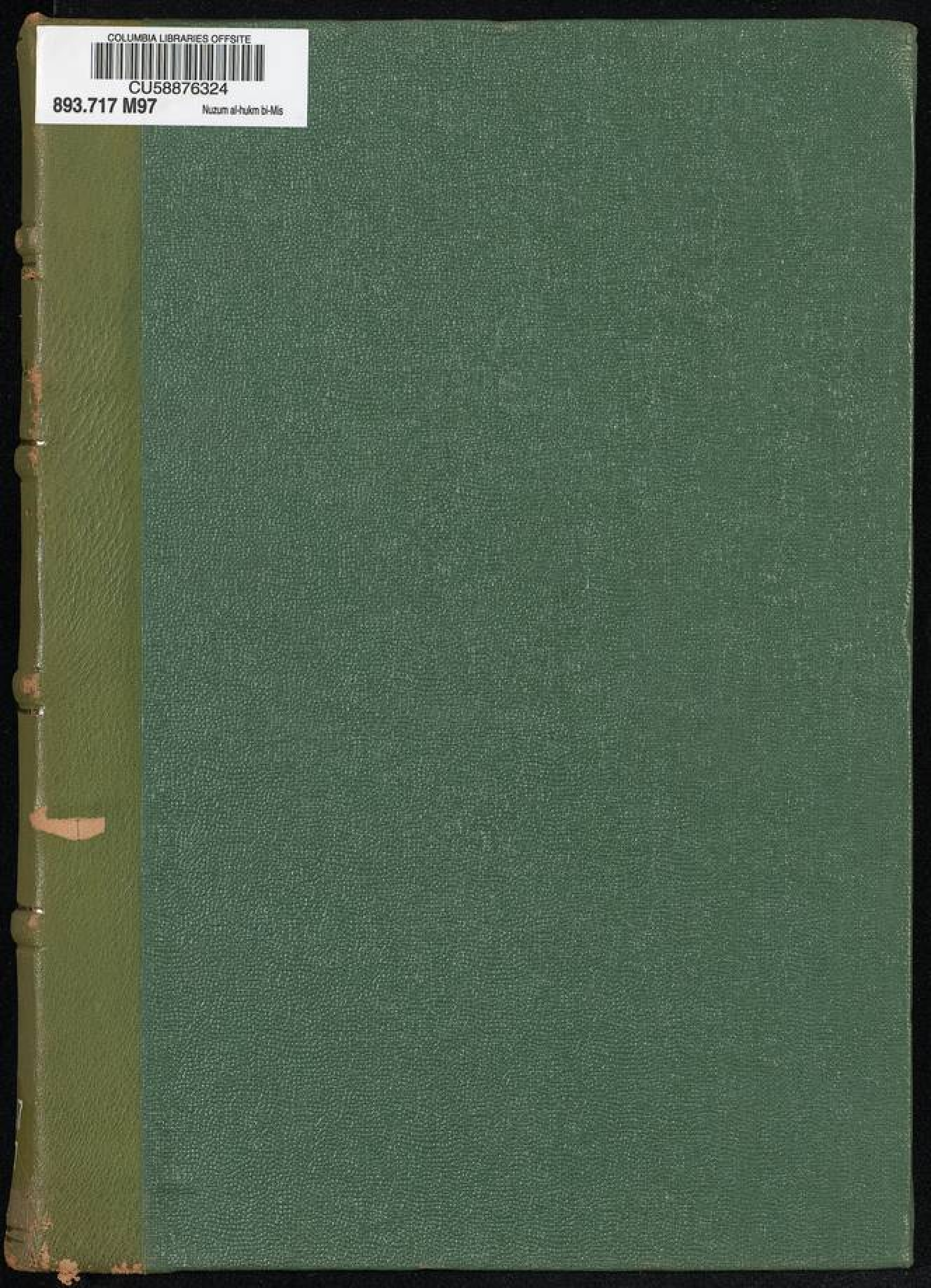

خريطة
طرق البريد في مصر في
العصر الفاطمي
البحر الابيض المتوسط
سيناء
الصحراء الليبية
الصحراء العربية
الصحراء النوبية
جدول لبيان الطرق نقلا عن كتاب تاريخ البريد في مصر

خطأ وصواب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٨	٤	٦٤	٩٤
١٩	١٨	أعدته	اعددته
٣٣	٤	الآمر بأمر الله	الآمر بأحكام الله
٤٤	١٠ من الهامش	O'Leary, A short...	مكررة فتحذف
٥٠	٣	سواء	سواه
٨٦،٨٩	٦ و ٦	الظافر باعداء الله	الظافر بأمر الله
٩٦	هامش ١	———	PP.110 - 162
١١١	هامش١و٢	٤ و ٥	١ و ٢
١١٢	١ من الهامش	الذمى	الذى
١١٨و١٣٦	١ و ٨	العزيز	الوزير
١٢٨	١ من الهامش	الفاضل	الفصل
١٨٦	٨	ح	(٣)
١٩٤	٢	Fruend	Fruendi
١٩٧	١١	لقد	تحذف
١٩٨	١٦	والسكفوو	والسكفور
٢٠٠	١٠	ضراره	اضراره
٢٠٠	١١	ا	ابتزازه
٢٣٠	آخر سطر	المراتب	الرواتب
٢٤١	هامش ٤	السكندى	السكدى
٢٧٤	هامش ٣	principlels	principles
٢٧٥	٤ من الهامش	Parcats	Paris
٣٤٣	٤	السلافطون	السقلاطون
٣٤٥	هامش ٦	moquees	Mosquées
٣٦٨	١ من الهامش	طا	طحا
٣٦٨	٤ من الهامش	والثانى	والشاق
٤٣٠	١	ابن القيم	ابن قيم






COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58876324
893.717 M97
Nuzum al-hukm bi-Mis